



الأندلس

من نفح الطيب

للمقري المتوفى سنة: ١٠٤١هـ = ١٦٣١م

قدمت له

الدكتورة نجاح العطار

وزيرة الثقافة

أعده للنشر اختياراً وترتيباً وتعليقاً

د. عدنان درويش محمد المصري

منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٠


الأندلس
من نفح الطيب

تمهيد

الدكتورة نجاح العطار

الأممُ فئات : فئةٌ تكتُبُ التاريخَ وتقرؤه ، وفئة تقرأ التاريخَ ولا تكتبهُ ، وفئةٌ بَيْنَ بَيْنَ ، أي إنها تكتبُ حيِّزاً من التاريخ ، وتقرأ حيِّزاً منه أيضاً ، وتلك هي سِيَرُ الأممِ الفتيّة ،الطالعةِ على الدُّنيا ، أو الطامحةِ إلى الدُّنيا ، لأنها حديثةُ الوُجود ، فليس لها ، من الدهرِ ، وهو يُعدُّ بملايين السنين ، سوى قُرون ، تبدأ بزمنِ اكتشافِها ، وهو قريب ، لم تُدَوِّنْ فيه من الحَضارة إلا صفحاتٍ قليلات ، إذا ما قيست بغيرِها من الأمم ذاتِ التاريخ العَريق ، التي دوَّنَتْ مجلّداتٍ ومجلّداتٍ ، ومنذ نشوئها ،وتكوُّنها ، وتطوُّرِها ، وانطلاقِها في العالم من حَوْلِها ، بصرفِ النظرِ عن نوعِ هذا الانطلاق ، وما إذا كان حرباً أو سَلْماً ، أو كان انتشاراً حضاريّاً ، أو أخذاً حضاريّاً ، عادتْ هي ، في تدرُّج رُقيِّها ، فطوَّرتْه ، أو قل : خلَقَتْه خلقاً جديداً ، غيرَ مبتوتِ الجذور ، لكنّه تجاوَزَها بكثير ، إذ نما نبتُها الحَضاري ، في أرضِها هي ، بعدَ أن تلقّح هذا النبتُ مستَوْرَداً ، وصار نبتاً مستقرّاً ، من ذاتِ البيئة ، وذاتِ البنيةِ ، وذاتِ النتاج

المُنْتَمي إلى أمّةٍ بعينِها ، أو بلدٍ بعينِه ، في إعادة الإنتاج الذي يُؤَصِّل الأشياءَ تأصيلاً ثابتاً .

فإذا كان التاريخُ ، حسبَ ابنِ خلدُون ، عمراناً ، وهو كذلك حتماً ، فإنَّ الأمةَ العربيةَ ، بما شَيَّدَتْ من عُمران، هي أمة كتبتِ التاريخَ جيّداً ، وقرأتهُ جيّداً ، وتشهَدُ لها هذه الحضاراتُ التي تتكشّف عنها أرضُنا كلَّ يوم ، والتي تعودُ إلى آلافِ الأعوام قبلَ الميلاد ، والتي بناها العربُ في الدّهورِ السحيقَةِ ، وما زالتْ ، قبلَ الميلاد وبعدَه ، شاهدةً على هذه الحضارةِ العربيّةِ الباذخَة ، التي يعرفُها الآثاريّون ، وتحفَظُها الأسفارُ مَتْناً وهامشاً ، تَدْويناً وتحقيقاً ، وتُدرَّسُ في كتبِ التاريخ ، في كلّ جامعاتِ العالم ، وقد ألّف فيها المؤرخون والآثاريون ، وما زالوا يؤلّفون ويؤرخون ، يضيفون ويصوِّبون ، وفْقَ أحدثِ المُكتشفاتِ الأثرية ، ومنها في بلادِنا أوغاريت وماري وإيبلا ، وحضارةُ ما بينَ النهرين ، والحَضارةُ المصرية ، وحضارةُ العَرَبِ الأنباط ، التي هي كلُّها ، في متناولِ الجميع ، بسببٍ من أنّها ، في القرنِ العشرين هذا ، اغْتَنَتْ وأغْنَت ، وعن طريقِها عرفْنا الأبجديةَ المِسْمارية ، العربيةَ ، التي يرَى العلماءُ أنها أمُّ الأبجديات .

إنني هَهنا ، لا أدرُس ، ولا أتتبّع ، ولا أحقّق ، إنما أريد أن أقولَ : إنّ علمَ العُمرانِ الخَلدوني ، هو علمُ الاجتماع الأوروبي ، وإذا كانَ فهمُ العالم ، وفقَ الفلاسفةِ الاشتراكيين ، وحتّى غيرِ الاشتراكيين ، هو فنُّ فهمِ الاقتصاد ، فإنَّ ابنَ خلدون ، قد تقدَّم في هذا ، وتخطّى ، وسبقَ ، فالعُمران ، في آخرِ المطاف ، ليسَ

سوى الاقتصاد ، وهذا ما أرادَه ، وما عناه ، ابنُ خلدون ، الذي أرسى قواعدَ العلوم الاجتماعيّةِ الحديثة ، في وَضْعِ مبادئِها الأولى على الأقل .

ولأنّ الأمةَ الإسبانية ، كالأمةِ العربيّة ، كتبتِ التاريخَ وقرأته ، وانبنَتْ ، في سيرورَةِ حياتِها ، على العُمران ، ومنه حضارتُها ، ومنه إسهامُها الثقافي ، الممعنُ في القِدَم ، والذي تشبّعت به ، وأخذتْهُ ، وصدَّرته إلى أوروبا ، وأمريكا اللاتينية — الإيبيرية — فكانتْ بذلك جِسْراً حَضارياً ، كما كانتْ في ذاتِها موئلاً حضارياً ، فإن الأحداثَ التاريخيةَ والمؤثراتِ الثقافيةَ ، متشابكةٌ ، متداخِلَةٌ ، فاعلةٌ ومُنْفَعِلةٌ ، بينَ الحَضارتين : العربيةِ والإسبانيةِ ، تستدعي منّا دراسةً متكاملة ، متواترةً ، متواصلة ، ولهذا فإننا وجدْنا ضرورةً ، بل ضرورةً ماسة ، لعقدِ ندوةٍ ، في مطلَعِ كانون الأول ١٩٩٠ المقبل ، في دمشقَ ، تحتَ عنوان « الثقافة العربيّةُ — الإسبانية عبرَ التاريخ » دُعِيَ إليها كبارُ العلماءِ العَرَب والإسبان والأجانب ، ونحنُ نعدُّ لها إعداداً حَسَناً ، نأملُ أن يكونَ مستوفياً ، وفي التمهيدِ لهذا الإعداد ، نُصْدِرُ الكتيباتِ والكتبَ التي تتحدّثُ عن الحضارةِ العربيةِ في إسبانيا ، وعن الصلاتِ والعلاقاتِ الثقافية العربيّة — — الإسبانية المتبادَلة ، والمتفاعِلَة ، تأثُّراً وتأثيراً ، ومنها هذا الكتابُ المهمُّ الذي وضع أصلَهُ المقَّريُّ ، أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ يحيَى ، التِّلِمساني المولد ، والذي نَزَل فاس والقاهرةَ وغَرْناطة ، ودمشق،وتنقّلَ بينها ، ثم عزمَ وهو في دمشق على وَضْعِ كتابه الشهير (نَفْحِ الطِّيب من غُصْنِ الأنْدَلُسِ الرطيب) استجابةَ

عرفان بفضل أدباء دمشق ، وتلبية لطلب صديقه الأديب الدمشقي أحمد الشاهيني ، إلا أنه لم تتهيأ له أسباب ذلك .

وحين استقر في القاهرة ، أرسل إليه صديقه الأديب الدمشقي مستبطئاً تأليف الكتاب المنتظر ، فأخذ بإنجاز الوعد ، ووضع كتابه ذاك ، وأداره على قسمين ، جاء قسمه الأول الذي خصه بأخبار الأندلس في خمسة أجزاء حفيلة ، وعززها بخمسة أخرى للقسم الثاني(١) الذي أفرده لسيرة ذي الوزارتين الأديب الشاعر المؤرخ الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب .

وإذا تذكرنا أن الوجود السياسي انحسر عن الأندلس في ريق القرن العاشر للهجرة ، وأن المقري وُلِد في الربع الأخير منه ، فهذا يعني أن صورة الأندلس إذ ذاك كانت ما تزال طرية حية نابضة في الفكر والذاكرة والرؤى والتصورات ، تستثير الاهتمام والحب والتقدير ، وعواطف أخرى كثيرة ، وقد أرفدت عزم المقري المؤلف الذي أراد، بما يتحلى به من منهجية وحب للحقيقة، أن يستعين أيضاً بالمراجع والمظان المتوفرة ، فعاد إليها يدرس ويقبس ويوثق ليكتب كل ما يمتع ويُغني ويعرف بالأندلس وأهلها ، تاريخاً وثقافة وحضارة وعُمراناً واجتماعاً ، ويقدم ما استطاع وصفاً مُفَصلاً موسعاً لأمورها ، والفتح العربي لها ، والعُمران الذي أقاموه فيها ، والعلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين الذين عاشوا في

---

(١) هذه الأجزاء العشرة حسب النشرة التي صدرت في القاهرة بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد سنة : ١٩٤٩ . وثمة نشرة أخرى حديثة بتحقيق الدكتور إحسان عباس صدرت في ثمانية أجزاء عن - دار صادر في بيروت سنة ١٩٦٨ .

بلاطاتِها وقُصورها ، ونقَلوا من المشرق ، عبر المغرب ، إلى الأندلس ، كلَّ ، أو أكثرَ ، نتاجاتِ العرَبِ العلميّةِ والفكريةِ والأدبيّة والفنّية ، ومنَ الأندلس انتقلتْ هذه الكنوزُ المعرفيّةُ إلى أوروبا كلِّها ، على نحوِ ما هو معروف ، لكنَّ انتقالَها تم بعد أن أرستْ ، في التربةِ الأندلسيّةِ ، بذورَها ، فنمتْ هذه البذورُ وأينعَتْ فأورقتْ وأثمرت ، وظلّت قائمةً إلى اليوم ، وظلَّ التلاقحُ الثقافيّ العربيّ — الإسباني ذا حُضُورٍ وفاعلية ، في النتاجاتِ العربيّةِ والاسبانية معاً ، وذا قدرةٍ إبداعيةٍ خلاّقة ، وتأثيراتٍ متبادَلة ، جديرٌ بنا أن نُعْنَى بها ، وأن نُعيدَ سيرتَها ، ونطوِّرَها ، وننشرَها ، وننظرَ فيها دراسةً وبحثاً وتمحيصاً .

ولقد كانَ المتخصّصون السوريّون والعرب ، في الثقافةِ العربية الأندلسيّة ، وفي الأدبِ العربي الأندلسي والموسيقا العربيةِ الأندلسيةِ ، وكلِّ الفنون المتّصلة بذلك، أولَى ، وأدْرَى مني ، بكتابة هذه السّطور في تقديمِ كتاب المقّريّ الذي ننْشرُ أخباراً مختارةً منه مرتبةً على نَسَقٍ ونظامٍ جديدين ، لولا أنَّ مديريةَ نشر وإحياءِ التراثِ في وزارةِ الثقافة ، رغبتْ أن أكتبَ كلمةً هي تمهيدٌ للكتابِ لا مقدّمةٌ له ، لأنَّ نفحَ الطيبِ المعروفَ والمشهور ، بغنىً عنِ المقدّماتِ والتعاريف ... وهكذا استجبتُ لهذه الرّغبة ، واستعنْتُ بما تبقّى في الذاكرةِ من كتابِ المقّريّ ، الذي طالعتُه منذ زمنٍ غيرِ يسير ، كي أقولَ فيه كلماتٍ ، هي دلالاتٌ ، وإشاراتٌ ، وسطور ، ورؤوس أقلامٍ لما تحتويه نشرتنا الجديدة من فصولٍ بلغتْ ستةَ عشرَ فصلاً ، تناولتْ مغانِي الأندلس وموقعَها وثرواتِها وعجائبَها

وسكّانَها ، وفتحَها من قبلِ المسلمين ، والقبائلَ العربيةَ التي نزحَتْ إليها ، وأقاليمَها ، ودولها المتتاليةَ ، وحُكّامَها ، وإدارتَها ، ومجتمعَها وثقافتَها ، وصناعاتِها ، وأعيانَها ، وأعلامَها من النساء ... الخ .

إنّ المقّريّ أبا العباس ، الذي عدّهُ الأدباءُ جاحظَ المغْرِب ، هو جاحِظُه حقّاً وصِدْقاً ، قولاً وفعلاً ، لأنه مثلُ الجاحظِ أبي عُثْمان ، انسيابَ أسلوب ، وطلاوةَ حديث ، وطلبةَ حقيقَة ، ودراسةَ تفصيلاتٍ ، يريدُها عياناً ، وبَياناً ، واختْباراً ، وتقرّياً لَها في مواطِنِها ، ومظانّها ، في الكُتُبِ والواقِع ، في المُشاهدة والتّجْرِبة ، في الرُّؤية والسّماع ، وفي الأخذِ عنِ الثقاتِ ، حتى يبلغَ الغايةَ ، شأنُ الجاحظِ عَمْرِو بنِ بَحْر ، في إتمام وإكمالِ العُدّةِ لموضوعه،يبلُغُ به شأوَه،بعد أن بذَلَ فيه كلّ جَهْدٍ مستطاع .

ويزيدُ في تثمينِنا لكتابِ المقّري هذا ، وتقديرِنا له ، وسعينا إلى نشرِ مختاراتٍ منه ، ما كان للمقّريّ في دمشقَ من أثر ، وما تركَتْ دمشقُ في نفسِه من انطباع ، فقد علِقَ أهلَ الشام وعلِقوه – حسبَ تعبيره – وأعجبَ بهم وبكرَمِهم وأريحيّتِهم وشمائِلِهم وحُسْنِ وفادَتِهم ، وسخاءِ ضيافتهم ، لذلكَ فقد عُنِي بأنْ يذكرَهم في مطلَعِ كتابه ذِكْراً حميداً ، قائلاً : إنّ الفاتحينَ للأندلس ، هم من أهلِ الشام « ذوي النجدةِ والشّوكة الحديدة » وإنّ غالبَ أهلِ الأندلسِ من عرَب الشام الذين « اتّخذوا بالشامِ وَطَنا مستأنَفاً وحَضْرةً جديدةً » وإن غرْناطة التي نزلَ بها أهلُ دمشق ، وسَمّوْها باسْمها ، هي شبهُ دمشقَ في القَصْرِ والنّهر والدّوْحِ والزّهر والغُوطة الفَيْحاء ، وهذه كلُّها وشائجُ قويةُ العُرَى ، شديدةٌ . وقد حفَزَتْني – كما يقول – مَغاني دمشقُ وفضائلُ أهلِها

علىتأليف كتابِ «نَفْحِالطّيب» الذي هو بمثابةِ مَسْحٍ شاملٍلكلّ ما في الأندلسِمنمعالمَ وعوالمَ ومرئيّاتٍ ومؤثراتٍ ثقافية وعُمرانية.

إن الكلمةَ في التدوين ، هي تسجيلٌ صوتيّ على الورَق ، تماماً كما هي الحالُ في التسجيلِ على الأشرطةِ المرئيّةِ والمسموعة ، وصوتُ المدوِّن ــ الكاتبِ ينبعثُ ويبعَثُ معَه ، أصواتَ الأقدمينَ من الأجدادِ والأسلافِ كيما يقصُّوا علينا ، بألْسِنتَيهم التي تستنطِقُها الحروفُ ، كلّ ما كان في زمانِهم ، وكلّ ما دارَ في خَلَدهم ، من قَصَصٍ ورواياتٍ وخواطرَ ، وكلّ ما اكتشفوه ، في شتّى فروعِ العلم والمعرفَة ، وفي ألوانِ الإبداع ، من شعرٍ ونثر ، وفي اللُّقَى الأثرية ، التي كان النقشُ عليها ، رموزاً وصُوَراً هي ، في آخرِ المطافِ ، كلماتٌ ذاتُ أصوات ، رنّتْ عبرَ دهورِهم فبلغَتْ دهرَنا ، وعبرَ عُصُورِهم فبلغتْ عصرَنا ، ومنها أخذْنا ذاكرتَنا التراثيّة ، الذاكرةَ التي تبقَى حيّةً ما بقي التراثُ حيّاً ، وفي إحياء التراث ، بعدَ تحقيقِه ، حفْظٌ له ، وحفظٌ لذاكرتِنا معه ، وهذا ما نفعَلُه ، ونطمَحُ إلى المزيدِ منه ، في منشوراتِنا التراثيّة ، وفي اكتشافاتِنا الأثريّة ، وفي كتابةِ أنفسِنا وأعمالنا ومشاعرِنا كلماتٍ على الورق ، أو تسجيلاً على الأشرطة ، لأن أمةً دونَ تراث ، أمةٌ دُونَ ذاكرة ، وهي، في المآلِ ، أمةٌ إلى زوال ، مهما بلغَ شأْوُها الصناعي ، ما دامتِ الصناعةُ تاليةً للحَضارة ، وما دامتِ الزراعةُ سابقةً للصناعة ، لكنّها في تعاقبِ الأنظمةِ البشرية ، ممهّدَةٌ لها ، وتراكمُ العلوم ، وفتوحاتُها المدهِشةُ في القرنِ العشرين هذا ، واندفاعاتُها في الابتكارات المذهِلَةِ ، تُعْطي الدولَ الصناعيةَ الكبرَى أنْ تكونَ دُولَ صناعة ، مهما عَظُمتْ إنجازاتُها ، تظلّ تفتقر إلى ذاكرتِها : تراثِها ، وهي

به وحدَه ، وبما ينضاف إليه من مُعْطَيات ثقافية ، قادرةٌ على إنشاء حضارةٍ ، بها تُقاسُ العظمة ، وبها ، مع مرورِ القُرون ، يتشكّلُ التراثُ الذي هو التاريخ ، في أمجدِ صَفَحاته .

في ضَوء هذا الوَعْيِ المَعْرفي ، وفي ضَوء التّوجيهات التي يزوِّدُنا بها الرئيسُ القائدُ حافظ الأسد ، ويبدي فيها حِرْصَه ، بل تشدُّدَه ، في الحِفاظِ على التّراث ، وتحقيقهِ ونشْرِه ، وفي رعاية الثّقافة وتوفيرِ وسائلِ نَهْضَتها ، استطعْنا أن نَنْهضَ ثقافياً ، وأن نعيدَ إلى دمشقَ مركزَها الفكريَّ الإشعاعي ، وإلى سوريةَ مكانتَها العلميةَ والأدبيّةَ والفنية ، وما نشرُ هذهِ الاختياراتِ من « نَفْح الطيب » إلا بعضُ هذاالجَهْدِ في إحياء التّراث ، والاستمرارِ في نَشْرِ سلسلةِ المُخْتارِ منه ، وما إقامةُ ندوةِ « الثّقافة العربية — الإسبانية عَبْرَ التاريخ » إلا بعضُ هذا الجَهْدِ في تعميمِ الثقافة ، والكَشْفِ عن مؤثّراتِها في الوطنِ العربي ، وفي العالَمِ من حولنا، وتطويرِ عمليّةِ إنتاجها ، وإغنائها بالبَذْلِ والدّعْم والعنايةِ ، وتبيانِ ما كانَ لها من مُعْطىً رَحْبِ المَدَى ، عميقِ الانْغِراس ، في تربةِ البلادِ التي طالَها الفتحُ الإسلامي ، وفي المقدّمةِ الأندلسُ ، حيثُ ازدهرَتْ فيها الثقافةُ العربيةُ ازدِهاراً بالغاً ورائعاً وباقياً ما بقيتِ الثقافات .

هذا هو المَدْخلُ الذي أردْتُه ، أو قُلِ استطعتُه ، لكتابِ المختاراتِ من « نَفْح الطيب » وإني لأعرفُ أنّ الطيبَ ، والمِسكَ ، والغاليةَ ، في الكتابِ نفسِه ، لا في هذا التمهيدِ القَصير اليسيرِ له .

دمشق ١٩٩٠/١٠/٣١

بينَ يدَيْ
(الأندلُس من نفْح الطِّيب)

استقرَّ العربُ بإسلامهمُ الحضاريِّ في الأندلسِ ، يُقيمونَ صروحَ العُمرانِ والعُلومِ والفُنون دَهْراً طويلاً ، ويَصْنعونَ من هذا الإقليم الجديدِ منارةً من أَلَقٍ حضاريٍّ يشعُّ على الأرضِ الكبيرة (أوروبة) وعالمِ ذلك الزمانِ بأسرِهِ أنواراً من أفانينَ حضاريّةٍ انبعثت أصولُها من المشرقِ الإسلاميِّ ، ثم غنيتْ وتلوَّنتْ بمُعْطياتٍ جديدةٍ صنعَها مجتمعٌ متحضِّرٌ فتيٌّ على هذه الأرضِ الغنيّةِ الجديدة .

رصد المؤرخون تلكَ المبتَدَعاتِ الحضاريّةَ الجديدة ودوَّنوُها ينقلونها إلى الوارثين أسفاراً تحمل كلَّ شُعَبِ المعارفِ الإنسانيةِ المتقدّمة ، فشَغَلتْ من المكتبةِ العربيّةِ ركناً على غايةٍ من الزَّخارةِ والغِنَى ، وورثَ الخلفُ بهذهِ الكتبِ صورَ تلكَ الحضارةِ ما أشرقَ منها وما أظْلَم ، وما أزهرَ وما أقفر ، فارتسم لهم بذلك خطٌّ بيانيٌّ لحضارةِ العربِ المسلمين في ذلك الصقع في أدقِّ أوضاعها صُعوداً ، أو سكوناً ، أو انحداراً ؛ وتتابعَ على تسجيلِ ذلكَ وتدوينهِ أجيالٌ من المؤرّخينَ والمؤلّفين ، يوفون المَراحلَ التي مرت بها الحضارة الأندلسيّةُ وأختُها المغربيةُ رصداً وتدويناً وبحثاً ، يتمِّمُ المتأخّرُ من هؤلاء فضلَ المتقدِّم ، حتى استقامتْ لوصْفِ معالمِ هذا الكيان الحضاريِّ مكتبةٌ أندلسيّةٌ غنيةٌ زاخرةٌ في مادّتها ، كاملةٌ شاملةٌ في إحاطتها .

وكتابُ (نفحِ الطِّيب من غُصنِ الأندلس الرطيب) واحدٌ من هذه المكتبة ، ولعلّه من أكثر ذخائرها حفولاً بما يشدوه باحثٌ من معرفةٍ بطبيعة الأندلس وأهْلِها وما أثّلوه وشادوه ، ينبىءُ بذلك العنواناتُ العديدةُ التي اشتملتْ عليها أبوابُ النّفحِ الستّة عشَر ، وقد أثبتناها مفصَّلةً حينَ أوردْنا حديثَ المقّريِّ عن كتابه في خُطبتِه المنهجية ، وكان كلُّ عنوانٍ من تلك العُنوانات مفتاحاً لولوجِ حقلٍ حافلٍ بالمعارف عن الأندلس ، أخبارِها ، أعلامِها وفضائلِهم في الثقافةِ والعلمِ والآداب والفنون ، فقد حرص المقّريُّ

على ألا يغادرَ من أخبارها وشؤونها شيئاً دقّ أو جلّ ، فتجدُ في الكتابِ كلَّ شيء ؛ وهو في ذلك لا يكتفي حين إيراده الخبر بروايته من وجْه واحد ، بل تتعدّدُ طرقُ روايته ويأتي بما أُوجز من الأخبارِ أو بُسِّط في كتب من سبقَه من المؤرخين . ملْزوزاً بحرْصِه الشديد على توخي الدقّة والصّدق ، فيلجأ إلى الاستقْصاءِ والتتبّع والإحاطة بكل وجوه الخبر من ناحية ، وإلى معارضةِ الأخبارِ بعضها ببعض من ناحية أخرى .

بذل المقريُّ في تحقيق هذه الغاية جَهْداً كبيراً حينَ راح يبحث عن المُعْطَيات في المظانّ التي توفيه ما يبتغي ، إلى أن ظفر بها ، فكانت كثيرة وفيرةً ربتْ على السبعين حينَ حاولنا إحصاءَها عدّاً ؛ كان منها كتب وضعها أندلسيّون ومغاربة ، وهي التي قامَ بها عمادُ كتابه وكانت أكثرَ مصادره ، وأخرى وضعها مؤلفون من مصر . أمثالُ التقي المقريزي ، والحافظ الشهاب ابن حجر ، والمؤرخ الشمس السخاوي ؛ وغيرُها كانتْ من كتبِ الشّاميّين والمشارقة كالصلاح الصفدي ، وابن خلكان ، وابن الأثير ، وغيرهم .

عكف المقّري على هذه المصادرِ يجمعُ منها مادةً لكتابه ، وما أن استقام له منها مقدارٌ صالح يفي بسفرٍ حفيلٍ جامعٍ لهذا الغرض ، قام بترتيبه على منهجٍ ونظام ، راعى فيهما الدقةَ والصحّةَ والمعقولية ، وهذا ما جعلَ الحصولَ على الفائدة من الكتاب في الغاية من اليسر .

يمضي المقّري على هذا النحوِ في تحقيقِ مَسارِ منْهَجِه في التأليفِ والترتيب والعرضِ حتى استطاعَ أن يوظّفَ ما جمعَه من مصادره الكثيرةِ خيرَ توظيف ، وزاد على ذلك حُضُورُه البيّنُ وبصَماتُه الواضحةُ في الكتاب ونتلمّس ذلك في ثلاثة وجوه :

أولها : اصطفاؤُه الأخبارَ وترتيبُها ، فهو حينَ يقعُ على الخبر يقصُّ نظائرَهُ في المظانّ ، حتى إذا ما استقام له عددٌ منها اختار أكثرَها إحاطةً بالحادثةِ أو الترجمةِ أو نحوِ ذلك وقدَّمَه على غيره ، ثم يثني بما يأتي طبقةً ثانيةً من حيث الإحاطةُ والصحةُ والسلامةُ ، وقد يثلث بآخر أدنى مرتبةً في هذا السلّم ، وهكذا يردُ الخبرُ مكروراً أكثر من مرّة ..

ثانيها : اعتمادُه الاختصارَ ، وذلكَ من جهتين :

الأولى : إذا كان الخبرُ مَسُوقاً في مظنّته على سبيل التفصيل والبسطِ الشديد ، فإن المقّري يضطلع باختصارِه ويذكر ذلك .

الثانية : بعد أن يسوقَ الأخبارَ المتعددةَ الوجوهِ المتحدةَ المؤدّى ، يتدخلُ ويلخّصُ ما اتفقتْ عليه الوجوهُ المتعددةُ في صيغةٍ تجمعُ أهمَّ ما أتتْ به المصادر ، ويشير إلى ذلك .

ثالث الوجوه : ذلك ما يبثُّه في ثنايا الأخبارِ والحوادثِ والتراجم مما ينشئه قلمُه من نظمِه أو نثرِه ، فحينَ تعرضُ حادثةٌ أو تردُ قصيدة ، أو نحو ذلك مما يثيرُ إعجابَه ويستدعي قريحته فيحاكي القصيدة بقصيدة من نظمة ، ويضاهي الرسالة النثرية برسالة من إنشائه .

والمقّري — إلى ذلك وعلى السنّة الجاحظية — شديد الولع بالاستطراد ، فإذا ما عرضت طُرفةٌ من جميلِ الأدب راقتْه ، أو مقطعةٌ من جيادِ الشعر أعجبَ بها فسرعانَ ما تهجُمُ على ذهنه طُرفةٌ مشابهةٌ تناسب المقام أو قصيدةٌ مماثلة تستحقُ الإيراد ، فلا يدعُ ذلك يفوتُ مدوّناتهِ فيقحمهُ في ثنايا ما هو بصددِه من سَوْقِ الأخبارِ والتراجمِ والاختياراتِ الشعرية على سَبيلِ الاستطراد ، ويستغرق أحياناً في استطراداته فيطيل حتى تظنّه تنكّبَ ماهو في شأنه ، ولكنه يعود مستأنفاً ويقول : رجع إلى ......

وهذه الاستطراداتُ كثيرة مبثوثة في الكتاب توشّيه وتزيدُ من فائدته .

ذلك كتابُ نفحِ الطيب الحفيلُ وسيرةُ مؤلفه المقّري فيه ، مادة زاخرةٌ متعدّدةُ الألوان ، محكمةُ النظام ، غنيةٌ بأخبارِ الأندلسِ ومعالمِ حضارةِ الأندلسيين ، وقد استوفى ذلك كلّه زمناً لا يقلُّ عن ثمانٍ من مئاتِ الأعوام .

ولقدْ أسعَدَتنا قراءةُ هذا الكتابِ بأجزائه العشرةِ (١) في وضعِ تصوّرٍ لبناء كتاب عن الأندلسِ في ترتيب جديد قوامُه نُصُوص مختارة منه ننظمُها في الموضوعاتِ التالية :

---

(١) وهي في الطبعة التي صدرت في القاهرة سنة ١٩٤٩ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

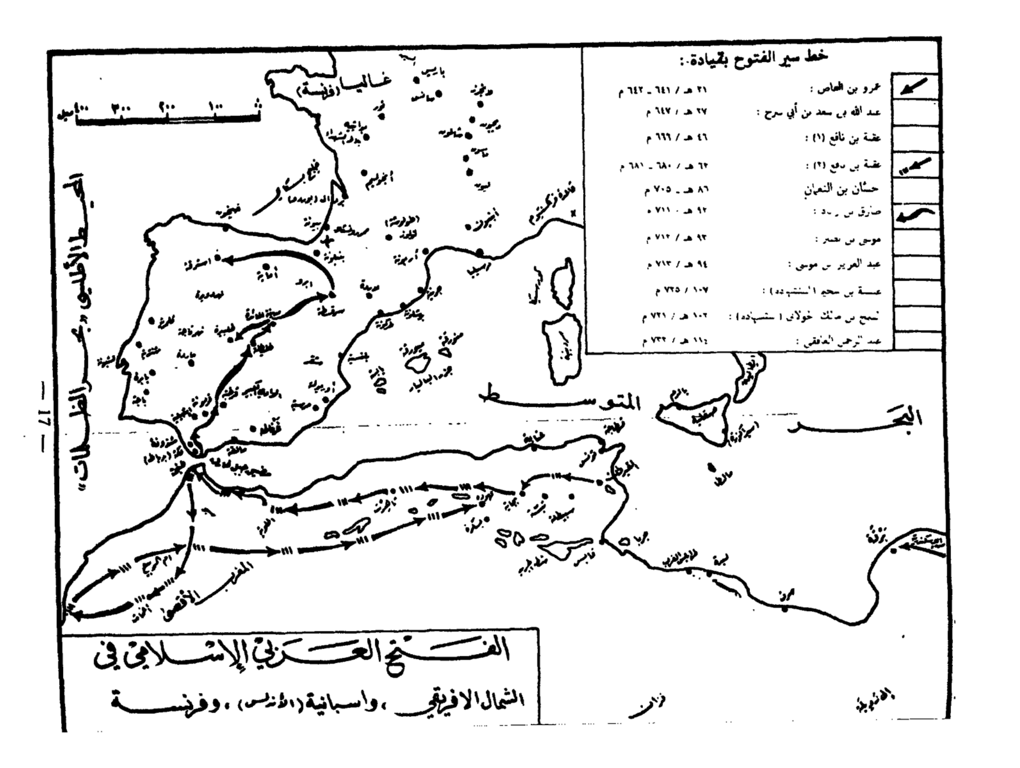
ـ سغاني دمشق وفضائل أهلها تحفز المقري على تأليف كتاب عن الأندلس.
ـ ما قيل في تسمية الأندلس . ـ موقع الأندلس ومساحتها ومزاياها .
ـ الثروات الطبيعية في الأندلس . ـ من عجائب الأندلس وغرائبها .
ـ سكان الأندلس قبل الفتح العربي . ـ الفتح العربي الإسلامي .
ـ القبائل العربية التي نزحت إلى الأندلس وأماكن استيطانها وبعض من اشتهر من أعيانها ـ الأقاليم الأندلسية والجزائر والمدن . ـ الدول المتعاقبة على حكم الأندلس. ـ الحكم ، والإدارة ، والمجتمع في الأندلس ـ الثقافة والعلوم . ـ الصناعات والخدمات في الأندلس. ـ من أعيان الأندلس ـ من أعلام النساء في الأندلس . ـ اختيارات مما قيل في الأندلس من الشعر .

ورحنا نقبس من النفح نصوصاً على سبيل الاختيار تحقق لنا هذه الغاية ، واستغنينا منه بالفرض عن النفل ، فاستبعدنا الأخبار المكرورة، واكتفينا منها بالجامع الوافي ، وطرحنا الاستطرادات على فائدتها في غير هذا المقام، وغنينا بأنباذ وافية عن المترجمين عما بسطه من الكلام في سيرهم ، واجتزينا بأمثلة من القصائد والمقطعات الشعرية عن كثير منها قد يورده لشاعر من الشعراء .

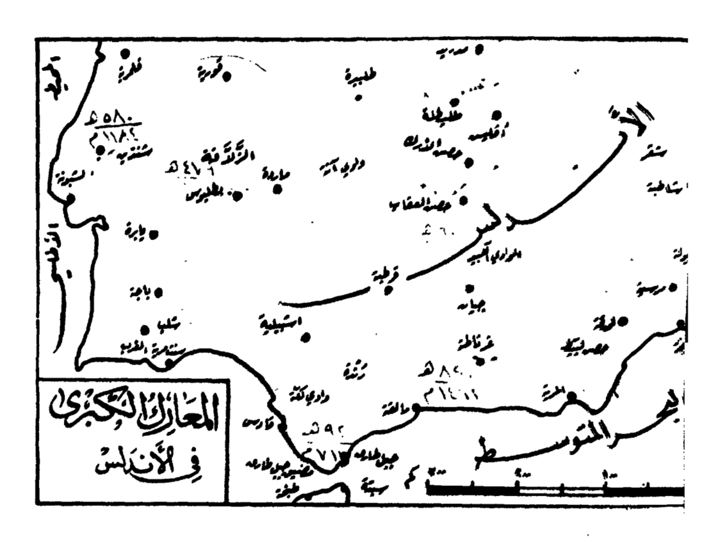
وهكذا ، فلعله قد استقام لنا بعد الجهد كتاب صغير الحجم نرجو أن يكون جم الفائدة كبير العائدة في تعريف الأندلس وحضارة أهلها وفضائل من نبغ فيها من الأعيان .

ومن جميل العرفان أن نتقدم بأوفى الشكر وأصدق الثناء للسيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة على حسن ظنها بنا فكلفتنا النهوض بإخراج هذا الكتاب بمناسبة إقامة ندوة « الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ » ، واستجابت بأريحية يحدوها حب أصيل للعرب وتراثهم ، فزينت طرة الكتاب بمقدمتها الغنية في مضمونها ، المشرقة ببيانها الأصيل الجميل . والله ولي التوفيق .

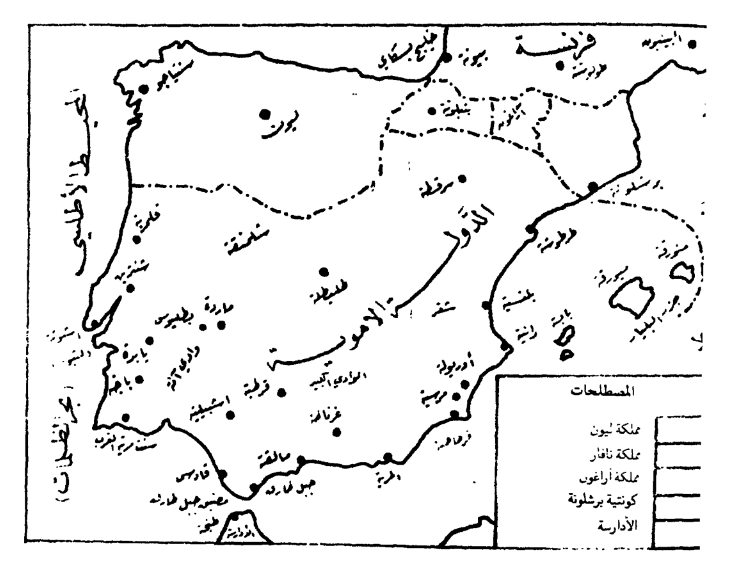
دكتور عدنان درويش



خط سير الفتوح بقيادة :
عمرو بن العاص : ٢١ هـ / ٦٤١ ـ ٦٤٢ م
عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٢٧ هـ / ٦٤٧ م
عقبة بن نافع (١) : ٤٦ هـ / ٦٦٦ م
عقبة بن نافع (٢) : ٦٢ هـ / ٦٨٠ ـ ٦٨١ م
حسان بن النعمان ٨٦ هـ ـ ٧٠٥ م
طارق بن زياد : ٩٢ هـ ـ ٧١١ م
موسى بن نصير : ٩٣ هـ / ٧١٢ م
عبد العزيز بن موسى : ٩٤ هـ / ٧١٣ م
عنبسة بن سحيم (استشهد) : ١٠٧ / ٧٢٥ م
السمح بن مالك خولاني (استشهد) : ١٠٢ هـ / ٧٢١ م
عبد الرحمن الغافقي : ١١٤ هـ / ٧٣٢ م
غاليا (فرنسة)
المحيط الأطلسي «بحر الظلمات»
البحر المتوسط
الفتح العربي الإسلامي في
الشمال الافريقي ، واسبانية (الأندلس) ، وفرنسة

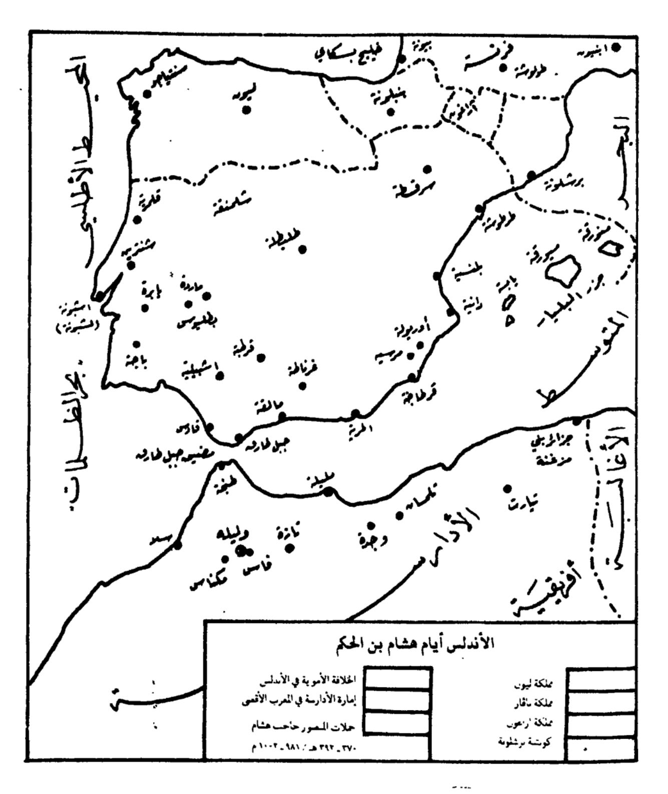


قبسناها من اطلس التاريخ العربي للباحث الاستاذ شوقي أبو خليل

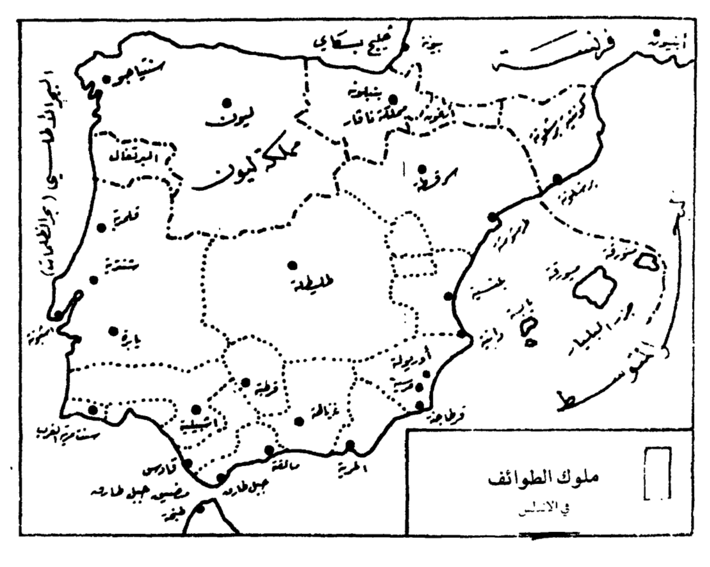


الدول الامويـة في الانـدلس

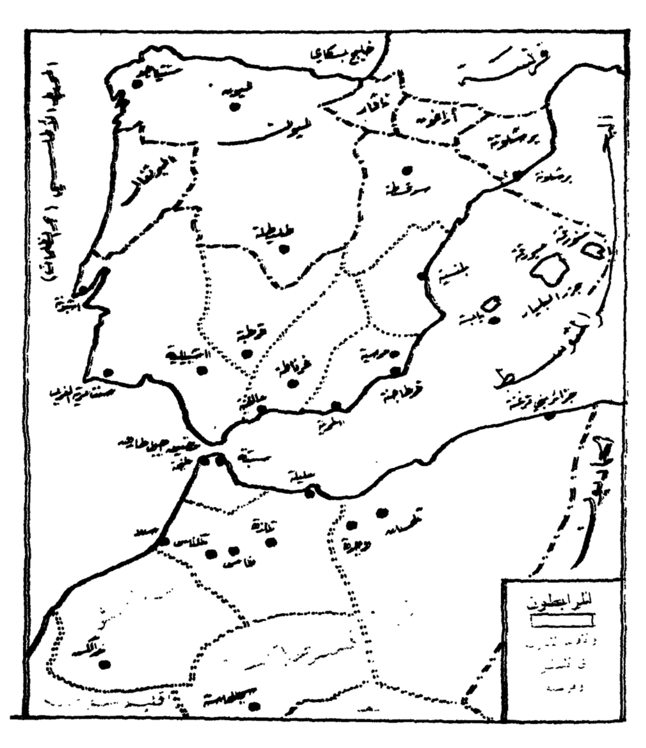
من اطلس التاريخ العربي للاستاذ المؤرخ شوقي أبو خليل



من اطلس التاريخ العربي للاستاذ شوقي ابو خليل



من اطلس التاريخ العربي للاستاذ شوقي أبو خليل



من اطلس التاريخ العربي للاستاذ شوقي أبو خليل

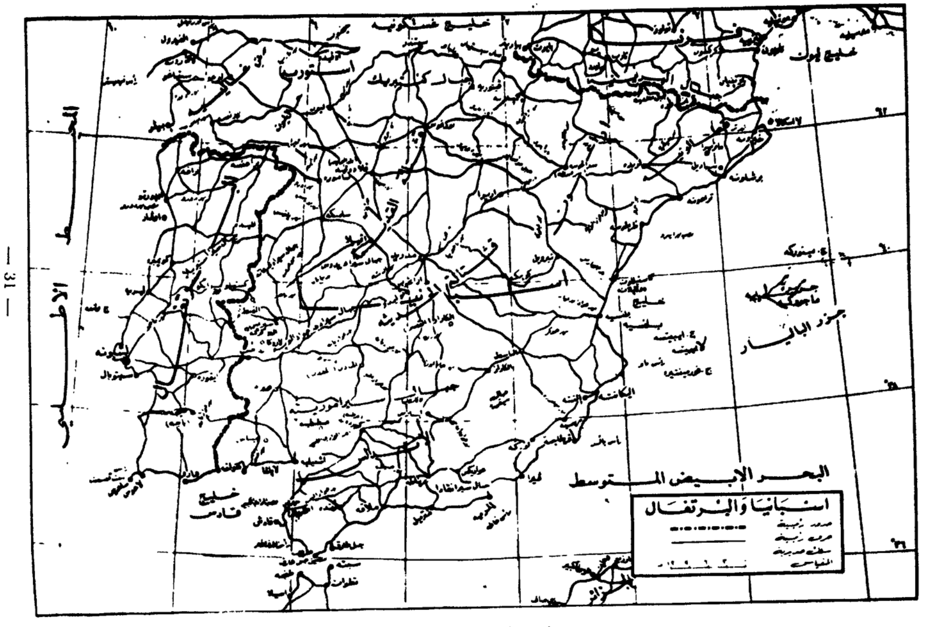
الموحدون في أوج عظمتهم

الموحدون
بنو غانية
الإسبان
الأيوبيون

... أبو يوسف يعقوب المنصور بدولة الموحدين ... فبعد انتصاره الحاسم في معركة الأرك عادت ذكرى صقر قريش وعبد الرحمن الناصر إلى الأندلس.

لقد اعتنى ... أسس المدارس العامة ومستشفيات وعمر العلماء بالعطاءات الجزيلة.

من اطلس التاريخ العربي للاستاذ شوقي ابو خليل


اسبانيا والبرتغال
البحر الابيض المتوسط
خليج غسكونيه
خليج ليون
جزر البليار
خليج قادس
استوريا
جبال كنتبريك
برشلونه
طركونه
بلنسيه
لشبونه
ستوبال
مالقه
سبته
تطوان
جبل طارق
منوركه
ماجوركه

المقَّري مؤلف كتاب
نَفحِ الطِّيبِ من غُصنِ الأندلسِ الرَّطيب

نسبه : هو أبو العباس ، أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد ، المقريُّ ، التِّلِمْسانيُّ المولد ، نَزِيلُ فاس ، ثم القاهرة (١) .

* * *

(١) لخصنا ترجمته من الترجمة المبسوطة الوافية التي وضعها محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته لكتاب (نفح الطيب) الذي قام بتحقيقه ونشره .

والمقري (بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وكسر الراء ثم ياء النسبة) وهذا الضبط هو الراجح في هذه النسبة .

قال محقق هذا الكتاب : « أكثر العلماء يضبطون (المقري) بفتح الميم وتشديد القاف مفتوحة ، وآخره راء مهملة ، ويذكر بعضهم أنه بفتح الميم وسكون القاف (المقري) » .

قال المحبي صاحب كتاب (خلاصة الأثر) : « والمقري ، بفتح الميم وتشديد القاف ، وآخرها راء مهملة ، وقيل : بفتح الميم وسكون القاف ، لغتان ، أشهرهما الأولى — نسبة إلى قرية من قرى تلمسان ، وإليها نسبة آبائه » .

مولده ونشأته : ولد بتِلِمْسان نحو سنة ٩٩٢ هـ ونشأ بها ، وحَفِظَ القرآن الكريم ، وحَصَّل ببلده على عمه الشيخ الجليل العالم أبي عثمان سعيد بن أحمد المَقّرِيّ ، مفتي تِلِمْسانَ . ومن جملة ما قرأ عليه (صحيحُ البخاري) سبعَ مرات ، وروى عنه الكتبَ الستةَ .

رحل إلى فاس مرتين : أما أولاهما فكانت في سنة تسعٍ بعد الألف من الهجرة .

= وقال ياقوت الحموي في كتاب (معجم البلدان) : « مقرة – بالفتح ثم السكون وتخفيف الراء – مدينة بالمغرب في بر البربر ، قريبة من قلعة بني حماد ... » .

والذي نستنتجه من كلام المؤلف نفسه أنه كان يقرأ نسبته ويعرفها بتشديد القاف ، وكان أصحابه ومعارفه يعرفون عنه هذا الضبط ، ويذكرونه في حديثهم عنه ، ونستدل على ذلك بما يلي :

أولا : تراه في مفتتح كتابه (نفح الطيب) يقول بعد البسملة : « يقول العبد الفقير ، الذليل المضطر الحقير ، من هو من صالح الأعمال عري ، أحمد بن محمد الشهير بالمقري » ونظام السجع الذي ذاع في أسلوبه يقتضي هذا الضبط .

ثانياً : تراه في مقدمة كتابه (أزهار الرياض) يقول بعد البسملة والحمدلة والصلاة على رسول الله ما نصه :

فيقول أحمد ذو القصـــو ... ر المقري إذا انـــتسب
جبر المهيمـــن صدعه ... ووقـــاه سيء ما اكتسب
وحبـــاه منحة مـــؤمـــن ... محض العبـــادة واحتسب

وكلمة (المقري) في البيت الأول من هذه الأبيات لا يجوز أن تقرأ بفتح الميم وسكون القاف ، لأن وزن البيت يختل حينئذ .

وإذ كان العلماء لا يذكرون إلا هذين الضبطين ، وكان أحدهما لا تصح قراءته في نثر المؤلف ولا في شعره . تعين أن يكون ضبطه الذي عرفه هو وتكلم به هو الضبط الآخر ، وهو الذي ذكرناه أولا .

ثالثاً : ورد في قصيدة الشاهيني التي بعث بها إلى المقري يستنجز فيها تأليف كتاب (نفح الطيب) قول الشاهيني :

ما للعلا والعلم إلا أبو الـ ... ـعباس شيخي أحمد المقري

ولا يتم وزن البيت إلا على هذا الضبط » .

وأما الثانية فكانت في سنة ثلاثَ عَشْرَةَ بعد الألف .

وكان يخبر عن فاس أنها دار خلافة المغرب .

ثم أراد أن يرتحل بعد ذلك قاصداً حَجَّ بيتِ الله الحرام في أواخر شهر رمضان سنةَ سبعٍ وعشرين بعد الألف ، ولقي في مَرّاكُشَ صاحبها .

وبعد أن أدى فريضة الحج ورد إلى مصر في سنة ثمانٍ وعشرين بعد الألف ، وسكنها .

ثم زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول من سنة تسعٍ وعشرين بعد الألف ورجع منها إلى القاهرة .

وكرَّر من مصر الذهابَ إلى مكة ، فدخلها سنة سبعٍ وثلاثين خمسَ مرات ، وأملى بها دروساً عديدة ، ووَفَدَ على طَيِّبة مدينةِ الرسول صلى الله عليه وسلم سَبْعَ مرات ، وأملى الحديث النبويَّ بجوار قبر النبي — صلواتُ الله وسلامه عليه — وبمَرْأى منه ومَسْمَعٍ . ثم رجع إلى مصر سنة تسعٍ وثلاثين .

ودخلَ القدسَ في رجب من تلك السنة ، وأقام خمسةً وعشرين يوماً .

ثم ورد منها إلى دمشق فدخلها في أوائل شعبان ، وأنزلته المغاربة في مكانٍ لا يليق به .

قال المحبي صاحب كتاب (خلاصة الأثر) :

وأنت لو تَتَبَّعْتَ مقدمة كتاب المقّري (نفح الطيب) لَمَسْتَ في حديثه عن دمشق ووَصْف مَواطنها ومَشاهِدِها ، والثناءِ على طِيْبِ أعراقِ أهليها ، ما كان الرجل يشعر به نحو هؤلاء الكرام

الذين أكرموا وفادتَهُ ، وأسـ ـنزا لقاءه ، وأنـ ـزهُ وطنه ، وأزالوا عنه لواعج الحزن التي كانت تعتريه لفراق أهله (١).

ولما دخل دمشق أ. ـ ـتـ فنقل أسبابه إلا ، واستوطنها مدة إقامته.وأملى (صحيح البخاري) بالجامع(٢) تحـ ـت قبة النسر بعد صلاة الصبح . ولما كثر الناس بعد أيام خرج إلى صحن الجامع ، تجاه القبة المعروفة بالباعونية ، وحضر، غالبُ أعيان علماء دمشق ؛ وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد ، وكان يومُ ختمه حافلاً جداً ، اجتمع فيه الألوف من الناس ، وعلت، الأصوات بالبكاء . فنُقلت حلقةُ الدرس إلى وسط الصحن إلى الباب الذي يوضع فيه العلم النبوي في الجُمعات من رجب وشعبان ورمضان ، وأتي له بكرسيّ الوعظ ، فصعد عليه ، وتكلّم بكلام في العقائد والحديث لم يُسْمَع نظيرهُ أبداً ، وتكلم على ترجمة البخاري وأنشد له بيتين ، وأفاد أن ليس للبخاري غيرهما وهما:

اغتنم في الفراغ فضلَ ركوعٍ ... فعسى أن يكون موتُك بَغْتَه

كم صحيحٍ قد مات، قبل سَقيمٍ ... ذهبت نفسه النفيسة فَلْتَه

ونزل عن الكرسي ، فازدحم الناسُ على تقبيل يده ، وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبعٍ وثلاثين وألف . ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الحُظْوَةِ وإقبالِ الناس .

---

(١) انظر الفصل الأول من كتابنا : (مغاني دمشق وفضائل أهلها تحفز المقري على تأليف كتابه) الآتي .

(٢) الجامع الأموي .

وكان – بعدما رأى من أهلها ما رأى – يكثر الاهتمام بمدحها. وقد عقد في كتابه (نَفْح الطِّيْب) فصلاً يتعلق بها وبأهلها ، وأورد في مدحها أشعاراً .

وقد رأيت في مقدمته لكتاب (نفح الطيب) العجب العاجب من تعلقه بأهل دمشق ، حتى إنه ليجعل هذا الكتاب في موضوعه ، وفي بعث فكرة تأليفه راجعاً إلى فضلهم فيقول في نهاية مقدمة الكتاب : « وله بالشام تعلقٌ من وجوه عديدة ، هاديةٍ لمتأمله إلى الطرق السديدة .

أولها أن الداعي لتأليفه أهلُ الشام ، أبقى الله مآثرهم ، وجعلها على مر الزمان مديدة .

وثانيها أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ، ذوو النجدة والشوكة الحديدة .

وثالثها أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالشام وطناً مُسْتأنَفاً وحَضْرَةً جديدةً .

ورابعُها أنَّ غَرْناطَةَ نزل بها أهلُ دمشق ، وسَمَّوْها باسمها، لِشَبَهها بها في القصر ، والنهر ، والدَّوْح ، والزهر ، والغوطة الفيحاء .

وهذه مناسبةٌ قوية العُرا ، شديدة » .

* * *

مؤلفاته .

صَنَّفَ المَقَّرِيُّ كتباً كثيرة ، كلها ممتع ، وكلها مفيدٌ أعظم الفائدة ، وتمتاز كتبه الأدبية بصفاء العبارة ، ونَقاء الديباجة ، وإشراقِ المعنى ووضوحه ، وهو في ذلك كله يتأسّى بلسان الدين ابن الخطيب ،

وزيرِ الأندلس وأديبها ، ويَنسُجُ على منواله ، ولكنَّ كُتُبَ المقَّري تمتاز بظاهرة ليست في كتب لسان الدين . هذه الظاهرة هي استطراداته الكثيرة ، وخُروجُه عما يعقد له البابَ إلى ما يشبهه أو يتصل فيه بسبب ، شأنُ الرجل الواسعِ العلمِ ، الكثير المحفوظ . إذ تزدحم المتشابهات على ذهنه فتنساب على أثلات قلمه ، لا يستطيع لها دفعاً . ولا يَقْوى على ردِّ جامحها ؛ وإنه لَيُخَيَّل إليه أنه قد قصر كل التقصير حين يَحْبِسُ قلمه ، أو يَقِفُ به دونَ بلوغ الغاية .

وقد عَدَّه الأدباء ، لهذه الظاهرة ، جاحظَ المغرب ، إذ كانت هذه أشهرَ ما امتاز به قلم أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

قال صاحب (خلاصة الأثر) في التعريف به : « حافظ المغرب ، جاحظ البيان ، ومن لم يُرَ نَظيرُه في جوْدة القريحة ، وصفاء الذهن ، وقوة البديهة . وكان آيةً باهرةً في علم الكلام ، والتفسير ، والحديث ، ومُعْجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات » .

ونحن نذكر لك ههنا أشهر مؤلفاته مرتباً على حروف الهجاء ، بحسب أوائل ما وضعه لكتبه من الأسماء .

١ — إتحاف المغْرَى ، تكميل شرح الصغرى . وهو تكميلٌ لشرح (السنوسية) في علم التوحيد .

٢ — أزهار الرياض ، في أخبار القاضي عياض . وهو أشبه كتبه بكتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) جعل مبناه في الأصل ترجمةً للقاضي المغربي عياض بن موسى بن عمرون ابن موسى اليَحْصُبِيِّ ، السبْتِيِّ .

٣ – أزهار الكمامة . ولا نعلم من أمره أكثر من اسمه الذي ذكره صاحب (خلاصة الأثر) .

٤ – إضاءة الدُّجُنة ، في عقائد أهل السُّنة.

٥ – البَدْأةَ والنشأة . قال في (خلاصة الأثر) : « كله أدبٌ ونظم».

٦ – حاشية على شرح (أم البراهين) . و (أم البراهين) هي السنوسية التي وضع لها كتابه (إتحاف المغرى) السابق .

٧ – الدُّر الثمين في أسماء الهادي الأمين .

٨ – روض الآس ، العاطر الأنفاس . في ذكر مَنْ لَقيتُه من علماء مراكش وفاس .

٩ – عَرْفُ الطِّيْب ، في أخبار ابن الخطيب . وهذا هو الاسم الذي وضعه أولاً لكتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، وسنذكر لك وجه عدوله عن هذا الاسم إلى الاسم الذي اختاره أخيراً حين نتكلم على (نفح الطيب)

١٠ – عَرْف النشْق في أخبار دمشق .

١١ – الغَثُّ والسمين ، والرثُّ والثمين .

١٢ – فتح المتعال. وهو كتابٌ صنفه في وصف نعال النبي صلى الله عليه وسلم .

١٣ – قَطْف المُهْتَصَر ، في أخبار المختصر .

١٤ – نفح الطيب . من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب .

* * *

أما كتابه (نفح الطيب) هذا فقد كان – أول الأمر – قد عزم على أن يؤلف كتاباً في التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، ويذكر أوّليةَ أمره ، وآلَه ، وشيوخَه ، وسائرَ ما يتصل به ، ووضع – لما عقد عليه العزم – اسماً هو (عَرْفُ الطِّيْب في أخبار ابن الخطيب) على نَحو ما صنع في (أزهار الرياض ، في أخبار عياض) ، ثم بدا له أن يقدِّم بين يدي هذا التعريف حديثاً عن الأندلس وتاريخها مِنْ قَبْل الفتح الإسلامي ومِنْ بعده ويجعله أقساماً بعضُها عام ، وبعضُها خاص بكُبريات مُدُنه التي صارت دارَ مُلْكٍ لجماعةٍ من ملوك الأندلس وأمرائه.. فلما تم له ذلك عدل عن الاسم الأول ليزيد في اسم الكتاب ما يدل على القسم الذي زاده على أصل المشروع . إذ ليس من المستحسن أن يترك أكبر أقسام الكتاب من غير شيءٍ يدل عليه في عنوانه .

قال في أواخر مقدمة الكتاب بعد أن ذكر ثَبَتاً بما ضَمنه إياه من المباحث : « وقد كنت سَميْتُه بـ « عَرْف الطِّيْب ، في التعريف بالوزير ابن الخطيب » ، ثم وَسَمْتُه ، حين ألحقت أخبار الأندلس به بـ « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » .

* * *

وفاته :

قال المحبِّي في (خلاصة الأثر) : « ودخل مصر ، واستقر بها مدة يسيرةً ، ثم طلق زوجته الوفائية ، وأراد العودة إلى دمشق للتوطن بها ، ففاجأه الحمام ، قبل نيل المرام . وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وألف . ودفن بمقبرة المجاورين » .

* * *

الأندلس

من نَفْحِ الطِّيبِ من غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيب

مَغَاني دِمَشق وَفضَائلُ أهلِها

تحفة المقّري على تأليف كتاب عن الأنْدَلس

رحلةُ المقّري إلى دمشقَ ووصْفُها

[قال المقـري] (١) حدثَ لي منتصفَ شعبان [سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة النبوية] عزمٌ على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلُها وبان ، دمشقَ الشام ، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام ، والأدواح المتنوعة (٢) ، والأرواح المتضوّعة (٣) ، حيث المشاهدُ المكرّمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغنّاء والحديقة ، والمكارم التي يُباري فيها المرءُ شانئَهُ (٤) وصديقَه ، والأظلال الورِيفَة (٥) ، والأفنان الورِيقة (٦) ، والزهر الذي تخاله متبسماً والندى ريقَه ، والقُضْبان المُلْد (٧) التي تَشُوْقُ رائيها لجنة الخُلْد .

وهي المدينة المستولية على الطباع ، المعمورةُ البقاع ، بالفضل والرِّباع (٨) .

---

(١) في نفح الطيب ج ١ ص ٦٦ والكلام الذي بين الحاصرتين إضافة منا .
(٢) الأدواح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة .
(٣) الأرواح : جمع (روح) وهو الرائحة الطيبة .
(٤) الشانىء : المبغض .
(٥) الأظلال : جمع ظل ، والوريفة : من (ورف الظل) إذا اتسع وطال وامتد .
(٦) الأفنان : جمع فنه ، وهو الغصن ، والوريقة : ذات الورق .
(٧) الملد : جمع أملد : اللين الناعم .
(٨) الرباع : جمع (ربيع) كما يجمع على (أربعة) .

ودخلتُها أواخرَ شعبان المذكور ، وحَمِدْتُ الرحلةَ إليها ، جعلها الله من السعْي المشكور . . . . وشاهدت بعضَ مغانيها الحَسَنة ، ومبانيها المستحسنة . ورأيتُ من محاسنها مالا يستوفيه مَنْ تأنقَ في الخطاب ، وأطالَ في الوصف وأطاب ، وإن ملأ من البلاغةِ الوطاب(١)

فالجامع (٢) الجامعُ للبدائع يَبْهَرَ الفكر ، والغوطةُ (٣) المنوطة بالحسنِ تسحر الألباب ؛ لاسيما إذا حياها النسيمُ وابتكر .

فلله مرآها الجميلُ الجليل ؛ وبيوتُها التي لم تخرجْ عن عَروض الخليل ، ومَخْبَرُها الذي هو على فضلها وفضلِ أهلها أدَلُّ دليل ؛ ومنظرُها الذي ينقلب البصرُ عن بهجته وهو كليل .

* * *

ثناء المَقَّري على أهل دمشق

وكنتُ قبلَ رِحلتي إليها ، ووِفادتي عليها ، كثيراً ما أسمع عن أهلها ، زاد الله في ارتقائهم ، ما يشوِّقني إلى رؤيتها ولقائهم ، ويُنْشقُني على البُعد أريجَ الأدب الفائقِ من تلْقائهم . فلما حَلَلْتُ بدارهم ، ورأيتُ ما أذهلني من سَبْقهم للفضل وبدارهم (٤) ؛ وقابلوني — أسماهم الله — بالاحتفال والاحتفاء ؛ وعرفني بديعُ برِّهم فنَّ الاكتفاء.

---

(١) الوطاب : الوعاء .

(٢) يريد بالجامع ، الجامع الاموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك .

(٣) الغوطة : لغة ، المطمئن من الأرض ، وهو ههنا يريد البساتين المحدقة بدمشق ، وهي الغوطة المشهورة .

(٤) البدار (بكسر الباء) : المبادرة .

فليتَ شعْري بأي أسلوبٍ أؤدي حقّهم المطلوب ؟ أم بأيٍّ لسانٍ أثني على مزاياهم الحسان ؟ وما عسى أن أقولَ في قومٍ تَسَقَّوا الفضائلَ وِلاء (١) ، وتعاطَوا أكوابَ المحامدِ ملاءً ، وسحبوا من المجد مَطارِفَ وملاءً (٢) ، وحازوا المكارم ، وبَذُّوا المُوادِدَ والمُصارم سُؤْدُداً وعَلاءً .

فهم الذين نوّهوا بقدري الخامل ، وظنوا – مع نقصي – أن بحرَ معرفتي وافرٌ كامل ، حسبما اقتضاه طبعُهم العالي . فلو شريت بعُمْري ساعةً ذهبت من عيشي معهم ما كان بالغالي ، فَمُتَعَيِّنٌ حَقُّهم لا يُتْرَكُ ، وحبُّهم لا يخالَطُ بغيره ولا يُشْرَك ، وإنْ أطَلْتُ الوصفَ فالغايةُ في ذلك لا تُدْرَك .

وعند رؤيتي لتلك الأقطار (٣) ، الجليلة الأوصاف ، العظيمة الأخطار (٤) ، تفاءلتُ بالعَوْدِ إلى أوطانٍ لي بها أوطار (٥) ، إذ التشابه بينهما (٦) قريبٌ في الأنهار والأزهار ، ذاتِ العَرْفِ المعطار (٧) ، وزادت هذه بالتقديس الذي هَمَعَتْ عليها منه الأمطار (٨).

(١) الولاء (بكسر الواو) : الميراث بعقد الموالاة ، وبفتحها : القرابة والموالاة .

(٢) المطارف : جمع (مطرف) بضم الميم وسكون الطاء وفتح الراء ، أو بكسر الميم وسكون الطاء وفتح الراء : رداء من خز ذو أعلام . والملاء : جمع (ملاءة) وهي الإزار أو الملحفة .

(٣) يريد بالأقطار : بلاد الشام ومنها دمشق .

(٤) الأخطار : جمع (خطر) وهو القدر .

(٥) الأوطار : جمع (وطر) الحاجة والمأرب .

(٦) يريد بلاد الشام وبلاد الأندلس .

(٧) العرف (بفتح فسكون) : طيب الرائحة . والمعطار : الكثير العطر .

(٨) بلاد الشام هي التي قدست في القران والحديث وبالأنبياء . وهمع المطر : هطل .

وبالجملة ، فالاعتراف بالحق فضيلة ، ومحاسنُ الشام وأهله طويلة عريضة ، ورياضه بالمفاخر والكمالات أريضة(١) وهو مقر الأولياء والأنبياء ، ولا يَجهلُ فضلَه إلا الأغمار الأغبياء (٢) .

ولذلك اعتنت الجهابذةُ بتخليد أخباره في الدواوين ، وابتنت الأساتذةُ بيوتَ افتخاره المنيفةَ الأواوين(٣) ، وتناقلت أنباءه البديعةَ ألسُنُ الراوين . وهامَتْ بأماكنه المَربِعَة(٤) هداةُ الشريعة فضلاً عن الشعراء الغاوين .

* * *

مذاكرةٌ في دمشق في شأن بلاد الأندلس :

وكنا في خلال الإقامة بدمشقَ المَحوطة ، وأثناءَ التأمل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغُوطة ، كثيراً ما ننظم في سلك المذاكرة دُرَرَ الأخبار الملقوطة ، ونَتَفَيَّأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالسَ مغبوطة ، نتجاذب فيها أهدابَ الآداب ، ونشرب من سلسال الاسترسال ، ونتهادى لُبابَ الآداب ، ونمد بساطَ الانبساط ، ونُسدل أطناب الإطناب(٥) ، ونقضي أوطارَ الأقطار ، ونستدعي

---

(١) أريضة : زكية معجبة للعين .

(٢) الأغمار : جمع غمر (الغين مثلثة الحركة والميم ساكنة) وهو الجاهل الأبله الذي لا تجربة له .

(٣) الأواوين : جمع (إيوان) أو (إوان) وهو البيت المبني طولا ، ومشارف الدار ، والعامة تقول (ليوان) .

(٤) المكان المربع : المخصب .

(٥) الأطناب : جمع (طنب) بضم الطاء والنون ، أو بضم الطاء وسكون النون : حبل الخباء والسرادق ونحوهما .

أعلام الأعلام . فينجرُّ بنا الكلام والحديث شجون(١) ، وبالتفنّن يبلغ المستفيدون ما يرجون ، إلى ذكر البلاد الأندلسية ، ووصف رياضها السُّنْدُسيّة ، التي هي بالحُسْن مَنُوْطة . وقضاياها الموجهة التي لا يستوفيها المنطق مع أنها ضروريةٌ وممكنةٌ ومشروطة ، والفِطَرُ السليمةُ ، والأفهام المستقيمة بتسليم براهينها قاضية ، لاسيّما إن كانت بالإنصاف مربوطة ، فصرتُ أُورد من بدائع بُلَغائها ما يجري على لساني ، من الفيض الرحمانيّ ، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السَّلْماني(٢) — صَبَّ الله عليه شآبيب رُحْماه(٣) . وبلّغه من رضوانه الأماني — ما تثيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباعُ السليمةُ وترتضيه ، من النظم الجَزْل ، في الجدِّ والهزل . والإنشاء الذي يُدْهِشُ به ذاكرُه الألبابَ إن شاء ، وتصرفه في فنون البلاغة حالَيْ الولاية والعزل ، إذ هو — أعني لسانَ الدين — فارسُ النظم والنثر ، في ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر(٤) ، وكيف لا ونظمهُ لم تَسْتَوْلِ على مثله أيدي الهَصْر ، ونثرهُ تُزْري صورتُه بالخَريدة ودُمْيَةِ القصر(٥) .

---

(١) الشجون : جمع (شجن) بفتح الشين والجيم : الغصن المشتبك من غصون الشجرة . والهم والحزن والشعبة من كل شيء .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، الغرناطي ، الأندلسي ، أبو عبد الله ، الشهير بلسان الدين بن الخطيب ، وزير ، مؤرخ ، أديب ، ولد بغرناطة سنة ٧١٣ هـ = ١٣١٣ م وبها نشأ ، وقتل في السجن سنة ٧٧٦هـ = ١٣٧٤ م . له مصنفات .

(٣) الشآبيب : جمع (شؤبوب) : وهو الدفعة من المطر وغيره .

(٤) كأن يقال : إنما الفارس عمرو .

(٥) إشارة إلى كتاب (خريدة القصر) لعماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م وهو كتاب مشهور في الأدب ، طبعت أجزاء منه .

وإلى كتاب (دمية القصر وعصرة أهل العصر) لعلي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م وهو كتاب مشهور أيضاً ومطبوع .

طلب أهل دمشق تأليف كتاب عن أديب الأندلس لسان الدين ابن الخطيب

فلما تكررَ ذلك غير مرةٍ على أسماعهم ، لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمةُ إجماعهم . وعَلِق بقلوبهم . وأضحى منتهى مطلوبهم . ومنيةَ آمالهم وأطماعهم . وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونَه . ويعترفون ببراعته ويستحسنونه . ويستنشقون من أزهاره كلَّ ذاك ؛ فطلب مني المولى أحمد الشاهيني(١) إذ ذاك . وهو الماجدُ المذكور ؛ ذو السعي المشكور . أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنَّفٍ يُعربُ عن بعض أحواله وأنبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ؛ ومفاخِرِه التي قُلِّد بها جِيْدُ الزمانِ ولَبَّتُه(٢) ؛ ومآثره التي أرِجَ بها مسرى الشمال وهبّته ، وبعض ماله من النثّار والنظام ، والمؤلفات الكبار العظام ، الرائقةِ للأبصار ، الفائقة على كلامٍ كثيرٍ من أهل الأمصار ، السائرة مسير القمر والشمس ، المقصودِ عليها بالخناصِرِ بل الخمس ، كي ما يكون ذلك لهذه الأغراض مُشْبِعاً ، ويخلع على مَطالعه بهذه البلاد المشرقية من أغراضه البديعة ومَنازعهِ وَشيْعاً(٣) .

* * *

---

(١) الشاهيني : هو أحمد بن شاهين القبرسي ، المعروف بالشاهيني : أديب ، له شعر رقيق ولد بدمشق سنة ٩٩٥ هـ = ١٥٨٧ م وانتظم في سلك الجند ، وأسر في موقعة وأطلق فانصرف إلى الأدب ، وناب في القضاء بدمشق ، ومدحه شعراء عصره . توفي بدمشق سنة ١٠٥٣ هـ = ١٦٤٣ م .

(٢) يريد باللبة هنا : العنق والنحر .

(٣) أصل الوشيع : علم يكون للثوب .

اعتذار المؤلف من عدم قدرته على تأليف الكتاب

فأجبتُه – أسمى الله قدرَه الكبير ، وأدام عَرْفَ فضائله المزري بالعنبر والعبير – بأنَّ هذا الغرضَ غيرُ سهل ، ولستُ – علمَ الله – له بأهل ، من جهاتٍ عديدة .

أولها : قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ، إذ لا يوفّي بهذا الغرض إلا الماهرُ بطُرق المعارف السديدة .

وثانيها : عَدَمُ تيَسُّرِ الكتب المستعانِ بها على هذا المرام ؛ لأني خلّفْتُها بالمغرب . وأكثرُها في المشرق كعَنْقَاء مُغْرِبٍ(١) .

وثالثها : شُغل الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبةِ للفكر غايةَ الكربة ، وتَقَسُّمُ البال بين شغل عائقٍ وَبلبال(٢) .

* * *

قَبولُه تأليف الكتاب :

ثم إني لما تكرر عليَّ في هذا الغرضِ الإلحاحُ ، ولم تُقبلْ أعذاري التي زَنْدُها شَحّاح(٣) ، عزمتُ على الإجابة ، لِما للمذكور عليَّ من الحقوق . وكيف أقابل بِرَّهُ – حفظه الله – بالعُقوق ؟ وهو الذي يروي من أحاديث الفضل الحسانَ والصِّحاح ؛ فوعدتُه بالشروع في

---

(١) العنقاء : طائر معروف الاسم ، مجهول الحقيقة . والعرب تقول : (عنقاء مغرب) على الوصف أو على الإضافة ، و (العنقاء المغرب) على الوصف لكل شيء لا وجود له ، وإذا أخبروا عن هلاك أحد قالوا : (حلقت به في الجو عنقاء مغرب) .

(٢) البلبال : شدة الهم ، والوساوس .

(٣) الزند الشحاح : الذي لا يوري ناراً .

المطلب عند الوصول إلى القاهرة المُعِزِّيّة ، وأزْمَعْتُ السيرَ عن دمشق المعروفةِ المَزيّة ، وألبسني السفر منها من الخِلَع زيّه .

* * *

رحيلُه إلى مصر ، وشروعه في تأليف الكتاب

ورحلنا عن تلك الأرجاءِ المتألقة ، والقلوبُ بها وبمن فيها متعلقة ، وتخيّلْنا أن إقامتنا بدمشق وقاها الله كلَّ صَرْف ، ما كانت إلا خطرة طيفٍ مُلِمٍ أو لمحةَ طَرْف . ثم جَدّ بي السير إلى مصر واستمر ، وحين وصلتُ مصر لم أنسَ عهدَ الشامِ المرعيّ ؛ فتلك الأيام من مواسم العمر محسوبة ، والسعود إلى طوالعها منسوبة :

وكانت في دمشقَ لنا ليالٍ
سَرَقْناهُنَّ من رَيْبِ الزمانِ

جَعلناهُنَّ تاريخ الليالي
وعنوانَ المَسَرّةِ والأماني

وقد امتد بنا الكلام . وربما يجعله اللاحي(١) ذريعةً لزيادة المَلام فلنرجع إلى ما كنا بصدده من إجابة المولى الشاهيني ، أمدّه الله سبحانه بمدده ، فأقول مستمداً من واهب العقول :

ثم شرعتُ بعدَ الاستقرار بمصر في المطلوب . وكتبتُ منه نبذةً تستحسنُها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكتُ في ترتيبه أحسنَ أسلوب ، وعرضتُ في سوقه كلَّ نفيس غريب ؛ من الغربِ إلى الشرق مجلوب ، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى . وتعرف الأفكار

(١) اللاحي : العاذل ، اللائم من : لحا فلانا يلحاه .

أنه غير مُجْتَوى(١) ، ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى . فأخرتُه تأخير الغريم لِدَيْن الكريم ؛ وصَدَّتْني أعراضٌ عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض ، وأضربتُ بُرْهَةً عمّا له من منحى . لاختلافِ أحوالِ الدهر نفعاً ودفعاً ومنعاً ومنحاً . ومَرَقَتْ عن هدف الإصابة نِبالٌ ، وطرقت في سُدَف ليالي الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال . فجاءتني من المولى المذكورِ آنفاً . رسالةٌ دلَتْ على أنه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفاً . فعُدْتُ لقضاء الوطر مستقبلاً ، وللجملة مستأنِفاً ، وحدا بي خطابُه الجسيم للإتمام وساقني وراقني كتابه الكريم لتلك الأيام . وانقشعت عني سحائب الكسل وانجابت . وناديتُ فكرتي فلبّتْ مع ضعفها وأجابت . فاقتدحتُ من القريحة زَنْداً كان شَحّاحاً . وجمعتُ من مُقَيّداتي حِساناً وصِحاحاً ، وكنتُ كتبتُ شَطْرَه . وملأتُ بما تيسر هامشَه وسَطْرَه . ورقَمْتُ من أنباء لسانِ الدين بنِ الخطيب حُلَلاً لا تُخْلِقُ جِدَّتَها الأعصرُ(٢) وسلكتُ من التعريف به – رحمه الله – مَهامِهَ تكلُّ بها واسعات الخُطا وتقصر(٣) .

فحدث لي بعد ذلك عزمٌ على زيادةِ ذكرِ الأندلسِ جُمْلَةً . ومن كان يُعَضَّد به الإسلامُ ويُنْصَر ، وبعض مفاخرها الباسقة . ومآثر أهلها المتناسقة لأن كل ذلك لا يستوفيه القلمُ ولا يُحْصَر ؛

---

(١) مجتوى : اسم مفعول : فعله (اجتوى) : كره .

(٢) أصل معنى (رقم) : خطط ، تقول : رقمت الثوب إذا جعلت له خطوطاً ولا تخلق : لا تبلي .

(٣) المهامه : جمع (مهمه) وهي الصحراء الواسعة الأطراف ، التي يخاف سالكها . وكأنما سميت بذلك لان السائر فيها يقول لمن معه : مه ، مه . يريد : اكفف ، اكفف .

وجئت من النظم والنثر بِنُبْذَةٍ توضّح للطالب سُبُلَه ، وتُظهر علمَه ونُبْلَه ، وتُتْرَعُ كأسُ محاسنِه من راح المذاكرة وإناؤه ، حتى يَرى حُسْنَ هذا التأليفِ أبناءُ هذا التصنيف وأدباؤه . وكنت في المغرب . وظلالُ الشباب ضافية ، وسماءُ الأفكار من قَزَعِ الأكدار صافية(١) . معتنياً بالفحص عن أنباء أبناء الأندلس ، وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والأنفس ، ومالهم من السَّبْق في ميدان العلوم ، والتقدم في جهاد العدوّ الظّلوم ، ومحاسن بلادهم . ومواطن جدالهم وجِلادهم(٢) ، حتى اقتنيتُ منها ذخائرَ يرغب فيها الأفاضل الأخاير ، وانتقيتُ جواهرَ فرائدُها للعقول بَواهر ، واقتطفتُ أزاهرَ أنْجُمُها في أفقِ المحاضرة زواهر ، وحَصَّلْتُ فوائدَ بَواطنَ وظَواهر ، طالما كانت أعين الألبّاء لِنَيْلها سواهر ؛ وجمعتُ من ذلك كلِماً عالية ، ولو خاطب بها الداعي صُمَّ الجَلامِد لانْبَجَسَ حَجَرُها(٣) ، وحِكَماً غاليةً لو عامَلَ بها الأيامَ ربح مَتْجَرُها ، وأسجاعاً تَهتز لها الأعطاف . ومواعظَ يعمل بمقتضاها مَنْ حَفَّتْ به الألطاف . وقوافي موقورةَ القَوادم والخَوافي(٤) يثني عليها مَنْ سَلِم من الغباوة والصمم . ويعترف ببراعتها مَنْ لا يَعْتَريه اللَمَمُ(٥) ، وطالما أعرض الجاهلُ الغَمْر بوجهه عن مثلها وأشاح . وأنصت لها

---

(١) القزع (بفتح القاف والزاي) : قطع من السحاب متفرقة .

(٢) الجلاد : المجالدة في القتال .

(٣) الجلامد : جمع جلمود : الصخر . وانبجس : خرج منه الماء .

(٤) القوادم : ريشات في مقدم جناح الطائر ، واحدها قادمة ، والخوافي تقابلها. وموقورة : عليها الأوقار (جمع وقر بكسر الواو وسكون القاف) ، وهو الحمل الثقيل .

(٥) اللمم : الجنون ، وصغار الذنوب .

الحَبْرُ إنصاتَ السوّار لِجَرْسِ الحلي ونَغَمِ الوُشاح(١) . وفرح إن ظَفِر بشيء منها فرَح الصائد بالقَنيص . والساري العاري ذي البطنِ الخميص بالزاد والقميص ، وتركتُ الجميع بالمغرب ، ولم أستصحب معي منه ما يُبيِّنُ عن المقصود ويُعْرِب ، إلا نَزْراً يسيراً علِقَ بحفظي . وحلّيْتُ بجواهره جِيْدَ لفظي ، وبعضَ أوراق سَعِدَ في جواب السؤال بها حظي . ولو حضرني الآنَ ما خلّفْتُهُ ، مما جمعتُ في ذلك الغرض وألّفْتُه ، لَقَرَّتْ به عيونٌ ، وسُرَّتْ ألباب ، إذ هو — والله — الغايةُ في هذا الباب ، ولكنَّ المرءَ ابنُ وقته وساعته ، وكلٌّ يُنفق على قَدْرِ وُسْعِه واستطاعته . وعُذْرُ مثلي بادٍ . للمصنفين من العباد . إن قصّرتُ فيما تبصرت . أو تَخلّفْتُ في الذي تَكلّفْتُ . أو أضعْتُ تحريرَ ما وضعت . والتقمتُ ثديَ التقصير ورضعت . أو أطعتُ داعيَ التواني فتأخرت عمن سبق وانقطعت . إنْ أريدُ إلا الإصلاحَ ما استَطَعْتُ . ومن كانت بضاعتُه مُزْجاةً(٢) . فهو من الإنصافِ بمَنْجاةٍ ، إذا أتى بالمقدور . وتَبَرَّأ من الدعوى في الوُرود والصُّدور . وعينُ الرضى عن كل عيب كَليلَة(٣) . والسلامةُ من الملامة متعذرة أو قليلة ، وقد قال إمامنا مالكٌ(٤) صاحب المناقب الجليلة : « كلُّ كلامٍ

(١) الوشاح (بضم الواو وكسرها) : كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر . والكرس : لآلىء أو جواهر منظومة .

(٢) البضاعة المزجاة : القليلة .

(٣) أخذ هذا من بيت ينسب إلى عبد الله بن معاوية ، وهو قوله :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

(٤) هو الإمام مالك بن أنس الأصبحي الحميري المتوفى سنة ١٧٩ هـ = ٧٩٥ م وإليه ينسب المالكية ومذهبه رابع مذاهب أهل السنة والجماعة . وعليه عمل معظم أهل المغرب العربي .

يُؤْخَذُ منه ويُرَدّ إلا كلامَ صاحبِ هذا القبرِ » صلى الله عليه وسلم أزكى صلاةٍ وأتمَّ سَلامٍ ، وشفى بجاهه من الآلام قلوبَنا العليلة ، وجَعَلَنا مِمَّن كان اتّباعُ سُنَّتِه رائدَهُ ودَليلَه . آمين .

والحمدُ لله الذي يسّر لي هذا القَدْر ، مع ضيقِ الصدر ، وقلةِ بضاعتي ، وكثرةِ إضاعتي ، فإنَّ حَمْدَهُ — جلَّ جَلالُه — تَتَضَوَّع به المطالب طيباً ، وتُقضى ببركته المآرب فيَرْقى صاحبُها على مِنْبَرِ القَبول خطيباً . وتَعْذُب به المشارِبُ فَتُنْبِتُ في أرض القِرْطاس ، مِن زاكي الغِراس ، ما يروق منظراً نَضيراً ، ويُوْرِقُ غصناً رطيباً . وقد أتيتُ من المقال — إن شاء الله تعالى — ما يقر عينَ وامق ، ويُرْغِمُ أنفَ قالٍ(١) .

* * *

فدونَكَ ، أيها الناظر في هذا الكتاب ، المُتجافي عن مذهب النقد والعتاب ، كلماتٍ اخْتُلِسَت مع اشتغال الجوانح ، وتَضادُّ الأمورِ الموانعِ والموانح ، وألفاظاً بَوارِحَ اقْتُنِصَتْ بين أشغال الجوارح ، وطُرَفاً أسَمْتُ الطَرْفَ في مَرعاها وكانَتْ هَمَلاً غيرَ سَوارِح(٢) ، وتُحَفاً يحصل بها لناظره الإمتاع ، ولا يَعُدُّها مِنْ سَقَطِ المتاع المبتاع ، ويَلْهَجُ بها المرتاح ، ويستأنِسُ بها المستوحشُ المُرتاع .

* * *

(١) الوامق : المحب ، والقالي : الكاره المبغض .
(٢) البوارح ، من الصيد : ما مر من ميامنك إلى مياسرك (القاموس) .
هملا : متروكة بغير راع .

أقسامُ الكتاب وأبوابُه

وبعد أن خَتَمْتُ تمامَ هذا التصنيف . وأمعنتُ النظر فيما يَحْصُلُ به التقريطُ لسامِعه والتشنيف(١) قسمته قسمين . وكلٌ منهما مستقلٌ بالمطلوب فيصح أن يُسَمّيا باسمين :

القسم الأول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المُتْرَعةِ الأكواب، والأنباءِ المنتحيةِ صوبَ الصواب ، الرافلةِ من الإفادة في سوابغِ الأثواب(٢) . وفيه بحسب القصر والاقتصار . وتحرّي التوسط في بعض المواضع دون الاختصار ثمانيةٌ من الأبواب :

الباب الأول : في وصف جزيرة الأندلس . وحُسْنِ هوائِها . واعتدالِ مزاجها ، ووُفور خيرها ، وكمالِها واستوائِها ، واشتمالِها على كثيرٍ من المنافعِ والمحاسنِ واحتوائها ، وكَرَمِ نباتِها الذي سَقَتْه سماءُ البَركَات مِنْ جَنَباتِها بنافعِ أنوائها . وذِكْرِ بعضِ مـآثرها المجلوّةِ الصُّوَر ، وتَعدادِ كثيرٍ مما لها من البلدان والكُوَر(٣) . المستمدة من أضوائها .

* * *

---

(١) أصل التقريط : إلباس القرط ، والتشنيف : إلباس الشنف ، وهما حليتان للأذن .

(٢) الثوب السابغ : الواسع التام ، الطويل .

(٣) الكور : جمع (كورة) وهي المدينة أو الصقع ، أو البقعة فيها قرى ومحال . ويقابلها في العصر الحديث : الناحية أو المنطقة .

الباب الثاني : في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد موسى بن نُصَيْر ومولاه طارق بن زياد ، وصيرورتها ميداناً لِسَبْقِ الجياد ، ومحطّ رِحال الارتياء والارتياد ، وما يتبع ذلك من خبرٍ حصل بِازْدِيانِه زياد ، ونبأٍ وصل إليه اعتيام(١) ، وتقرر بمثله اعتياد .

* * *

الباب الثالث : في سرد بعض ما كان للدِّيْن بالأَنْدَلُس من العز السامي العماد ، والقَهْرِ للعدوّ في الرَّواح والغُدُوّ ، والتحركِ للهُدُوّ ، البالغِ غاية الآماد ، وإعمالِ أهلها للجهاد بالجِدّ والاجتهاد، في الجبالِ والوِهاد ، بالأَسِنَّةِ المُشْرَعَةِ والسيوفِ المُسْتَلَّةِ من الأَغماد .

* * *

الباب الرابع : في ذِكْرِ قُرْطُبَةَ التي كانت الخلافةُ بِمِصْرِها للأعداء قاهرة . وجامعِها الأُمَوِيِّ ذي البدائع الباهيةِ الباهرة ، والإلماع بِحَضْرَتَي المُلْك : الزهراءِ الناصرِيّة ، والعامريّةِ الزاهرة(٢) ، ووصف جملةٍ من مُتَنَزَّهاتِ تلك الأقطار ، ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة(٣) ، وما يجرّ إليه شُجونُ الحديث(٤) من أمورٍ تقضي بحسن إيرادها القرائحُ الوَقّادة ، والأفكار الماهرة .

* * *

---

(١) الاعتيام : مصدر (اعتام ، يعتام) ومعناه : اختار يختار .
(٢) انظر حديثاً عن مدينتي الزهراء والزاهرة في موضعهما مما سيأتي عنهما .
(٣) المصانع : جمع (مصنع) وهي هنا : القرى والقصور والحصون .
(٤) شجون : جمع (شجن) بفتح فسكون : الشعبة من كل شيء .

الباب الخامس: في التعريف ببعض مَنْ رَحَل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الذاكية العرارِ والبَشام(١) ، ومَدْحِ جماعةٍ من أولئك الأعلام ، ذوي الألباب الراجحة والأحلام ، لِشامةِ وَجْنَةِ الأرضِ دمشقَ الشام ، وما اقتضته المناسبةُ من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوي السُّؤْدُدِ والاحتشام . ومخاطباتهم للمؤلف الفقير حين حلَّها عام سبعةٍ وثلاثين وألف ، وشاهدَ بَرْقَ فَضْلِها المبين وشام(٢) .

* * *

الباب السادس : في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المَشْرق . المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المُشْرِق . والأكابر الذين حلّوا منها بحلولهم فيها الجيدَ والمَفْرِق(٣) ، وافتخروا برؤية قُطرِها المُونِق على المُشْئِم والمُعْرِق(٤) .

* * *

الباب السابع : في نُبْذَةٍ مما مَنَّ اللهُ تعالى به على أهل الأندلس من تَوَقُّدِ الأذهان ، وبَذْلِهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عزَّ وهان ، وحَوْزِهم في ميدان البراعة من قَصَبِ السَّبْقِ خَصْلَ الرِّهان(٥) ، وجملةٍ من أجوبتهم الدالَّةِ على لَوْذَعيتهم(٦) ،

---

(١) العرار : بهار البر ، وهو نبت طيب الريح ، أو هو النرجس البري .
والبشام : شجر عطر الرائحة يستاك بقضيبه ، ويدق ورقه ويخلط بالحناء فيسود الشعر .

(٢) شام البرق : تتبعه بنظره . والسؤدد : المجد والشرف والسيادة .

(٣) الجيد : العنق ، والمفرق : الموضع الذي يفرق فيه الشعر من الرأس .

(٤) المشئم : الذي دخل الشام ، والمعرق : الذي دخل العراق .

(٥) كان من عادتهم إذا استبقوا أن يغرزوا في آخر الحلبة قصبة يأخذها من يجيء أولا ، وإذا أرادوا التعبير عن رجل بأنه سبق من جاراه قالوا : أحرز فلان قصب السبق من ذلك . والخصل : إصابة القرطاس أو أن يقع السهم بلزق القرطاس .

(٦) اللوذعية : اللوذعي : الخفيف ، الذكي ، الظريف ، الحديد الفؤاد ، اللسن=

والأوصاف المؤذنة بألمعيتهم(١) وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضحُ بُرهان .

* * *

الباب الثامن : في ذِكْرِ تَغَلُّب العَدُوِّ الكافرِ على الجزيرة بعد صَرْفِهِ وجوهَ الكيد إليها ، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بِمَكْرِهِ ، واستعماله في أمرها حِيَلَ فِكره ، حتى استولى — دَمَّرَهُ الله — عليها، ومحا منها التوحيدَ واسْمَهُ ، وكتب على مشاهدها ومَعاهدها وَسْمَهُ ، واستغاثة مَنْ بها بالنظم والنثر ، أهلَ ذلك العصر ، من سائر الأقطار ، حين تَعَذَّرت بحصارها ، مع قلة حُماتها وأنصارها ، المآربُ والأوطار ، وجاءها الأعداء مِنْ خلفها ومن بين يديها ، أعاد الله تعالى إليها كلمة الإسلام ، وأقام فيها شريعة سيدِ الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ ورفع يدَ الكفرِ عنها وعمّا حَواليها . آمين .

ولم أُخْلِ باباً في هذا القسم من كلامٍ للسان الدين بن الخطيب وإن قلَّ ، مع أن القسم الثاني بذلك — كما ستقف عليه — قد استقل .

وهذا آخر ما تعلق بالقسم الأول ، وعلى الله — سبحانه — المُتَّكل والمُعوَّل .

* * *

= الفصيح ، كأنه يلذع بالنار من ذكائه (القاموس) .

(١) الألمعية : الألمعي : الذكي المتوقد ، والداهي الذي يتظنى الأمور فلا يخطىء . والخفيف الظريف ، والحديد اللسان والقلب .

القسم الثاني

في التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وذِكْرِ أنبائه التي يَروقُ سماعُها ويتأَرَّجُ نَفْحُها ويَطيب ، وما يناسبها من أحوال العلماء الأفراد ، والأعلام التي اقتضى ذكرَهُم شُجونُ الكلام والاستطراد، وفيه أيضاً من الأبواب ثمانيةٌ موصلةٌ إلى جنّاتِ أدبٍ قُطوفُها دانية، وكلُّ غُصْن منها رَطيب :

الباب الأول : في ذكر أوّليّة لسانِ الدين وذكرِ أسلافِه الذين وَرِث عنهم المجدَ وارتَضَعَ أدَرَّ أخْلافِه(١) ، وما يناسب ذلك مما لا يذهب المنصفُ إلى خلافه .

* * *

الباب الثاني : في نشأتِه وترقّيْه ووزارتهِ وسعادته ، ومساعدةِ الدهرِ له ثم قَلْبِه له ظهرَ المجَنّ(٢) في مصافاته ومنافاته ، وارتباكه في شِباكه . وما لقي من إِحَن الحاسد(٣) ، ذي المذهب الفاسد ، ومِحَن الكائد المستأسدِ وآفاته . وذكرِ قُصورِهِ وأمواله . وغير ذلك من أحواله ، في تَقَلُّباته عند ما قابله الزمان بأهواله ، في بدئه وإعادته إلى وفاته .

* * *

الباب الثالث : في ذكر مشايخه الجِلّة . هُداةِ الناس ونجوم المِلّة ، وما يتصل بذلك من الأخبار الشافية للعِلّة ، والمَواعظِ

(١) الدر : اللبن . والأخلاف : جمع (خلف) بكسر فسكون : حلمة الضرع .

(٢) قلب له ظهر المجن : أظهر له العداوة والبغضاء . والمجن : الترس .

(٣) الإحن : جمع (إحنة) وهي الحقد والغضب .

المُنْجِيةِ من الأهواء المُضِلّة ، والمناسباتِ الواضحةِ البراهين والأدلة .

* * *

الباب الرابع : في مخاطبات الملوك والأكابر الموجّهة إلى حضرته العَليّة . وثناء غيرِ واحدٍ من أهل عصره عليه ، وصَرْفِ القاصدينَ وجوهَ التأميلِ إليه ، واجتلائهم أنوار رئاسته الجَليّة .

* * *

الباب الخامس : في إيراد جملةٍ من نثره الذي عَبِقَ أريجُ البلاغة من نَفَحاته ، ونَظْمِهِ الذي تألق نُورُ البراعة من لمحاته وصَفَحاته ، وما يتصل بذلك من بعض أزجاله ومُوَشّحاتِه ، ومناسباتٍ رائقةٍ من فنون الأدب ومصطلحاته .

* * *

الباب السادس : في مُصَنّفاته في الفنون ، ومؤلفاته المُحَقّقة للواقف عليها الآمالَ والظنون ، وما كَمُلَ منها أو اخْتَرَمَتْهُ دونَ إتمامه المَنون(١) .

* * *

الباب السابع : في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه . المستدلّين به على المنهاج ، المتلقّين أنواعَ العلوم منه ، والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهاج .

* * *

---

(١) المنون : الموت والمنية والزمان . واخترمه الموت : سبق إليه .

الباب الثامن : في ذكر أولاده الرافلين في حُلل الجلالة ، المقتفين أوصافَه الحميدة وخِلالَه ، الوارثين العلمَ والحلمَ والرياسة والمجدَ من غير كَلالة(١) ، ووَصِيَّته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا المشتملة على النصائح الكافية . والحِكَم الشافية من كل مرضٍ بلا ثُنْيا ، المنقذة من أنواع الضلالة . وما يتبع ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية . التي لها على حُسْن الختام أظهرُ دَلالة . .

* * *

وقد كنتُ أولاً سَمَّيْتُه بـ (عرفَ الطِّيْب ، في التعريف بالوزير ابن الخطيب) ثم وَسَمْتُه حين ألحقت أخبار الأندلس به بـ (نَفْح الطِّيْب ، من غصن الأندلس الرّطيب، وذكرِ وزيرها لسان الدين بن الخطيب) .

وله بالشام تَعَلُّقٌ من وجوهٍ عديدة ، هاديةٍ لمتأمِّله إلى الطرق السديدة .

أولها : أن الداعي لتأليفه أهلُ الشام ، أبقى اللهُ مآثرهم ، وجعلها على مَرِّ الزمانِ مديدة .

ثانيها : أن الفاتحين للأندلس هم أهلُ الشام ، ذوو النجدة والشوكةِ الحديدة(٢)

ثالثها : أن غالب أهل الأندلس من عَرَب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطناً مُسْتأنَفاً وحَضْرةً جديدة .

ورابعها : أنَّ غَرْناطَةَ نزل بها أهلُ دمشق .

(١) الكلالة : قرابة الإنسان غير أصوله وفروعه ، ويقولون : (ورث فلان المجد عن غير كلالة) يريدون أنه ليس دعياً فيه ، لأنه انحدر إليه مع الدم من أسلافه .

(٢) الشوكة : القوة ، والحديدة : مأخوذ من الحدة ، وأراد أنها نافذة إلى ما تريد ، لا يعوقها شيء .

هذا وإني أسأل ممن وقف عليه ، أن ينظر بعين الإغضاء إليه ، كما أطلب ممن كان السبب في تصنيفه ، والداعي إلى تأليفه وترصيفه ، استناداً لركن الثقة ، واعتماداً على الوُدّ والمِقَة (١) أن يصفح عما فيه من قصور ويسمح ، ويلاحظه بعين الرضى الكليلة ويلمح ، إذ رَكِبْتُ شكل مَنْصِبه والأشجانُ غالبة ، وقضيةُ الغربة موجبة للكُرْبة ، ولبعض الآمال سالبة ، وهو — وإنْ لم يُوْفِ بكل الغرض — فلا يخلو من فائدة ، وقد يُسْتَدَلُّ على الجوهرِ بالعَرَض . فإنْ أَدَّيْتُ المُفْتَرَضَ ، فذاكَ المرامُ الذي أرتضيه ، ويوجبُ الوُدَّ ويقتضيه ، وإلا فحسبي أن بَذَلْتُ به جُهْدي ، وأنفقتُ مِنْ وُجْدي (٢) ، على قَدْرِ ما عندي . وقد توهَّمْتُ أني لم أُسْبَقْ إلى مثله في بابه ، إذ لم أقف له على نظير أتعلق بأسبابه . ورجوتُ أن يكون هديةً مُسْتَملحةً مُسْتَعْذَبَة ، وطُرْفةً مقبولةً مُسْتَغْرَبَة (٣) .

وأسأل مِنْ مُبْلغِ السائلين ما يرجون ، أن يصفح عن زَلاتي ، ويسامحني فيما أوردتُ في هذا الكتاب من الهزل والمجون ، الذي جَرَّت المناسبةُ إليه ، والحديث شُجون ، وما القصدُ منه إلا ترويحُ قلوبِ الذين يسوقون عِيسَ الأسمار ويُزْجُوْن (٤) ، وفيما أوردتُ من المواعظ والنصائح ، وحكايات الأولياء الذين طِيْبُ زَهْرِ مناقبهم فائح ، والتَّوَسُّلِ بمحاسن الأمداح النبوية أن يستر بفضله — سبحانه— القَبَائح . ويُرينا وجهَ القبول بلا اكتتام ، ويَمْنَحنا الزُلْفى (٥)

(١) المقة : الحب أو أشده .
(٢) الوجد : الغنى والسعة .
(٣) الطرفة : الشيء الطريف .
(٤) يزجون : يسوقون .
(٥) الزلفى : القربى .

الأندلس الطبيعية

وحُسْنَ الختام . ومَنْ يتوسل بالنبي محمد شفيعِ البرايا ، السيِّدِ السَّنَدِ الأسنى ، فذاك جديرٌ أن يكفَّر ذنبُه ، ويُمنح نيل القصد والخَتْمَ بالحُسنى .

وهذا أوانُ الشروع ، في الأصول من هذا الكتاب والفروع ، وعلى الله — سبحانه — أعتمد ؛ ومن معونته أستمدّ .

* * *

تسمية الأندلس

ما قيل في تسمية الأندلس :

قال أبو بكر عبدُ الله بن عبد الحكم المعروف بابن النّظّام :

وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام — فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان . على ما يذكره علماءُ عَجَمِها — قومٌ يُعْرَفون بالأندلش — معجمة الشين — بهم سُمِّيَ المكان ، فَعُرِّب — فيما بعدُ — بالسين غير المعجمة ؛ كانوا الذين عمروها وتناسلوا فيها ، وتداولوا مُلْكَها دهراً .

وقال قاضي القضاة ابنُ خَلْدُوْن الحَضْرَمي في تاريخه الكبير (١)

---

(١) وهو عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، أبو زيد ، ولي الدين ، الحضرمي ، المعروف بابن خلدون : فيلسوف مؤرخ ، مؤسس علم الاجتماع ، أصله من إشبيلية ، وولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م ، ونشأ بها ، ورحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ، وتولى أعمالا ، وتوجه إلى مصر وولي فيها قضاء المالكية . توفي فجأة بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م . له مصنفات كثيرة أشهرها كتابه في التاريخ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) المعروف بتاريخ ابن خلدون وهو في سبعة مجلدات ، أولها مقدمة له تعرف بمقدمة ابن خلدون . طبع مراراً .

ما صورته : كان هذا القطرُ الأندلسيُّ من العُدْوَة الشمالية من عُدْوَتي البحر الرومي (١) ، وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش ؛ وتسكنه أممٌ من إفرنجة المغرب، أشدُّهم وأكثرُهم الجَلالِقَة(٢) .

وقال ابنُ سعيد : إنما سُمِّيت بالأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح ، لأنه نزلها ، كما أن أخاه سَبْتَ بن يافث نزل العُدْوَةَ المقابلة لها ، وإليه تُنْسَبُ سَبْتَةُ .

وقال ابن غالب : إنه أندلسُ بنُ يافِث . والله تعالى أعلم

* * *

ما قيل في تسمية هذه البلاد إسبانية :

قال ابن النَّظّام :

ثم صار مُلْكُ الأندلس بعدهم إلى عَجَم رومة ومَلِكُهم إشبان ابن طيطش ، وباسْمِهِ سُمِّيَتْ الأَنْدَلُسُ (إشْبانِيَة) .

وذكر بعضهم أن اسمه (أصبهان) فأحيل بلسان العجم .

وقيل : بل كان مولده بأصبهان فغلب اسمه عليها ؛ وهو الذي بنى إشبيلية ،وكان (إشبانية) اسماً خالصاً لبلد (إشبيلية) الذي كان ينزله (إشبان) هذا ، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كلها .

---

(١) العدوة : شاطىء الوادي وشفيره (والعين مثلثة) . والبحر الرومي : هو البحر الأبيض المتوسط .

(٢) الجلالقة : هم أهل جليقية وهي ناحية قرب ساحل البحر المحيط ، من ناحية شمالي الأندلس ، في أقصاه من جهة الغرب .

فالعجم يسمونه (إِشبانية) لآثارِ (إشبان) هذا فيه ؛ وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا ، وكان غزا الأفارقةَ عندما سلطه الله عليهم في جموعه ، ففضّ عساكرهم ، وأثْخَنَ فيهم (١)، ونزل عليهم بقاعدتهم (طالقة) وقد تحصنوا فيها منه فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم . واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها الله عليه ، وغلبهم، واستوت له مملكة الأندلس بأسرها . ودان له مَنْ فيها ، فهدم مدينة (طالقة) ونقل رخامها وآلاتِها إلى مدينة (إشبيلية) فاستمّ بناءَها ، واتخذها دارَ مملكته . واستغلظَ سلطانه في الأرض (٢) ، وكَثُرَتْ جُموعُه ، فَعَلا وعَظُمَ عتُوُّه ؛ ثم غزا إيليا – وهي القدس الشريف– من إشبيلية بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها في السفن ، فَغَنِمَها وهَدَمَها ، وقتل فيها من اليهود مئة ألف ، واسترقّ مئة ألف ، ونقل رُخامَ (إيليا) وآلاتِها إلى الأندلس ، وقَهَرَ الأعداءَ ، واشتد سلطانُه.

* * *

وقال ابنُ حَيّان في « المُقْتَبَس » :

ذكر رواة العجم أن الخَضِر – عليه السلام – وقف على إشبان المذكور وهو يحرث الأرض بِفُدُنٍ له (٣) أيامَ حراثته فقال له : يا إشبان إنك لذو شأن ، وسوف يُحْظيكَ زمان (٤) ، ويُعليك

(١) أثخن فيهم : أكثر فيهم من القتل .

(٢) استغلظ سلطانه : قوي نفوذه واشتد .

(٣) الفدن : جمع (فدان) أو (فدان) ، وهو آلة يربط بها ثوران تحرث بها الأرض .

وقيل : الفدان : الثوران اللذان يقرنان للحرث .

(٤) يحظيك : يكسبك الحظ والبخت .

سلطان ، فإذا أنتَ غلبتَ على إيليا فارْفُقْ بذُرِّيّةِ الأنبياء . فقال له إشبان : أساخِرٌ بي ــ رَحمَكَ الله ــ ؟ أنّى يكونُ هذا مني وأنا ضعيفٌ مُمْتَهَنٌ حقيرٌ فقير ، ليس مثلي ينال السلطان ؟

فقال له : قد قدّر ذلك فيك مَنْ قَدّر في عصاك اليابسة ما تراه، فنظر إشبان إلى عصاه فإذا بها قد أورقت . فَرِيعَ لِما رأى من الآية ، وذهب الخَضِر عنه وقد وقع الكلامُ بِخَلَدِه (١) ، ووَقَرَت في نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتهانَ من وقته . وداخَلَ الناسَ ، وصَحِبَ أهلَ البأس منهم ، وسما به جَدُّه فارتقى في طلب السلطان حتّى أدرك منه عظيماً ، وكان منه ما كان ، ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله(٢). وكان مُلْكُه كلُّه عشرين سنة ؛ وتمادى مُلْكُ الإشبانيين بعده إلى أنْ مَلَكَ منهم الأندلسَ خمسةٌ وخمسون ملكاً .

* * *

تسمية الأندلس بالجزيرة :

قال ابن النظّام : وصفة الأندلس شكل مرْكَن (٣) ، على مثال الشكل المثلث ركنُها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادِس ، وركنُها الثاني في بلد جِلّيقِيّة حيث

(١) الخلد : البال والنفس .

(٢) القرون : جمع (قرن) وهو من السنين مئة سنة ، وقيل عشر ، أو عشرون ، أو ثلاثون . أو ستون ، أو سبعون ، أو ثمانون أو مئة وعشرون . والأول المختار . والقرن أيضاً : الأمة ، وأهل زمان واحد .

(٣) المركن : يريد أنه ذو أركان .

الصَّنم المشبه صَنَمَ قادس ، مقابل جزيرة برطانية ؛ وركنُها الثالث بين مدينة (بَرْبونة) ومدينة (بَرْديل) من بلد الفرنجة ، حيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامي المتوسط (١) . فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع ، فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة ، لولا أنه يبقى بينهما بَرْزَخٌ بريَّة . وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب . منه المدخل إلى الأرض الكبيرة (٢) التي يقال لها (الأبواب) . ومِنْ قِبَله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة، ذات الألسن المختلفة .

وقال ابن سعيد : ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزُّقاق والبحر المحيط أربعون مِيْلاً . وهذا عَرْضُ الأندلس عند رأسها من جهة الشرق ؛ ولقلّته سميت جزيرة ، والا فليست بجزيرة على الحقيقة ؛ لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة . وعرض جزيرة الأندلس في مُوَسَّطِها عند طُلَيْطلَة ستة عشر يوماً . واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل .

* * *

(١) يريد بالبحر المحيط المحيط الأطلسي ، وبالبحر الشامي البحر الأبيض المتوسط .
(٢) يريد بالأرض الكبيرة قارة أوروبا بدءاً بفرنسا .

موقع الأندلس ومساحتها ومزاياها

موقعها من الأقاليم :

ذكر الرازي أن الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي تقدم ذكرها التي هي ربع معمور الدنيا ، فهي مُوَسّطة من البلدان ، كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مُخْصِبة القاعة (١) ، منبجسة العيون الثِّرار (٢) ، منفجرةُ الأنهار الغِزار ، قليلةُ الهَوامّ ذات السُّموم ، معتدلة الهواء أكثرَ الأزمان لا يزيد قَيْظُها زيادة مُنْكَرة تَضُرُّ بالأبدان ، وكذا سائرُ فُصولِها في أعمِّ سِنيها ، تأتي على قَدْرٍ من الاعتدال ، وتوسُّطٍ من الحال .

وقال ابن سعيد : ويمر بجزيرة الأندلس الإقليم الرابع على ساحلها الجنوبي وما قاربه من قرطبة وإشبيلية ومُرْسِيَة وبَلَنْسِيَة ، ثم يمر على جزيرة صِقِلِّيَة وعلى ما في سَمْتيهامن الجزائر ،والشمس مدبرة له .

(١) أراد بالقاعة السهل من أرضها .

(٢) الثرار : جمع (ثرة) وهي العين الغزيرة الماء .

والإقليم الخامس يمر على طُلَيْطِلة وسرقسطة وما في سَمْتِها إلى بلاد أرغون التي في جنوبيها برْشِلُونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبره الزُهرة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالي الذي على البحر المحيط وما قاربَه وبعض البلاد الداخلة في قَشْتالة وبُرْتقال (١) وما في سَمْتِها . وعلى بلاد بُرْجان والصقالبة ، والروس ، ومدبره عُطارِد .

ويمر الاقليم السابع في البحر المحيط الذي في شماليّ الأندلس إلى جزيرة انقلطرة وغيرها من الجزائر وما في سَمْتِها من بلاد الصقالبة وبُرْجان .

قال البيهقي : وفيه تقع جزيرة تولى ، وجزيرتا أجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة في الشمال والبلغار ، ومَدْبَرُه القمر .

وقال أبو عامر السلمي في كتابه المسمى بِدُرَر القلائد وغُرَر الفوائد : الأندلسُ من الإقليم الشامي ، وهو خير الأقاليم ، وأعْدَلُها هواءً وتراباً ، وأعْذَبُها ماءً ، وأطيبُها هواءً وحيواناً ؛ وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوساطها .

* * *

كيف كانت الأندلس متصلة بالمغرب ثم فصلت عنه

قال غير واحد من المؤرخين : كان أهل المغرب الأقصى يُضَرّون بأهل الأندلس ، لاتصال الأرض ، ويَلْقَوْنَ منهم الجَهد الجَهيد في

(١) وتسمى اليوم : البرتغال ، بالغين المعجمة .

كل وقت ، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر ، فشكوا حالهم إليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزُّقاق ، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي ، فوجدوا المحيط يعلو البحرَ الشاميَّ بشيءٍ يسيرٍ . فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي ، ونَقْلِها من الحضيض إلى الأعلى . ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض ، فحُفِرتْ حتى ظهرت الجبال السفلية ، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناءً مُحْكماً ، وجعل طوله اثني عشر ميلاً ، وهي المسافة التي كانت بين البحرين ، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طَنْجَة ، وجعل بين الرصيفين سَعَةَ ستة أميال . فلما كَمُلَ الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم ، وأطلق فَمَ الماء بين الرصيفين ، فدخل في البحر الشامي . ثم فاض ماؤه ، فأغرق مدناً كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين . وطفا الماء على الرصيفين إحدى عَشْرةَ قامَةً ؛ فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بيِّناً مستقيماً على خطٍ واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذي من جهة العُدْوَة فإن الماء حمله في صدره . واحتفر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسَبْتَة وطَنْجَة ، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد ، وجزيرة طَرِيف وغيرهما ، والجزيرة الخضراء ؛ وبين سبتة والجزيرة الخضراء عرض البحر .

* * *

شكل أرض الأندلس وتحديدها

شكلها مثلث :

قال الرازي : وشكلها مثلث ، وهي معتمدة على ثلاثة أركان :

الأول : هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس ، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي الآخذ بقبلي الأندلس .

والركن الثاني : هو بشرقي الأندلس بين مدينة بربونة ومدينة بَرْديل مما بأيدي الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتي مَيُورْقة ومنورقة بمجاورة من البحرين : البحر المحيط . والبحر المتوسط . وبينهما البر الذي يعرف بالأبواب ، وهو المدخل إلى بلاد الأندلس . من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة . ومسافته بين البحرين مسيرة يومين ، ومدينة بَرْبونة تقابل البحر المحيط .

والركن الثالث منها: هو مابين الجوف والغرب من حَيِّز جِلِّيقية، حيث الجبل الموفي على البحر ، وفيها الصنم العالي المشبه بصنم قادس، وهو الطالع على بلد برطانية . .

وقال ابن النظّام : وصفةُ الأندلس على مثال الشكل المثلث : ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادِس . وركنها الثاني في بلد جِلّيقيّةَ حيث الصنم المشبه صنم قادس . مقابل جزيرة برطانية . وركنها الثالث بين مدينة بَرْبونة ومدينة برْديل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامي المتوسط . فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع . فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة . لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء ، وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب ، منه المدخل إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها الأبواب. ومن قِبَلِه يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة .

* * *

تحديدها :

قال ابن سعيد : ومسافةُ الحاجز الذي بين بحر الزُّقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً . وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق . ولقلّتِه سميت جزيرة،وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة،لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة . وعرضُ جزيرة الأندلس في مُوَسّطِها عند طُلَيْطِلَة ستةَ عَشَرَ يوماً .واتفقوا على أن جزيرةَ الأندلس مثلثةُ الشكل .

واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حَيِّز (أربونة).

فممن قال إنه في أربونة ، وأن هذه المدينة تقابلها مدينة بَرْديل التي في الركن الشرقي الشمالي أحمد بن محمد الرازي وابن حيان.

وفي كلام غيرهما أنه في جهة أربونة . وحقق الأمر الشريفُ ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده في الأسفار براً وبحراً ، وتفرّغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف . وأن أربونة وبرشلونة وطرّكونه في موضع يُعْرف بوادي زَنْلَقْطُو ، وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة . وفي هذا المكان جبل (البرت) (١) الفاصل في الحاجز المذكور . وفيه الأبواب التي فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل . ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريقٌ في البر ، وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الزُقاق البحرُ الذي بين جزيرتي مَيُوْرْقَة ومَنُورقَة ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية . ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة بَرْديل ، وهي من مدن الإفرنجة مطلةٌ على البحر المحيط . في شمال الأندلس .

قال : ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى الشمال في بلاد الفرنجة ، ولهم بها جزائر كثيرة ، ودوكرا من الركن الشمالي عند (شنت ياقوه) من ساحل الجلالقة ، في شمال الأندلس ، حيث تبتدىء جزيرة برطانية الكبيرة ، فيتصور هنالك بحرٌ داخلٌ بين أرضين ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط ، لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة بَرْدِيل .

---

(١) لعله يريد جبال (البرنة) التي تفصل بين إسبانيا وفرنسا .

وذكر الشريف أن عند (شنت ياقوه) في هذا الركن المذكور على جبلٍ بمجمع البحرين صنماً مُطلاً مشبهاً بصنم قادِس .

والركن الثالث بمقربةٍ من جبل الأغر حيث صنم قادس . والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط ماراً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور .

* * *

الأندلس أندلسان

تقسيم الأندلس إلى قسمين وحدود كل منهما :

قال الشيخ أحمد بن موسى الرازي : الأندلس أندلسان ، في اختلاف هبوب أرياحها ، ومواقع أمطارها ، وجريانِ أنهارها : أَنْدَلُسٌ غربي ، وأندلسٌ شرقي .

فالغربي منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي ، وتُمْطَر بالرياح الغربية ،ومبتدأ هذا الحَوْز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شَنْتَمَرِيّة طالعاً إلى حَوْز إغريطة المجاورة لِطُلَيْطِلة ، مائلاً إلى الغرب ، ومجاوراً للبحر المتوسط الموازي لقَرْطاجَنّةِ الحلفاء التي من بلد لُوْرَقَة .

والحوْز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجري أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية ، وهو من حَدِّ جبل البشكنش هابطاً مع وادي إِبْرة إلى بلد (شَنْتَ مَرِيّة) . ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفي القِبلة منه البحرُ الغَربي الذي منه يجري البحر المتوسط

الخارج إلى بلد الشام ، وهو البحر المسمى ببحر (تيران) ، ومعناه : الذي يشق دائرة الأرض ، ويسمى البحر الكبير .

وقال أبو بكر عبد الله بن عُبد الحَكَم المعروف بابن النظام : بلد الأندلس عند علماء أهله أندلسان :

فالأندلس الشرقي منه ما صَبّتْ أوديتُه إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق . وذلك ما بين مدينة تُدْمير إلى سَرَقُسْطَة .

والأندلس الغربي ما صَبّتْ أوديتُه إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحد إلى ساحل المغرب .

فالشرقي منهما يُمْطَر بالريح الشرقية ، ويَصْلُح عليها . والغربُ يُمْطَر بالريح الغربية . وبها صلاحه ؛ وجبالُه هابطةٌ إلى الغرب جبلاً بعد جبل . وإنما قسمته الأوائل جزأين لاختلافهما في حال إمطارهما . وذلك أنه مهما استحكمت الريحُ الغربية كَثُر مَطَرُ الأندلس الغربي وقَحَطَ الأندلسُ الشرقي . ومتى استحكمت الريح الشرقية كَثُرَ مَطَرُ الأندلسِ الشرقي وقَحَطَ الغربي . وأودية هذا القسم تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال .

وجبال الأندلس الغربي تمتد إلى الشرق جبلاً بعد جبل ، تقطع من جوف القبلة،والأودية التي تخرج من تلك الجبال يَقْطع بعضُها إلى القبلة ، وبعضها إلى الشرق ، وتنصبُّ كلُّها إلى البحر المحيط بالأندلس القاطع إلى الشام . وهو البحر الرومي (١) . وما كان من بلاد جوفي

(١) هو ما يدعى اليوم : البحر الأبيض المتوسط .

الأندلس من بلاد جِلِّيقيّة وما يليها فإن أوديته تنصبُّ إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف .

* * *

مساحة بلاد الأندلس

قال المسعودي : بلادُ الأندلس تكون مَسيرَةُ عَمائِرِها ومُدُنِها نحو شَهرين ؛ ولهم من المدن الموصوفة نحوٌ من أربعين مدينة .

ونحوه لابن اليسع إذ قال : طولها من أَرْبُونَة إلى إشْبُونَة . وهو قَطْعُ ستين يوماً للفارس المُجِدّ . وانتُقِد بأمرين :

أحدهما : أنه يقتضي أن أربونة داخلة في جزيرة الأندلس . والصحيح أنها خارجة عنها .

والثاني : أن قوله (ستين يوماً للفارس المجد) إعياء وإفراط وقد قال جماعة : إنها شهر ونصف .

قال ابن سعيد : وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجدّ ؛ والصحيح ما نصَّ عليه الشريف من أنها مَسيرَةُ شهر ، وكذا قال الحجاري ، وقد سألت بعض المسافرين المحققين عن ذلك ، فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهرٍ بِنَيِّفٍ قليل .

قال الحجاري في موضع من كتابه : إن طول الأندلس من الحاجز إلى إشبونه ألف ميل ونيف .

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوماً ، وعرضها تسعة أيام .

وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوماً طولاً في ثمانية عشر يوماً عرضاً ، وهو مخالفٌ لما سبق .

* * *

طبيعتها ومناخها

قال الوزير لِسان الدين بن الخطيب : خَصَّ الله – تعالى – بلادَ الأندلس من الرَّيْعِ وغَدَقِ السُّقْيا . ولذاذَةِ الأقوات ، وفَراهة الحيوان ، ودرور الفواكه . وكثرة المياه . وتَبَحُّرِ العُمران ، وجَوْدَةِ اللباس . وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ،وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان . ونُبْلِ الأذهان . وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتمار ، بما حُرِمه الكثيرُ من الأقطار مما سواها .

وقال أبو عامر السُّلَمِيّ، في كتابه المسمى بدُرَر القلائد وغرر الفوائد : الأندلس من الإقليم الشامي ، وهو خير الأقاليم ، وأعدلها هواءً وتراباً ، وأعذبُها ماءً وأطيبُها هواءً وحيواناً ونباتاً ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوساطها .

وقال أبو عُبيد البكري : الأندلس شامية ٌ في طيبها وهوائها ، يمانية ٌ في اعتدالها واستوائها ، هندية ٌ في عِطْرِها وذكائها ، أهْوازِيّة ٌ في عِظَم جباياتها ، صينية ٌ في جواهر معادنها ، عَدَنِيّة ٌ في منافع سواحلها ، فيها آثارٌ عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة . وكان من ملوكهم الذين أثّروا الآثار بالأندلس هرقاس ، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جِلِّيقية ، والأثر في مدينة طَرَّكونة الذي لا نظير له .

وقال الرازي : بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب ؛ وهو عند الحكماء بلدٌ كريم البقعة ، طيب التربة ، خَصْبُ الجناب ؛ مُنبجسُ الأنهار الغِزار ، والعيون العذاب قليل الهوام ذوات السموم ؛

معتدلُ الهواء والجو والنسيم ، ربيعُه وخريفه ومَشتاه ومَصيفُه على قدر من الاعتدال ، وسِطَةٍ من الحال ، لا يتولد في أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص . تتصل فواكهه أكثر الأزمنة ، وتدوم متلاحقةً غير مفقودة . أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره ؛ وأما الثغر وجهاتُه والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره ؛ فمادة الخيرات بالبلد متماديَة في كل الأحيان ، وفواكهه على الجملة غير معلومة في كل أوان . وله خواصٌ في كرَم النبات توافق في بعضها أرضَ الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره : منها أن المحلب – وهو المقدم في الأفاويه (١) . والمفضل في أنواع الأشنان – لا ينبتُ بشيءٍ من الأرض إلا بالهند والأندلس .

وقال ابن سعيد : وميزان وصفِ الأندلس أنها جزيرةٌ قد أحدقَتْ بها البحار ، فأكثرتْ فيها الخِصْب والعمارة من كل جهة ؛ فمتى سافرتَ من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ؛ والصحارى فيها معدومة .

ومما اختصت به أن قُراها في نهاية الجمال لِتَصَنُّع أهلها في أوضاعها وتبييضها . لئلا تنبو العيون عنها . فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها :

لاحَتْ قُراها بَيْنَ خُضْرَةِ أيكها
كالدر بين زبرجدٍ مكنونِ (٢)

---

(١) الأفاويه : جمع (أفواه) الذي هو جمع (فوه) : وهي التوابل ، ونوافج الطيب .

(٢) الأيك : الشجر الملتف الكثير ، واحده أيكة ، ومكنون : مستتر .

وقد تعجبتُ لما دخلت الديارَ المصرية من أوضاعِ قراها التي تكدر العينَ بسوادها، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها .

وفي الأندلس جهاتٌ تقربُ فيها المدينة العظيمة الممصَّرة من مثلها؛ والمثال في ذلك أنك إذا توجهتَ من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعضِ آخر مدينة شَريش ، وهي في نهاية من الحضارة والنّضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالَقَة ، وهذا كثيرٌ في الأندلس ، ولهذا كَثُرَتْ مُدُنُها ، وأكثرها مسوَّر من أجل الاستعداد للعدو . فحصل لها بذلك التشييد والتزيين . وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة ، لامتناع معاقلها . ودُرْبَةِ أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب . وكثرة ماتنتخزن الغلة في مطاميرها،(١) فمنها ما يطول صبرُه عليها نحواً من مئة سنة .

قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله — تعالى — من وقت الفتح إلى الآن . وإن كان العدو قد نقصها من أطرافها . وشارك في أوساطها . ففي البقية مَنَعَةٌ عظيمة . فأرضٌ بقي فيها مثل إشبيلية وغَرْناطة ومالَقَة والمَرِيّة وماينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصَّرة الرجاءُ فيها قويّ ، بحول الله وقوته .

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوماً . وعرضها تسعة أيام . ويشُقُّها أربعون نهراً كِباراً . وبها من العيون والحمّامات والمعادن مالايُحصى . وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار . وأزْيَد من ثلاثمئةٍ من المتوسطة . وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا

(١) المطامير : جمع مطمار ، وهو حفيرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب ، أو هو وعاء عظيم تختزن فيه الحبوب .

يحصى كثرةً ، حتى قيل : إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية . وليس في معمور الأرض صُقْعٌ يجد المسافر فيه ثلاث مدنٍ وأربعاً من يومه إلا بالأندلس .

ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماءٍ أصلاً ؛ وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحارى والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة .

ولما ذكر ابن اليسع الأندلس قال : لا يَتَزَوَّدُ فيها أحدٌ ما حيث سلك لكثرةِ أنهارها وعيونها . وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن . ومن المعاقل والقرى ما لا يُحصى . وهي بِطاحٌ خُضْرٌ وقصورٌ بيض .

* * *

الثروات الطبيعية في الأندلس

المعادن ، الحيوانات ، النباتات

الثمار ، الحاصلات

وبناحية لُوْرَقَة من عمل تُدمير يكون حجر اللازَوَرْد الجيد ، وقد يوجد في غيرها .

وعلى مَقْرَبَةٍ من حضرة لُوْرَقَة من عمل قرطبة مَعْدِنُ البِلَّوْر . وقد يوجد بجبل شحيران ، وهو شرقي يبرة .

وحجر النجادي يوجد بناحية مدينة الإشبونة . في جبل هنالك يتلألأ فيه كالسراج .

والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مالقة، إلا أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال ، لصغره.

ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بَجّانة ، في خندق يُعرف بقرية ناشرة أشكالاً مختلفة كأنه مصبوغ ، حسن اللون . صبورٌ على النار ،

وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تُدمير.

وحجر الشادنة بجبال قرطبة كثير ، ويستعمل ذلك في التذاهيب.

وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت ، وهو أنفع شيء للحصاة.

وحجر المرقيشينا الذهبية في جبال أُبّدَة ، لا نظير لها في الدنيا ؛ ومن الأندلس تُحمل إلى جميع الآفاق لفضلها .

والمغنيسيا بالأندلس كثير .

وكذلك حجر الطّلْق .

ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة بَرْشِلُونَة ، إلا أنه جامد اللون .

ويوجد المرجانُ بساحل بَبْرَة . من عمل المَرِيّة . ما لُقط منه في أقلّ من شهر نحو ثمانين رُبعاً .

ومَعْدِنُ الذهب بنهر لاردة ، يُجمع منه كثير ، ويُجمع أيضاً في ساحل الأشبونة .

ومعادن الفضة في الأندلس كثيرة في كورة تُدْمير ، وجبال جَمّة بِبَجانَة ؛ وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدنُ فضة جليل .

وبأشكونية مَعْدِنُ القصدير الذي لا مثيل له . يشبه الفضة ؛ وله معادن بناحية إفرنجة وليون .

ومعدن الزئبق في جبل البرانس ، ومن هنالك يُتَجَهَّزُ به إلى الآفاق .

ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة .

ومعدن التوتيا الطيبة بساحل البيرة بقرية تسمى بَطِرْنَة ، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس ؛ وبجبال قرطبة توتيا ، وليست كالبطرنية .

ومعدن الكحل المشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طُرْطُوْشَة ، يُحمل منها إلى جميع البلاد .

ومعادنُ الشُّبوب ، والحديد ، والنحاس بالأندلس أكثرُ من أن تُحصى ، وماذكرتُ هنا — وإن تكرَّرَ بعضُه مع ما سبق أو يأتي — فهو لجمع النظائر ، وما لم نذكره أكثر . والله تعالى أعلم .

وبالأندلس معدن عظيم للفضة.

ومعدن الزئبق ليس بالجيد ، يُجَهّزُ إلى سائر بلاد الإسلام والكفر.

وكذلك يُحمل من بلاد الأندلس الزعفران ، وعروق الزنجبيل .

وأصول الطِّيْب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ،والعنبر ، والزعفران ؛ وكلها تُحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر . والله تعالى أعلم .

وذكَر البعض أن في بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيّرات السبعة ، وهي : الرصاص مِنْ زُحَل ، والقصدير الأبيض من المشتري ، والحديد من قسم من المريخ ، والذهب من قسم من الشمس ، والنحاس من الزهرة ، والزئبق من عطارد ، والفضة من القمر .

وقد ذكر ابن سعيد أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة ، وأنها في الأندلس التي هي بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس في جهة (شنت ياقور) قاعدة الجلالقة على البحر المحيط

وفي جهة قرطبة الفضة والزئبق .

والنحاس في شمال الأندلس كثير .

والصُفْر (١) الذي يكاد يشبه الذهب ، وغير ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها .

* * *

المعادن في قرطبة :

وبهذه المدينة مَعْدِنُ الفضة ، ومعدن الشادنج ، وهو حجرٌ من شأنه أن يقطع الدم .

* * *

المعادن في إشبونة :

قال ابن بطوطة: وبكورة إشبونة المتصلة بشَنْتَرين مَعْدِنُ التِّبْر .

* * *

المعادن في بَرْجة :

وبمدينة بَرْجَة – وهي من أعمال المريّة – مَعْدِنُ الرصاص .

* * *

الرخام ومقاطعه :

وبالأندلس عدة مقاطع للرخام .

---

(١) الصفر : النحاس الجيد .

وذكر الرازي أن بجبل قرطبة مقاطعَ الرُّخامِ الأبيض الناصعِ اللون والخَمريّ .

وفي (ناشِرة) مقطع عجيب للعُمُد .

وبباغَةَ من مملكة غَرْناطَة مقاطع للرخام كثيرة غريبةُ مُوَشّاةٌ في حُمْـرَةٍ وصُفْرَة . وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالكِ والمجزَّع .

وحَصَى المَرِيّة يُحمل إلى البلاد . فانه كالدُّرّ في رَوْنَقِه . وله ألوانٌ عجيبةٌ . ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان الماء .

* * *

عين الزاج في لَبْلَة :

والعين التي يخرج منها الزاج في (لَبْلَة) مشهورة . وهو كثيرٌ مفضلٌ في البلاد . منسوب لجبل طليطلة جبل الطَّفْل الذي يجهز إلى البلاد . ويَفْضُلُ على كل طَفْلٍ بالمَشرق والمغرب .

* * *

الحيوانات

بعض وَحْش الأندلس :

ويكون بالأندلس من الغزال والأَيِّل(١) وحمار الوحش وبَقَرِه وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها كثير .

وأما الأسد فلا يوجد البتة .

ولا الفيل ، والزرافة وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة .

ولها سَبُعٌ يُعْرَف باللُّبّ . أكبرُ بقليلٍ من الذئب : في نهايةٍ من القِحَة ، وقد يفترسُ الرجلَ إذا كان جائعاً .

* * *

بعض حيوان الأندلس وطيرها :

وبغال الأندلس فارهةٌ ، وخيلُها ضخمة الأجسام . حصون للقتال ، لحملها الدروع وثقال السلاح . والعَدْو في خيل البر الجنوبي.

(١) الأيل : الوعل الذكر .

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول .

وكذلك حيوان البحر ودواب بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض .

قال ابن سعيد : عاينتُ من ذلك العجبَ . والمسافرون في البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب . فيقطعون الكلام . ولها نفخٌ بالماء من فيها . يقوم في الجو . ذو ارتفاعٍ مُفْرط .

* * *

وصف حيوان القَنْلية :

والقَنْلية حيوانٌ أدقُّ منَ الأرنب . وأطيب في الطعم وأحسنُ وَبَراً . وكثيراً ما يلبَسُ فِراؤُها . ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى . ولا توجد في بر البربر إلا ما جُلب منها إلى سَبْتَة فنشأ في جوانبها .

قال ابن سعيد : وقد جُلبت في هذه المدة إلى تونس حضرةِ إفريقية .

* * *

النباتات

من نباتات الأندلس :

قال بعض العلماء : إن النصارى حُرموا جنةَ الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا بستاناً متصلاً من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية . وعندهم عموم أشجار بلوط . والبندق . والجوز . والفستق . وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن في الأقاليم الباردة .

والتمر عندهم معدوم . وكذا الموز وقصب السكر . وربما يكون شيء من ذلك في الساحل . لأن هواء البحر يُدفيء .

* * *

الرازي يذكر بعض نباتاتها :

قال الرازي : وفواكهها تتصل طول الزمان . فلا تكاد تُعْدَم . لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكوره . كما أن الثغر وجهاته والجبالَ التي يخصها بَرْدَ الهواء . وكثافة الجو تَسْتَأْخِرُ بما فيها من ذلك . حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان . فمادة الخيرات فيها متصلة كلَّ أوان . ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدَّم على أجناسه في الطيب والصبر على النار .

وبها شجر المحلب المعدود في الأفاويه المقدم في أنواع الأُشنان كثير واسع ؛ وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند وبها فقط .

ولها خواصٌ نباتية يكثر تعدادها .

* * *

حنطة طليطلة ، والزعفران فيها :

ومن خواص طُلَيْطِلة أن حِنْطَتَها لا تتغير ولا تُسَوَّس على طول السنين . يتوارثها الخَلَف عن السَّلَف .

وزَعْفَرانُ طُلَيْطِلَة هو الذي يعم البلاد . ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق . و كذلك الصبغ السماوي .

* * *

الطيب والأفاويه

يوجَدُ في ناحية دَلاية من إقليم البشرة عود الأَلَنْجوج(١) ، لا يفوقه العود الهندي ذكاءً وعطرَ رائحة . وقد سيق منه إلى خَيْران الصقلبي صاحب المرية ، وأن أصل منبته كان بين أحجارٍ هنالك .

وبأكشونبة جبلٌ كثيراً ما يتضوع . ريحه ريح العود الزكي إذا أرسلت فيه النار .

وببحر شَذُونَة يوجد العنبر الطيب الغربي .

وفي جبل (مُنْت ليون) المَحْلَب .

ويوجد بالأندلس القُسْط الطيب(٢) . والسنبل الطيب .

---

(١) الألنجوج : عود يتبخر به ، ويقال فيه أيضاً : يلنجوج ، وألنجج ، ويلنجج .

(٢) القسط : عود هندي وعربي يتداوى به .

والجَنْطَيانَة تُحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق،وهو عُقارُ رفيع ؛والمر الطيب بقلعة أيوب .

وأطيب كهرباء الأرض بشَذُونة . درهمٌ منها يَعْدِل دراهم من المجلوبة .

* * *

العنبر في الأندلس :

وقال المسعودي في (مروج الذهب) : والعنبر كثير ببحر الأندلس . يجهز إلى مصر وغيرها . ويُحملُ إلى قرطبةَ من ساحلٍ لها يقال له شَنْتَرين . وشَذونة .تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهباً ، والأوقية بالبغدادي وتباع بمصر أُوقيّتهُ بعشرين ديناراً . وهو عنبرٌ جيد . ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء .

* * *

وقال ابن سعيد : قال المسعودي في (مروج الذهب) : في الأندلس من أنواع الأفاويه خمسة وعشرون صنفاً منها : السنبل . والقرنفل . والصندل . والقرفة . وقصب الذريرة ، وغير ذلك »

وذكر ابن غالب أن المسعودي قال : أصول الطيب خمسة أصناف : المسك والكافور والعود . والعنبر . والزعفران . وكلها من أرض الهند إلا الزعفران والعنبر فإنهما موجودان في أرض الأندلس . ويوجد العنبر في أرض الشّحْر(١) .

---

(١) الشحر : منطقة ساحلية في حضرموت – اليمن .

قال ابن سعيد : وفي الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحت بروائح العود وما أشْبَهَه .

وفي جبل شُلَيْر أفاويه هندية .

* * *

العنبر في إشبونة :

ويوجد في ريف إشبونة العنبر الذي لا يشبهه إلا الشَّحْرِيّ .

* * *

الثمار والفواكه

الثمار والفواكه في الأندلس :

قال ابن سعيد : وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعدُ بلاد الله بكثرتها ، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز . ويوجدان في الأقاليم الباردة . ولا يُعْدَم منها إلا التمرُ .

ولها من أنواع الفواكه ما يُعْدَم في غيرها أو يقلّ . كالتين القوطي . والتين السفري بإشبيلية .

قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم تر عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يَفْضُلُهما . وكذلك التين المالقيّ . والزبيب المُنَكَّبي(١) والزبيب العسلي . والرمان السَّفْري . والخوخ . والجوز . واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

* * *

(١) المنكبي : نسبة إلى المنكب ، وهو بلد من أعمال البيرة ، بينه وبين غرناطة ٤٠ ميلا .

الرمان العربي ووصفه :

قال ابن سعيد: والرمان السَّفْري الذي فاض على أرجاء الأندلس. وصاروا لا يفضلون عليه سواه ، أصله من هذه الرُّصافة . وقد ذكر ابن حيّان شأنه ، وأفرد له فصلاً فقال : إنه الموصوفُ بالفضيلة ، المقدَّمُ على أجناس الرمان بعذوبة الطَّعْم . ورقّة العَجَم(١) . وغزارة الماء . وحُسْنِ الصورة ، وكان رسولُه(٢) إلى الشأم في توصيل أخته منها إلى الأندلس قد جَلَب طرائفَ منها من رمان الرُّصافة المنسوبة إلى هشام . قال : فعرضه عبد الرحمن على خواصِّ رجاله مباهياً به ، وكان فيمن حضره منهم سفر بن عُبَيْد الكَلاعي ، من جُنْد الأُرْدُنّ . ويقال : هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألويةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزَواته .

قال : وهم يحملون الألوية بين يدي الخلفاء من بني أمية ، فأعطاه من ذلك الرمان جزءاً فَراقَهُ حُسْنُه وخُبْرُه . فسار به إلى قريةٍ بِكُورَة رَيّة . فعالج عَجَمَه . واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً أثمر وأينع . فنزع إلى عرقه . وأغرب في حسنه . فجاء به - عما قليلٍ - إلى عبد الرحمن . فإذا هو أشبه شيءٍ بذلك الرُّصافيّ . فسأله الأمير عنه فعرّفه وجه حيلته . فاستبرع استنباطَه . واستنبل همتَه . وشكَرَ صُنْعَه . وأجزلَ صلَتَه . واغترس منه بمُنْيَة الرُّصافة وبغيرها من جَنّاته . فانتشر نوعه . واستوسع الناسُ في غرسه . ولَزِمَه النسبُ إليه . فصار يُعرف إلى الآن بالرمان السفري.

* * *

---

(١) العجم : نوى كل شيء الواحدة (عجمة) بثلاث فتحات .

(٢) الضمير في (رسوله) يعود إلى عبد الرحمن الداخل .

التُّفّاحُ في شَنْتَرَة :

قال ابن اليسع عند ذكره مدينة شنترة : « إن من خَواصِّها أن القمح والشعيرَ يُزرعان فيها . ويُحصدان عند مُضيٍّ أربعين يوماً من زراعته .

وإن التفاح فيها دَوْرُ كلٍّ واحدةٍ ثلاثةُ أشبار وأكثر .

قال لي أبو عبد الله الباكوري — وكان ثقةً — : أبصرتُ عند المعتمد بن عَبّاد رجلاً من أهل شنترة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقلّ الحاملُ على رأسه غيرَها . دَوْرُ كلٍّ واحدةٍ خمسةُ أشبار . وذكر الرجلُ بحضرة ابن عَبّاد أن المعتادَ عندهم أقلُّ من هذا . فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العِظَم . وهذا القدر . قطعوا أصلها وأبقَوا منه عَشْراً أو أقلَّ . وجعلوا تحتها دعاماتٍ من الخشب .

* * *

التفاح في حصن جِلْيانَة :

ومن أعمال وادي آش حصنُ جِلْيانَةَ . وهو كبيرٌ يضاهي المُدن . وبه التفاح الجلياني الذي خَصَّ الله به ذلك الموضع . يجمع عظَم الحجم . وكرم الجوهر . وحلاوةَ الطعم . وذكاء الرائحة . والنقاء . وبين الحصن المذكور ووادي آش عشرون ميلاً .

التوت في حصن شَنَش

وبحصن شنش . على مرحلةٍ من المَرِيّة التوتُ الكثير . وفيها الحرير والقرمز . ويُعرف واديها بوادي طَبرنش .

* * *

التين في مالَقَةَ وإشبيلية

وبمالَقَةَ التينُ الذي يُضرَبُ المَثَلُ بِحُسْنه . ويُجْلَبُ حتى للهند والصين . وقيل : إنه ليس في الدنيا مِثْلُه . وفيه يقول أبو الحجّاج يوسف ابن الشيخ البَلَويّ المالَقيّ . حسبما أنشده غير واحدٍ منهم ابن سعيد :

مالَقَةٌ حُيِّيتَ يا تينَها
الفُلْكُ مِنْ أَجْلِكَ يأتينَها

نَهى طبيبي عنه في عِلّتي
ما لِطبيبي عن حياتي نَهى ؟

وذيّل عليه الإمامُ الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشيء بقوله :

وحِمْصُ لا تَنْسَ لها تينَها
واذكر مع التين زَيْتونَها

وفي بعض النسخ :

لا تَنْسَ لإشْبِيلِيَةٍ تينَها
واذكر مع التين زَياتينَها

وهو نحو الأول ، لأن حمص هي إشبيلية . لنزول أهلِ حِمْصَ من المشرق بها .

وقال قبله : إن مالقة إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان . جامعةٌ بين مَرافق البَرّ والبحر . كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت

العنبَ يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهمٍ صغير ؛ ورمّانُها المُرْسيُّ (١) الياقوتي لا نظيرَ له في الدنيا ؛ وأما التين واللوز فيُجلبان منها ومن أحوازها(٢) إلى بلاد المشرق والمغرب .

* * *

(١) المرسي : نسبة إلى مدينة (مرسية) .
(٢) الأحواز : جمع حوز : الأرض يتخذها الرجل ويبين حدودها فيستحقها وحده .

من عجائب الأندلس وغرائبها

من عجائب الطبيعة في الأندلس

شجرتان :

من غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القَسْطَل . وهما عظيمتان جداً . إحداهما بَسنَد وادي آش . والأخرى ببَشْرَة غرناطة. في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب . وهذا أمر مشهورٌ قاله أبو عبد الله بن جُزَيّ وغيره .

* * *

شجرة زيتون تصنع الورق والزهر والثمر :

قال ابن سعيد : وفي الأندلس عجائب : منها الشجرة التي لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ماذكرتُها . فإن خبرها عندهم شائع متواتر ، وقد رأيت من يشهد بخبرها ورؤيتها ، وهم جمٌ غفير . وهي شجرة زيتون تصنع الورق والنَّوْر والثمر من يوم واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية .

*

مغارة :

وبكورة قَبْرة مغارة ذكرها الرازي ، وحكى أنه يقال : إنها بابٌ من أبواب الريح . لا يُدْرَكُ لها قَعْر .

فأس في شق جبل :

وذكر الرازي أن في جهةِ قلعةِ وَرْد جبلاً فيه شِقٌ في صخرةٍ داخلَ كهفٍ فيه فأسُ حديدٍ ، متعلقٌ من الشق الذي في الصخرة، تراه العيون ، وتَلْمَسُهُ اليد ، ومَنْ رامَ إخراجَه لم يُطِقْ ذلك ، وإذا رفَعَتْه اليدُ ارتفع وغاب في شِقّ الصخرة ، ثم يعود إلى حالته .

* * *

الحيّات والعقارب لا تدخل سرقسطة :

وقال المقري : والذي رأيته لبعض مؤرخي المغرب في سَرَقُسْطَة أنها لا تدخلها عَقْرَبٌ ولا حَيّةٌ إلا ماتت من ساعتها ؛ ويؤتى بالحيّات والعقارب إليها حَيّةً فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت .

* * *

عجائب ثمارها :

ولا يَتَسَوَّسُ فيها شيء من الطعام(١) . ولا يُعفّن . ويوجد فيها القمح من مئة سنة . والعنب المعلق من ستة أعوام ، والتين ، والخَوخ . وحَبُّ الملوك(٢) ،والتفاح،والإجّاص اليابسة من أربعة أعوام ؛ والفول والحِمّصُ من عشرين سنة . ولا يُسَوِّس فيها خشبٌ ولا ثوب كان صوفاً أو حريراً أو كتّاناً .

وليس في بلاد الأندلس أكثرُ فاكهةً منها . ولا أطيبُ طعماً . ولا أكبرُ جُرْماً .

---

(١) لا يتسوس : لا يقع فيه السوس .

(٢) حب الملوك : هو الكرز .

والبساتينُ مُحْدِقَةٌ بها من كل ناحيةٍ . ثمانيةَ أميال .

ولها أعمال كثيرةٌ : مُدُنٌ . وحصونٌ،وقُرَىً ، مسافةَ أربعين ميلاً .

وهي تُضاهي مُدُنَ العراقِ في كثرة الأشجارِ والأنهار ، وبالجملة فأمرها عظيم .

* * *

المياه :

قيل : إن موسى بن نُصير شرب من ماء نهر جلّق بسَرَقُسْطَةَ فاستعذبه . وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذبَ منه ، وسأل عن اسمه فقيل : جلّق ، ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبّهها بغوطة جلق الشام .

* * *

من عجائبِ ما صَنَعَتْه يدُ الإنْسانِ في الأندلس

قَنْطَرة طُلَيْطِلَة :

وطُلَيْطِلة قاعدةُ مُلْكِ القُوطيين ، وهي مُطِلَّةٌ على نهر تاجُه . وعليه كانت القنطرة التي يَعْجَزُ الواصفون عن وصفها ؛ وكانت على قَوْسٍ واحدٍ تَكْنُفُه فُرْجَتان من كل جانب . وطول القنطرة ثلاث مئة باعٍ . وعرضها ثمانون باعاً . وخَرِبتْ أيامَ الأمير محمد لما عصى أهلُها فغزاهم . واحتال في هدمها . وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :

أضحت طُلَيْطلَةٌ مُعَطَّلَةً
من أهلها في قبضة الصقر
تركت بلا أهل تُؤَهِّلُها
مهجورة الأكناف كالقبر
ما كان يُبقي الله قنطرة
نصبت لحمل كتائب الكفر

* * *

تماثيلُ قرطاجنّة .

قال بعضهم : لما أجرى ذكرَ قرطاجنة من بلاد الأندلس : إن الزَّرْعَ في بعضِ أقطارها يكتفي بمطرةٍ واحدة . وبها أقواسٌ من الحجارة المُقَرْنَصَة . وفيها من التصاوير . والتماثيل ، وأشكال الناس : وصور الحيوانات ما يُحيِّر البصرَ والبَصيرةَ .

ومن أعجب بنائها الدواميس(1) . وهي أربعة وعشرون . على صفٍّ واحدٍ من حجارةٍ مقرنصة . طولُ كلِّ داموس مئةٌ وثلاثون خُطْوَةً . في عرض ستين خطوة . وارتفاع كل واحدٍ أكثر من مئتي ذراع . بين كل داموسين أنقابٌ مُحْكَمَةٌ تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض . في العُلُوِّ الشاهق بهندسةٍ عجيبةٍ وإحكامٍ بديع .

* * *

(1) لم نقف على معنى الدواميس ، ولعلها أعمدة .

مائدة سليمان :

ذكر بعض المؤرخين أن من الغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس أيام فتحها مائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التي ألفاها طارقُ بنُ زياد بكنيسة طليطلة .

وقال ابن حيان : وهذه المائدة المنوّه باسمها ، المنسوبة إلى سليمان النبي – عليه الصلاة والسلام – لم تكن له – فيما يزعم رواة العجم – وإنما أصلها أن العجم . أيام مُلكهم . كان أهل الحسَنة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمالٍ للكنائس . فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة. تحمل الشمامسة والقُسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك . ويضعونها على المذابح في الأعياد ، للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل . وتأنقت الأملاك في تفخيمها، يزيد الآخر منهم على الأول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات . وطار الذكرُ مَطارَه عنها ، وكانت مَصُوْغَةً من خالص الذهب . مُرَصّعَةً بفاخر الدُّرّ والياقوت والزُّمُرُّدِ ، لم تر الأعينُ مثلَها . وبُولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة . وأنه لا ينبغي أن تكون بموضعٍ آلةُ جَمالٍ أو متاعُ مباهاةٍ إلا دون ما يكون فيها ؛ وكانت توضع على مذبح كنيسة طُليطلة ، فأصابها المسلمون هنالك ، وطار النبأ الفخمُ عنها . وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثلَ الذي فعله ، مِنْ غَيْرَتِه على ما تهيأ له ، ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه ، فاستظهر بانتزاع رِجْلٍ من أرجل هذه المائدة خَبّأه عنده . فكان من

فَلْجِهِ(١) به على موسى عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور .

ورأيت في بعض كتب التاريخ أنه وُجد في طُليطلة حين فُتحت من الذخائر والأموال مالا يُحصى ؛ فمن ذلك مئة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر ، مُرَصَّعَةً بالدُّرِّ وأصناف الحجارة الثمينة . ووجد فيها ألف سيف ملوكي ، ووجد فيها من الدر والياقوت آكيال ، ومن أواني الذهب والفضة مالا يحيط به وصف . ومائدة سليمان . وكانت -فيما يذكر- من زمردة خضراء . وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان وإنما أصلها أن العجم أيام مُلْكهم كان أهلُ الحسنة في دينهم إذا مات أحدهم أوصى بمالٍ للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم مالٌ له قدرٌ صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسي من الذهب والفضة : تحمل الشمامسةُ والقسوسُ فوقها الأناجيلَ في أيام المناسك : ويضعونها في الأعياد للمباهاة . فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صُنع في هذا السبيل ؛ وتأنق الملوكُ في تحسينها . يزيد الآخِر منهم على الأول . حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكرُ بها كُلَّ مَطار ؛ وكانت مَصُوْغَةً من الذهب الخالص . مُرَصَّعَةً بِفاخر الدُّر والياقوت والزَّبَرْجَد .

وقيل : إنها من زَبَرْجَدةٍ خضراء . حافاتُها وأرجُلُها منها . وكان لها ثلاثُ مئةٍ وخمس وستون رجلاً . وكانت توضع في كنيسة طليطلة . فأصابها طارق .

* * *

---

(١) الفلج : الظفر والغلبة .

المُدُنُ والحُصونُ والأبراج :

وفي الأندلس جهاتٌ تَقْرُبُ فيها المدينة العظيمة المُمَصَّرَة من مثلها .

والمثال في ذلك أنك إذا توجهتَ من إشبيلية فعلى مسيرة يومٍ وبعضِ آخَرَ مدينةُ شَرِيْشَ ؛ وهي في نهايةٍ من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك . ثم مالَقَةُ . وهذا كثير في الأندلس ، ولهذا كثرتْ مُدُنُها . وأكثرُها مسوَّرٌ من أجل الاستعداد للعدو ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين ؛ وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما يَنيف على عشرين سنة . لامتناعِ مَعاقِلها ، ودُرْبَةِ أهلها على الحرب ، واعتيادِهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب . وكثرةِ ما تَنْخَزِنُ الغَلّةُ في مَطاميرها (١) ؛ فمنها ما يطول صبرُه عليها نحواً من مئة سنة .

قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدوُّ قد نَقَصَها من أطرافها . وشارك في أوساطها ففي البقية مَنَعَةٌ عظيمة . فأرضٌ بقي فيها مثل إشْبيلِيَةَ ، وغَرْناطَة ، ومالَقَة ، والمَرِيّة وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة المُمَصَّرَةِ الرجاءُ فيها قويٌّ بحول الله وقوّته .

وقال ابنُ مُفْلِح : إنَّ إشبيليةَ عروسُ بلادِ الأندلس ، لأن

---

(١) المطامير : جمع (مطمار) وهو حفيرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب ، أو هو وعاء عظيم تختزن فيه الحبوب .

تاجها الشَّرَفُ (١) . وفي عنقها سِمْطُ النهر الأعظم . وليس في الأرض أتمّ حسناً من هذا النهر . يضاهي دِجْلَةَ والفرات والنيل . تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار . وتغريد الأطيار . أربعةً وعشرين ميلاً . ويتعاطى الناسُ السَّرْحَ من جانبيه عشرة فراسخ في عمارةٍ متصلة . ومنارات مرتفِعَة ، وأبراجٍ مُشَيَّدةٍ . وفيه من أنواع السمك ما لا يُحصى .

وبالجملة فقد حازت البر والبحر . والزرع والضَّرْع (٢) ، وكثرةَ الثمار من كل جنس . وقَصَبَ السُّكَّر . ويجمع منه القِرْمِزُ الذي هو أجلُّ من اللَّكِّ الهندي (٣) . وزيتونها يُخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة ثم يُعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري .

* * *

البيلتان في طُليطلة :

ومن غرائب الأندلس البيلتان (٤) اللتان بِطُلَيْطِلَة . صنعهما عبد الرحمن (الداخل) . لما سمع بخبر الطِّلَّسْم الذي بمدينة أرين من أرض الهند . وقد ذكره المسعودي (٥) . وأنه يدور بأصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . فصنع هو هاتين البيلتين خارج

(١) الشرف : أصل معناه (المكان العالي) وقد سميت أماكن بعينها الشرف . من ذلك قلعة حصينة قرب زبيد في اليمن . والشرف المراد هنا : بلد او اقليم بحذاء إشبيلية يحتوي على قرى كثيرة ، عليه أشجار الزيتون ،وإذا أراد أهل الأندلس الافتخار قالوا : الشرف تاجها ، لكثرة خيره .

(٢) أصل معنى (الضرع) للماشية كالثدي للمرأة . وأراد به هنا الماشية نفسها .

(٣) اللك : ضرب من الصبغ ، أحمر ، تصبغ به الجلود وغيرها .

(٤) البيلة : لم نقف على تعريف بها . ولعل المراد –كما يظهر من النص – حوض للماء.

(٥) اي في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) .

طُلَيْطِلَة ، في بيت مجوّف في جوف النهر الأعظم (١) . في الموضع المعروف بباب الدباغين ؛ ومِنْ عَجَبهما أنهما يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أول انهلال الهلال (٢) يخرج فيهما يسيرُ ماءٍ ، فإذا أصبح كان فيهما سُبْعُهما من الماء ، فإذا كان آخرُ النهار كَمُل فيهما نصفُ سُبْعٍ . ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصفُ سُبْع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليالٍ ، فيكون فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سُبْعٍ في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فإذا كان في ليلة خمسة عشر ، وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع ؛ فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيءٌ من الماء . وإذا تكلف أحدٌ حين ينقصان أن يملأهما وجلب لهما الماءَ ابتلعا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما في تلك الساعة ، وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق منهما شيئاً . ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين . وهما أعجب من طِلَّسْمِ الهند ؛ لأن ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار ، وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال . ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصارى طليطلة ، فأراد ألفنش أن يعلم حركاتهما فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء . وكيف الحركةُ فيهما فقُلعت . فبطلت حركتهما . وذلك سنة ٥٢٨ .

(١) هو نهر تاجة ، وهو نهر عظيم يشق طليطلة ، يخرج من بلاد الجلالقة ويصب في البحر الأبيض المتوسط .

(٢) يريد أول ظهوره .

وقيل : إن سبب فسادهما حُنين اليهودي الذي جَلَبَ حمّام الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ . وهو الذي أعلم ألْفُنْشَ أن ولده سيدخل قرطبة ويَمْلِكُها ، فأراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له : أيها الملك . أنا أقلعهما وأردُّهما أحسنَ مما كانتا ، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتَحْسِران في الليل ؛ فلما قُلعت لم يُقْدَرَ على ردِّها .

وقيل : إنه قَلَعَ واحدةً ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تزل الأخرى تعطي حركتها . والله أعلم بحقيقة الحال .

° ° °

السارية العجيبة :

ومن العجائب السارية التي بغرب الأندلس ، يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا أحبوا المطرَ أقاموها فيمطر الله جِهَتَهم .

° ° °

صنم قادس :

ومنها صنم قادس ، طولَ ما كان قائماً كان يمنع الريحَ أن تَهبَّ في البحر المحيط ، فلا تستطيع المراكب الكبار على الجري فيه ؛ فلما هُدم في أول دولة بني عبد المؤمن صارت السفنُ تجري فيه .

° ° °

مغارة :

بكُورَة قَبْرَة (١) مغارةٌ ذكرها الرازي وحكى أنه يقال : إنها بابٌ من أبواب الريح . لا يُدْرَكُ لها قعر .

* * *

جلب الماء من البحر :

قال ابن غالب في كتابه (فَرْحَة الأنفس للآثار الأولية التي بالأندلس) : منها ما كان من جَلْبِهم الماءَ من البحر المَلِح إلى الأَرْحِيَ (٢) التي بِطَرْكُونَةَ على وزنٍ لطيف . وتدبير مُحْكَم حتى طَحَنَتْ به ، وذلك من أعجب ما صُنِع .

ومن ذلك ما صنعه الأُوَل أيضاً من جلب الماء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس من العين التي في إقليم الأصنام . جلبوه في جوف البحر . في الصخر المجوّف . ذكراً في أنثى . وشَقّوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بَنَوا له قناطرَ على حنايا . فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخةً بني له رصيفٌ وأُجري عليه . هكذا إلى أن انتُهي به إلى البحر ، ثم دُخل به في البحر . وأُخرج في جزيرة قادس . والبنيان الذي عليه الماء في البحر ظاهرٌ بَيِّنٌ .

* * *

---

(١) قبرة : مدينة بالأندلس ، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا . ذات مياه سائحة من عيون شتى .

(٢) الأرحي : جمع (رحى) : حجر الطاحون .

الرصيف المشهور :

لما ولي بوليش المعروف بجاشر . وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها . كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها . وإلى المغرب . وإلى الشمال . وإلى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلطة وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس . وركزَها شرقي قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار . ثم ابتدأها من باب القنطرة قبليّ قرطبة إلى شَقَنْدَة إلى إسْتِجَة إلى قَرْمُونَة إلى البحر . وأقام على كل ميلٍ سارية قد نُقش عليها اسمه من مدينة رومية . وذكر أنه أراد تسقيفها في بعض الأماكن راحةً للخاطرين من وَهَج الصيف . وهَوْلِ الشتاء . ثم توقع أن يكون ذلك فساداً في الأرض . وتغييراً للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العمران فتركها على ما هي عليه .

* * *

قصة الرّحيِّ والطّلّسْم :

وكان بنواحي غرب الأندلس ملكٌ يوناني بجزيرة يقال لها (قادس) . وكانت له ابنةٌ في غاية الجمال . فتسامع بها ملوك الأندلس ؛ وكانت الأندلس كثيرة الملوك . لكل بلد أو بلدتين مَلِكٌ . فخطبوها . وخشي أبوها إنْ زَوَّجها من واحدٍ أسخط الباقين . فتحير ، وأحضر ابنته . وكانت الحكمةُ مركّبةً في طباع القوم : ذكورِهم وإناثهم . ولذا قيل : إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل

الأرض : أدمغة اليونان . وأيدي أهل الصين . وألسنة العرب .
فقال لها : يا بُنَيّةُ . أصبحتُ على حَيْرَةٍ في أمْرِكِ ممّن يَخْطُبُكِ من الملوك . وما أرضيتُ واحداً إلا أسخطتُ الباقين .

فقالت له : اجعل الأمرَ إليَّ . تَخْلُص

فقال : وما تقترحين ؟

فقالت : أن يكون ملكاً حكيماً .

فقال : نِعْمَ ما اخْتَرْتِهِ لنفسكِ .

فكتب في أجوبة الملوك الخُطّاب أنها اختارت من الأزواج الملكَ الحكيمَ . فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيماً ؛ وكان في الملوك الخاطبين حكيمان . فكتب كل واحدٍ منهما : أنا الملك الحكيم . فلما وقف على كتابيهما قال لها : يا بُنَيّةُ . بقي الأمر على إشكال ، وهذان ملكان حكيمان . أيُّهما أرْضَيْتِ أسخطتِ الآخر .

فقالت : سأقترح على كل واحدٍ منهما أمراً يأتي به . فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمستُ كنتُ زَوْجَتَه .

قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟

قالت : إنا ساكنون بهذه الجزيرة . ومحتاجون إلى رُحيٍّ تدور بها ، وإني مقترحةٌ على أحدهما إدارتَها بالماء العذب الجاري إليها من ذلكَ البرِّ (١) ، ومقترحةٌ على الآخر أن يتخذ لي طِلَّسْماً نُحَصِّنُ به جزيرة الأندلس من البربر .

فاستظرف أبوها ذلك . وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته . فأجاباه

---

(١) تريد بالبر إفريقية كما سيأتي .

إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحدٍ منهما في عمل ما أُسند إليه من ذلك

فأما صاحبُ الرَّحيِّ فإنه عَمَدَ إلى أشكالٍ اتخذها من الحجارة نَضَدَ بعضَها إلى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير ، في الموضع المعروف بِزُقاقِ سَبْتَةَ ، وسدَّد الفُرَجَ (١) التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة ؛ وآثاره باقيةٌ إلى اليوم في الزقاق الذي بين سَبْتَةَ والجزيرة الخضراء ؛ وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثرُ قنطرةٍ كان الإسكندر قد عملها ليَعْبُرَ عليها الناسُ من سَبْتَةَ إلى الجزيرة . والله أعلم أي القولين أصح . غير أن الشائعَ إلى الآن عند الناس هو الثاني ؛ فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جَلَبَ الماءَ العذب من جبلٍ عالٍ في البر الكبير ، وسَلَّطه من ساقيةٍ مُحْكَمَةٍ ، وبنى بجزيرة الأندلس رَحىً على هذه الساقية .

وأما صاحب الطِّلَّسْمِ فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرَّصَد الموافق لعمله ، غير أنه عمل أَمْرَهُ وأحكمه ، وابتنى بنياناً مربعاً من حجرٍ أبيض على ساحل البحر ، في رملٍ عالجٍ (٢) حفر أساسَه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ؛ فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صَوَّرَ من النحاس الأحمر والحديد المصفى ، المخلوطين بأحكم الخلط ، صورةَ رجلٍ بربري ، وله لحية ، وفي رأسه ذُؤابة من شعرٍ جَعْدٍ قائمةٌ في رأسه ، لِجُعُودَتِها ، وهو

(١) الفرج : جمع (فرجة) بضم الفاء ، وهي الفضاء بين حجرين ، ههنا .
(٢) رمل عالج : كثير متراكم ، مجتمع بعضه إلى بعض .

متأبطٌ بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحْكَمِهِ . في رجله نعلٌ ، وهو قائمٌ من رأس البناء على مُسْتَهْدَفٍ بمقدار رجليه فقط (١) ، وهو شاهقٌ في الهواء . طُولُه نَيِّفَ عن ستين أو سبعين ذراعاً ، وهو محدودبُ الأعلى إلى أن ينتهي ما سَعَتُهُ قَدْرُ ذراع . وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفلٍ قابضٍ عليه مشيراً إلى البحر ، كأنه يقول : لا عبور .

وكان من تأثير هذا الطِّلَّسْمِ في البحر الذي تُجاهَهُ أنه لم يُرَ قَطُّ ساكناً . ولا كانت تجري فيه قطُّ سفينة بربر إلا سقط المفتاح من يده .

وكان الملكان اللذان عملا الرُّحِيَّ والطِّلَّسْمَ يتسابقان إلى فراغ العمل ، إذ بالسبق يستحق زواجَ المرأة . وكان صاحبُ الرُّحِيِّ فرغ أولاً . لكنه أخفى أمره عن صاحب الطِّلَّسْمِ لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم . لتحظَى المرأة بالرُّحِيِّ والطِّلَّسْم .

فلما علم باليوم الذي يفرغ صاحب الطلسم في آخره أجرى الماءَ في الجزيرة من أوله . وأدار الرُّحِيَّ . واشتهر ذلك ، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يصقل وجهها ، وكان الطِّلَّسْمُ مُذهَباً ؛ فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسُه فسقط من أعلى البناء ميتاً . وحصل صاحب الرُحِيِّ على المرأة والرحي والطلسم :

وكان مَنْ تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذي قدمنا ذكرَه . فاتفقوا وجعلوا الطِّلَّسْمات في أوقاتٍ اختاروا أرصادها ، وأودعوا تلك الطِّلَّسْمات تابوتاً من الرخام .

---

(١) المستهدف : اراد به المكان العالي المشرف .

وتركوه في بيتٍ بطليطلة . وركّبوا على ذلك الباب قفلاً ، تأكيداً لحفظ ذلك البيت . فاستمر أمرهم على ذلك .

ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس . ودخول العرب والبربر إليها ، وذلك بعد مُضيٍّ ستةٍ وعشرين ملكاً من ملوكهم من تاريخ عمل الطِّلَّسْمات بِطُلَيْطِلَةَ ، وكان لُذَرِيقُ المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم . فلما اقتعد أريكةَ المُلْك (١) قال لوزرائه وخَواصِّ دولته . وأهلِ الرأي منهم : قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستةٌ وعشرون قُفْلاً . وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه . لأنه لم يُعْمَل عَبَثاً .

فقالوا : أيها الملكُ ، صَدَقْتَ . إنه لم يُصْنَعْ عَبَثاً ، ولم يُقْفَل سُدىً . والرأي والمصلحة أن تلقي أنتَ أيضاً عليه قُفْلاً أُسْوَةً بمن تَقَدَّمَكَ من الملوك . وكان آباؤكَ وأجدادك لم يُهملوا هذا فلا تُهمله . وسِرْ سَيْرَهم .

فقال لهم : إن نفسي تنازعني إلى فتحه . ولا بُدَّ لي منه .

فقالوا له : إن كنت تظن أن فيه مالاً فقدِّرْه ونحن نجمع لكَ من أموالنا نَظيرَهُ ، ولا تُحْدِثْ علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته . فأصرَّ على ذلك،وكان رجلاً مَهيباً ، فلم يقدروا على مراجعته ، وأمر بفتح الأقفال ، وكان على كل قفلٍ مفتاحُه مغلقاً ؛ فلما فتح الباب لم يَرَ في البيت شيئاً إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر . وعليها مكتوب : « هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام »

---

(١) الأريكة : السرير المنجد المزين ، يكون في قبة أو بيت ، وجمعه أرائك .

ورأى في البيت ذلك التابوت وعليه قُفْلٌ ، ومفتاحُه مُعَلَّق . ففتحه فلم يجد فيه سوى رَقّ (١) ،وفي جوانب التابوت صورُ فُرْسانٍ مُصَوَّرَةٌ بأصباغٍ مُحْكَمَةُ التصوير . على أشكال العرب : وعليهم الفراء . وهم مُعَمَّمونَ على ذَوائِبَ جُعْدٍ (٢) . ومن تحتهم الخيلُ العربية . وهم متقلدون السيوفَ المحلاّة . مُعتلقون الرماح . فأمر بنشر ذلك الرّقّ فإذا فيه : « متى فُتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صُوَرُهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس . وذهب مُلْكُ مَنْ فيها من أيديهم . وبطلت حكمتهم » .

فلما سمع لُذَرِيْقُ ما في الرّقّ ندم على ما فعل . وتحقق انقراضَ دولتهم . فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جَهّزه ملوك العرب ليفتح بلاد الأندلس .

ثم قال المقري : وما ذُكر في هذه القصة من جلب الماءِ إلى برّ العُدْوة (٣) . . . إلخ . فيه بُعْدٌ عندي : لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد الله مياهاً وأنهاراً . فأنّى تحتاج إلى جلب الماء إليها من العُدْوَةِ الأخرى ؟ إلا أن يقال إن المرأة أرادت تعجيز الرجل بذلك ، أو اختبار حكمته حتى يفعَل هذا الأمرَ الغريب . وعِلْمُ الله من وراء ذلك كله . وفوق كل ذي علمٍ عليم . ومنتهى العلمَ إلى الله الحكيم .

* * *

(١) الرق : جلد رقيق يكتب فيه .
(٢) الذوائب : جمع ذؤابة ، وهي هنا : ضفيرة الشعر المرسلة . والجعد : جمع جعداء وهي التي فيها تقبض والتواء .
(٣) العدوة : المكان المتباعد ، وشاطىء الوادي وشفيره .

الساعة العجيبة :

قال التنسي في كتابه المسمى بـ « نظم الدُّرّ والعِقْيان في شَرَف بني زَيّان . وذكر ملوكهم الأعيان » ما نَصُّه :

وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم . يقيم مَدْعاةً يحشر لها الأشرافَ والسُّوقَة . فما شئتَ من نَمارِقَ مصفوفة ، وزرابيَّ مبثوثة (١) . وشمعٍ كالأسطوانات ، وأعيانُ الحضرة على مراتبهم . تطوف عليهم وِلدانٌ قد لبسوا أقبيةَ الخزِّ (٢) الملون . وبأيديهم مباخرُ مُوَشّاةٌ ومِرَشّاتٌ ينال كل منها بحظه . وخزانة المنجانة (٣) ذات تماثيل لُجَيْنٍ محكمة الصنع . بأعلاها أيكةٌ (٤) تحمل طائراً . فرخاه تحت جناحيه . ويختله فيها أرقمٌ من كُوَّةٍ بجذر الأيكة صاعداً ، وبصدرها أبواب مُرْتَجَةٌ (٥) بعدد ساعات الليل الزمانية . يصاقب طرفاها بابان كبيران . وفوق جميعها ، دُوَيْنَ رأسي الخزانة قمرٌ أكمل . يسير على خط الاستواء سَيْرَ نظيره في الفلك ويُسامِتُ أوّلَ كلِّ ساعةٍ بابَها المُرْتَجَ . فينقضُّ من البابين

---

(١) النمارق : جمع نمرقة وهي الوسادة أو البساط ، وكل ما بسط واتكىء عليه . والزرابي : جمع (زربية) وهي النمارق او طنافس (نوع من السجاد) لها خمل رقيق .

(٢) أقبية : جمع قباء ، وهو ضرب من الثياب ، قيل إنه عربي ، وقيل إنه فارسي ، وهو في الغالب من ملابس الأعاجم . ويعرف اليوم في بلاد الشام بالقنباز .

(٣) المنجانة : هي كالجام .

(٤) الأيكة : والجمع أيك . الشجر الملتف الكثير .

(٥) مرتجة : مغلقة . من أرتج الباب إذا أغلقه إغلاقاً وثيقاً .

الكبيرين عُقابان ، في يد كل واحد منهما صَنْجةٌ صُفْرٍ (١) .
يُلقيها إلى طَسْتٍ من الصُّفْرِ . مُجَوَّفٍ ، بِوَسَطِهِ ثُقْبٌ يُفْضي
بها إلى داخل الخزانة فيَرِنُ ، وينهش الأرقم (٢) أحد الفرخين ،
فيُصَفِّرُ له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذاهبة ، وتَبْرُزُ منه جاريةٌ
مُحْتَزِمَةٌ كأظرفِ ما أنتَ راءٍ . بيُمناها إضبارةٌ (٣) فيها اسمُ
ساعتها منظوماً . ويُسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة .

* * *

(١) الصفر : النحاس الأصفر .
(٢) الأرقم : الحية المرقشة ببياض أو سواد وحمرة .
(٣) الإضبارة : أراد ورقة . والأصل فيها الحزمة من الصحف ومن السهام .

سكان الأندلس قبل الفتح

قول ابن خلدون في سكان الأندلس قبل الفتح :

قال قاضي القضاة ابنُ خَلدون الحضرمي في تاريخه الكبير (١) ما صورته : كان هذا القطر الأندلسي من العُدْوَة الشمالية من عُدْوَتي البحر الرومي (٢) ، وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش، وتسكنه أممٌ من إفرنجة المغرب ، أشدُّهم وأكثرُهم الجَلالِقة (٣)، وكان القوط (٤) قد تملكوه وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين (٥) حاصروا فيها رومة. ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس ، فصاروا إليها وملكوها .

---

(١) ابن خلدون هو المؤرخ الكبير والعالم الاجتماعي عبد الرحمن بن محمد بن خلدون . ولي الدين ، الحضرمي الإشبيلي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م . له مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه المذكور في التاريخ وعنوانه الكامل (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) . المعروف بتاريخ ابن خلدون . مطبوع .

(٢) البحر الرومي : هو البحر الأبيض المتوسط .

(٣) نسبة إلى جليقية وهي منطقة في شمال غربي إسبانيا ، على المحيط الأطلسي .

(٤) القوط : شعب من الشعوب الجرمانية القديمة وهم قسمان : قوط غربيون وقوط شرقيون ؛ والقوطية : لغة جرمانية قديمة .

(٥) اي اللاتينيون .

ولما أخذ الروم واللطينيون بملّة النصرانية حملوا مَن ورائهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها :

وكان ملوك القوط ينزلون طُلَيْطِلَةَ . وكانت دارَ مُلْكِهم ، وربما تنقّلوا ما بينها وبين قرطبة وإشبيلية وماردة . وأقاموا كذلك نحواً من أربعمئة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح ؛ وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لُذَريق . وهو سِمَةٌ لملوكهم . كما أن (جرجير) سِمَةٌ لملوك صقلية .

* * *

الإسبانيون :

قال ابن حيان في (المقتبس) : ذكر رُواةُ العجم أن الخَضِر — عليه السلام — وقف على إشبان المذكور (١) وهو يحرث الأرض بفُدُنٍ (٢) له أيام حراثته .

فقال له : يا إشبان . إنك لذو شان ، وسوف يُحْظيك زمان ، ويُعْليك سلطان ، فإذا أنت غلبتَ على إيليا فارفُقْ بذرية الأنبياء .

فقال له إشبان : أساخرٌ بي ؟ رحمك الله . أنّى يكون هذا مني وأنا ضعيفٌ مُمْتَهَنٌ ، حقيرٌ ، فقيرٌ ، ليس مثلي ينال السلطان

فقال له : قد قَدَّر ذلك فيك مَنْ قَدَّر في عصاك اليابسة ما تراه.

(١) وهو إشبان بن طيطش أحد ملوك عجم رومة .
(٢) الفدن : جمع فدان وهو آلة يربط فيها ثوران تحرث بها الأرض . وقيل : الفدان هو الثوران يقرنان للحرث ، ولا يقال للواحد منهما فدان .

فنظر إشبان إلى عصاه فإذا بها قد أورقت ، فَرِيعَ لما رأى من الآية (١) ، وذهب الحَضِر عنه وقد وقع الكلام بخلَده (٢) ، ووَقَرَتْ في نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتهان من وقته ، وداخَلَ الناسَ . وصحب أهل البأس منهم ، وسَما به جَدُّه (٣) فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً . وكان منه ما كان . ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله (٤) . وكان ملكه كلُّه عشرين سنة . وتمادى مُلْكُ الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلسَ خمسة وخمسون ملكاً

* * *

(١) ريع : أصابه الريع أي الفزع . والآية : العلامة .
(٢) الخلد : البال والنفس .
(٣) الجد : الحظ والبخت .
(٤) أي مات .

الفتح العربي الإسلامي

الفتح العربي الإسلامي

انتصارات العرب المسلمين في إفريقية :

استعمل أمير المؤمنين الوليدُ بنُ عبدِ الملك – رحمه الله تعالى – موسى بنَ نُصَيْر ، مَوْلى عمه عبدِ العزيز بن مروان ، وعقَدَ له على إفريقيه وما خلْفَهَا في سنة ثمان وثمانين . فخرج إلى ذلك الوجه في نَفَرٍ قليل من المُطَوِّعة (١) ؛ فلما ورد مصرَ أخرج معه من جُنْدها بَعْثاً (٢) وأتى إفريقية عَمَلَهُ فأخرج من أهلها معه ذوي القوة والجَلَد، وصيَّر على مُقَدِّمَتِه طارقَ بن زياد ؛ فلم يزل يقاتلُ البربرَ ، ويَفُضُّ جموعَهم ، ويفتح بلادهم ومَدائِنهم حتى بلغ طَنْجَةَ : وهي قَصَبَةُ مُلْكِ البربر وأمّ مدائنهم. فحصرها حتى افتتحها .

وقيل : إنها لم تكن افتُتِحَتْ قبله .

وقيل : افْتُتِحَتْ ثم ارتجعت . فأسلم أهلُها . وخطّها قَيْرَوَاناً للمسلمين (٣)

* * *

(١) المطوعة : أصلها المتطوعة ، وهم المتطوعون للجهاد .

(٢) البعث : الجند يبعثهم قائد أو حاكم .

(٣) القيروان ، في اللغة : القافلة (معرب) والمراد هنا مركز الإدارة والحكم ، لأن بلدة القيروان في تونس كانت كذلك .

أسباب فتح الأندلس :

ثم ساروا إلى مدائنَ على شط البحر فيها عُمالٌ لصاحب الأندلس(١) قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ؛ ورأسُ تلك المدائن سبْتَة ، وعليها عِلْجٌ يسمى يُلْيان (٢) . قاتلَه موسى فألفاه في نجدةٍ وقوةٍ وعُدَّةٍ فلم يُطِقْه ، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، وأخذ في الغارات على ما حولهم ، والتضييقِ عليهم ، والسُّفُنُ تختلفُ إليهم بالمِيْرة والأمداد من الأندلس (٣) من قِبَلِ ملكها غَيْطَشَة ؛ فهم يَذُبُّونَ عن حَرِيمهم ذَبّاً شديداً (٤) ، ويَحْمُون بلادهُم حمايةً تامة . إلى أن هلك غيطشة مَلِكُ الأندلس ، وترك أولاداً لم يَرْضَهُم أهلُها للمُلْكِ . فاضطرب حبل أهل الأندلس (٥) ، ثم تراضوا بِعِلْجٍ من كبار قوادهم يقال له لُذَريق : مُجَرَّبٌ ، شُجاعٌ ، بَطَلٌ ، ليس من بيت أهل الملك . إلا أنه من قوادهم وفرسانِهم فوَلَّوْهُ أمْرَهم .

وكان من سِيَرِ أكابر العجم بالأندلس وقُوّادِهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويهَ بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطُلَيْطِلَةَ ليصيروا في خدمته ، ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته .

---

(١) العمال : هم الولاة والموظفون والقواد .

(٢) العلج ، في الأصل : الحمار الوحشي إذا كان سميناً ، والجمع علوج : ثم قالوا لكل قوي ضخم هو علج ثم أطلقوه على الرجل غير المسلم .

(٣) الميرة : الطعام . والأمداد : جمع مدد . وهو ما يزودون به من طعام وغيره ، والضمير في (إليهم) يعود إلى يليان حاكم سبتة وأهلها .

(٤) ذب عنه : دافع عنه .

(٥) كناية عن اختلافهم .

حتى إذا بلغوا (١) أنكح بعضَهم بعضاً استئلافاً لآبائهم ، وحمل صَدُقاتِهم (٢) ، وتولى تجهيزَ إناثهم إلى أزواجهن .

فاتفق أنْ فَعَلَ ذلك يُلْيان ، عامل لُذَريق على سَبْتَةَ ؛ وكانت يومئذٍ في يد صاحب الأندلس . وأهلُها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنةٍ له بارعةِ الجمال تَكْرُم عليه ، فلما صارت عند لُذَريق وقعت عينه عليها فأعجبته ، وأحبها حباً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضَّها ، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سراً ، بمكاتبةٍ خفية . فأحفظه شأنُها جداً (٣) ، واشتدت حَمِيَّتُه وقال : ودينِ المسيحِ لأُزِيلَنَّ مُلْكَهُ وسلطانَه . ولأَحْفِرَنَّ تحت قدميه ، فكان امتعاضُه من فاحشة ابنته هو السببَ في فتح الأندلس بالذي سبق من قَدَرِ الله تعالى .

ثم إن يُلْيان ركب بحرَ الزُقاق من سَبْتَة في أصعب الأوقات في صِنَّبْر قلب الشتاء (٤) . فصار بالأندلس . وأقبل إلى طُلَيطلة نحوَ الملكِ لُذَريق . فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت ، وسأله عما لديه ، وما جاء فيه ، ولمَ جاء في مثل وقته ؟ فذكر خيراً . واعتلَّ بذكر زوجته وشدة شوقها إلى رؤية بنتِها التي عنده ، وتمنِّيها لقاءَها قبل الموت وإلحاحَها عليه في إحضارها . وأنه أحَبَّ إسعافَها . ورجا بلوغَها أُمْنِيَّتَها منه ، وسأل الملكَ إخراجها إليه . وتعجيلَ إطلاقه للمبادرة

(١) مبلغ الرجال .
(٢) صدقاتهم : مهورهم . وحملها : أي تحملها عنهم ودفعها من ماله .
(٣) أحفظه : ملأ قلبه حفيظة ، والحفيظة : الحقد والغيظ والضغينة .
(٤) الصنبر من الغدوات : الباردة ، والريح الباردة .

بها ، ففعل ، وأجاز الجارية (١) ، وتوثّقَ منها بالكِتمان عليه . وأَفْضَلَ على أبيها ، فانقلب عنه .

وذكروا أنه لما ودّعه قال له لُذَرِيق : إذا قَدِمْتَ علينا فاستفره لنا من الشّذانِقات (٢) التي لم تزل تُطْرِفُنا بها (٣) ، فإنها آثَرُ جوارِحنا لدينا .

فقال له : أيها الملك ، وحقّ المسيح لئن بقيت لأُدْخِلَنّ عليكَ شَذانقاتٍ ما دخل عليكَ مثلُها قَطُّ . عرّض له بالذي أضمره من السعي في إدخال رجال العرب . وهو لا يَفْطِن .

* * *

التمهيد للفتح :

لم يَتَنَهْنَهْ يُلْيانُ (٤) عندما استقرّ بِسَبْتَةَ عَمَلِهِ أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نُصَير . الأمير . فمضى نحوه بإفريقية(٥) ، وكلّمه في غزو الأندلس ، ووصفَ له حُسْنَها وفَضْلَها ، وما جمعت من أشتات المنافع . وأنواع المَرافِق . وطِيْبِ المَزارع . وكثرة الثمار ، وثَرارَة المياه وعذوبتها . وهوّن عليه مع ذلك حالَ رجالها . ووصَفَهم بضعف البأس ، وقلةِ الغَناء . فشوّق موسى إلى ما هناك . وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يُلْيان . فعاقَدَه على الانحراف إلى المسلمين ،

---

(١) يطلق لفظ (الجارية) على المرأة عامة وأجازها : أي سمح لها بالسفر .

(٢) الشذانقات : الصقور . الواحد منها شيذق او شوذانق او شيذقان وأصل هذه الكلمة فارسي ، ولم يجيء الجمع في مثل مفرده .

(٣) أطرفه : قدم له طرفة ،وهي الاسم من الطريف المستحدث. ولعل المراد هنا الهدية .

(٤) أي لم ينتظر ، ولم يتريث ، ولم يتلبث .

(٥) المراد تونس .

واستظهر عليه بأنْ سامَه مكاشفةَ أهلِ مِلّتِه من الأندلس المشركين، والاستخراج إليهم بالدخول إليها . وشَنّ الغارة فيها ، ففعل يُلْيان ذلك ، وجمع جَمْعاً من أهل عَمَلِه (١) ، فدخل بهم في مركبين . وحَلّ بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبى وغَنِم ، وأقام بها أياماً ، ثم رجع بمن معه سالمين .

وشاع الخبر عند المسلمين ، فأَنِسوا يُليانَ واطمأنّوا إليه ، وكان ذلك عَقِبَ سنة تسعين (٢) ، فكتبَ موسى بن نُصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يُلْيان من أمر الأندلس . ويستأذنُه في اقتحامها . فكتب إليه الوليد أن خُضْها بالسرايا حتى ترى وتَخْتَبِرَ شأنها . ولا تُغَرِّرْ بالمسلمين في بحرٍ شديدِ الأهوال . فراجعَه أنّه ليس ببحرٍ زَخّار . وإنما هو خليجٌ منه يبين للناظر ما خَلْفَه ، فكتب إليه (٣) : وإن كان فلا بُدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه.

* * *

موسى بن نُصَيْر يُجَهِّزُ القائدَ طَرِيف ، والشروع بالفتح :

فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مَواليه . من البرابرة اسمه طَرِيف ، يُكْنى أبا زُرْعَةَ ، في أربعِ مئةِ رجلٍ . معهم مئةُ فرسٍ ، سار بهم في أربع مراكب . فنزل بجزيرةٍ تقابل جزيرةَ الأندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم مَعْبَرُ سَفائنهم . ودارُ صناعتهم. ويقال لها اليوم (جزيرة طريف) لنزوله بها ، وأقام بها أياماً حتى

---

(١) أي منطقته التي يحكمها .
(٢) من الهجرة النبوية وتوافق سنة ٧٠٩ للميلاد .
(٣) أي الوليد بن عبد الملك .

التأم إليه أصحابُه ، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة ، فأصاب سَبْياً لم يَرَ موسى ولا أصحابُه مثلَه حُسْناً ، ومالاً جسيماً ، وأمتعةً ، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين . فلما رأى الناسُ ذلك تسرَّعوا إلى الدخول ، وقيل : دخل طريفٌ في ألف رجل ، فأصاب غنائمَ وسَبْياً ، ودخل بعده أبو زُرْعة شيخٌ من البرابرة ، وليس بطريف ، في ألف رجلٍ منهم أيضاً (١) ، فأصابوا أهلَ الجزيرة قد تفرقوا عنها ، وأصابوا سَبْياً يسيراً ، وقتلوا ، وانصرفوا سالمين .

* * *

(١) هذا في قول من يقول بأن (أبا زرعة) رجل آخر ، لا كنية طريف .

الحملة الكبرى للفتح بقيادة طارق بن زياد

ثم عاوَدَ يُلْيان القدوم على موسى بن نُصير مُحَرِّكاً في الاقتحام على أهل الأندلس . وخبّره بما كان منه ومن طريف وأبي زُرْعة ، وما نالوه من أهلها . وباشَروه من طيبِها ، فَحَمِدَ الله على ذلك ، واستجدَّ عزماً في إقحام المسلمين فيها . فدعا مولى له كان على مقدَّمته يسمى طارقَ بنَ زياد بن عبد الله . فعقد له موسى ، وبعثه في سبعة آلافٍ من المسلمين . جُلُّهم البربر والموَالي ، وليس فيهم عربٌ إلا قليل ، ووجّه معه يُلْيان ، فهيأ له يُليان المراكبَ ، فركب في أربع سُفُنٍ لا صناعة له غيرها ، وحَطَّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبتٍ في شعبان سنة اثنتين وتسعين (١) . في شهر أغسطس ، ثم صرفَ المراكبَ إلى مَنْ خَلْفَهَ من أصحابه . فركب من بقي من الناس . ولم تزل السفائنُ تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل .

وقيل : حلَّ طارقٌ بجبَله يوم الاثنين لخمسٍ خَلَوْن من رجب من السنة ، في اثني عشر ألفاً غير ستة عشرَ رجلاً من البرابرة ، ولم يكن فيهم من العرب إلا يسيرٌ أجازهم يُلْيان إلى ساحل الأندلس في مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم . أولاً . وركب أميرهم طارق آخرَهم .

(١) من الهجرة النبوية ، الموافقة لسنة ٧١١ ميلادية .

ووقع على لُذَريق خبرُ اقتحام العربِ ساحلَ الأندلس ، وتَوالي غاراتهم على بلد الجزيرة. وأنّ يُلْيان السببُ فيها ؛ وكان يومئذٍ غائباً بأرض بَنْبَلُونة(١) في غَزاةٍ له إلى البَشْكَنْش(٢) لأمرٍ كان استصعب عليه بناحيتهم . فَعَظُم عليه . وفهم الأمر الذي منه أُتي (٣) ، وأقبل مبادراً الفَتْقَ في جموعه حتى احتل بمدينة قرطبة من المتوسطة .

وقيل : إن آخرَ ملوك الأندلس الذين تَلَتْهُمْ العرب غيطشة . وإنه هلك عن أولادٍ صغار لم يصلحوا للمُلْك : فَضَبَطَتْ أمُّهم عليهم مُلْكَ والدهم بِطُلَيْطِلَةَ . وانحرف لُذَريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم . فصار بقرطبة : فلما اقتحم طارقٌ الأندلسَ نفر إليه لُذَريق . واستنفر أجناد (٤) أهل الأندلس . وكتب إلى أولاد غَيْطَشَةَ — وقد ترعرعوا . وركبوا الخيول ، واتخذوا الرجال — يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب . ويُحَذِّرهم من القعود عنه . ويحضُّهم على أن يكونوا على عدوِّهم يداً واحدة . فلم يجدوا بدّاً ، وحَشَدوا : وقَدِموا عليه بقرطبة . فنزلوا أكناف قريةِ شَقَنْدَة

---

(١) بنبلونة : مدينة بالأندلس بينها وبين سرقسطة مئة وخمسة وعشرون ميلا (وسرقسطة في الشمال الشرقي من العاصمة مدريد) وهي بين جبال شامخة ، وشعاب غامضة . قليلة الخيرات ، أهلها فقراء ، جاعة ، لصوص ، وأكثرهم يتكلمون بالبشقية ، لا يفهمون ، وخيلهم أصلب الدواب حافراً لبلادهم . ويسكنون على البحر المحيط ، في الجوف .

(٢) شعب يسكن مقاطعات البشكنش أو الباسك (Basque) الفرنسية والإسبانية على منحدرات جبال البيرنة الشمالية . وقد ناصر هذا الشعب العرب كما جاء في الملحمة الفرنسية باسم القائد (رولا ن) والذي قتل في مضائقها المشهورة سنة ٨٧٧ م .

(٣) وهو فعلته بابنة يليان .

(٤) الأجناد : جمع جند وهم العسكر والأعوان والأنصار .

بعُدْوَة نهرها ، قُبالَةَ القصر ، ولم يطمئنوا إلى الدخول على لذريق، أخذاً بالحزم ، إلى أن استتبَّ جهاز لذريق وخرج . فانضموا إليه ، ومَضَوا معه ، وهم مُرْصِدون لمكروهه.

والأصح – والله أعلم – ما سبق أن ملك القوط اجتمع لِلُذَريق.

واختُلف في اسمه . فقيل : رُذَرِيْق . بالراء أوّله .

قيل باللام : لُذَريق ، وهو الأشهر .

وقيل : إن أصله من إصبهان ، ويسمى الإشبان . والله أعلم .

وعسكر لُذَريق في نحو مئة ألف ذوي عدد وعُدَّة ؛ فكتب طارق إلى موسى يَستَمِدُّه ويُعَرِّفُه أنه فتح الجزيرة الخضراء ، فُرْضَةَ الأندلس (١) . ومَلَكَ المجاز إليها . واستولى على أعمالها (٢) إلى البحيرة ؛ وأن لُذَريق زحف إليه بمالا قِبَلَ له به إلا أن يشاءَ الله .

وكان موسى منذ وجّه طارقاً لوجهه قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عِدَّةٌ كثيرة . فحمل إلى طارق فيها خمسةَ آلافٍ من المسلمين مَدَداً ، كَمُلَت بهم عِدَّةُ مَنْ معه اثني عشرَ ألفاً أقوياءَ على المغانم ، حِراصاً على اللقاء، ومعهم يُلْيان المستأمِنُ إليهم(٣)؛ في رجاله وأهل عمله يدلُّهم عَلى العورات(٤) ويتجسس الأخبار .

* * *

(١) الفرضة : الميناء .

(٢) أعمالها : المناطق التابعة لها .

(٣) المستأمن : الذي أعطاه المسلمون أماناً على نفسه وماله وأهله ورجاله ، وأمن هو إلى ذلك .

(٤) العورات ، هنا : مواضع الضعف .

المعركة الكبرى والنصر :

وأقبل نحوهم لُذَريق في جموع العَجَم وملوكها وفرسانها ؛ فتلاقَوا فيما بينهم . وقال بعضهم لبعض : إن هذا ابنَ الخبيثة (١) قد غَلَب على سلطاننا وليس من أهله، وإنما كان من أتباعنا، فلسنا نَعْدِمُ من سيرته خَبالاً في أمرنا . وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا ، وإنما مُرادُهم أن يملؤوا أيديَهم من الغنائم . ثم يخرجوا عنا . فهلُمَّ فلننهزمْ بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه ، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في مُلكنا من يستحقه ؛ فأجمعوا على ذلك . والقضاء يُبْرِمُ ما ارْتَأَوْه .

وكان لذريق ولَّى مَيْمَنَتَه أحدَ ابنيْ غَيْطَشة ، ومَيْسَرَتَهُ الآخَرَ ، فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما إلى ذلك طَمَعُ رجوعِ مُلْكِ والدهما إليهما .

وقيل : لما تقابَلَ الجيشان أجْمَعَ أولادُ غيطشة على الغدر بلُذَريق ، وأرسلوا إلى طارق يُعلمونه أنَّ لُذَريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه . وأنهم غيرُ تاركي حقهم لديه . ويسألونه الأمانَ . على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلِّم إليهم إذا ظَفِر ضياعَ والدهم بالأندلس كلِّها . وكانت ثلاثة آلاف ضَيْعَة نفائس مختارة . وهي التي سُمِّيَتْ بعد ذلكَ (صَفايا الملوك) ، فأجابهم إلى ذلك . وعاقدهم عليه ؛ فالتقى الفريقان من الغد . فانحاز الأولاد إلى طارق . فكان ذلك أقوى أسباب الفتوح ،

---

(١) يريدون لذريق .

وكان الالتقاءُ على وادي لَكّةَ مِنْ كُوْرَةِ شَذُوْنَة ، فهزم اللهُ الطاغيةَ لُذَرِيق وجُموعَه ، ونصر الله المسلمين نصراً لاكفاء له ، ورمى لُذَرِيق نفسَه في وادي لَكّةَ وقد أثْقَلَتْهُ الجِراحُ فلم يُعلم له خبرٌ . ولم يوجد .

وقيل : نزل طارق بالمسلمين قريباً من عسكر للذريق مُنْسَلَخَ شهر رمضان(١) سنة ٩٢ فوجد لُذَرِيق عِلْجاً من أصحابه قد عَرَفَ نَجْدَتَه . ووَثِق ببأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزرَ عَدَدَهُم(٢) ويُعاين هيئاتِهم ومراكبَهم . فأقبل ذلك العِلْجُ حتى طلع على العسكر ، ثم شد في وجوه من استشرفه من المسلمين(٣) ، فوثبوا إليه . فولّى منصرفاً راكضاً . وفاتَهُم بسَبْقِ فرسه . فقال العلجُ لِلُذَرِيق : خذ على نفسك . فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموتَ أو إصابةَ ما تحت قدميكَ ، قد حرقوا مراكبَهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها . وصفّوا في السهل مُوَطِّنين أنفسَهم على الثبات . إذ ليس لهم في أرضنا مكان مَهْرَب . فَرَعَبَ(٤) وتضاعف جَزَعُه ، والتقى العسكران بالبحيرة . واقتتلوا قتالاً شديداً ، إلى أن انهزمت ميمنةُ لُذَرِيق ومَيْسَرَتُه . انهزم بهما أبناءُ غَيْطَشَة ، وثبتَ القلبُ بعدهما

---

(١) منسلخ الشهر : اخره .

(٢) أشرف على الشيء : اطلع عليه من فوق . يحزر عددهم : يقدره على وجه التخمين .

(٣) شد : حمل عليهم مهاجماً ، استشرف : نظر .

(٤) رعب : خاف .

قليلاً(١) وفيه لذريق . فعذَّر أهلَه بشيءٍ من قتال(٢) . ثم انهزموا ولذريق أمامهم . فاستمرت هزيمتُهم . وأذْرَعَ المسلمون القتلَ فيهم(٣) ، وخفيَ أثر لذريق فلا يُدْرى أمره . إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهبَ الذي فُقِدَ وهو راكبه . وعليه سَرْجٌ من ذهب ، مُكَلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ والزَّبَرْجَد . وقد ساخَ الفَرَسُ في طين وحَمْأةٍ(٤) . وغَرِقَ العِلْجُ . فثبت أحد خُفَّيْه في الطين فأخذ . وخَفي الآخَر . وغاب شخصُ العِلْجِ . ولم يوجد حياً ولا ميتاً . والله أعلم بشأنه .

وقال الرازي : كانت المُلاقاةُ يوم الأحد لِلَيْلَتين بقيتا من شهر رمضان . فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمسٍ خَلَوْنَ من شَوّال بعد تتمة ثمانيةِ أيامٍ . ثم هزم الله المشركين فقُتل منهم خَلْقٌ عظيمٌ . أقامتْ عِظامُهم بعد ذلك بدهرٍ طويلٍ ملبسةً بتلك الأرض .

قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يَجُلُّ قَدْرُه . فكانوا يَعْرِفون كِبارَ العجم وملوكَهم بخواتم الذهب . يجدونها في أصابعهم ، ويعرفون مَنْ دونَهم بخواتم الفضة ، ويميزون عَبيدهم بخواتم

---

(١) ينقسم الجيش في نظام التعبئة الحربية العربية إلى خمسة أقسام : المقدمة ، والقلب وهو وسط الجيش ، والميمنة والميسرة والمؤخرة أو الساقة .

(٢) عذر القوم : قصروا وهم يظهرون أنهم جادون وكأنهم أقاموا لأنفسهم العذر .

(٣) أذرعوا : أفرطوا .

(٤) الحمأة : الطين الأسود المنتن .

النحاس ؛ فجمع طارقٌ الفَيْءَ وخَمّسَه (١) ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع .

* * *

طارق يتابع الظفر والفتح :

ثم أقبل طارقٌ حتى نزل بأهل مدينة شَذُونَة . فامتنعوا عليه . فشدَّ الحَصْرَ عليهم حتى نَهَكَهُم ، وأضرَّهم(٢) فتهيأ له فَتْحُها عَنْوَةً . فحاز منها غنائم . ثم مضى إلى مُدَوَّر ، ثم عطف على قَرَمُونَة . فمر بعَيْنه المنسوبة إليه . ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجِزْيَة .

ثم نازَلَ أهلَ إسْتِجَةَ . وهم في قوة ، ومعهم فَلُّ(٣) عَسْكَرِ لذريق . فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتلُ والجراح بالمسلمين . ثم إن الله — تعالى — أظهر المسلمين عليهم . فانكسروا . ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارقٌ بالعِلْجِ صاحبِها . وكان مُغْتَرّاً ،سَيِّءَ التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده . فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارقٌ لا يعرفه ، فوثب عليه طارقٌ في الماء . فأخذه وجاء به إلى العسكر . فلما كاشَفَه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارقٌ على

---

(١) الفيء : الغنائم . وخمسه : قسمه خمسة أقسام وفق ما جاء في الآية ٦ من سورة الحشر : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ....) .

(٢) نهكهم : أضعفهم ؛ وأضرهم : أنزل بهم الضرر .

(٣) الفل : القوم المنهزمون .

ما أحَبَّ ، وضرب عليه الجزية ؛ وخلّى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه ؛ وقذف الله الرعْبَ في قلوبِ الكَفَرَةِ لما رأوا طارقاً يُوْغِل في البلاد(١) ، وكانوا يحسبونه راغباً في المَغْنَم ؛ عاملاً على القُفول(٢) ، فُسقِطَ في أيديهم(٣) ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ، وصَعِدَ ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طُلَيْطلة ؛ وقال يُليان لطارق : قد فَضَضْتَ جيوشَ القوم ، ورُعِبوا ، فاصْمُدْ لبَيْضَتِهم (٤)؛ وهؤلاء أدِلاّء من أصحابي ، مَهَرَةٌ . ففرِّق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعمد أنتَ إلى طُلَيطلة حيث مُعْظَمُهم ، فأشْغِلِ القومَ عن النظر في أمرهم ، والاجتماعِ إلى أولي رأيهم . ففرّق طارقٌ جيوشه معهم من إستِجةَ .

* * *

القائد مغيث يفتح قرطبة :

فبعث مغيثاً الروميَّ ، مولى الوليد بن عبد الملك ، إلى قُرْطُبَةَ ؛ وكانت من أعظم مدائنهم ، في سَبْعِ مئةِ فارسٍ ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيلَ العجم ، ولم يبق فيهم راجلٌ ، وفَضَلَتْ عنهم الخيل . وبعث جيشاً آخر إلى مالقة ، وآخر إلى غرناطة (وآخر إلى) مدينة إلبيرة . وسار هو في معظم الجيش إلى كُوْرَةِ جيّان ، يريد طُليطلة .

---

(١) يوغل في البلاد : يبالغ في دخولها .
(٢) القفول : الرجوع .
(٣) أي تحيروا ولم يدروا ماذا يصنعون .
(٤) اصمد لبيضتهم : اقصد إلى رئيسهم .

وقد قيل : إن الذي سار لقرطبة طارقٌ بنفسه . لا مغيث .

قالوا : فكَمِنوا بعُدْوَةِ نهرِ شَقَنْدَة ، في غَيْضَةِ أرْزٍ شامخةٍ . وأرسلت فأمسكوا راعيَ غنم . فَسُئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة . وبقي فيها أميرها في أربع مئة فارس من حُماتِهم ، مع ضُعَفاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حَصينٌ عالٍ ، فوق أرضها . إلا أنه فيه ثُغْرَةٌ(١) ووصفها لهم ، فلما أجَنَّهُمُ الليل(٢) أقبلوا نحو المدينة ، ووطّأ الله لهم أسبابَ الفتح(٣) بأن أرسل السماءَ بِرَذاذٍ أخفى دَقْدَقَةَ حوافر الخيل ؛ وأقبل المسلمون رُوَيْداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً ، وقد أغفل حَرَسُ المدينةِ احتراس السور . فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد ؛ فترجّلَ القومُ حتى عبروا النهر . وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقلّ . وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا مُتَعَلَّقاً . ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها ، فأراهم إياها ، فإذا بها غير مُتَسَهِّلَةِ التسنُّم (٤) ؛ إلا أنه كانت في أسفلها شجرةُ تينٍ مكَّنَتْ أفنانُها(٥) من التعلق بها . فَصَعِدَ رجلٌ من أشدّاء المسلمين في أعلاها . ونزع مغيثٌ عِمامته فناوله طَرَفَها . وأعان بعضُ الناس بعضاً حتى كثروا على السور . وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابَه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس . ففعلوا.

---

(١) ثغرة : مكان يمكن الدخول منه .

(٢) سترهم بظلامه .

(٣) أي مهد لهم أسباب الفتح وسهله .

(٤) التسنم : الاعتلاء .

(٥) أفنانها : أغصانها . والفنن : الغصن .

وقتلوا نفراً منهم ، وكسروا أقفالَ الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيثٌ ومَنْ معه . وملكوا المدينةَ عَنْوَةً .

* * *

فَتْحُ تُدْمير صُلْحاً ، وذكاء حاكمها الإفرنجي :

ومضى الجيش إلى تُدْمير . وتُدْمير : اسمُ العِلْجِ صاحبها . سُمِّيَتْ به ، واسم قَصَبَتِها أُرْيُولَه(١) . ولها شأنٌ في المَنَعَةِ ، وكان ملكها عِلْجاً داهيةً ، وقاتَلَهم مضحياً . ثم استمرت عليه الهزيمة في فَحْصِها(٢) ، فبلغ السيفُ في أهلها مبلغاً عظيماً أفنى أكثرهم . ولجأ العِلْجُ إلى أريولة . في يسيرٍ من أصحابه لا يُغْنونَ شيئاً . فأمر النساءَ بنشر الشُعور ، وحَمْل القصب ، والظهورِ على السور في زِيِّ القتال . متشبهاتٍ بالرجال ، وتصدَّر قُدَّامهنَّ في بقية أصحابه ، يُغالط المسلمين في قوّتهِ على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مِراسَه(٣) لكثرة مَنْ عايَنوه على السور ، وعرضوا عليه الصلحَ ، فأظهر الميلَ إليه . ونكَّر زِيّه ، فنزل إليهم بأمانٍ على أنه رسولٌ . فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثّق منهم ، فلما تم له من ذلك ما أراد عرّفهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه . وأخَذَهم بالوفاء بعهده ، وأدخلهم المدينة . فلم يجدوا فيها إلا العيالَ والذُّرِّيّة ، فندموا على الذي أعْطَوْه من الأمان . واسترجحوه(٤) فيما احتال به ،

---

(١) القصبة : المدينة .

(٢) الفحص : كل موضع من الأرض استوى اوكشف من نواحيه وبسط .

(٣) المراس : معالجة شأنه بالقتال ، ومعافاة ذلك .

(٤) استرجحوه : عدوه راجح العقل ، حسن التدبير .

ومَضَوْا على الوفاء له ؛ وكان الوفاءُ عادَتَهُم فسَلِمَتْ كورة تُدْمير من مَعَرَّةِ المسلمين(١) بتدبير تُدْمير ، وصارت كلُّها صُلْحاً ليس فيها عَنْوَةٌ ؛ وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح . وخلّفوا بقَصَبَةِ البلد رجالاً منهم . ومضى معظَمُهم إلى أميرهم لفتح طليطلة .

* * *

فتح طارق بن زياد طليطلة :

وانتهى طارقٌ إلى طُليطلة دارِ مملكة القوط ، فألفاها خاليةً ، قد فَرَّ عنها أهلها . ولجؤوا إلى مدينةٍ بها خلف الجبل . فضم اليهودَ إلى طليطلة وخلّف بها رجالاً من أصحابه ، ومضى خلف من فرَّ من أهل طليطلة . فسلك وادي الحجارة ، ثم استقبل الجبلَ . فقطعه من فجٍّ سُمِّيَ به بَعْدُ ، فبلغ مدينة المائدة . خلف الجبل . وهي المنسوبة لسليمان بن داود — عليهما الصلاة والسلام — وهي خضراءُ من زَبَرْجَد، حافاتُها منها وأرجلها . وكان لها ثلاثمئة وخمسةٌ وستون رِجْلاً . فأحرزها عنده . ثم مضى إلى المدينة التي تحصَّنوا بها خلف الجبل فأصاب بها حُلِيّاً ومالاً . ورجع ولم يتجاوزها إلى طليطلة سنة ثلاث وتسعين .

وقيل : إنه لم يرجع . بل اقتحم أرض جِلِّيقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة استُرْقة . فدوَّخ الجهةَ ، وانصرف إلى طُليطلة . والله أعلم .

---

(١) المعرة : الإيذاء .

موسى بن نُصير يلحق بطارق ليُتِمَّ الفتح :

ولما بلغ موسى بن نُصير ما صنعه طارق بنُ زياد ، وما أُتيح له من الفتوح حَسَدَهُ . وتهيأ للمسير إلى الأندلس . فعسكر ، وأقبل نحوها ومعه جماعةٌ الناس وأعلامُهم ، وقيل : إنهم كانوا ثمانية عشر ألفاً . وقيل : أكثر . فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكّبَ الجبلَ(١) الذي حلّه طارق ، ودخل إلى الموضع المنسوب إليه . المعروف الآن بجبل موسى . فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنتُ لأسلُكَ طريق طارق . ولا أقفو أثرَه(٢) . فقال له العُلوج الأدلاء ، أصحابُ يُلْيان : نحن نُسلِكُكَ طريقاً هو أشرف من طريقه . ونَدُلُّكَ على مدائنَ هي أعظمُ خطراً . وأعْظَمُ خَطْباً(٣) ، وأوْسَعُ غُنْماً من مدائنه . لم تُفْتَح بَعْدُ . يفتحها الله عليك . إن شاء الله تعالى . فَمُلِىء سروراً . وكان شُفوف(٤) طارق قد غَمّهُ . فساروا به في جانب ساحل شَذُونَة ، فافتتحها عَنْوَةً ، وألقَوا بأيديهم إليه .

ثم سار إلى مدينة قَرْمُونَة ، وليس بالأندلس أحْصَنُ منها . ولا أبْعَدُ على مَنْ يرومها بحصارٍ أو قتال ، فدخلها بحيلةٍ توجهت بأصحاب يُليان : دخلوا إليهم كأنهم فُلاّل(٥) . وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب . وأوقعوا بالأحراس فَمَلَكَت المدينة .

---

(١) تنكب الجبل : مال عنه وعدل إلى غيره .

(٢) أقفو أثره : أتبعه .

(٣) الخطب : الأمر والشأن .

(٤) الشفوف : جمع (شف) وأصله الربح والفضل والزيادة ، وأراد هنا : نجاحه وظفره .

(٥) فلال : منهزمون .

فتح موسى بن نصير إشبيلية :

ومضى موسى إلى إشبيلية جارتها ، فحاصرها ، وهي أعظمُ مدائن الأندلس شأناً ، وأعجبُها بُنياناً ، وأكثرُها آثاراً ، وكانت دار الملك قبل القوطيين . فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حوّلوا السلطانَ إلى طُليطلة ، وبقي رؤساء الدين فيها . أعني إشبيلية ، فامتنعت أشهراً على موسى ، ثم فتحها اللهُ عليه . فهرب العُلوج عنها إلى مدينةِ باجةَ .

* * *

فتحُه مدينة ماردةَ :

ومضى من إشبيلية إلى لَقَنْت(١) إلى مدينة ماردة . وكانت أيضاً دار مملكةٍ لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر . وهي ذات عزّ ومَنَعَةٍ . وفيها آثارٌ وقصورٌ ومصانعُ وكنائسُ جليلةُ القدر . فائقةُ الوصفِ . فحاصرها أيضاً ، وكان في أهلها مَنَعَةٌ شديدةٌ وبأسٌ عظيم . فنالوا من المسلمين دفعات . وآذَوْهم . وعمِل موسى دبابةً دَبَّ المسلمون تحتها إلى بُرْجٍ من أبراج سورها جعلوا ينقبونه . فلما قلعوا الصخرَ أفْضَوا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم (ألاشه ماشه) فنَبَتْ عنه مَعاولُهم وعُدَدُهم(٢) . وثار بهم العدو على غفلةٍ فاستُشهد بأيديهم قومٌ من المسلمين تحت تلك الدبابة . فسُمّيَ ذلك الموضع (بُرْجَ الشهداء) . ثم دعا القومَ إلى السلْم .

---

(١) لقنت : حصنان من أعمال (ماردة) .

(٢) لعله يريد بالعمل إحدى طبقات البناء . ونبت عنه المعاول : لم تعمل فيه ولم تنل منه .

فترسّل إليه في تقريره قومٌ من أماثلهم ، أعطاهم الأمان ، واحتال في توهيمهم في نفسه . فدخلوا عليه أولَ يوم فإذا هو أبيضُ الرأس واللحية . لما نَصَلَ خِضابه(١) . فلم يتفق لهم معه أمر ، وعاودوه قبل الفطر بيوم فإذا هو قد قَنَأ لِحيتَهَ بالحِنّاء فجاءت كَضِرامِ عَرْفج(٢) ، فعجبوا من ذلك. وعاودوه يوم الفطر فإذا هو قد سوّد لحيته، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخِضابَ ، ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إنّا نقاتل أنبياء يتَخلّقون كيف شاؤوا ، ويتصورون في كل صورةٍ أحبوا : كان ملكهم شيخاً فقد صار شاباً . والرأي أن نُقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنّا به طاقة . فأذعنوا عند ذلك . وأكملوا صُلْحَهم مع موسى . على أن أموالَ القتلى يوم الكمين . وأموال الهاربين إلى جِلّيْقيّة . وأموال الكنائس وحُليّها للمسلمين . ثم فتحوا له المدينة يومَ الفِطْرِ سنةَ أربعٍ وتسعين . فملكها .

* * *

انتقاض أهل إشبيلية وفَتْحُها ثانيةً :

ثم إنَّ عَجَمَ إشبيلية انتقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتي باجَة ولَبْلَة إليهم . فأوقعوا بالمسلمين . وقتلوا منهم ثمانين رجلاً . وأتى فَلُّهم الأميرَ موسى وهو بماردة ، فلما أنْ فَتَحَها وجّه ابنَه عبدَ العزيز بن موسى في جيشٍ إليهم ففتح إشبيلية ، وقتل أهلها . ونَهضَ إلى لبلة ففتحها . واستقامت الأمور فيما هنالك ، وعلا الإسلامُ . وأقام عبد العزيز بإشبيلية .

* * *

(١) الخضاب : ما يصبغ به الشعر ، ونصل : ذهب أثره فظهر الشيب .
(٢) قنأ لحيته : صبغها . والضرام : النار ، والعرفج : شجر سريع الالتهاب .

لقاء موسى بن نُصير طارقَ بنَ زياد ومتابعتهما الفتح :

وتوجه الأمير موسى من ماردة في عقب شوال من العام المؤرَّخ(١) يريد طُليطلة ، وبلغ طارقاً خَبَرُهُ . فاستقبله في وجوه الناس . فلقيه في موضعٍ من كورة طَلَبِيْرَة .

وقيل : إن موسى تقدم من ماردةَ فدخل جِلِّيْقِيَّة من فَجٍّ(٢) نُسِب إليه ، فخرقها حتى وافى طارقَ بنَ زياد ، صاحبَ مقدَّمته بمدينة اسْتُرْقَة .

وقيل : لما وقعت عينه عليه نزل إليه إعظاماً له ، فقَنَّعه موسى بالسَّوْط(٣) . ووَبَّخه على استبداده عليه . ومخالفته لرأيه . وساروا إلى طليطلة .

ثم إن موسى اصطلح مع طارق . وأظهر الرضى عنه . وأقَرَّه على مقدَّمته ، على رَسْمه(٤) . وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه . وسار موسى خلفه في جيوشه . فارتقى إلى الثغر الأعلى . وافتتح سَرَقُسْطَةَ وأعمالَها ، وأوغل في البلاد . وطارقٌ أمامه لا يَمرّان بموضعٍ إلا فُتح عليهما ، وغَنَّمهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرُّعْبَ في قلوب الكَفَرَة فلم يُعارضهما أحدٌ إلا بطَلب صلح . وموسى يجيء إثر طارق في ذلك كله، ويوثّق للناس ما عاهدوه عليه .

---

(١) أي عام ٩٤ للهجرة النبوية .

(٢) الفج : كل طريق معبد ، أو الطريق الواسع بين جبلين ، أو في الجبل ، أو ما انخفض من الطرق .

(٣) قنعه بالسوط : علاه بالسوط .

(٤) على رسمه : أي يبقى يعمل ويقاتل بقيادة موسى .

فلما صَفَا القُطْرُ كلُّه وطامَنَ نفوسَ من أقام على سلمه . ووطّأ لأقدام المسلمين للحلول به . أقام لتمييز ذلك وقتاً . وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا . وغَنِموا ، وعَلَّوا . وأوغلوا حتى انتهوا إلى وادي رُدُونَةَ . فكان أقصى أثر العرب . ومنتهى موطئهم من أرض العجم ، وقد دَوَّخَتْ بُعوثُ طارق وسراياه بلد إفرنجة . فملكتْ مدينتي بَرْشلُونَة وأَرْبُونَة . وصخرة إينيون . وحصنَ لودون . على وادي رُدُونَة . فَبَعُدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جِداً . وذُكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثُ مئةِ فرسخٍ وخمسةٌ وثلاثون فرسخاً ، وقيل : ثلاثمئة فرسخ وخمسون فرسخاً . ولما أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارله مَلِكُ الإفرنجة بالأرض الكبيرة(١) . وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمعٍ عظيم . فلما انتهى إلى حصن لُوْدون . وعَلِمَتِ العربُ بكثرة جموعه . زالت عن وجهه . وأقبل حتى انتهى إلى صخرة إينيون ، فلم يجد بها أحداً ، وقد عسكر المسلمون قُدّامه فيما بين الأجْبُلِ المجاورة لمدينة أربونة . وهم بحالِ غِرّةٍ . لا عُيونَ لهم . ولا طلائع . فما شعروا حتى أحاط بهم عدوّ الله قارله . فاقتطعهم عن الملجأ إلى مدينة أربونة . وواضَعَهُمُ الحربَ . فقاتلوا قتالاً شديداً استُشْهِد فيه جماعةٌ منهم . وحمل جمهورُهُم على صفوفه حتى اخترقوها . ودخلوا المدينة . ولاذوا بحصانتها . فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجال . وتعذّرَ عليه المُقام . وخامره ذعرٌ وخوفٌ مَدَدَ

---

(١) يريد أوروبا .

للمسلمين ، فزال عنهم راحلاً إلى بلده . وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي رُدونة شكّلها بالرجال ، فصَيّرها ثغراً بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض الكبيرة خلْفَ الأندلس .

* * *

فتوح القائد عبد الأعلى بن موسى بن نُصير :

وقيل : إن موسى بنَ نُصَيْر أخرج ابنَه عبدَ الأعلى إلى تُدْميرَ، وإلى غَرْناطة ، ومالَقة ، وكورة رَيَّة ، ففتح الكل .

وقيل : إنه لما حاصر مالَقَة – وكان مَلِكُها ضعيفَ الرأي ، قليلَ التحفُّظ – كان يخرج إلى جنانٍ له بجانب المدينة طلباً للراحة من غُمّةِ الحِصار(١) ، من غير نصبِ عينٍ(٢) . وتقديم طليعة(٣) وعرف عبدُ الأعلى بأمره فأكمن له في جنبات الجنة التي كان ينْتابُها قوماً من وجوه فرسانه ذوي رأي وحزم . أرصدوا له ليلاً فظفروا به ، وملكوه ، فأخذ المسلمون البلدَ عَنْوَةً . وملؤوا أيديهم غنيمةً .

* * *

إتمام موسى بن نُصير الفتحَ ، وعودتُه إلى المشرق :

وقيل : كانت نفس موسى بن نُصير في ذلك كلّه تنزع إلى دخول دار الكفر جِلِّيْقِيَّةَ . فبينما هو يعمل في ذلك ويُعِدُّ له . إذ أتاه

---

(١) غمة الحصار : شدته وضيقه .

(٢) العين : الجاسوس .

(٣) الطليعة : العسكر المتقدمون .

مغيثٌ الروميُّ رسولُ الوليدِ بن عَبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس ، والإضراب عن الوغول فيها(١) ، ويأخذه بالقُفول (٢) إليه ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلدٌ لم تَدخله العرب إلى وقته ذلك غير جليقية ؛ فكان شديد الحرص على اقتحامها ، فلاطفَ موسى مغيثاً رسولَ الخليفة،وسأله إنظارَه(٣) إلى أن يُنَفِّذَ عَزْمَه في الدخول إليها ، والمسير معه في البلاد أياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتى بلغ المفازة(٤) ، فافتتح حصنَ بارو ، وحِصْنَ لُكَ ، فأقام هناك ، وبثَّ السرايا حتى بلغوا صخرة بِلاي على البحر الأخضر ، وطاعت الأعاجم ، فلاذوا بالسلم ، وبذْل الجزية ، وسكنت العربُ المفاوز ، وكان العربُ والبربرُ كلما مر قومٌ منهم بموضعٍ استحسنوه حَطُّوا به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخَذِلَ الشِّرْكُ .

وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور ، وقوة الأمل ، إذ قَدِمَ عليه رسولٌ آخر من الخليفة يُكْنى أبا نصر ، أردفَ به الوليدُ مغيثاً لما استبطأ موسى في القُفول ، وكتب إليه يُوَبِّخُه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه(٥) فانقلع حينئذٍ من مدينة لُكَ بجِلِّيقِيَة ، وخرج على الفَجِّ المعروف بفجِّ موسى(٦) ، ووافاه

---

(١) الوغول : أراد التوغل في البلاد ودخولها .
(٢) القفول : الرجوع والعودة .
(٣) إنظاره : تأخيره وإمهاله .
(٤) المفازة : الصحراء ، البرية ، كل مكان قفر .
(٥) أزعجه : رحله وقلعه من مكانه وطرده .
(٦) الفج : كل طريق معبد .

طارقٌ في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى فأقفله مع نفسه(١) ومضيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القُفول . وأقام مَنْ آثر السُّكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختَطُّوها واستوطنوها . وقَفَل معهم الرسولان: مغيثٌ وأبو نصر حتى احتلوا بإشبيلية(٢) ؛ فاستخلف موسى ابنَه عبد العزيز على إمارة الأندلس . وأقرَّه بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر . نظراً لقربه من مكاره المجاز . وركب موسى البحر إلى المشرق بذي الحجة سنة خمس وتسعين وطارقٌ معه . وكان مُقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنةً . وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر ، وحمل موسى الغَنائمَ والسَّبْيَ . وهو ثلاثون ألفَ رأسٍ . والمائدة منوِّهاً بها(٣) . ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة مالا يُقَدَّرُ قَدْرُه . وهو مع ذلك متلهفٌ على الجهاد الذي فاته . أسِفٌ على مالحقه من الإزعاج(٤) ؛ وكان يُؤَمِّل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة . ويقتحم الأرضَ الكبيرةَ حتى يتصلَ بالناسِ إلى الشام ، مؤملاً أن يتخذَ مُخْتَرَقَهُ(٥) بتلك الأرض طريقاً مَهْيَعاً(٦) يسلكه أهلُ الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه . على البَرِّ . لايركبون بحراً .

(١) أي أرجعه معه .
(٢) احتلوا بإشبيلية : حلوها وتوطنوها وأقاموا بها .
(٣) أي مائدة سليمان . انظرها فيما سبق .
(٤) الإزعاج : اضطراره إلى الرحيل عن الأندلس .
(٥) مخترقه : أي المكان الذي يخترقه ، أي : يسلكه ويجتاز البلاد منه .
(٦) المهيع : الواضح البين ، وهو أيضاً الواسع المنبسط .

رواية ابن خلدون لفتح الاندلس

وقال ابن خلدون – بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملكٌ بالأندلس . وأن مَلِكَهم لعهد الفتح يسمى لُذَرِيق – ما نصه :

وكانت لهم خطوةٌ وراء البحر ، في هذه العُدْوَة الجنوبية . خطَوْها من فُرْضَة المجاز بطَنْجَة ، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر . واستعبدوهم ؛ وكان ملك البربر بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى يُلْيان ، فكان يدين بطاعتهم وبملّتهم . وموسى بنُ نُصير أمير المغرب إذ ذاك عامل إفريقية من قِبَل الوليد بن عبد الملك ومنزلُه بالقيروان . وكان قد أغزى لذلك العهد عساكرَ المسلمين بلاد المغرب الأقصى . ودوَّخَ أقطاره(١) ، وأثخن في جبال طَنْجَة(٢) هذه حتى وصل خليجَ الزُقاق . واستنزل يُلْيان لطاعة الإسلام ، وخلّف مولاه طارقَ بن زياد الليثي والياً بطنجة . وكان يُليان يَنْقِمُ على لُذَرِيقَ ملكِ القوط لعهده بالأندلس فَعْلَةً فَعَلَها – زعموا – بابنته الناشئة في داره . على عادتهم في بنات بَطارِقَتِهم(٣) . فغضب لذلك . وأجاز إلى لُذَرِيق(٤) وأخذ ابنته منه ؛ ثم لحق بطارقٍ فكشف للعرب عَوْرَةَ القوط ، ودلّهم على عورةٍ فيهم أمكنت طارقاً فيها الفرصةُ ، فانتهزها لوقته . وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نُصير . في نحو ثلاث مئةٍ من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف . فصيّرهما عسكرين : أحدهما على نفسه(٥) ونزل به جبل

(١) دوخ أقطاره : كناية عن أنه قهر جميع نواحيه ، واستولى على أهلها .
(٢) أثخن فيهم : أكثر من القتل .
(٣) البطارقة : جمع بطريق وهو القائد من قواد الروم .
(٤) أجاز : اجتاز .
(٥) أي إنه يقود أحدهما .

الفتح ، فسمي جبل طارق ، والآخر على طَريف بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طَريف فسمي به . وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن ، وبلغ الخبرُ إلى لُذَريق ، فنهض إليهم يجرُّ أممَ الأعاجم وأهلَ مِلّةِ النصرانية ، في زُهاء أربعين ألفاً . وزحفوا إليه ، فالتقوا بفَحْص شَرِيْش (١) . فهزمه الله . ونَفَّلَهم أموال أهل الكفر (٢) ورقابَهم . وكتب طارقٌ إلى موسى بنِ نُصير بالفتح وبالغنائم ، فحركته الغَيْرَةُ . وكتب إلى طارق يتوعَّدُه إن توغّل بغير إذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانَه حتى يلحقَ به . واستخلف على القيروان ولدَه عبدَ الله . وخرج . ومعه حبيب بنُ مَنْده الفِهْري (٣) ، ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ، في عسكرٍ ضخمٍ من وجوه العرب المَوالي وعُرَفاء البربر . ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز إلى الأندلس ، وتلقّاه طارق فانقاد واتبع ، وأتمَّ موسى الفتحَ ، وتوغل في الأندلس إلى بَرْشَلُوْنَة في جهة الشرق ، وأربونة في الجوف ، وصَنَم قادس في الغرب ، ودوّخَ أقطارَها . وجمع غنائمَها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القُسْطَنطينية . ويتجاوز إلى الشام دُروبه ودروب الأندلس . ويخوض إليه مابينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم . مستلحماً لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة .

---

(١) الفحص : كل موضع استوى من الأرض وانبسط . وشريش : مدينة في جنوبي الأندلس على المحيط الأطلسي .

(٢) أي جعلها نفلا ، أي هبة ، غنيمة .

(٣) كذا قال المقري . ولعله يريد حبيب بن مرة بن عقبة بن نافع . أحد الوجوه من أصحاب موسى بن نصير .

ونُمي الخبرُ إلى الوليد فاشتد قَلَقُهُ بمكان المسلمين من دار الحرب ؛ ورأى أنّ ما هَمّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين . فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يَرْجِع ، وكتب له بذلك عهده . ففتّ ذلك في عزم موسى ، وقَفَلَ عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ؛ وأنزل ابنَه عبدَ العزيز لِسَدّها وجهادِ عدوّها . وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة ، واحتل موسى بالقيروان سنة خمسٍ وتسعين ؛ وارتحل إلى المشرق سنةَ ستّ بعدها ؛ بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال ؛ على العَجَل والظهر(١) يقال : إن من جُملتها ثلاثين ألف رأسٍ من السبي ؛ وولّى على إفريقيةَ ابْنَه عبدَ الله .

* * *

خطبة طارق بن زياد لدى شروعه بالفتح

لما بلغ طارقَ بن زياد دُنُوُّ لُذَريق منه قام في أصحابه . فَحَمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أَهْلُه ؛ ثم حث المسلمين على الجهاد . ورَغّبَهم ثم قال :

أيُّها الناسُ ، أيْنَ المَفَرّ ؟ البحر من ورائكم ؛ والعدوُّ أمامَكم . وليس لكم — والله — إلا الصدقُ والصبر ؛ واعلموا أنكم في هذه الجزيرةِ أضيَعُ من الأيتام في مأدُبَة اللئّامِ . وقد استقبلكم عَدُوُّكم بجيشه وأسلحته ؛ وأقواتُه موفورة،وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا

(١) العجل : أدوات ذات دواليب أو ما يشبه ذلك . والظهر : ما يركب من الحيوان.

سُيوفُكم(١) ، ولا أقواتَ لكم إلا ما تستخلصونَه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيامُ على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ذَهَبَتْ رِيْحُكم(٢) ، وتعَوَّضت القلوبُ من رُعْبها منكم الجَراءةَ عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خِذْلان هذه العاقبة من أمركم بمُناجَزَةِ هذا الطاغية(٣) ؛ فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحَصينة ؛ وإن انتهازَ الفُرصَة فيه لَمُمْكِنٌ إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بِنَجْوَةٍ . ولا حملتكم على خُطَّةٍ أرْخَصُ متاعٍ فيها النفوسُ إلا وأنا أبدأ بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشَقِّ قليلاً استمتعتم بالأرْفَهِ الألَذّ طويلاً . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حَظُّكم فيه بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحُوْرِ الحِسان . من بناتِ اليونان : الرافِلاتِ في الدُّرِّ والمَرْجان ؛ والحُلَلِ المنسوجةِ بالعقيان(٤) ؛ المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ؛ وقد انتخبكم الوليدُ بنُ عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُزْباناً(٥) ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً(٦) . ثقةً منه بارتياحكم للطِّعان ، واستماحكم بمُجالَدَة الأبطال والفرسان ، ليكون حظُّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته ، وإظهارَ دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمُها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين

---

(١) الوزر : الملجأ ، والمعتصم .

(٢) ذهبت ريحكم : كناية عن ضياع شوكتهم ، وضعف متنهم .

(٣) المناجزة : المقاتلة والمدافعة والإسراع في ذلك . ويريد بالطاغية لذريق .

(٤) العقيان : الذهب .

(٥) عزباناً : جمع (عزب) وهو الذي لا زوج له . ويروى (عربانا) .

(٦) الختن ، بفتح الخاء والتاء : بمعنى الصهر .

سِواكم ؛ واللهُ – تعالى – وَلِيُّ إنجادكم(١) على ما يكون لكم ذكراً في الدارَيْن .

واعلموا أني أولُ مجيبٍ إلى مادعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي(٢) على طاغية القوم لُذَرِيق فقاتِلُه إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكتُ بعده فقد كَفَيْتُكم أمْرَه ، ولم يُعْوِزْكُمْ بطلٌ عاقلٌ تُسْنِدُون أموركم إليه(٣) ؛ وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلُفوني في عزيمتي هذه . واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح الجزيرة بقتله ؛ فإنهم بعده يُخْذَلون .

* * *

(١) الإنجاد : المعونة والإسعاف .

(٢) حامل : هاجم .

(٣) أعوزه : أحوجه . يريد أنه لن يضيق عليكم اختيار بطل عاقل منكم لكثرة ذلك بينكم .

القبائل العربية التي دخلت الأندلس

وأماكن استيطانها وبعض من اشتهر من أعيانها

القبائل العربية التي دخلت الأندلس وأماكن استيطانها وبعض من اشتهر من أعيانها

لما استقر قدم أهل الإسلام بالأندلس . وتَمَّ فتحُها صَرَفَ أهلُ الشام وغيرُهم من العرب هَمَّهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جراثيم العرب(١) وساداتهم جماعةٌ أورثوها أعقابَهم . إلى أن كان من أمرهم ما كان.

* * *

العدنانيون وأماكن استيطانهم وبعض من اشتهر من أعيانهم :

فأما العدنانيون : فمنهم خِنْدِفٌ(٢) . ومنهم قُرَيش .

وأما بنو هاشم من قريش : فقال ابن غالب في (فرحة الأنفس) : بالأندلس منهم جماعة . كلُّهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب . ومن هؤلاء بنو حَمُّوْد ملوكُ الأندلس بعد انْتِثار سِلْكِ بني أمية .

وأما بنو أمية : فمنهم خُلفاءُ الأندلس . قال ابن سعيد : ويُعْرَفون هنالك إلى الآن بالقرشيِّين ، وإنما عَمُّوا نَسَبَهُم إلى أمية(٣) في

(١) الجراثيم : جمع جرثومة ، وهي الأصل .

(٢) خندف : لقب امرأة إلياس بن مضر ، واسمها ليلى بنت حلوان بن الحاف بن قضاعة . لقبت بذلك لأنها قالت لزوجها وأولادها : « مازلت أخندف في أثركم » في قصة . أي : مازلت أسير .

(٣) عموا نسبهم: أراد أنهم أخفوه وستروه بأن ارتفعوا إلى جد أعلى من أمية وهو قريش.

الآخر لمّا انحرف الناس عنهم . وذكروا أفعالَهم في الحسين ، رضي الله عنه .

وأما بنو زُهْرَة : فمنهم بإشبيلية أعيانٌ متميزون .

وأما المخزوميّون : فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى ، الشاعر المشهور . من أهل حصن المدوَّر ، ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بْنُ زَيْدُون ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون ، وزير مُعْتَضد بن عَبّاد .

وقال ابن غالب : وفي الأندلس مَنْ يُنْسب إلى جُمَح . وإلى بني عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفون بالفِهْريِّين من بني مُحارب بن فِهْر . وهم من قريش الظواهر ؛ ومنهم عبدُ الملك بن قَطَن سلطَانُ الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجدّ الأعيانُ العلماء . ومن بني محارب بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس الذي غلبه عليها عبد الرحمن الأموي الداخل ، وجدُّ يوسف عُقبة بن نافع الفهري . صاحب الفتوح بإفريقية .

قال ابن حَزْم : ولهم بالأندلس عددٌ وثروة .

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجُلّهم في طُلَيْطلةَ وأعمالِها . ولهم يُنسبُ الوَقَشيّون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد . والوزير أبو جعفر . ومنهم أبو الحسين بن جُبير العالم . صاحب الرحلة وقد ذكرناه في محله .

وأما هُذيل بنُ مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر فذكر ابن غالب أن منزلهم بجهة أرْيُولَة من كورة تُدْمير .

وأما تميم بن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر فقد ذكر ابن غالب أيضاً أنهم خَلْقٌ كثير بالأندلس ؛ ومنهم أبو الطاهر صاحب (المقامات اللزومية)

وأما ضَبّة بنُ أدّ بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس . فهؤلاء خِنْدِفٌ من العدنانية .

وأما قيسُ عَيْلان بن إلياس بن مُضَر من العدنانية ففي الأندلس كثيرٌ منهم ينتسبون إلى العموم . ومنهم من ينتسب إلى سُليم بن منصور ابن عِكْرِمَةَ بن خَصَفَة بن قيس . كعبد الملك بن حَبيب السُّلَميّ الفقيه صاحب الإمام مالك رضي الله عنه . وكالقاضي أبي حفص بن عمر . قاضي قرطبة . ومن قيس من ينتسبُ إلى هوازن بن منصور بن عكرمة . قال ابن غالب : وهم بإشبيلية خَلْقٌ كثير .

ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هَوازن : قال ابن غالب : ولهم منزلٌ بجَوْفيّ بَلَنْسِيَة ، على ثلاثة أميال منها . وبإشبيلية وغيرها منهم خلقٌ كثير .

ومنهم بنو حَزْم . وهم بيتٌ غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري . وهو فارسي الأصل .

ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هَوازن . وذكر ابن غالب أن منهم بغرناطة كثيراً . كبني جُوْدِيّ . وقد رَأَسَ بعضُ بني جَوْديّ .

ومنهم من ينتسب إلى سَلُوْل : امرأةٍ نُسِبَ إليها بنوها . وأبوهم مُرّةُ بنُ صعصعة بن معاوية بن بكر بن هَوازن .

ومنهم من ينتسب إلى كِلابِ بنِ ربيعةَ بنِ عامرِ بن صَعْصَعَةَ ابن معاوية بن بكر بن هَوازن .

ومنهم من ينتسب إلى نُمَير بن عامر بن صَعْصَعَة . قال ابن غالب : وهم بغرناطة كثير .

ومنهم من ينتسب إلى قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة .

ومنهم بَلْجُ بن بشر صاحبُ الأندلسِ وآلُه . وبنو رَشيق .

ومنهم من ينتسب إلى فَزارة بن ذبيان بن بغيض بن رَيْث بن غَطَفان بن سعد بن قيسِ عَيْلان .

ومنهم من ينتسب إلى أَشْجَعَ بن رَيْث بن غَطَفان ،ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي . سلطانُ الأندلس .

وفي ثَقيف اختلاف . فمنهم من قال : إنها قَيْسِيّةٌ . وإنّ ثَقيفاً هو قَسِيُّ (١) بن مُنَبِّه بن بكر بن هوازن . ومنهم بالأندلس جماعةٌ ؛ وإليهم ينتسب الحُرُّ بن عبد الرحمن الثقفي ، صاحبُ الأندلس . وقيل : إنها من بقايا ثمود . انتهى قيسُ عَيلانَ وجميعُ مُضَر .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسبُ إلى أسد بن ربيعة بن نزار . قال في (فرحة الأنفس) : إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفي مدينة وادي آش . انتهى

والأشهر بالنسبة إلى أسد أبداً بنو أسَدِ بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكة ابن إلياس بن مُضَر .

---

(١) لقب ثقيف قسياً لأنه مر على أبي رغال فقتله فقيل : لقد قسا قلب ثقيف قسياً .

وفيه يقول راجزهم : نحن قسي وقسا أبونا

ومنهم من ينتسب إلى مُحارِب بن عمرو بن وديعة بن لُكَيْز ابن أفصى بن دُعْمَى بن جَديلَة بن أسد بن ربيعة . قال ابن غالب في (فرحة الأنفس) : ومنهم بنو عطية ، أعيانُ غَرْناطة .

ومنهم من ينتسب إلى النَّمِر بنِ قاسِط بن هِنْب بن أفصى بن دُعْمَى بن جَديلة بن أسد . كبني عبد البَرّ الذين منهم الحافظ أبو عمر بن عبد البَرّ .

ومنهم من ينتسب إلى تَغْلِب بن وائل بن قاسط بن هِنْبٍ كبني حَمْدِيْس أعيان قرطبة .

ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالبكريين أصحاب أونَبَة وشَلْطيش (١) الذين منهم أبو عُبَيْد البكري صاحب التصانيف . انتهت ربيعة .

وأما إياد بن نزار ، وقد يقال : إنه ابن مَعَدّ . والصحيح الأول . فينتسب إليهم بنو زُهْر المشهورون بإشبيلية . وغيرهم . انتهت العدنانية . وهم الصريح من ولد إسماعيل . عليه السلام .

* * *

القحطانيون وأماكن استيطانهم ، وبعض من اشتهر من أعيانهم

واختلف في القحطانية : هل هم من ولد إسماعيل . أو من ولد هود . على ما هو معروف ، وظاهر صنيع البخاري الأول . والأكثر على خلافه .

---

(١) أونبة : من مدن جبل العيون بالأندلس . وهي مدينة برية بحرية ، بينها وبين البحر ميل ، وبينها وبين لبلة ستة فراسخ . وشلطيش : جزيرة بالأندلس قرب مدينة لبلة .

والقحطانية هم المعروفون باليمانية ، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس ، كما كان يقع بالمشرق . وهم الأكثر بالأندلس . والمُلْكُ فيهم أرسخ ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية . فإن القرشية قدمتهم على الفرقتين ، واسم الخلافة لهم بالمشرق . وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهيةُ الذي ملك سلطنة الأندلس . وقصد بذلك تشتيتهم وقَطْعَ التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء . وقدَّم القوادَ على الأجناد ، فيكون في جُند القائد الواحد فِرَقٌ من كل قَبيل . فانحسمت مادةُ الفتن ، والاعتزاءُ بالأندلس إلا ما جاءت على غير هذه الجهة .

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جرْم بن كَهلان ، وحِمْيَر بنِ يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرْفَخْشَذ بن سام بن نوح .

وقيل : قحطانُ بن الهَمَيْسَع بن تَيهان بن نابت بن إسماعيل .

وقيل : قحطان بن هود بن عبد الله بن رَباح بن جارف بن عاد ابن عَوْص بن إرَم بن سام . والخُلْفُ في ذلك مشهور .

فمنهم كَهْلانُ بنُ سبَأ بن يَشْجُب بنِ يَعْرُب بن قحطان .

ومنهم الأزد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كَهْلان وإليهم ينتسب محمد بن هانيء الشاعر المشهور الإلبيري . وهو من بني المُهَلّب .

ومن الأزد من ينتسب إلى غسان ، وهم بنو مازن بن الأزد . وغسان : ماء شربوا منه .

وذكر ابن غالب أن منهم بني القُلَيْعِيّ (١) ، من أعيان غرناطة ، وكثير منهم بصالحة : قرية على طريق مالَقَة .

ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم . وهم الجم الغفير بالأندلس .

قال ابن سعيد : والعجب أنك تعْدَمُ هذا النسب بالمدينة (٢) . وتجد منه بالأندلس . في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرةً . ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلا شيخاً من الخزرج . وعجوزاً من الأوس .

قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة . وهم أكثر القبائل بالأندلس ، في شرقها ومغربها . .

ومن الخزرج بالأندلس عُبادة بن عبد الله بن ماء السماء . من ولد سعد بن عُبادة، صاحب رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وهو المشهور بالموشحات . وإلى قيس بن سعد بن عُبادة ينتسب بنو الأحمر . سلاطين غرناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحدَ وزرائهم ، وعليهم انقرض ملك الأندلسيين من المسلمين ، واستولى العدو على الجزيرة جميعاً كما يذكر .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج .

ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عكّ بن عُدْثان بن أزان بن الأزد ؛ وقد يقال : عك بن عدنان — بالنون — فيكون أخا معدّ بن عدنان ، وليس بصحيح .

---

(١) القليعي : نسبة إلى القليعة (بضم القاف) وهي قرية من قرى المغرب ، حصينة . واقعة في سفح جبل . وبها ابار ونخيل . وبنو القليعي : جماعة كان لهم من نباهة الشأن وعلو الذكر في العلم والمعرفة ما حمل أهل غرناطة على تقديرهم والإذعان لفضلهم .

(٢) يريد المدينة النبوية المنورة .

قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال . الكاتب . وأكثر جهات (شَقُورَة) ينتسبون إلى غافق .

ومن كهلان من ينتسب إلى هَمْدان . وهو أوْسلَةُ بنْ مالك ابن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان . ومنزلُ هَمْدانَ مشهور . على ستة أميالٍ من غَرْناطة . ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى .

ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج . ومَذْحِج : اسمُ أكَمَةٍ حمراءَ باليمن . وقيل: اسم أم مالك وطَيِء بن أدد بن زيد بن كهلان . قال ابن غالب : بنو سِراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مَذْحِج .

ومنزل طَيِء بِقِبْلِيٍّ مُرْسِيَة .

ومنهم من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أدد . وحصنُ مراد بين إشبيلية وقرطبة مشهور . قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً .

ومنهم من ينتسب إلى عَنْس بن مالك بن أدد . ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب (المغرب) . وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة .

ومن مَذْحِج من ينتسب إلى زُبَيْد . قال ابن غالب : وهو مُنَبِّه ابن سعد العشيرة بن مالك بن أدد .

ومن كهلان من ينتسب إلى مُرَّةَ بن أدد بن زيد بن كهلان . قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة .

ومنهم من ينتسب إلى عاملة . وهي امرأةٌ من قُضاعة ولدت للحارث بن عَدِيّ بن الحارث بن مرة بن أدد ؛ فنسب ولدها منه إليها . قال ابن غالب : منهم بنو سِماك القضاةُ من أهل غَرْناطة ؛

وقومٌ زعموا أن عاملة هو ابن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان . وقيل : هم من قُضاعة .

ومن كَهْلان خَوْلان بن عمرو بن الحارث بن مُرَّة . وقلعة خَوْلان مشهورة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية . ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة .

ومنهم من ينتسب إلى المعافر بن مالك بن الحارث بن مُرَّة ، ومنهم المنصور بن أبي عامر . صاحبِ الأندلس .

ومنهم من ينتسب إلى لَخْمِ بنِ عَدِيّ بن الحارث بن مُرَّة . منهم بنو عَبّاد أصحاب إشبيلية وغيرها . وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة . ومنهم بنو الباجي أعيان إشبيلية . وبنو وافد الأعيان .

ومنهم من ينتسب إلى جُذام مثل ثَوابَة بن سلامة . صاحب الأندلس . وبني هود ملوك شرقي الأندلس . ومنهم المتوكل بن هود الذي صَحَّت له سلطنة الأندلس بعد الموحِّدين . ومنهم بنو مَرْدَنيش أصحاب شرقي الأندلس .

قال ابن غالب : وكان لجُذام جزء من قلعة رَباح (١) ؛ واسمُ جُذام عامر ، واسم لَخْم مالك ، وهما ابنا عديّ .

ومن كَهْلان من ينتسب إلى كِنْدَة ، وهو ثَوْر بن عُفَيْر

---

(١) قلعة رباح : من عمل جيان ، بين قرطبة وطليطلة ، وهي مدينة حسنة ، ولها حصون حصينة على نهر ، وهي مدينة محدثة أيام بني أمية ، وإنما عمرت قلعة رباح بخراب (أوريط) .

ابن عَدِيٍّ بنِ الحارثِ بن مُرَّة بنِ أدد ؛ ومنهم يوسف بن هارون الرمادي . الشاعر .

ومنهم من ينتسب إلى تُجيب ، وهي امرأةُ أشرس بن السكون ابن أشرس بن كندة .

ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن عمرو ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان . ومنهم عثمان بن أبي نِسْعَة ، سلطانُ الأندلس . وقد قيل : أنمار بن نزار بن معَدّ ابن عدنان . انتهت كهلان .

وأما حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان .

فمنهم من ينتسب إلى ذي رُعَيْن . قال ابن غالب : وذو رُعَيْن ولد عمرو بن حِمْيَر في بعض الأقوال . وقيل : هو من ولد سهل ابن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن بن عَرِيب بن زهير بن أيمن بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر . قال : ومنهم أبو عبد الله الحذّاط الأعمى ، الشاعر .

قال الحازمي في كتاب (النسب) : واسمُ ذي رُعَين عَرِيم بن زيد بن سهل . ووصل النسبَ .

ومنهم من ينتسب إلى ذي أصْبَح .

قال ابن حَزْم : هو ذو أصْبَح بن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس ، ووصل النسبَ .

وذكر الحازميّ أن ذا أصبح من كهلان ، وأخبر أن منهم مالك ابن أنس ، الإمام ؛ والمشهور أنهم من حِمْيَر . والأصبحيون من أعيان قرطبة .

قال ابن حزم : إنه أخو ذي أَصْبَح . وهم كثير بقلعة بني سعد ، وقد تُعرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يَحْصُب .

ومنهم من ينتسب إلى هَوازِن بن عوف بن عبد شمس بن وائل ابن الغوث .

قال ابن غالب : ومنزلهم بشرقي إشبيلية : والهوازنيون من أعيان إشبيلية .

ومنهم من ينتسب إلى قُضاعة بن مالك بن حِمْيَر .

وقد قيل : إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان ، وليس بمرضيّ .

ومن قضاعة من ينتسب إلى مهْرَة . كالوزير أبي بكر بن عمار الذي وثب على ملكِ مُرسيَةَ وهو مَهرةُ بنُ حيدان بنِ عمرو بنِ الحاف بن قضاعة .

ومنهم من ينتسب إلى خُشَيْن بن تنوخ .

قال ابن غالب : وهو ابن مالك بن فهم بن نمر بن وَبَرَة بن تغلب.

قال الحازمي : تنوخ هو مالك بن فهر بن فهم بن تيم الله بن أسد ابن وَبَرَة .

ومنهم من ينتسب إلى بَلِيّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . ومنهم البَلَوِيُّون الإشبيلية .

ومنهم من ينتسب إلى جُهَيْنَة بن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة .

قال ابن غالب : وبقرطبة منهم جماعة .

ومنهم من ينتسب إلى كَلْب بن وَبَرَة بن تَغْلِب بن حُلْوان كبني أبي عبدة الذين منهمْ بنو جَهْوَر ملوك قرطبة ووزراؤها .

ومنهم من ينتسب إلى عُذْرَة بن سعد بن هُذَيم بن زيد بن أسود ابن عمرو بن الحاف بن قُضاعة ؛ ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء (١) بنو عُذْرَة .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى حَضْرَمَوْت . منهم الحَضْرَميّون بمُرْسِيَة وغرناطة . وإشبيلية ، وبَطَلْيَوْس وقرطبة .

قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس . وفيه خلاف .

قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان . وقيل : هو حضرموت ابن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جَيدان – بالجيم – ابن قَطَن بن العَريب بن الغَرْز بن نَبْت بن أيمن ابن الهميسع بن حِمْيَر . كذا نَسَقَ النسبَ الحازميُّ .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سَلامان . ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب .

---

(١) الجزيرة الخضراء : ويقال لها جزيرة أم حكيم . وأم حكيم جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير . كان طارق قد حملها معه ، ثم خلفها في هذه الجزيرة فنسبت الجزيرة إليها . وبين الجزيرة الخضراء وبين مدينة قلشانة ٦٤ ميلا ، وهي على ربوة مشرفة على البحر .

تسمية العرب بلاد الأندلس
بأسماء مواطنهم الأصلية

قال الرازي : قدم أبو الخطّار حُسام بن ضرار الكلبي من قِبَل حَنْظَلَةَ بن صَفْوانَ عامل إفريقية : ركب إليها البحرَ من تونس سنة خَمس وعشرين (ومئة) فدانَ له أهل الأندلس ؛ وأقبل إليه ثعلبة وابنُ أبي نِسْعَة وابنا عبد الملك فلقيَهم وأحسن إليهم . واستقام أمره . وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم . وكَثُر أهل الشام عنده ؛ ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد ، وأنزل أهلَ دمشق إلبيرة لِشَبَهِها بها ؛ وسماها دمشق ؛ وأنزل أهلَ حمص إشبيلية وسماها حمص . وأهلَ قِنَّسْرِيْن جَيَّان وسماها قِنَّسْرِيْن . وأهلَ الأردنِّ رَيَّةَ ومالَقَة وسماها الأردنَّ ؛ وأهلَ فلسطين شَذُوْنَةَ — وهي شَرِيْش — وأهلَ مصرَ تُدْمير وسماها مصر .

* * *



الأقاليم الأندلسية والجزائر والمدن

أقاليم الأندلس وما يشتمل عليه كلُّ إقليمٍ من المدن :

واعلم أن جزيرة الأندلس – أعادها الله للإسلام – مشتملةٌ على مُوَسّطَة . وشرقٍ . وغرب .

* * *

الإقليم المتوسط :

فالمُوَسّطَةُ فيها من القواعد المُمَصَّرَة التي كلُّ مدينةٍ منها مملكةٌ مستقلةٌ لها أعمالٌ ضِخامٌ ، وأقطارٌ متسعة : قُرْطُبَة ، وطُلَيْطِلَة ، وجَيّان ، وغَرْنَاطَة . والمَرِيّة ، ومالَقَة .

فمن أعمال قرطبة : إسْتِجَة ، وبِلْكُونَة ، وقَبْرَة ، ورُنْدة ، وغافِق . والمدوَّر . وأَسْطِبة . وبَيّانَة ، والبَسّانة ، والقصير (١) ، وغيرها .

(١) لم يذكر صاحب (الروض) القصير ولا أسطبة ولا بسانة أصلا ، ولا بلكونة ولا المدور استقلالا ، ولعل أسطبة ههنا محرفة من (إستجه) فقد في ذكرها (الروض) وقال : « بين القبلة والغرب من قرطبة ، بينهما مرحلة كاملة » .

ومن أعمال طُلَيْطِلَة : وادي الحجارة.وقلعة رَباح ،وطَلَمَنْكَة، وغيرها .

ومن أعمال جيّان : أبَدَة . وبَيّاسَة . وقَسْطَلَة ، وغيرها .

ومن أعمال غَرْناطة : وادي آش . والمنكب ، ولَوْشَة،وغيرها .

ومن أعمال المَرِيّة : أنْدَرَش وغيرها .

ومن أعمال مالَقَة : بَلّش . والحامة ، وغيرهما . وبِبَلّش من الفواكه ما بمالَقة ، وبالحامة العينُ الحارة ، على ضِفّة واديها .

* * *

الإقليم الشرقي :

وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد : مُرْسِيَة ، وبَلَنْسِيَة ، ودانية . والسهلة ، والثغر الأعلى .

فمن أعمال مُرْسِيَة : أوريولة ، والقنت ، ولُوْرقة ، وغير ذلك .

ومن أعمال بَلَنْسِيَة : شاطِبة ، التي يُضْرَبُ بحسنها المثَل . ويُعمل بها الوَرَقُ الذي لا نظيرَ له . وجزيرة شَقْر . وغير ذلك .

وأما دانية فهي شهيرة . ولها أعمال .

وأما السهلة فإنها متوسطة بين بَلَنْسِيَة وسَرَقُسْطة . ولذا عَدّها بَعْضُهم مِنْ كُوَر الثغر الأعلى ، ولها مُدُنٌ وحُصون .

ومن أعمال الثغر الأعلى : سَرَقُسْطَة ، وهي أمّ ذلك الثغر . وكُوْرَةُ لاردة ، وقلعةُ رَباح . وتسمى البيضاء ، وكُوْرَةُ تُطِيْلَةَ

ومدينتها طَرَسُونَة . وكُورَةُ وَشْقَةَ ومدينتُها تَمْرِيط ، وكورةُ مدينةِ سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتُها بَلْيانة ، وكُورة برطانية ، وكورة باروشة .

• • •

الإقليم الغربي :

وأما غرب الأندلس ففيه : إشبيلية ، وماردة ، وأشبونة ، وشِلْب .

فمن أعمال إشبيلية : شَرِيش ، والخضراء ، ولَبْلَة ، وغيرها .

ومن أعمال ماردة : بَطَلْيَوْس ، ويابُرة وغيرهما .

ومن أعمال أشْبُونَة : شَنْتَرِين وغيرها .

ومن أعمال شِلْب : شَنْت رِيّة وغيرُها .

الجزائر البحرية بالأندلس

جزيرة قادس :

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرةُ قادس ، وهي من أعمال إشبيلية .

وقال ابن سعيد : إنها من كُوْرَة شَرِيش ، ولا مُنافاة لأن شريشاً من أعمال إشبيلية .

قال : وبيد صنم قادس مفتاح . ولما ثار بقادس ابنُ أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون — وهو علي بن عيسى ، قائدُ البحر بها — ظَنّ أن تحت الصنم مالاً ، فهدمه فلم يجد شيئاً . انتهى .

وهي — أعني جزيرة قادس — في البحر المحيط ، وفي المحيط الجزائر الخالدات السبع . وهي غربي مدينة سَلا ، تلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي الجو من الأبخرة الغليظة ، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين ، تشير أن لا عبور ولا مَسْلَكَ وراءها . وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات.وفيها من المدن والقرى مالا يُحصى. ومنها يخرج قومٌ يقال لهم المجوس ، على دين النصارى : أولها جزيرة

برطانية ، وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس ، ولا جبال فيها ولاعيون . وإنما يشربون ماء المطر ، ويزرعون عليه .

* * *

جزيرة ميورقة :

وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة. وبينهما خمسون ميلاً ، وجزيرة ميورقة مسافة يوم . بها مدينة حسنة. وتدخلها ساقيةٌ جاريةٌ على الدوام .

وهي من أخصب بلا د الله تعالى أرجاءً . وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية . وهي على انقطاعها من البلاد مستغنيةٌ عنها ، يصل فاضل خيرها إلى غيرها.إذ فيها من الحضارة والتمكن والتمصّر وعِظَم البادية ما يُغنيها . وفيها من الفوائد ما فيها . ولها فضلاء وأبطال اقتصروا على حمايتها من الأعداء المحدقة بها .

* * *

جزيرة شَلْطِيش :

قال ابن سعيد : وفيه (١) جزيرة شَلْطِيش . وهي آهلةٌ ، وفيها مدينة ، وبحرها كثير السمك . ومنها يُحمل مُمَلّحاً إلى إشبيلية . وهي من كورة لَبْلَة مضافة إلى عمل أونبة .

* * *

(١) أي في البحر المحيط الأطلسي .

جزيرة منورقة :

وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة، وبينهما خمسون ميلاً (١) .

* * *

جزيرة طَرِيف :

وأما جزيرة طَريف فليست بجزيرة ، وإنما سميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء .

وطريف المنسوبة إليه بَرْبَرِيٌّ من موالي موسى بن نُصير .

ويقال : إن موسى بعثه قبل طارق في أربع مئة رجل ، فنزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين . وبعده دخل طارق . والله أعلم .

* * *

(١) وانظر أيضاً ما سبق قبل قليل .

من جبال الأندلس

جبل طارق :

والجبل طارق حَوْزُ قَصَبِ السَبْق بنسبته إلى طارق مولى موسى ابن نُصير ، إذ كان أولَ ما حَلّ به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، ولذا شُهر بجبل الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء . وقد تجوّن البحرُ هناك مستديراً حتى صار مكانُ هذا الجبلِ كالناظر للجزيرة الخضراء ، وفيه يقول مُطَرِّف شاعرُ غرناطة :

وأقْوَدَ قد ألقى على البحر مَتْنَهُ
فأصْبَحَ عن قَوْدِ الجبال بمَعْزِلِ

يُعَرِّضُ نحو الأُفْقِ وجهاً كأنما
تُراقِبُ عيناه كواكبَ منزلِ

وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سَبْتَةَ في البحر بانَ كأنه سرج.
قال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد : أقبلتُ عليه مرةً مع والدي فنظرنا إليه على تلك الصفة .

° ° °

المــــدن

قُرْطُبَة

ضبط لفظ قُرْطُبَة :

في كتاب (فرحة الأندلس) لابن غالب : أما قرطبة فإنه اسمٌ ينحو إلى لفظ اليونانيين . وتأويله : القلوب المُشَكِّكَة .

وقال أبو عُبيد البكري : إنها في لفظ القوط بالظاء المعجمة.

وقال الحجاري : الضبط فيها بإهمال الطاء وضمها ، وقد يكسرها المشرقيون في الضبط . كما يُعْجِمُها آخرون .

وقال في كتاب (إجار) : إن قرطبة . بالظاء المعجمة ، ومعناه (أجِرْ ساكِنَها) يعني عُرِّبَتْ بالطاء .

سبب تقدُّمِها على مدن الأندلس :

قال ابن سعيد : إنما قدَّمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس الأُوَل اتخذوها سريراً لسلطنة الأندلس ، ولم يَعْدِلوا عن حضرتها . ثم سلاطين بني أمية وخُلَفاؤهم لم يعدلوا

عن هذه المملكة ، وتقلّبوا في ثلاثة أقطار أداروا فيها خلافتهم : قُرْطُبَة ، والزهراء ، والزاهرة . وإنما اتخذوها لهذا الشأن لمّا رأوها لذلك أهلاً .

وقرطبة أعظم علماً ، وأكثرُ فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة ، والدولة المُتَوارثة فيها .

وقال الحجاري في (المُسْهَب) : كانت قرطبة في الدولة المروانية قُبّةَ الإسلام . ومُجْتَمَعَ أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية . وفيها تَمَحّضَتْ خلاصة القبائل المَعَدّيّةِ واليمانية ، وإليها كانت الرحلة في الرواية ، إذ كانت مركز الكرماء . ومَعْدِنَ العلماء . وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجَسَد ، ونهرُها من أحسن الأنهار ، مُكْتَنِفٌ بديباج المروج . مُطَرَّزٌ بالأزهار ، تَصْدَحُ في جَنَبَاتِهِ الأطيار ، وتَنْعَرُ النواعير (١) ويَبْسُم النَّوّار .

وقُرْطاها الزاهرة والزهراء . حاضِرَتا المُلْك وأفْقاه النَّعماء والسَّرّاء .

ـ وقال بعض العلماء : أما قرطبةُ فهي قاعدة الأندلس ، وقُطْبُها ، وقُطْرُها الأعظمُ ، وأمُّ مدائنها ومساكنها ، ومُسْتَقَرُّ الخلفاء . ودار المملكة في النصرانية والإسلام ، ومدينة العلم ، ومُسْتَقَرُّ السُّنّة والجماعة . نزلها جُمْلَةٌ من التابعين ، وتابعي التابعين (٢) .

ويقال : نزلها بعضٌ من الصحابة . وفيه كلام .

وهي مدينة عظيمة أزلية ، من بُنيان الأوائل ، طيبةُ الماء والهواء ، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصونُ والمياه والعيون من كل

---

(١) تنعر : تصوت .

(٢) التابعي : من عاصر صحابياً ، وتابع التابعي : من عاصر تابعياً .

جانب . وبها المَحْرَثُ العظيم الذي ليس له في بلاد الأندلس نظير . ولا أعظم منه بركة .

وقال الرازي : قرطبة أمُّ المدائن ، وسُرَّةُ الأندلس ، وقَرارةُ الملك في القديم والحديث ، والجاهلية والإسلام . ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام ، والجامعُ الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبرُ منه .

وقال بعضهم : هي أعظم مدينةٍ بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيهٌ في كثرة أهلٍ ، وسعةِ محلٍّ ، وفُسْحَةِ أسواقٍ . ونظافةِ محالٍّ ، وعِمارَةِ مساجِدَ ، وكثرةِ حمامات وفنادقَ .

ويزعم قومٌ من أهلها أنها كأحد جانبي بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبةٌ من ذلك ، ولاحِقَةٌ به.

وهي مدينةٌ حَصينةٌ ذاتُ سُوْرٍ من حجارةٍ ومحالٌّ حسنةٍ ؛ وفيها كان سَلاطينُهم قديماً ، ودُوْرُهم داخِلَ سُوْرِها المحيطِ بها ؛ وأكثرُ أبواب القصر السلطاني من البلد وجنوبَ قرطبة ؛ على نهرها.

* * *

إنشاؤها :

ذكر ابن حيان ، والرازي . والحجاري أن التنبان – ثاني قياصرة الروم الذي مَلَكَ أكثرَ الدنيا ، وصَفَحَ نهرَ رومية بالصُّفْرِ ، فأرّخت الروم من ذلك العهد . وكان من قَبْلِ ميلاد المسيح – عليه السلام – بشدان وثمانين سنة أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس . فبُنِيَتْ في مدته قُرْطُبَة وإشْبيلية ومارِدة . وسَرَقُسْطة .

وانفرد الحجاري بأن التنبان المذكور وجّه أربعةً من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحدٍ منهم مدينة في الجهة التي ولاه عليها ، وسمّاها باسمه ، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماءً لأولئك الملوك .

وغيرُ الحجاري جعل أسماء هذه المدن مشتقة مما تقتضيه أوضاعها . وذكروا أنه قد تداولت على قرطبة وُلاةُ الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، إلى أن انتزعها من أيديهم القُوْطُ من ولد يافث ، المتغلبون على الأندلس ، إلى أن أخذها منهم المسلمون . ولم تكن في الجاهلية سريراً لسلطنة الأندلس ، بل كرسياً لخاصٍّ مملكتها ، وسعدت في الإسلام ، فصارت سريراً للسلطنة العظمى الشاملة ، وقطباً للخلافة المروانية ، وصارت إشبيلية وطليطلة تبعاً لها ، بعدما كان الأمر بالعكس ، والله يفعل ما يشاء ، بيده الملك والتدبير ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا هو العليُّ الكبير .

* * *

مساحتها :

قال ابن سعيد : ودَوْرُ قرطبة ثلاثون ألف ذراع .

وقال غيره : إن تكسيرها ومساحتها التي دار السور عليها دون الأرباض طولاً من القبلة إلى الجوف ألف وستمئة ذراع ؛ واتصلت العمارة بها أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً ، وفرسَخَيْن عرضاً ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون في الطول ، وفي العرض ستة ، وكل ذلك ديارٌ وقصورٌ ومساجدُ وبساتين بطول ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير ؛ وليس في الأندلس وادٍ يسمى باسمٍ عربيٍّ غيرُه .

ولم تزل قرطبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربع مئة ، فانحطّتْ ، واستولى عليها الخراب بكثرة الفِتَن ، إلى أن كانت الطامةُ الكبرى عليها بأخذ العدو الكافر لها في ثاني وعشري شوال سنة ستمئة وثلاث وعشرين .

ثم قال هذا القائل : ودَوْرُ قرطبة – أعني المسوَّر منها دون الأرباض – ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ ذراع ، ودَوْرُ قصر إمارتها ألفُ ذراع . ومئة ذراع .

* *

أرباض قرطبة(١) :

ذكر ابن بَشْكُوال أن عدد أرباض قرطبة عند انتهائها في التوسع والعمارة أحدٌ وعشرون رَبَضاً .

منها القِبْلِيّة بِعُدْوَة النهر : رَبَضُ شَقَنْدَة ، ورَبَضُ مُنية عجب .

وأما الغربية فتسعة : رَبَضْ حوانيت الريحان . ورَبَضُ الرقّاقين. وربض مسجد الكهف . وربض بلاط مُغيث . ورَبَضُ مسجد الشفاء . ورَبَضُ حمّام الإلبيري ، وربض مسجد السرور ، وربض مسجد الروضة ، وربض السجن القديم .

وأما الشمالية فثلاثة : ربض باب اليهود ، وربض مسجد أم سَلَمَة ، ورَبَضُ الرُّصافة

---

(١) الأرباض : جمع (ربض) وهو ما حول المدينة ، وقيل : الفضاء حول المدينة ، أو ما حولها من مساكن الجند وغيرهم ، وأبنية تكون حول المدن وتحت القلاع .

وأما الشرقية فسبعة : رَبَضُ شبلار (أو سلار . أو سيلار) . وربَضُ قرن بريل . وربَضُ البُرْج ، وربَضُ مُنْية عبد الله . وربَضُ مُنْية المغيرة ، وربَضُ الزاهرة ، وربَضُ المدينة العتيقة.

ووسط هذه الأرباض قَصَبَةُ قرطبة التي تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأرباض بدون سور . فلما كانت أيام الفتنة صُنع لها خندقٌ يدور بجميعها . وحائط مانع .

* * *

في كل ربَضٍ منها من المساجد والأسواق والحمّامات ما يقوم بأهله . ولا يحتاجون إلى غيره .

* * *

أبواب قرطبة :

وذكر ابن بَشْكُوال — رحمه الله — أن أبواب قرطبة سبعةُ أبواب .

باب القنطرة إلى جهة القِبْلَة . ويُعرف بباب الوادي ، وبباب الجزيرة الخضراء ، وهو على النهر .

وباب الحديد . ويعرف بباب سَرَقُسْطَة .

وباب ابن عبد الجبار . وهو باب طُلَيطلة .

وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثةُ الرّصُف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طرّكُونة إلى أربونة ، مارّةً في الأرض الكبيرة (١) .

---

(١) يريد بالأرض الكبيرة أوروبا .

ثم باب طَلَنْبيرة . وهو أيضاً باب ليون .

ثم باب عامر القرشي . وقُدّامَه المقبرة المنسوبة إليه .

ثم باب الجوز ويعرف بباب بَطَلْيَوْس .

ثم باب العطارين . وهو باب إشبيلية .

* * *

نهر قرطبة :

قال ابن سعيد : وأما نهر قرطبة فإنه يصغر عن عِظَمِه عند إشبيلية . بحيث صُنِع عليه قنطرةٌ من حجارةٍ لا يتأتى مثلُها في نهر إشبيلية.

ومنبعه من جهة شَقُوْرة . يمر النصفُ منه إلى مُرْسِيَة مُشَرِّقاً، والنصفُ إلى قرطبة وإشبيلية مُغَرِّباً .

ولما ذكر الرازي قرطبة قال : ونهرها الساكنُ في جَرْيه ، اللينُ في انصبابه . الذي تؤمَنُ مَغَبّةُ ضرره في حمله (١) .

وقال هذا لأنه يعظم عند إشبيلية . فإذا حان حَمْلُه في أيام الأمطار أشْفَتْ إشبيليةُ على الغرق . وتوقّعَ أهلُها الهلاكَ .

* * *

القنطرة المشهورة :

والقنطرة التي على هذا النهر . عند قرطبة . من أعظم آثار الأندلس

---

(١) في حمله : أي عند ازدياد مائه أيام الشتاء أو الفيضان .

وأعجبها . أقواسُها سبع عشرة قوساً . وبانيها — على ما ذكره ابن حيّان وغيرُه — السّمْحُ بن مالك الخَوْلاني ، صاحبُ الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه — وشيّدَها بنو أمية بعد ذلك وحَسّنُوْها .

قال ابن حيان : وقيل : إنه قد كانت في هذا المكان قنطرةٌ من بناء الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مئتي سنة ، أثّرت فيها الأزمان بمكايدة المدود (١) حتى سقطت حناياها ، ومُحِيَتْ أعاليها . وبقيت أرجلُها وأسافلُها ، وعليها بنى السّمْحُ في سنة إحدى ومئة .

وقال في (مناهج الفِكَر) : إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا . بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . وطولها ثمانمئة ذراع ، وعرضها عشرون ذراعاً . وارتفاعها ستون ذراعاً . وعدد حناياها ثمانَ عَشْرَةَ حَنِيّة . وعدد أبراجها تسعةَ عَشَر بُرْجاً .

مُتَنَزّهات قرطبة

قصر الرصافة :

قال ابن سعيد : أول ما نذكر من المتنزهات متنزه الخلفاء المروانية . وهو قصر الرُّصافة فنقول : كان هذا القصر مما ابتناه عبد الرحمن بن

(١) المدود : جمع مد ، وهو ارتفاع ماء النهر .

وقد تَدَبّج بالنوار . فلما حرّكنا حُسْنُ المكانِ . وتَشَوّقْنا إلى الأركان . قال الشريف : لقد ذكّرني هذا البسيط بسيطَ فحصِ السُرادق .

* * *

السَّدّ :

ومن متنزهات قرطبة السُّدّ(1) .

قال ابن سعيد : أخبرني والدي أن الشاعرَ المبرز أبا شهاب المالَقي أنشده لنفسه واصفاً يوم راحةٍ بهذا السُّدّ :

وَيَوْمٍ لنـــــا بالسُّدِّ لــو رُدَّ عَيْشُه
بِعِيشَةِ أيامِ الزمانِ رَدَدْنـــــاهُ

بَكَرنا لَهُ والشمسُ في خِدْرِ شَرْقِها
إلى أن أجابت إذ دعا الغربُ دَعْــواهُ

قَطَعْناهُ شَدْواً واغْتِبـــاقــاً ونَشْوةً
ورَجْعَ حديثٍ لو رقى المَيْتَ أحْياهُ(2)

---

(1) السد ، بفتح السين وضمها : الجبل والحجز . (قال الزجاج : ما كان مسدوداً خلقة فهو بالضم) والوادي فيه حجارة وصخور يبقى الماء فيه زماناً .

(2) الاغتباق : شرب المساء .

معاوية في أول أيامه لِتُنَزّهِهِ . وسُكناه أكثرِ أوقاته مُنْيَةُ الرُّصافة التي اتخذها بشمال قرطبة ، منحرفة إلى الغرب ، فاتخذ بها قصراً حسناً . ودَحا جناناً واسعةً . ونقل إليها غرائب الغُروس . وأكارم الشجر من كل ناحية . وأودعها ما كان استجلبه يزيدُ وسفرٌ رسولاه إلى الشام من النُّوَى المختارة . والحبوب الغريبة . حتى نَمَتْ بيُمنِ الجِدِّ وحُسْنِ التربية في المدة القريبة أشجاراً مُعْتَمةً أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليلٍ بأرض الأندلس . فاعترف بفضلها على أنواعها .

قال : وسمّاها باسم رُصافةِ جَدِّهِ هشامٍ بأرض الشام الأثيرة لديه . ولميله في اختيار هذه . وكَلَفِهِ بها . وكثرةِ تردُّدِه عليها ، وسُكناه أكثرَ أوقاتِهِ بها طار لها الذكر في أيامه . واتصل من بعده في إيثارها .

فَحْصُ السُّرادِق(١) :

ثم قال ابن سعيد : ومن مُتَنَزّهات قرطبة المشهورة فَحْصُ السُّرادِق ، مقصودٌ للفرجة ، يسرح فيه البصر ، وتبتهج فيه النفس .

أخبرني والدي عن أخيه أبي جعفر بن عبد الملك بن سعيد قال : خرجتُ مع الشريف الأصم القرطبي إلى بسيط الجزيرة الخضراء(٢) .

(١) الفحص : كل موضع استوى من الأرض ، أو كشف من نواحيه ، وبسط .
(٢) البسيط : الأرض البسيطة ، والبسيطة : الأرض أو المستوية الواسعة .

على مِثْلِهِ من مَنْزَهٍ تُبْتغى المُنى
فلله مـــا أحلى وأَبْدَعَ مَـــرْآهُ

شَدَتْنا به الأَرْحـــا وألقتْ نِثارَها
علينا فأصْغَيْنـــــا لـــه وقبلناهُ

لَئِنْ بانَ إنـــا بالأنين لفقـــده
وبالدمـــع في إثر الفراقِ حكينـــاه

* * *

عدد دُور قرطبة وحوانيتها :

قال بعض العلماء : أحصيت دُوْرَ قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكان مئتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار . وسبعة وسبعين داراً ، وهذه دُوْر الرعية ، وأما دور الأكابر والوزراء والكتّاب والأجناد وخاصة المُلكِ فستون ألف دار وثلاثمئة دار سوى مصاري الكِراء والحمّامات والخانات .

وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت(١) وأربعمئةٍ وخمسة وخمسون حانوتاً .

ولما كانت الفتنة غُيِّرت رُسوم ذلك العمران . ومُحِيَتْ آثارُ تلك القرى والبلدان .

* * *

(١) الحانوت : دكان الخمار ، ولعله يريد الدكاكين عامة .

الأرباض والمساجد والحمّامات في قرطبة :

وعدد أرباضها ثمانية وعشرون ، وقيل : أحد وعشرون .

ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمئة وسبعة وثلاثون مسجداً .

وعدد الحمّامات المبرزة للناس سبعمئة حمّام ، وقيل : ثلاث مئة .

وقال ابن حيّان : إن عِدَّةَ المساجد عند تناهيها في مدة ابن أبي عامر ألف وستمئة مسجد . والحمّامات تسعمئة حمام .

وفي بعض التواريخ : كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد . وثمانمئة وسبعة وسبعون مسجداً . منها بِشَقَنْدَة ثمانية عشر مسجداً ؛ وتسعمئة حمّام ، وأحد عشر حمّاماً ، ومئة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصاً ؛ وربما نِصْفُ هذا العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها .

* * *

جامع قرطبة :

ليس في بلاد الإسلام أعظمُ منه . ولا أعجبُ بناءً ، وأتْقَنُ صَنْعَةً ؛ وكلما اجتمعت منه أربع سَوار كان رأسُها واحداً . ثم صَفُّ رُخامٍ منقوشٌ بالذهب واللازَورد في أعلاه وأسفله .

وكان الذي ابتدأ بناءَ هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية . المعروف بالداخل ، ولم يَكْمُل في زمانه ، وكمَّله ابنُه هشامٌ ؛ ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه ، حتى صار المَثَلُ مضروباً به ، والذي ذكره غيرُ واحد . غير أنه لم يزل كل خليفةٍ يزيد فيه على مَنْ قَبْله إلى أن كَمُلَ على يد نحو الثمانية من الخلفاء .

وقال بعض المؤرخين : إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمرهُ وعَظُم بنى القصر بقرطبة . وبنى المسجد الجامع . وأنفق عليه ثمانين ألفَ دينار ، وبنى بقرطبة الرُّصافة تشبيهاً برُصافة جدِّه هشامٍ بدمشق .

وقال بعضٌ : إنه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار . واشترى موضعه إذ كان كنيسةً بمئة ألف دينار فالله تعالى أعلم .

وقال بعض المؤرخين ، في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته : إنه لما تمهّد مُلْكُه شرع في تعظيم قرطبة ، فجددَ مغانيَها ، وشيد مبانيها ، وحصَّنها بالسور ، وابتنى قصرَ الإمارةَ ، والمسجدَ الجامع ، ووسّعَ فِناءَه ، وأصلح مساجدَ الكُوَرِ ، ثم ابتنى مدينة الرُّصافة مُتَنَزَّهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً ، وجِناناً واسعةً ، نقل إليها غرائبَ الغِراس ، وكرائمَ الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار .

وقال صاحب كتاب (مجموع المفترَق) : وكان سقف البلاط من المسجد الجامع ، من القبلة إلى الجوف ، قبل الزيادة ، مئتين وخمساً وعشرين ذراعاً ، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مئة ذراع وخمسة أذرع ، ثم زاد الحَكَمُ في طوله مئة ذراع وخمسة أذرع ، فكَمُل الطولُ ثلاثمئة ذِراعٍ وثلاثين ذِراعاً ؛ وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بنِ الحكَم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً ؛ فتمَّ العَرْضُ مئتي ذراع وثلاثين ذراعاً .

وكان عددُ بَلاطِهِ أحد عشر بَلاطاً (١) ، عرضُ أوسطها ستة عشر ذراعاً ، وعرضُ كلٍّ واحدٍ من اللذَيْن يليانه غرباً ، واللذَيْن

(١) البلاط : الأرض المستوية الملساء ، والحجارة التي تفرش في الدار ، وكل أرض فرشت بها أو بالآجر . ولعل المراد هنا مساحة من الأرض منفصلة عن جارتها ، مفروشة بالبلاط أو البهو كما سيأتي .

يَلِيانِهِ شرقاً أربعة عشر ذراعاً . وعرضُ كلٍّ واحدٍ من الستة الباقية إحدى عشرة ذِراعاً . وزاد ابنُ أبي عامر فيه ثمانيةً ، عرضُ كل واحدٍ عشرةُ أذرع . وكان العمل في زيادة المنصور سنتين ونصفاً . وخدم فيه بنفسه .

وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مئة ذراع وعشرون ذراعاً ، وعرضه من القِبْلَةِ إلى الجوف مئة ذراع وخمسة أذرع .

وعرض كل واحدةٍ من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع ، فتكسيرُه(١) ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومئة وخمسون ذراعاً .

وعدد أبوابه تسعة : ثلاثةٌ في صحنه غرباً وشرقاً وجَوْفاً ، وأربعة في بَلاطاته : اثنان شرقيان ، واثنان غربيان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان .

وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومئتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً ، رخاماً كُلُّها .

وبابُ مقصورة الجامع ذَهَبٌ ، وكذلك جدارُ المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهبُ على الفُسَيْفِساءِ ، وثُرَيّاتُ المقصورةِ فضةٌ مَحْضَةٌ ، وارتفاع الصومعة اليوم – وهي من بناء عبد الرحمن بن محمد – ثلاثة وسبعون ذراعاً ، إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن ، وفي رأس هذه القبة تَفافيحُ ذهبٍ وفضةٍ ، ودَوْرُ كلِّ تفاحةٍ ثلاثةُ أشبار ونصف ، فاثنتان من التفافيح ذهبٌ إبريز ، وواحدةٌ فضة ، وتحت كل واحدةٍ منها وفوقها سَوْسَنَةٌ قد هُنْدِسَتْ بأبدعِ

---

(١) تكسيره : يريد مجموعه .

صنعة . ورمانة صغيرة على رأس الزُّجّ(١) ، وهي إحدى غرائب الأرض .

وكان من أخبار المنصور(٢) الداخلة في أبواب الخير والبرّ والقُرَب بُنْيانُ المسجدِ الجامع . والزيادةُ فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمئة . وذلك أنه لما زاد الناسُ بقرطبة . وانجلب إليها قبائلُ البربر من العُدْوة وإفريقية ، وتناهى حالُها في الجلالة ضاقت الأرباضُ وغيرُها . وضاق المسجدُ الجامع عن حمل الناس ، فشرع المنصور في الزيادة مشرقيّه حيث تتمكّن الزيادة . لاتصالِ الجانب الغربي بقصر الخلافة ؛ فبدأ ابن أبي عامر في هذه الزيادة على بلاطاتٍ تمتد طولاً من أول المسجد إلى آخره . وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الإتقان والوثاقة . دون الزخرفة ، ولم يقصّر — مع هذا — عن سائر الزيادات جَوْدَةً . ما عدا زيادة الحكَم .

وأول ما عمله ابنُ أبي عامر تَطْييبُ نفوس أربابِ الدور الذين اشتُريت منهم للهدم . لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن . وصَنَعَ في صحنه الجُبَّ العظيمَ قَدْرُه . الواسعَ فِناؤُه .

وهو — أعني ابن أبي عامر — هو الذي رتّب إحراقَ الشمع بالجامع . زيادةً للزيت . فتطابق بذلك النوران .

وكان عدد سواري الجامع ، الحاملةِ لسمائه ، واللاصقةِ بمبانيه وقبابه ومَناره . بين كبيرة وصغيرة ألفُ سارية وأربعمئة سارية وسبع عشرة سارية ؛ وقيل : أكثر .

---

(١) الزج : الحديدة في أسفل الرمح ، ونصل السهم .
(٢) ابن أبي عامر ، وزير الخليفة المؤيد .

وعدد ثُرَيّات الجامع ما بين كبيرةٍ وصغيرةٍ مئتان وثمانون ثُرَيّا ،وعدد الكؤوس(١) سبعة آلاف كأس وخمسٌ وعشرون كأساً . وقيل : عشرة آلاف وثمان مئة وخمس كؤوس . وزِنَةُ مَشاكي الرصاص للكؤوس المذكورة (٢) عشرةُ أرباعٍ أو نَحْوُها . وزِنَةُ ما يُحتاج إليه من الكتّان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار . وجميع ما يَحتاج إليه الجامع من الزيت في السنة خمسُمئة رُبْعٍ أو نَحْوُها . يُصرف منه في رمضان خاصة نحو نصف العدد .

ومما كان يختص برمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع . وثلاثة أرباع القنطار من الكتّان المُقَطّن لإقامة الشمع المذكور . والكبيرة من الشمع التي تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنُها من خمسين إلى ستين رِطْلاً . يحترق بعضها بطول الشهر ، ويَعُمُّ الحرقُ لجميعها ليلةَ الختمة(٣) .

وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر ، ويتصرف فيه من أئمةٍ . ومقرئين ، وأمناء ، ومؤذنين ، وسَدَنَة ، ومُوْقِدين . وغيرهم من المتصرفة مئةٌ وتسعةٌ وخمسين شخصاً ، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربعُ أواقٍ من العنبر الأشهب ، وثمانُ أواقٍ من العود الرطب . انتهى .

وقال بعض المؤرخين : كان للجامع كُلَّ ليلةِ جمعةٍ رِطْلُ عُوْد . ورُبُعُ رِطْلِ عَنْبَرٍ يُتَبَخّرُ به . انتهى .

---

(١) التي تحمل الشموع .
(٢) مشاكي : لعلها جمع مشكاة وهي الكوة غير النافذة .
(٣) أي ليلة ختم القرآن في آخر ليلة من ليالي رمضان .

وقال ابن سعيد ، نقلاً عن ابن بَشْكُوال : طولُ جامع قرطبة الأعظم الذي هو بداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف ثلاثمئة وثلاثون ذراعاً.الصحنُ المكشوفُ منه ثمانون ذراعاً ، وغير ذلك مُقَرْمَدٌ(١) . وعرضُه من الغرب إلى الشرق مئتان وخمسون ذراعاً .

وعدد أبهائه(٢) عند اكتمالها بالشمالية التي زادها المنصور بن أبي عامر بعد هذا تسعة عشر بَهْواً ، وتسمى البَلاطات .

وعدد أبوابه الكبار والصغار أحدٌ وعشرون باباً : في الجانب الغربي تسعة أبواب ، منها واحدٌ كبير للنساء يَشْرَعُ إلى مَقاصيرهنّ : وفي الجهة الشرقية تسعة أبواب ، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب . وفي الجهة الشمالية ثلاثة أبواب ، منها لدخول الرجال بابان كبيران . وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهن .

وليس لهذا الجامع في القبليّ سوى بابٍ واحد بداخل المقصورة المتخذة في قِبْلته متصل بالساباط المُفضي إلى قصر الخلافة . منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة .

وجميع هذه الأبواب مُلَبّسة بالنحاس الأصفر بأغرب صنعة .

وعدد سواري(٣) هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه ، واللاصقة بمبانيه وقِبابه ومَناره وغير ذلك من أعماله ، بين كبارٍ وصغار ألفٌ

(١) أي سقفه من القرميد : وهو نوع من الآجر المصنوع من التراب المشوي .
(٢) الأبهاء : جمع (بهو) وهو البيت المقدم أمام البيوت (قاعة الاستقبال ، أو الصالون) .
(٣) السواري : جمع (سارية) وهي الأسطوانة .

وأربعُمئةِ ساريةٍ وتسعُ سَوارٍ ، منها بداخل المقصورة مئة وتسع عشرة سارية .

* * *

مقصورة جامع قرطبة :

وذكر ابن سعيد المقصورة البديعة التي صنعها الحكَمُ المستنصر في هذا الجامع فقال : إنه خطر بها على خمس بَلاطاتٍ من الزيادة الحكَمية(١) ، وأطلق حفافيها على الستة الباقية : ثلاثة من كل جهة . فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمساً وسبعين ذراعاً ، وعرضُها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعاً ، وارتفاعها في السماء إلى حدّ شُرُفاتها ثمانُ أذْرُع . وارتفاعُ كل شرفة ثلاثة أشبار .

ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة . عجيبة النقش ، شارعةٌ إلى الجامع : شرقي ، وغربي ، وشمالي .

ثم قال : وذَرْع المحراب(٢) في الطول ، من القِبْلَةِ إلى الجوْف ثمانُ أذْرُعٍ ونصف . وعرضه من الشرق إلى الغرب سَبْعُ أذرعٍ ونصف ، وارتفاع قبوه في السماء ثلاث عشرة ذراعاً ونصف .

والمنبرُ إلى جنبه مؤلفٌ من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصَنْدَل ونَبْع وبَقّم وشَوْحَط ، وما أشبه ذلك .

ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار ، وسبعمئة دينار ، وخمسة دنانير . وثلاثة دراهم ، وثلث درهم ، وقيل غير ذلك .

---

(١) أي التي زادها الحكم بن هشام .

(٢) ذرع المحراب : أي مقياسه بالذراع .

وعدد درجه تسع درجات . صنعة الحكَمِ المستنصر – رحمه الله – .

وذَكرَ أن عدد ثُريّات الجامع التي تُسْرَج فيها المصابيح بداخل البَلاطات خاصة – سوى ما منها على الأبواب – مئتان وأربع وعشرون ثُرَيّا ، جميعُها من لاطونٍ(١) مختلفة الصنع . منها أربع ثرياتٍ كبار معلقة في البَلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف ، حيالَ المقصورة .

وفيها من السُّرُج – فيما زعموا – ألف وأربعمئة وأربعة وخمسون . تُسْتَوْقَد هذه الثريات الضخام في العشر الأخير من شهر رمضان . تُسقى كلُّ ثُرَيّا منها سبعةَ أرباعٍ(٢) في الليلة . وكان مبلغ ما يُنْفَق من الزيت على جميع المصابيح في هذا المسجد في السنة أيامَ تمامٍ وقوده في مدة ابن أبي عامر مكملة بالزيادة المنسوبة إليه ألف ربع . منها في شهر رمضان سبعمئة وخمسون رُبْعاً .

وقال ابن سعيد : وفي بعض التواريخ القديمة : كان عدد القَوَمَة(٣) بالمسجد الجامع بقرطبة في زمن الخلفاء ، وفي زمن ابن أبي عامر ثلاثمئة . انتهى .

صومعة المسجد :

ثم ذكر ابن سعيد الصومعة(٤) نقلاً عن ابن بَشْكُوال فقال :

(١) اللاطون : النحاس الأصفر .
(٢) الربع : لعل المراد مكيال خاص .
(٣) أي من يقومون بشؤون هذا الجامع .
(٤) الصومعة : المئذنة .

أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الأولى سنة ٣٤٠ هـ . وأقام هذه الصومعة البديعة . فحفر في أساسِها حتى بلغ الماءَ مدةً من ثلاثة وأربعين يوماً ؛ ولما كَمُلَتْ ركب الناصرُ إليها من مدينة الزهراء ، وصَعِد في الصومعة من أحد دَرَجَيْها ، ونزل من الثاني ، ثم خرج الناصرُ وصلى ركعتين في المقصورة وانصرف . قال : وكانت الأُولى ذات مَطْلَع واحد ، فصيَّر لهذه مطلعين ، فصل بينهما البناء . فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها ، تزيد مراقي كل مطلعٍ منها على مئةٍ سبعاً .

قال : وخبر هذه الصومعة مشهورٌ في الأرض . وليس في مساجد المسلمين صومعةٌ تَعْدِلُها .

وقال ابن سعيد : قال ابن بَشْكُوال هذا لأنه لم ير صَوْمَعَةَ مراكش . ولا صومعة إشبيلية اللتين بناهما المنصور من بني عبد المؤمن ، فهما أعظم وأطول ، لأنه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن أربعةٌ وخمسون ذراعاً . وإلى أعلى الرمانة الأخيرة بأعلى الزُّجّ ثلاثة وسبعون ذراعاً . وعرضُها في كل تربيعٍ ثمانية عشر ذراعاً ، وذلك اثنان وسبعون ذراعاً .

قال ابن سعيد : وطُوْلُ صَوْمَعَةِ مَرّاكُش مئةٌ وعشرةُ أذرع ، وذكر أن صومعةَ قرطبة بضخام الحجارة القطيعة منجَّدةٌ غايةَ التنجيد(١) . وفي أعلى ذروتها ثلاثُ شَمْسات يسمّونها رُمّانات ، ملصقةٌ في السَّفُّود البارز في أعلاها من النحاس : الثنتان منها ذهبٌ إبريز ، والثالثة منها وسطى بينهما من فضة إكسير . وفوقها سَوْسَنَةٌ

(١) أي مرتفعة غاية الارتفاع ، والنجد : ما أشرف من الأرض .

من ذهبٍ مُسَدَّسَةٌ ، فوقها رمانةُ ذهبٍ صغيرةٌ في طرف الزّجّ البارز بأعلى الجو . وكان تمام هذه الصومعة في ثلاثة عشر شهراً .

* * *

مصحف عثمان :

وكان بالجامع المذكور . في بيت منبره . مصحفُ أمير المؤمنين عثمانَ بنِ عفّانَ – رضي الله تعالى عنه – الذي خطّه بيده ، وعليه حِلْيَةُ ذهبٍ ، مُكَلّلَةٌ بالدر والياقوت ، وعليه أغْشية الديباج ، وهو على كرسيٍّ من العود الرطب بمسامير الذهب .

وهو متداولٌ بين أهل الأندلس .

قالوا : ثم آل أمره إلى الموحّدين ، ثم إلى بني مَرِيْن .

قال الخطيب بن مرزوق في كتابه (المسند الصحيح الحسن) ما مُلَخّصه : وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر إلا ومعه المصحف الكريم العثماني ، وله عند أهل الأندلس شأنٌ عظيم ، ومقامٌ كبير ، وكيف لا ؟

قال ابن بَشْكُوال : أُخرج هذا المصحفُ منها – أي قرطبة – وغُرِّب منها ، وكان بجامعها الأعظم ، ليلةَ السبت حادي عشر شوالَ سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي ، وبأمره .

وهذا أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان – رضي الله تعالى عنه – إلى الأمصار : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام .

* * *

قصور قرطبة

وسئل ابن بشكوال عن قصر قرطبة فقال : هو قصرٌ أوّليّ تداولته ملوك الأمم ، من لَدُن عهدِ موسى النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم وفيه من المباني الأولية ، والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقُوْط والأمم السالفة ما يُعجز الوصف .

ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان – منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها – في قصرها البدائعَ الحسانَ . وأثّروا فيه الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة . وأجْرَوا فيه المياه العذبة الحلوة ، من جبال قرطبة. على المسافات البعيدة ، وتموّنوا المؤن الجسيمة(1) حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجْرَوها في كل ساحةٍ من ساحاته ، وناحيةٍ من نواحيه ، في قَنَوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصانع صورٌ مختلفةُ الأشكال من الذهب الإبريز . والفضة الخالصة ، والنحاس المموّه ، إلى البحيرات الهائلة ، والبِرَك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، في أحواض الرّخام الرومية المنقوشة العجيبة .

قال : وفي هذا القصر القِصابُ العاليةُ السموِّ ، المنيفةُ العُلُوِّ ، التي لم يرَ الراؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها .

قال : ومن قصوره المشهورة ، وبساتينه المعروفة : الكامل ، والمجدّد . والحائر ، والروضة ، والزاهر ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيق . وقصر السرور . والتاج ، والبديع .



(1) تموّنوا المؤن الجسيمة : أي كانت الكلفة باهظة .

أبواب قصر قرطبة :

قال : ومن أبوابه التي فتحها الله لنصر المظلومين ، وغياث الملهوفين . والحكم بالحق البابُ الذي عليه السطحُ المشرف الذي لا نظير له في الدنيا ، وعلى هذا الباب باب حديد ، وفيه حلَقٌ لاطون (١) قد أثبتتْ في قواعدها ، وقد صُوِّرت صورة إنسان فتح فمه ، وهي حلَقٌ باب مدينة أَرْبُونَة من بلد الإفرنج وكان الأمير محمد قد افتتحها فجلب حلَقَها إلى هذا الباب .

- وله بابٌ قبلِيٌّ أيضاً ، وهو المعروف بباب الجنان .

- وقُدّامَ هذين البابين المذكورين ، على الرصيف المشرف على النهر الأعظم مسجدان مشهوران بالفضل ، كان الأمير هشامٌ الرضيُّ يستعمل الحكمَ في المظالم فيهما ، ابتغاءَ ثوابِ اللهِ الجزيل .

- وله باب ثالث يُعرف بباب الوادي .

- وله بابٌ بشماليِّه يُعرف بباب قَوَرِيَةَ .

- وله بابٌ رابعٌ يُدعى بباب الجامع . وهو باب قديمٌ كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع على الساباط (٢) .

وعدَّد ابن بشكوال أبواباً بعد هذا طُمست أيام فتنة المهدي بن عبد الجبار .

* * *

---

(١) اللاطون : النحاس الأصفر .

(٢) الساباط : سقيفة بين حائطين ، أو دارين تحتهما طريق نافذ .

قصر الدمشق :

وقال الفتح(١) في ترجمة ابن عَمّار ما صورته :

وتَنَزَّه بالدمشق بقرطبة . وهو قصرٌ شيَّده بنو أميّةَ بالصِّفاح والعَمَد(٢) . وجرَوا من إتقانه إلى غايةٍ وأمد . وأبدع بناؤه . ونُمِّقَتْ ساحتُه وفِناؤه . واتخذوه ميدانٍ مراحيهم . ومِضْمارَ انشراحهم . وحكَوا به قصرهم بالمشرق . وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق فحلّه أبو بكر بنُ عَمّار على أثر بُؤْسِه . وابتسم له دهره بعد عبوسه . والدنيا قد أعطته عَفْوَها . وسَقَتْه صَفْوَها . وباتت فيه مع لُمَّةٍ من أتباعه(٣) . ومُتَفَيِّئي رباعه . وكلُّهم يُحَيِّيه بكاس . ويفديه بنفسه من كل باس . فطابت له ليلته في مشيده، وأطربه الأنس ببسيطه(٤) ونشيده فقال :

كـلُّ قصـرٍ بعـد الدمشـق يُذَمُّ
فيـه طاب الجَنَى وفـاحَ المَشَـمُّ

منظـرٌ رائـقٌ ، ومـاءٌ نميـرٌ
وثَـرًى عاطـرٌ ، وقصرٌ أشَـمُّ

بِـتُّ فيه والليـلُ والفجـرُ عنـدي
عَنْبَـرٌ أشْهَبٌ ومِسْكٌ أحَـمُّ

(١) هو الفتح بن خاقان صاحب كتاب (قلائد العقيان) .

(٢) الصفاح : جمع (صفاح) أو (صفاحة) (صفيحة) : كل شيء عريض من لوح أو حجر . والعمد (بفتحتين أو ضمتين) : جمع عمود أو جمع (عماد) وهي أسطوانة الرخام .

وقال النابغة الذبياني : وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

(٣) اللمة : الجماعة .

(٤) البسيط : أحد بحور الشعر العربي .

وعبَّر صاحب (البدائع) عن هذه القصة بقوله : تَنَزَّهَ ابنُ عمّار بالدمشق بقرطبة ، وهو قصرٌ شيده خلفاءُ بني أمية وزخرفوه ، ودفعوا صَرْفَ الدهر عنه(١) وصرَّفوه ، وأجْرَوهُ على إرادتهم وصرَّفوه ، وذهبوا سُقُفَهُ وفضّضوها ، ورخّموا أرضه وروَّضوها ، فبات به والسعدُ يلْحَظُهُ بطَرْفِهِ ، والروضُ يُحَيِّيْهِ بعَرْفه ؛ فلما استَنْفَدَ كافورُ الصباح مِسْكَ الغَسَق ، ورصّع آبنوسُ الظلامِ نُضارَ الشّفَق قال مرتجلاً :

كل قصرٍ بعد الدمشق يُذَمُّ . . . .

* * *

القصر الفارسي :

والقصر الفارسي من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة ؛ وقد ذكره الوزير ابنُ زَيْدون(٢) في قصيدٍ ضَمّنَهُ من متنزهات قرطبة ما تقف عليه ؛ وكان قد فر من قرطبة أيامَ بني جَهْوَر فحضره في فِراره عيدٌ ذكّره بأعياد وطنه ومعاهده الأُنْسيّة ، مع ولاّدة التي كان يهواها ويتغزل فيها فقال :

خَليلَيَّ لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أضحى
فما حالُ مَنْ أمْسَى مَشُوْقاً كما أضحى

* * *

---

(١) صرف الدهر : نوائبه .
(٢) الشاعر الأندلسي المشهور ،واسمه أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ،توفي سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م . وديوانه مطبوع .

الزهـراء

سبب بنائها وموقعها ومساحتها :

قال القاضي عياض في (الشفا)(١) : وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصرَ ماتت له سُرِّيَّة ، وتركت مالاً كثيراً . فأمر أن يفكَّ بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك فقالت له جاريته الزهراء — وكان يحبها حبّاً شديداً — : اشتهيتُ لو بَنَيْتَ لي به مدينةً تسميها باسمي . وتكون خاصةً لي ، فبناها تحت جبل العروس . من قبلة الجبل . وشمالَ قرطبة ، وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثةُ أميال . أو نحو ذلك ، وأتقن بناءها ، وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مُسْتَنْزَهاً ومسكناً للزهراء وحاشيةِ أرباب دولته ، ونَقَشَ صورتَها على البابِ ، فلما قعدت الزهراء في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحُسْنِها في حِجْرِ ذلكِ الجبل الأسود ، فقالت : ياسيدي ، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء في حِجْرِ ذلك الزنجي ؟ فأمر بزوال ذلك الجبل ، فقال بعض جلسائه: أُعيذُ أمير

---

(١) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي ، عالم المغرب ، وإمام أهل الحديث في وقته . توفي سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م له مصنفات . وكتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) مطبوع مشهور.

المؤمنين أن يَخْطُرَ له ما يَشين العقلَ سماعُه . لو اجتمع الخَلْقُ ما أزالوه حفراً ولا قطعاً ، ولا يزيله إلا مَنْ خَلَقَه ، فأمر بقطع شجره ، وغَرْسِه تيناً ولوزاً ، ولم يكن منظرٌ أحسن منها ، ولا سيما في زمان الأزهار ، وتفتُّح الأشجار ، وهي بين الجبل والسهل . انتهى ببعض اختصار .

وقال ابن خلكان في ترجمة (المُعْتَمِد بن عَبّاد) ما صورَتُه: الزَّهْراءُ — بفتح الزاي ، وسكون الهاء ، وفتح الراء ، وبعدها همزة ممدودة — وهي من عجائب أبنية الدنيا ، وأنشأها أبو المظفر عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر ، أحد ملوك بني أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة ، في أول سنة خمس وعشرين وثلاثمئة . ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل . وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمئة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمئة ذراع ، وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلاثمئة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب ، وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً : فثلث للجند ، وثلث مُدَّخَر ، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء ، وكانت جباية الأندلس يومئذٍ خمسة آلاف ألف دينار ، وأربعمئة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلصة سبعمئة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار ، وهي من أهْوَلِ ما بناه الإنس وأجلّه خطراً ، وأعْظَمِه شأناً .

* * *

مَبْدأ عِمارَتِها وما أنفق عليها :

قال ابن حَيّان(١) : ابتدأ الناصر بناءَ الزهراء أولَ يومٍ من مُحَرَّم سنة ٣٢٥ . وجعل طولها مِن شرقٍ إلى غرب ألفين وسبعمئة ذراع ، وتكسيرها تسعمئة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع . كذا نقله بعضهم. وللنظر فيه مجال .

قال : وكان يُثيب على كل رُخامةٍ كبيرة أو صغيرةٍ عشرة دنانير ، سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤنة حملها ، وجَلَبَ إليها الرخام الأبيض من المَرِيّةِ . والمُجَزَّعَ من رَيّةَ . والورديَّ والأخضرَ من إفريقية . من إسفاقس وقَرْطاجَنّة . والحوضَ المنقوشَ المُذْهَبَ من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ؛ وفيه نقوش وتماثيل وصُوَر على صُوَرِ الإنسان ، وليس له قيمة . [ولمّا جَلَبَهُ أحمد الفيلسوف — وقيل غيره — أمر الناصرُ بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ونَصَبَ عليه اثني عشر تمثالاً ؛ وبنى في قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة ؛ وكان سَمْكُه من الذهبِ والرُّخامِ الغليظِ في جِرْمه ؛ الصافي لونُه، المتلوِّنةُ أجناسُه، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك . وجُعلت في وَسَطِهِ اليتيمةُ التي أتْحَفَ الناصرَ بها أليونُ ملكُ القُسْطَنْطِينيّة ؛ وكانت قَرامِدُ هذا القصر من الذهب والفضة . وهذا المجلس في وسَطِهِ صِهْريجٌ عظيمٌ مملوءٌ بالزئبق . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حَنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب

---

(١) هو حين بن خلف بن حسين بن حيان ، الأموي بالولاء . أبو مروان ، مؤرخ ، بحاث ، من أهل قرطبة . توفي سنة ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م . له مصنفات منها كتاب (المقتبس في تاريخ الأندلس) .

وأصنافِ الجواهر . قامت على سوارٍ من الرخام الملون والبلّوْر الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صَدر المجلس وحيطانِهِ . فيصير من ذلك نورٌ يأخذ بالأبصار .

وكان الناصر إذا أراد أن يُفزعِ أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور . ويأخذ بمجامع القلوب . حتى يَتخيّلَ لكل مَنْ في المجلس أن المحلَّ قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك .

وقيل : إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس .

وقيل : كان ثابتاً على صفة هذا الصّهْريج .

وهذا المجلس لم يتقدم لأحدٍ بناؤُه في الجاهلية ولا في الإسلام . وإنما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم .

وكان بناء الزهراء في غاية الإتقان والحسن . وبها من المَرْمَر والعُمُد كثيرٌ ، وأجري فيها الماء . وأُحدق بها البساتين .

* * *

وذكر المؤرخ أبو مروان . ابن حيان . صاحب الشرطة أن مباني الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة . حاملةٍ ومحمولة . ونيّف على ثلاثمئة سارية هو ستّ عشرة .

قال : منها ما جُلب من مدينة رومة . ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية. وأن مصاريع أبوابها. صغارَها وكبارَها كانت تُنيْفُ على خمسة عشر ألف باب . وكلها مُلَبّسَةٌ بالحديد والنحاس المموّه .

والله سبحانه أعلم . فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس ، وأجلّه خطراً ، وأعظمه شأناً .

← وكان مَبْلَغُ ما يُنْفَق فيها كُلَّ يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدّل ستة آلاف صخرة ، سوى الصخرِ المصرَّفِ في التبليط ، فإنه لم يدخل في هذا العدد ؛ وكان يخدم في الزهراء كلَّ يوم ألف وأربعمئة بغل ، وقيل أكثر منها : أربعمئة زوامل(١) الناصر لدين الله ، ومن دوابٌ الأكْرِيةِ الراتبة للخدمة ألف بغل(٢) ، لكل بغلٍ منها ثلاثة مثاقيل في الشهر ، يجب لها في الشهر ثلاثة آلاف مثقال . وكان يَرِدُ الزهراء من الجيْرِ والجصّ في كل ثالثٍ من الأيام ألفٌ ومئةُ حِمْلٍ ؛ وكان فيها حمّامان : واحدٌ للقصر . وثانٍ للعامّة .

وذكر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنه قُدِّر للنفقة فيها في كل عام بثلاثمئة ألف دينار ، مدةَ خمسةٍ وعشرين عاماً التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها ، لأنه توفي سنة خمسين ؛ فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال .

قال ابن حيان: وجُلب إليها الرُّخام من قَرطاجَنّة وإفريقية وتونس؛ وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنّائين ، وحَسَن بن محمد ، وعلي بن جعفر الإسكندراني. وكان الناصر يَصِلُهُم على كل رُخامةٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ بعشرة دنانير .

---

(١) الزوامل : جمع (زاملة) : وهي ما يحمل عليه من الإبل وغيرها .
(٢) أي المستأجرة للخدمة الدائمة .

وقال بعض ثقات المؤرخين : إنه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير . وعلى كل سارية بثمانية دنانير .

قيل : وكان عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألفَ سارية وثلاث عشرة سارية،ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية . وأهدى إليه ملك الروم مئةً وأربعين سارية ، وسائرُها(١) من مقاطع الأندلس : طَرَّكونةَ وغيرِها :

فالرخام المجزع من رَيَّة . والأبيض من غيرها . والورديّ الأخضر من إفريقية . من كنيسة إسفاقُس .

وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل . الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع (ربيع) الأسقفِ القادم من إيلياء .

وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام . وقيل : من القسطنطينية مع (ربيع) الأسقف أيضاً . وقالوا : إنه لا قيمة له(٢) ، لفرط غرابته وجَماله . وحُمل من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر . ونَصَبَه الناصر في بيت المنام . في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس . وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر . مُرَصّعَةً بالدرّ النفيس الغالي مما عُمل بدار الصناعة بقرطبة . صورة أسدٍ بجانبه غزال ، إلى جانبه تمساح . وفيما يقابله ثعبان وعُقابٌ وفيل ؛ وفي المَجْنَبَتَيْنِ حَمامةٌ وشاهين وطاووس.

---

(١) سائرها : ما بقي .
(٢) أي لا يقدر بثمن .

ودجاجة وديك وحِدَأة ونَسْر ؛ وكل ذلك من ذهبٍ مرصعٍ بالجوهر النفيس . ويخرج الماء من أفواهها .

وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنُه الحَكَم ؛ لم يَتَّكِلْ فيه الناصرُ على أمينٍ غيره ، وكان يُخْبَزُ في أيامه : في كل يوم ، برسم حِيتان البحيرات ثمانمئة خبزة ، وقيل : أكثر، إلى غير ذلك مما يطول تتبُّعُه .

وكان الناصر – كما قدَّمنا – قسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند وثلث للبناء . وثلث مُدَّخَر .

وكانت جباية الأندلس يومئذٍ من الكُوَر والقرى خمسة آلاف ألف وأربع مئة ألف وثمانين ألف دينار . ومن السوق والمستخلص سبعمئة ألف وخمسة وستين ألف دينار. وأما أخماس الغنيمة فلا يحصيها ديوان .

وقد سبق هذا كله ، وإنما كررتُه لقول بعضهم إثر حكايته له ما صورته : وقيل : إن مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مئة مُدْي(١) من الدراهم القاسمية بِكَيْل قُرْطُبَةَ . وقيل : إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مُدْياً وسبعةُ أقفزة(٢) من الدراهم المذكورة .

* * *

واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر خمساً وعشرين سنة شطر خلافته .

---

(٢) المدي : مكيال ضخم لأهل الشام ومصر الجمع أمداء (انظر تفصيل الحديث عنه في معجم متن اللغة ٥/٢٦٥ – مادة مدي) .

(٣) جمع قفيز ، وهو مكيال ، وزن ما يسعه ٢٧,٨١٧ كغ ، أو هو مكيال يتواضع الناس عليه بتعدد أقطارهم . والقفيز من الأرض ١٤٧,٤٥٦م٢ (متن اللغة) والجمع (قفزان) بضم القاف أو كسرها وسكون الفاء ، وأقفزة .

ثم اتصل بعد وفاته خلافةَ ابنه الحكمِ كلها ، وكانت خمسة عشر عاماً وأشهراً .

* * *

مسجد الزهراء

قال ابن الفَرَضي وغيره : كان يَعمل في جامعها حين شُرع فيه من حُذّاق الفَعلة كلَّ يومٍ ألفُ نسمة . منها ثلاثمئة بَنّاء ، ومئتا نجار . وخمسمئة من الأُجَراء وسائر الصنائع [فاستتمَّ بنيانُه وإتقانُه في مدةٍ من ثمانيةٍ وأربعين يوماً] وجاء في غاية الإتقان . من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة .

[وطوله من القبلة إلى الجوف — حاشا المقصورة — ثلاثون ذراعاً] وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعاً . وعرض كل بهوٍ من الأربعة المكتنفة له اثنا عَشرَ ذراعاً . وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاث وأربعون ذراعاً وعرضُه من الشرق إلى الغرب إحدى وأربعون ذراعاً ، وجميعه مفروشٌ بالرخام الخمريّ . وفي وسطه فوّارةٌ يجري فيها الماء .

[فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف — سوى المحراب — سبع وتسعون ذراعاً . وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعاً . وطول صَوْمَعَتِهِ في الهواء أربعون ذراعاً . وعرضها عشرة أذرع في مثلها]

وأمر الناصرلدين الله باتخاذ مِنبَرٍ بديعٍ لهذا المسجد ، فصُنِعَ في نهايةٍ من الحسن . ووُضِع في مكانه منه ، وحُظِّرت حوله مقصورةٌ عجيبة الصنعة [وكان وَضْعُ هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبعٍ بَقِيْنَ من شعبانَ سَنَةَ تسعٍ وعشرين وثلاث مئة .

* * *

الزاهرة

وفي سنة ثمان وستين وثلاث مئة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة ، وذلك عندما تكامل واستفحل أمره . واتّقدَ جَمْرُه (١) ، وظهر استبداده . وكثر حُسّادُه وأضدادُه وأندادُه . وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان . وخشي أن يقع في أشْطان (٢) ؛ فتوثّق لنفسه . وكشف له ما ستّر عنه في أمسه . من الاعتزاز عليه ، ورفع الاستناد إليه ؛ وسما إلى ما سَمَتْ إليه الملوك من اختراع قصرٍ ينزل فيه ، ويَحُلُّه بأهله وذويه . ويضم إليه رياسته ،ويتم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فِتْيانَه وغِلمانَه . فارتاد موضعَ مدينته المعروفة بالزاهرة . الموصوفة بالقصور الباهرة . وأقامها بطرفِ البلدِ ، على نهر قرطبة الأعظم ، ونسّق فيها كل اقتدارٍ مُعْجِزٍ ونَظَّم ، وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرَّخة (٣) ؛ وحشَدَ الصُّنّاعَ والفَعَلَةَ . وجلب إليها الآلاتِ الجليلةَ ، وسَرْبَلَها بَهاءً يَرُدُّ الأعْيُنَ كَليلَةً . وتوسّعَ في اختطاطها . وتولّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها . وبالغ

(١) يقال : شبت نار فلان ، واتقد جمر فلان ونحو ذلك كناية عن ظهور أمره ، ورفعة شأنه ، واعتلاء قدره .

(٢) الأشطان : الحبال . مفردها (شطن) بفتحتين .

(٣) أي سنة ٣٦٨ هـ كما جاء في مطلع هذا الكلام .

في رفع أسوارها ، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها (١) . فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة . وصار بناؤها من الأنباء الغريبة . وبُني مُعْظَمُها في عامين .

وفي سنة سبعين وثلاثمئة انتقل المنصور إليها ، ونزلها بخاصّته وعامّته . فتَبَوَّأها وشَحَنَها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته . واتخذ فيها الدواوين والأعمال . وعمل في داخلها الأهراءَ (٢) . وأطلق بِسَاحَتِها الأرحاء (٣) . ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتّابه ، وقواده وحُجّابه . فابْتَنُوا بها كبارَ الدور . وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المُسْتَغلاّت المفيدة . والمَنَازِهَ المَشِيْدة (٤) . وقامت بها الأسواق . وكثرت فيها الأرفاق (٥) . وتنافس الناسُ بالنزول بأكْنافها (٦) ، والحلولِ بأطرافها . للدُّنُوِّ من صاحب الدولة . وتناهى الغُلُوُّ في البناء حوله . حتى اتصلت أرباضُها بأرباض قرطبة ، وكثرت بحوزتها العمارة . واستقرت في بحبوحتها الإمارة ؛ وأفْرِدَ الخَليفةُ من كل شيء إلا من الاسم الخلافي . وصُيِّر ذلك هو الرسمَ العافي (٧) . ورتّبَ فيها جلوسَ وزرائه ، ورؤوس أمرائه ، وندب

(١) النجد : ما ارتفع من الأرض . والغور : ما انخفض منها .

(٢) الأهراء : جمع (هري) بضم الهاء وكسر الراء وتشديد الياء : بيت تخزن فيه الحبوب .

(٣) الأرحاء : جمع (رحى) وهو الحجر المستدير يطحن به .

(٤) المنازه : جمع (منزه) وهو مكان النزهة .

(٥) يريد هنا : المرافق وهو ما يعد للخدمات .

(٦) الأكناف : جمع (كنف) وهو الجانب .

(٧) الرسم ، في الأصل : ما بقي من أثر الديار لا صقاً بالأرض . والعافي : اسم فاعل من (عفا الربع) أي : ذهب وامحى ودرس .

إليها كلُّ ذي خُطّة ، ونصبَ ببابها كرسيَّ شُرْطتِه . وأجلس عليها والياً على رسم كرسي الخلافة . وفي صفة تلك المرتبة المنيفة (١) . وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعُدْوة بأن تُحمل إلى مدينته تلك أموالُ الجبايات . ويَقْصِدَها أصحاب الولايات ، وينتابها طُلاّبُ الحوائج . وحَذَّرَ أن يعوجَ عنها إلى دار الخليفة عائج (٢) .

* * *

(١) المنيفة : المرتفعة : المشرفة .

(٢) عاج بالمكان : حل به ونزل .

غَرْناطة

وأما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس . ومَسْرَحُ الأبصار . ومَطْمَحُ الأنفس . لها القصبة المنيعة ذات الأسوار الشامخة . والمباني الرفيعة . وقد اختصَّتْ بكون النهر يتوزع على ديارها وأسواقها وحمّاماتها وأرحاها الداخلة والخارجة وبساتينها . وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبةً على بسيطها الممتد الذي تفرعت فيه سبائكُ الأنهار . بين زبرجد الأشجار . ولنسيم نَجْدِهَا . وبهجةِ منظر حُوْرِها في القلوب والأبصار استلطافٌ يَروقُ الطباع ، ويُحْدِثُ فيها ما شاءه الإحسان من الاختراع والابتداع .

وتسمى كورة إلبيرة (١) التي منها غَرْناطةُ دِمَشْقَ . لأن جُنْدَ دمشق نزلوها عند الفتح .

وقيل : إنما سُمِّيَتْ بذلك لِشَبَهِها بِدمشقَ في غزارة الأنهار . وكثرة الأشجار . حكاه صاحب (مباهج الفكر) . قال : ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصرَ المقصود . والمَعْقِل الذي تنضوي إليه العساكر والجنود . ويَشُقُّها نهرٌ عليه قناطرُ يُجاز عليها . وفي قِبْلِيِّها جبلُ شُلَير . وهو جبلٌ لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاءً . وفيه سائر النبات الهندي ، لكن ليس فيه خصائصه .

* * *

(١) الكورة : المدينة ، أو الصقع . والبقعة التي تجتمع فيها قرى ومحال ، يقابلها في العصر الحديث الناحية .

ابن بطوطة يصف غرناطة

لما ألمَّ الرحالة ابنُ بَطوطة في رحلته بدخوله بلاد الأندلس قال :

فوصلتُ بلاد الأندلس – حرسها الله تعالى – حيث الأجر موفور للساكن . والثوابُ مدخورٌ للمقيم والظاعن . .

إلى أن قال عند ذكره غرناطة ما نَصُّه : قاعدة بلاد الأندلس . وعروسُ مُدُنِها . وخارجُها لا نظيرَ له في الدنيا . وهو مسيرةُ أربعين ميلاً . يخترقه نهر شِنِيل المشهور . وسواه من الأنهار الكثيرة . والبساتين الجليلة . والجنات والرياض والقصور والكُروم مُحْدِقةٌ بها من كل جهة . ومن عجيب مواضعها عَيْنُ الدمع . وهو جبلٌ فيه الرياضات والبساتين . لا مثل له بسواها

* * *

مما قيل في وصفها :

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس . لأنها أشبه شيء بها ، ويشقُّها نهر حَدَرّة . ويطل عليها الجبل المسمى بشُلَير الذي لا يزول الثلج عنه شتاءً وصيفاً ، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصَّلْد ؛ وفي أعلاه الأزاهِرُ الكثيرة . وأجناسُ الأفاويه الرفيعة (١) ، ونزل بها أهل دمشق لما جاؤوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور .

وقرى غرناطة – فيما ذكر بعض المتأخرين – مئتان وسبعون قرية .

* * *

---

(١) الأفاويه : جمع أفواه ، جمع (فوه) : وهي التوابل ، أو ما يعالج به الطيب خاصة وألوان الزهر وضروبه ، وأصناف الشيء وأنواعه .

من أعمال غرناطة

لَوْشَة :

ومن أعمال غرناطة قُطْر لَوْشَة ، وبهـا مَعْدِنٌ للفضـة جيدٌ ، ومنها – أعني لَوْشَة – أصلُ لسانِ الدينِ بنِ الخطيب .

وهذا القُطر ضخمٌ ينضافُ إليه من الحصون والقرى كثير . وقاعدته لَوْشَة . بينها وبين غرناطة مرحلة . وهي ذات أنهارٍ وأشجار ، وهي على نهر غَرْناطة الشهير بشنيل .

* * *

وادي آش :

ومن أعمال غرناطة وادي آش ؛ ويقال وادي الأشات . وهي مدينة جليلةٌ قد أحدقت بها البساتين والأنهار . وقد خَصَّ الله أهلها بالأدب وحُبِّ الشعر . وفيها يقول أبو الحسن بنُ نزار :

وادي الأشـاتِ يهيـجُ وَجْـدي كلـّمـا
أذْكَـرْتُ مـا أفْضَـتْ بـك النَّعْمـاءُ

لـلّـهِ ظِـلُّـكَ والهجـيرُ مُسَـلَّـطٌ
قـد بـرَّدتْ لَفحاتِـهِ الأنـداءُ

والشمـسُ تَـرْغَـبُ أنْ تفـوزَ بلحظـةٍ
منـه فتطـرفُ طرفهَـا الأفيـاءُ

والنهـرُ يَبْسِـمُ بالحَبـابِ كـأنـه
سِـلْخٌ نَضَتْـهُ حَيّـةٌ رَقْشـاءُ

فلــذاكَ تحــذره الغصــونُ فَمَيْلُهــا
أبــداً عــلى جَنبــاتـــه إيمـــاء

* * *

حصن جلْيانة :

ومن أعمال وادي آش حصن جلْيانة : وهو كبيرٌ يُضاهي المدن. وبه التفاح الجلْيانيّ الذي خصّ اللهُ به ذلك المَوضعَ ، يجمع عِظَمَ الحجمِ . وكَرَمَ الجوهرِ . وحلاوةَ الطعم . وذكاءَ الرائحة . والنقاءَ . وبين الحصن المذكور ووادي آش اثنا عشر ميلاً .

* * *

باغة :

ومن أعمال غرناطة الكبار عَمَلُ باغة . والعامةُ يقولون بيغة : وإذا نَسبوا إليه قالوا : بيغي .

وقاعدته باغةُ طيبةُ الزرع . كثيرة الثمار . غزيرة المياه . ويجود فيها الزعفران .

* * *

إشبيليـــة

إنشاؤها :

يقال : إن الذي بنى إشبيلية اسمه توليس . وإنه أول من سُمِّيَ قيصر . وإنه لما دخل الأندلسَ أعجبَ بساحاتها . وطيِّبِ أرضها . وجبلها المعروف بالشّرَف . فردم على النهر الأعظم مكاناً . وأقام فيه المدينة . وأحدق عليها بأسوارٍ من صخر صَلْدٍ . وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن تُعرفان بالأخوين . وجعلهما أمَّ قواعد الأندلس . واشْتَقَّ لها اسماً من رومية ومن اسمه . فسماها رومية توليس .

* * *

موقعها :

وقال بعضهم في إشبيلية : إنها قاعدة بلاد الأندلس . وحاضِرَتُها . ومدينة الأدب واللهو والطرب . وهي على ضفة النهر الكبير . عظيمةُ الشأنِ . طيبة المكان . لها البَرُّ المَديد . والبحرُ الساكن . والوادي العظيم . وهي قريبة من البحر المحيط . إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشّرَف إلا موضع الشّرَف (١) المقابل لها . المطل عليها . المشهور بالزيتون الكثير . الممتد فراسخَ في فراسخ (٢) لكَفَى .

---

(١) الشرف : المكان المرتفع المشرف . وهو اسم جبل إشبيلية .

(٢) الفرسخ ٥،٧٦٠ كم أو ٥،٠٤٠ كم أو ٥،١٦٠ كم وفق اعتبارات ثلاثة .

وبها منارةٌ في جامعها بناها يعقوب المنصور ، ليس في بلاد الإسلام أعظمُ بناءً منها .

وعَسَلُ الشَّرَفِ يبقى حيناً لا يترمّلُ ولا يتبدل ، وكذلك الزيت والتين .

وقال ابن مفلح : إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس . لأن تاجها الشرف . وفي عُنُقِها سِمْطُ النهرِ الأعظم ؛ وليس في الأرض أتمّ حُسْناً من هذا النهر . يُضاهي دجلة والفرات والنيل . تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار . وتغريد الأطيار أربعةً وعشرين ميلاً . ويتعاطى الناسُ السَّرْحَ من جانبيه عشرة فراسخ . في عمارةٍ متصلة ، ومناراتٍ مرتفعة ، وأبراج مشيدة . وفيه من أنواع السمك مالا يُحصى .

وبالجملة فهي قد حازت البرَّ والبحرَ . والزرعَ والضرعَ . وكثرة الثمار من كل جنس . وقصب السكر . ويجمع منها القرمز الذي هو أجلّ من اللّكّ الهندي (١) . وزيتونها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة، ثم يُعْتَصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري .

وقال بعض من وصف إشبيلية : إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير . المعروف بنهر قرطبة . وعليه جسرٌ مربوط بالسفن ، وبها أسواق قائمة . وتجارات رابحة . وأهلها ذوو أموال عظيمة . وأكثرُ متاجرهم الزيت . وهو يشتمل على كثيرٍ من إقليم الشَّرَف ؛ وإقليم الشرف على تل عالٍ من ترابٍ أحمرَ . مسافته أربعون ميلاً في مثلها ، يمشي به السائر

(١) اللك : ضرب من الصبغ أحمر ، تصبغ به الجلود وغيرها .

في ظل الزيتون والتين . ولها — فيما ذكر بعض الناس — قرىً كثيرةٌ ؛ وكل قريةٍ عامرةٌ بالأسواق والديار الحسنة . والحمّامات ،وغيرها من المرافق .

وقال صاحب (مباهج الفكر) عند ذكر إشبيلية : وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا . وبأهلها يُضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فُرَصِ الزمان الساعةَ بعد الساعة . ويعينهم على ذلك واديها الفَرِج . وناديها البَهِج . وهذا الوادي يأتيها من قرطبة ، ويجزر في كل يوم(١) ؛ ولها جبل الشّرَف . وهو ترابٌ أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً . وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلاً ، يشتمل على مئتين وعشرين قرية . قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت .

* * *

فضل إشبيلية :

أما إشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المباني . وتزيين الخارج والداخل ، وتمكُّن التمصُّر ، حتى إن العامّةَ تقول : لو طُلِبَ لبنُ الطير في إشبيلية وُجد .

ونهرها الأعظم الذي يصعد المدُّ فيه اثنين وسبعين ميلاً . ثم يحسر. وفيه يقول ابن سفر :

---

(١) يجزر : ، الجزر : انحسار الماء ، والمد زيادته .

شق النسيمُ عليه جَيْبَ قميصِه
فانساب من شَطّيْه يطلب ثارَهُ

فتضاحكَتْ وُرْقُ الحمام بِدَوْحِها
هُزْءاً فضمَّ من الحياء إزارَهُ

وزيادته على الأنهار كونُ ضفتيه مُطَرَّزَتَيْن بالمنَازِهِ والبساتين والكروم والأنسام ، متصلٌ ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره .

وأخبرني شخصٌ من الأكياس (١) دخل مصر . وقد سألته عن نيلِها أنه لا تتصل بشطّيه البساتين والمَنازِهُ اتصالَها بنهر إشبيلية . وكذلك أخبرني شخصٌ آخر دخل بغداد .

وقد سَعِد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مَسَرَّةٍ ، وأن جميعَ أدوات الطرب وشُرب الخمر فيه غير منكر . لا ناهٍ عن ذلك . ولا مُنتقِد. ما لم يؤدِّ السُّكْرُ إلى شرٍّ وعربدة . وقد رامَ مَنْ وَليها من الوُلاةِ المُظْهِرين للدِّيْن قَطْعَ ذلك . فلم يستطيعوا إزالَتَه .

وأهلُه أخفُّ الناس أرواحاً . وأطْبَعُهُمْ نَوادِرَ ، وأحْمَلُهُمْ لِمُزاحٍ بأقبحِ ما يكون من السَّبِّ . قد مَرَنوا على ذلك فصار لهم دَيْدَناً ، حتى صار عندهم مَنْ لا يبتذِل فيه ولا يَتلاعَنُ ممقوتاً ثقيلاً .

وقد سمعت عن شرف إشبيلية الذي ذكره أحد الوَشّاحين (٢) في مُوَشّحَةٍ مَدَحَ بها المعتضدَ بنَ عبّاد :

---

(١) الأكياس : جمع (كيس) بفتح الكاف وتشديد الياء المكسورة : الظريف ، الخفيف ، المتوقد ، العاقل .

(٢) الوشاحون : الذين ينظمون الموشحات .

إشبيليـــا عـــروس وبَعْلُهـــا عَبّـــاد
وتاجهـــا الشـــرف وسلكهـــا الـــوداد

أيُّ شرف قد حاز ما شاء من الشرف ، إذ عمّ أقطارَ الأرضِ خَبَرُه . وسفر ما يُعصر من زيتونه من الزيت حتى بلغ الإسكندرية . وتزيد قُراه على غيرها من القرى بانتخابِ مَبانيها . وتَهَمُّمِ سكانها فيها داخلاً وخارجاً . إذ هي من تبييضهم لها نجومٌ في سماء الزيتون.

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيها رأيتَ أَحْسَنَ ، هذان أم إشبيليا ؟ فقال بعد تفضيله إشبيلية : وشَرَفُها غابةٌ بلا أسد . ونهرُها نيلٌ بلا تمساح .

وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها . وكثرة ما فيها من التين القوطي والشعري ؛ وهذان الصنفان أجمع المتجوّلون في أقطار الأرض أن ليس في غير إشبيلية مثلٌ لهما .

وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالخيال . والكريج . والعود . والروطة . والرَّباب ، والقانون . والمؤنس . والكثيرة ، والفنار . والزلامي . والشقرة . والنورة — وهما مزماران، الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه — والبوق ؛ وإن كان جميعُ هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد .

وليس في بَرِّ العُدْوَةِ من هذا شيءٌ إلا ما جُلب إليه من الأندلس ؛ وحَسْبُهم الدُّفّ . وأقوال واليرا وأبو قرون . ودبدبة السودان . وحماقي البربر .

وأما جواريها ومراكبُها برّاً وبحراً ، ومطابخُها ، وفواكهها الخضراء واليابسة فأصنافٌ أخَذَتْ من التفصيل بأوفَر نصيب .

وأما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها ، واهتمام أصحابها بها . وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجاري ، والأشجار المتكاثفة كالنارنج . والليم . والليمون ، والزنبوع . وغير ذلك .

وأما علماؤها في كل صِنْفٍ رفيعٍ أو وَضيعٍ ، جِدّاً أو هزلاً ، فأكثرُ من أن يُعَدّوا ، وأشهرُ من أن يُذْكَروا .

وأما ما فيها من الشعراء والوَشّاحين والزَّجّالين فما لَو قُسموا على بَرّ العُدْوَةِ ضاق بهم ؛ والكل ينالون خيرَ رؤسائها ورِفْدَهم .

وما من جمع ماذكرت في هذه البلدة الشريفة إلا وقصدي به العبارةُ عن فضائل جميع الأندلس ، فما تخلو بلادُها من ذلك ، ولكنْ جعلتُ إشبيلية — بل الله جَعَلَها — أمَّ قُراها ، ومركزَ فَخْرِها وعُلاها . إذ هي أكبر مدنها ، وأعظم أمصارها .

* * *

من أعمال إشبيلية

واعلم أن إشبيلية لها كُوَرٌ جليلة ، ومدنٌ كثيرة ؛ وحصونٌ شريفة . وهي من الكُور المجندة ، نزلها جُنْدُ حِمْص ، ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جُنْدِ دمشق .

* * *

طَرْيانة وتيطل :

وفي إشبيلية من المتفرَّجات والمتنزهات كثير .

ومن ذلك مدينة طَرْيانة . فإنها من مدن إشبيلية ومتنزهاتها . وكذلك تَيْطَل ، فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تَيْطَل في المتفرَّجات .

* * *

باجة :

ولكُورة باجة من الكُوَر الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية أيام بني عَبّاد خاصيَّةٌ في دباغة الأديم . وصناعةِ الكتّان . وفيها مَعْدِنُ الفضة . وبها ولد المعتمد بن عَبّاد . وهي متصلة بِكُورة مارِدة .

* * *

طالقة :

وفي إقليم طالقة من أقاليم إشبيلية وُجدت صورة جاريةٍ من مرمر . معها صبيٌّ . وكأنَّ حيةً تريده . لم يُسمع في الأخبار ، ولا رُئي في الآثار صورةٌ أبدعُ منها . جُعلت في بعض الحمامات . وتعشقها جماعةٌ من العوام .

* * *

طُلَيْطِلَة :

ومن أعظم كُوَر الأندلس كُوْرةُ طُلَيْطِلة . وهي من متوسط الأندلس ، وكانت دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدر المئة الخامسة ، وسماها قيصر بلسانه بزليطلة . وتأويل ذلك : أنت خارج ، فعرَّبتها العرب وقالت : طُلَيْطِلَة ، وكانوا يسمونها وجِهاتِها في دولة بني أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سَرَقُسْطَة وجِهاتِها بالثغر الأعلى .

وتسمى طليطلة مدينة الأملاك . لأنها — فيما يقال — مَلَكَها اثنان وسبعون إنساناً . ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام . وعيسى ابنُ مريم . وذو القرنين . وفيها وجَد طارقٌ مائدة سليمان . وكانت من ذخائر إشبان ملك الروم الذي بنى إشبيلية . أخذها من بيت المقدس — كما مر — وقُوِّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمئة ألف دينار . وقيل : إنها كانت من زمرد أخضر ، ويقال : إنها الآن برومة . والله أعلم بذلك .

ووجد طارقٌ بطليطلة ذخائر عظيمة . منها مئة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة . وإيوانٌ ممتلىءٌ من أواني الذهب والفضة . وهو كبير . حتى قيل : إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لِوُسْعِه .

وقد قيل : إن أواني المائدة من الذهب . وصحافها من البَشَم والجزَع (١) وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدِّقه الناظر فيه .

---

(١) البشم : حجر يشبه الزبرجد ، والجزع : خرز يمان ، فيه بياض وسواد تشبه به العيون .

وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهارٌ مخترقة . ورياضٌ وجنان . وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ؛ ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مَرِيْعة(١) . وضياعٌ بديعة ، وقلاعٌ منيعة . وبالجملة فمحاسنها كثيرة / وطليطلة قاعدة ملك القوطيين . وهي مُطِلّةٌ على نهر تاجُه ، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها ؛ وكانت على قوسٍ واحد تكْتَنِفُه فُرْجتان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمئة باع . وعرضها ثمانون باعاً .

قصر طليطلة :

حكى غير واحد عن القصر العظيم الذي شاده ملك طليطلة المأمون بن ذي النون بها . وذلك أنه أتقنه إلى الغاية ، وأنفق عليه أموالاً طائلة . وصنع في وسطه بحيرةً ، وصنع في وسط البحيرة قبةً من زجاج ملوَّنٍ منقوشٍ بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبيرٍ أحكمه المهندسون . فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها . ويتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج في غِلالةٍ من ماءٍ سُكِب خلف الزجاج لا يفتر من الجري ، والمأمون قاعدٌ فيها لا يَمَسُّه من الماء شيء ولا يَصِلُه . وتُوقد فيها الشموع فيُرى لذلك منظرٌ بديعٌ عجيب .

* * *

---

(١) الرساتيق : جمع رستاق وهو القرى ، وما يحيط بها من الأراضي (فارسية معربة)

سَرَقُسْطَة

وسرقسطة بناها قيصر ملك رومة الذي تؤرخ من مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاةُ والسلام ؛ وتفسير اسمها قصر السيد . لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس .

وقيل : إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جِلِّق بسرقسطة فاستعذبه وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه . وسأل عن اسمه فقيل : جِلِّق . ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبّهها بغوطة جِلِّق الشام .

وقيل : إنها من بناء الإسكندر .

وذكر غير واحدٍ أن في كورة سرقسطة الملح الأندراني الأبيض الصافي الأملس الخالص . وليس في الأندلس موضعٌ فيه مثل هذا الملح .

* * *

بَلَنْسِيَة

وقال ابن سعيد : إن كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران . وتعرف بمدينة التراب، وبها كُمَّثْرَى تسمى الأرزة في قَدْر حبة العنب ، قد جَمَعَ مع حلاوة الطعم ذكاءَ الرائحة . إذا دخل داراً عُرِف بريحه .

ويقال : إن ضوء بَلَنْسِيَة يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس .

وبها منارةٌ ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرُّصافة . ومُنْيَة ابن أبي عامر .

وقال المقري : وأما بَلَنْسِيَة فإنها لكثرة بساتينها تُعرف بمُطَيَّب الأندلس . ورُصافَتُها من أحسن مُتَفَرَّجات الأرض . وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرَّوْنَق . ويقال : إنه لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوءُ بَلَنْسِيَة ، إذ هي موصوفة بذلك .

ومما خُصَّتْ به النسيجُ البَلَنْسِيُّ الذي يُسَفَّر لأقطار المغرب .

* * *

من أعمال بَلَنْسِيَة :

المُنْصِف : ومن أعمال بلنسية قرية المنصف التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المُنْصِفي . وقبرُه كان بسَبْتَةَ يُزار .

* * *

بَطَرْنَة : ومن عمل بلنسية قرية بَطَرْنَة ، وهي التي كانت فيها الوقعةُ المشهورة للنصارى على المسلمين ، وفيها يقول أبو إسحاق بن يَعْلى الطرسوني :

لَبِسوا الحديدَ إلى الوغى ولَبِسْتُمُ
حُلَلَ الحرير عليكُمُ ألوانا

ما كان أقْبَحَهُمْ وأحْسَنَكُمْ بِها
لو لم يكن بِبَطَرْنَةٍ ما كانا

* * *

مَتِيطَة : ومن عمل بلنسية مَتِيطة التي نُسب إليها جماعةٌ من العلماء والأدباء .

* * *

أُنْدة : ومن عمل بلنسية مدينة أُندة التي في جبلها مَعدنُ الحديد . وأما رُندَة . بالراء فهي في متوسط الأندلس ، ولها حصنٌ يُعرَف بأُندة أيضاً .

* * *

مالَقَة

قال ابن بطوطة : إن مالَقَة إحدى قواعد الأندلس ، وبلادِها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرةُ الخَبرات والفواكه . رأيت العنبَ يُباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهمٍ صغير ؛ ورمّانُها المُرْسيّ الياقوتي لا نظيرَ له في الدنيا ؛ وأما التين واللوز فَيُجْلَبان منها ومن أحوازها(١) إلى بلاد المشرق والمغرب .

وقال ابن بطوطة : وبمالَقَة يُصنع الفَخّار المُذهبُ العجيب . ويُجلَبُ منها إلى أقاصي البلاد ، ومسجدها كبير الساحة ، كثير البركة ، شَهيرُها . وصحنُه لا نظيرَ له في الحسن ، وفيه أشجار النارنج البديعة .

وقال المقري : وأما مالقة فإنها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالكُروم المتصلة التي لا تكاد ترى فيها فُرجة لموضعٍ غامر . والبروجِ التي شابهت نجوم السماء ، كثرةَ عددٍ . وبهجةَ ضياء . وتَختّلِ الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع في سُرُر بَطحائها . وتَوْشيحِه لخصُور أرجائها .

ومما اختُصَّتْ به من بين سائر البلاد التين الربي المنسوبُ إليها . لأن اسمها في القديم ربة ؛ ولقد أُخبرتُ أنه يباع في بغداد على جهة

(١) الأحواز : جمع (حوزة) وهي الناحية .

الاستطراف . وأما ما يسفر منه المسلمون والنصارى في المراكب البحرية فأكثرُ من أن يُعَبَّر عنه بما يحصره . ولقد اجتزتُ بها مرةً . وأخذت على طريق الساحل من سُهَيل إلى أن بلغتُ إلى بَليش . قَدْرَ ثلاثة أيام : متعجباً فيما حوَته هذه المسافة من شجر التين . وإن بعضَها ليَجتني جميعَها الطفلُ الصغير . من لُزوقِها بالأرض ؛ وقد حوت ما يتعب الجماعةَ كثرةً .

وتين بَليش هو الذي قيل فيه لبربري : كيف رأيته ؟ قال : « لا تسألني عنه . وصُبَّ في حلقي بالقُفَّة » . وهو – لعمر الله – معذور . لأنه نعمةٌ حُرِمَتْ بلادُه منها .

وقد خُصَّتْ بطيب الشراب الحلال والحرام ، حتى سار المثل بالشراب المالَقي .

وقيل لأحد الخُلَعاء ، وقد أشرف على الموت : اسأل ربَّك المغفرةَ . فرفع يديه وقال : يارِبِّ أسألك من جميع ما في الجنة : خمر مالَقة ، وزبيب إشبيلية .

وفيها تُنسَجُ الحُلل الموشية التي تجاوز أثمانُها الآلافَ . ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فَمَنْ دُونَهم .

وساحلُها محَطٌّ تجارةٍ لمراكبِ المسلمين والنصارى .

* * *

من أعمال مالَقة

نارجة : قال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة – وهي قرية كبيرةٌ تُضاهي المدنَ ، قد أحدقت بها البساتين . ولها نهرٌ يفتن الناظرين.

وهي من أعمال مالقة — : إنه اجتاز مرةً عليها مع والده أبي عمران موسى ، وكان ذلك زمانَ صباغةِ الحرير عندهم ؛ وقد ضربوا في بطن الوادي بين مُقَطّعاته خيماً ، وبعضُهم يغني ويطرب ؛ وسألوا : بمَ يُعرف ذلك الموضع ؟ فقالوا : الطراز . فقال والدي : اسمٌ طابَقَ مُسَمّاه ، ولفظٌ وافق معناه .

* * *

المَرِيّة

ومن مشهور مدن الأندلس المَرِيّة . وهي على ساحل البحر(١) ؛ ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران . بناها عبد الرحمن الناصر . وعَظُمَتْ في دولة المنصور بن أبي عامر . وولّى عليها مولاه خَيران . فَنُسِبت القلعةُ إليه .

وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد .

وفيها دار الصناعة .

وتشتمل كُوْرَتُها على مَعْدِنِ الحديد والرُّخام .

ومن أبوابها بابُ العُقاب . عليه صورةُ عُقابٍ من حجرٍ قديمٍ عجيب المنظر .

وقال بعضهم : كان بالمَرِيّة لِنَسج طُرُزِ الحرير ثمانمئةِ نَوْلٍ . وللحُلَلِ النفيسة والديباج الفاخر ألفُ نَوْل . وللأسقلاطون(٢) كذلك ، وللثياب الجُرْجانية كذلك . وللأَصْفهانية مثل ذلك . وللعنابي والمعاجر المدهشة(٣) والستور المكللة .

---

(١) الأبيض المتوسط . وتقع في الجنوب الشرقي من جزيرة الأندلس .

(٢) الأسقلاطون أو السقلاطون : نوع من الثياب (رومية) .

(٣) المعاجر : جمع (معجر) بكسر فسكون ففتح : ثوب تعتجر به المرأة . تلفه على استدارة رأسها ، وضرب من ثياب اليمن يلتحف به ويرتدى .

ويُصْنَع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يُوْصَف .

وفاكهةُ المَرِيَّةِ يَقْصُرُ عنها الوصف حُسْناً .

وساحلها أفضلُ السواحل .

وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة .

وقد ألّف فيها أبو جعفر بن خاتمة(١) تاريخاً حافلاً سمّاه (مَزِيّةُ المَرِيّة على غيرها من البلاد الأندلسية) في مجلد ضخم تركتُه من جملة كتبي بالمغرب . والله - سبحانه - المسؤولُ في جمع الشمل . فلله الأمرُ من بَعْدُ ومن قبل .

ووادي المريّة طولُه أربعون ميلاً . في مثلها . كلها بساتين بَهِجَةٌ . وجَنّاتٌ نَضِرَةٌ . وأنهارٌ مُطَّرِدةٌ . وطيورٌ مغردةٌ .

وقال بعضهم : ولم يكن في بلاد الأندلس أكثرُ مالاً من أهل المَرِيّة ، ولا أعظمُ مَتاجِرَ وذخائر . وكان بها من الحمّامات والفنادق نحوُ الألف . وهي بين الجبلين . بينهما خندقٌ معمور ؛ وعلى الجبل الواحد قَصَبَتُها المشهورة بالحَصَانة(٢) ، وعلى الآخَر رَبَضُها(٣) . والسور محيط بالمدينة والرَّبَض . وغربيّها رَبَضٌ لها آخَرُ يُسمى رَبَض الحوض ، ذو فنادقَ وحمّامات وخنادقَ وصناعات .

---

(١) واسمه أحمد بن علي بن محمد ، ابن خاتمة الأنصاري المريني ، وهو شاعر وكاتب وفقيه ومصنف . توفي سنة ٧٧٠ هـ . طبع ديوانه وبعض مصنفاته ؛ ولم تذكر مصادر ترجمته هذا الكتاب له .

(٢) القصبة : المدينة .

(٣) الربض : ما حول المدينة وضاحيتها .

وقد استدار بها من كل جهة حُصونٌ مرتفعةٌ ، وأحجارٌ أولية . وكأنما غُرْبِلَتْ أرضُها من التراب ، ولها مدنٌ وضِياعٌ عامرة ، متصلة الأنهار .

وقال المقري أيضاً : وأما المَرِيّة فإنها البلدُ المشهور الذكر . العظيمُ القدر ، الذي خُصِّصَ أهلُه باعتدال المِزاج ، ورَوْنَقِ الديباج ، ورِقّةِ البَشَرة ، وحُسْنِ الوجوهِ والأخلاقِ ، وكَرَمِ المعاشَرة والصُّحْبَة .

وساحلها أنظف السواحل وأشرحُها وأملَحُها منظراً .

وفيها الحصى الملون العجيب الذي يجعله رؤساء مَرّاكُش في البراريد ، والرخام الصقيل الملوكي .

وواديها المعروف بوادي بَجانَة من أفرج الأودية ، ضَفّتاه بالرياض كالعِذارَيْن حول الثغر ، فَحُقّ أن يُنْشَدَ فيها :

أرضٌ وَطِئْتُ الدُرَّ رضراضاً بها
والتربَ مِسْكاً والرياضَ جِنانا

وفيها كان ابن ميمون القائد الذي قهر النصارى في البحر ، وقطع سفرهم فيه . وضَرَبَ على بلاد الرومانية فقتل وسَبَى . وملأ صدور أهلها رُعْباً حتى كان منه كما قال أشجع (١) :

---

(١) هو أشجع بن عمرو السلمي : شاعر فحل كان معاصراً لبشار بن برد ، توفي نحو سنة ١٩٥ هـ = ٨١١م .

فإذا تَنَبَّهَ رُعْتَه وإذا غَفَا
سَلَّتْ عليه سيوفَكَ الأحلامُ

وبها كان مَحَطُّ مراكب النصارى، ومجتمعُ ديوانهم، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يُوسِقون جميعَ البضائع التي تصلح لهم . وقَصَدَ بضبط ذلك حَصْرَ ما يجتمع في أعشارهم(١) ، ولم يوجد لهذا الشأن مِثْلُها ، لكونها متوسطةً ومتسعةً قائمةً بالوارد والصادر .

وهي أيضاً مصنعٌ للحُلَل المَوْشِيَّة النفيسة .

* * *

من أعمال المَرِيَّة

بوجة : وبمدينة بَرْجَة — وهي من أعمال المريّة — مَعْدِنُ الرصاص . وهي على وادٍ مُبْهِجٍ يُعْرَفُ بوادي عذراء . وهو محدقٌ بالأزهار والأشجار، وتسمى بَرْجَةُ بهجة لبهجة منظرها . وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني رحمه الله تعالى(٢) :

حُطَّ الرِّحالَ ببَرْجَهْ
وارْتَدْ لِنَفْسِكَ بَهْجَهْ

(١) الأعشار : جمع عشر : وهو هنا الضريبة (المكس) الذي يؤخذ عن البضائع الصادرة والواردة .

(٢) وهو جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف ، الجذامي القيرواني : شاعر وأديب ؛ أصله من القيروان فارقها إلى الأندلس، واستوطن برجة (من ناحية المرية) . توفي سنة ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م .

في قلعـــــــــــةٍ كسلاحٍ
ودَوْحَـــــــةٍ مثـــــل لُجّةْ

فَحِصْنُهـــــــا لَكَ أمـــنٌ
ورَوْضُهـــــــــا لكَ فُـــرجَةْ

كُـــــلُّ البـــــلاد سِواهـــــا
كعُمْـــــــرةٍ وهـــي حَجّةْ

* * *

مُرْسِيَة

وأما مُرسِيَة فإنها حاضرة شرقِ الأندلس . ولأهلها من الصرامة والإباء ما هو معروف مشهور .

ووادِيها قسيمُ وادي إشبيلية : كلاهما ينبع من شَقُورَة . وعليه من البساتين المتهدبة الأغصان . والنواعير المطربةِ الألحان . والأطيار المغردة . والأزهار المُتَنَضِّدَة ما قد سمعت .

وهي من أكثر البلاد فواكهَ ورَيْحاناً .

وأهلُها أكثرُ الناس راحاتٍ وفُرَجاً ، لكونِ خارجِها مُعيناً على ذلك بحسن منظره .

وهي بلدةٌ تُجَهِّزُ منها العروس التي تنتخب شَوْرَتَها(١) ، لا تَفْتَقِرُ في شيءٍ من ذلك إلى سواها .

وهي للمريّة ومالَقة في صَنْعَةِ الوَشْيِ ثالثةٌ ؛ وقد اختُصَّت بالبُسُط التنتلية التي تسفّر لبلاد المشرق ، وبالحُصُر التي تُغلِّف بها الحيطان المُبْهِجَةُ للبصر . إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

ولم تَخْلُ من علماء وشعراءَ وأبطال .

(١) الشورة : اللبس ، والزينة .

جيّان

وأما جيّان فإنها لبلاد الأندلس قلعةٌ ، إذ هي أكثرها زرعاً ، وأصْرَمُها أبطالاً ، وأعْظَمُها مَنَعَةً ، وكم رامَتْها عساكرُ النصارى عند فَتَرات الفِتَن فرأوها أبْعَدَ من العَيّوق ، وأعزَّ منالاً من بَيْض الأنوق .

ولا خَلَتْ من علماء ولا من شعراء ، ويقال لها : « جَيّان الحرير » . لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير .

ومما يُعَدُّ من أعمال جيّان

بيّاسة :

ومما يُعَدُّ في مفاخرها ما ببيّاسة إحدى بلاد أعمالها من الزعفران الذي يسفر براً وبحراً .

أبّدة :

وما في أبّدة من الكروم التي كاد العنبُ لا يُباع فيها ولا يُشترى كثرةً .

وما كان بأبدة من أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة . فإنهن أحذقُ خَلْق الله تعالى باللّعِب بالسيوف والدكّ ، من إخراج القروى والمرابط والمتوجه .

تُدْمير

ومن كور الأندلس الشرقية تُدْمير ، وتسمى مصر أيضاً ، لكثرة شبهها بها لأن لها أرضاً يسيح عليها نهرٌ في وقتٍ مخصوصٍ من السنة . ثم ينضُب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر .

وصارت القصبة بعد تُدْمير مُرْسِيَة . وتسمى البستان ، لكثرة جناتها المحيطة بها ، ولها نهرٌ يصبُّ في قِبْليِّها .

* * *

أشبونة

وبِكُورَةِ أشبونة المتصلة بشنترين مَعْدِنُ التبر .

وفيها عسلٌ يُجعل في كيس كَتّان فلا يكون له رطوبة كأنه سُكّر .

ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه إلا الشِّحْرِيّ(١) .

* * *

شَنْتَرَة(٢)

قال ابن اليسع : إن من خَواصِّها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويُحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته ؛ وإن التفاح فيها دَوْرُ كل واحدةٍ ثلاثة أشبار وأكثر .

وقال أيضاً : قال لي أبو عبد الله الباكوري ، وكان ثقة : أبصرتُ عند المُعْتَمِد بنِ عَبّاد رجلاً من أهل شَنْتَرَة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقِلُّ الحاملُ على رأسه غيرَها . دَوْرُ كلٍّ واحدةٍ خمسةُ

(١) الشحْري : نسبة إلى الشحر ، وهي ساحل البحر بين عمان وعدن .

(٢) مدينة في جنوب غربي البرتغال اليوم.

أشبار ، وذكر الرجلُ بحضرة ابن عبّاد أن المعتاد عندهم أقلُّ من هذا . فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العِظَم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبْقَوا منه عشراً أو أقل . وجعلوا تحتها دِعامات من الخشب .

شَرِيش

قال الحجاري : إن مدينة شَرِيش بنتُ إشبيلية . وواديها ابن واديها . ما أشبه سُعدى بسعيد .

وهي مدينة جليلةٌ . ضخمةُ الأسواق . لأهلها هِمَمٌ وظَرْفٌ في اللباس . وإظهار الرفاهية . وتَخَلُّقٌ بالآداب . ولا تكاد ترى بها إلا عاشقاً أو معشوقاً .

ولها من الفواكه ما يَعُمُّ ويَفْضُل .

ومما اخْتُصَّتْ به إحسانُ الصنعة في المُجَبَّنات ، وطِيبُ جُبْنِها يعين على ذلك . ويقول أهل الأندلس : مَن دخل شريش ولم يأكل بها المُجَبَّنات فهو محروم .

شِلْب وأشكونية

وتسمى أعمالُ شِلْب كُورَةَ أشْكونية(١) ، وهي متصلة بكُورَة أشبونة ، وهي — أعني أشكونية(١) — قاعدةٌ جليلةٌ لها مدنٌ

---

(١) هكذا جاء الاسم في (نفح الطيب) وعلق محققه عليه بحاشية نصها : « الذي في الروض (المعطار) : « أكشونبة » بضم النون وباء موحدة ، بضبط القلم ، وذكر ياقوت (أكشونية) بياء مثناة خفيفة بعد نون مكسورة . وذكر (أشكونية) في بلاد الروم ، غزاها سيف الدولة بن حمدان من حلب » .

ومعاقل ، ودارُ ملكيها قاعدة شِلْب . وبينها وبين قرطبة سبعةُ أيام .
ولما صارت لبني عبد المؤمن ملوكِ مَرّاكُش أضافوها إلى كورة إشبيلية .

وتفتخر شِلْبُ بكون ذي الوِزارتين ابن عمّار منها . سامحه الله .

* * *

قَرْطاجَنّة

قال صاحب (مباهج الفكر) عندما ذكر قرطاجنة : وهي على البحر الرومي ، مدينة قديمة بقي منها آثار . لها فَحْصٌ طولُه ستة أيام . وعرضُه يومان ، معمورٌ بالقرى .

وقال بعضهم لما أجرى ذكر قَرْطاجَنّة من بلاد الأندلس : إن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بِمَطْرَةٍ واحدة .

وبها أقواسٌ من الحجارة المقرنصة .

وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحيِّر البصرَ والبصيرة .

ومن أعجب بنائها الدواميس ، وهي أربعةٌ وعشرون على صف واحد من حجارةٍ مقرنَصة ـ طولُ كلٍّ داموسٍ مئة وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوةً . وارتفاع كلٍّ واحدٍ أكثر من مئتي ذراع ؛ بين كل داموسين أنقابٌ مُحْكَمَةٌ تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعضٍ في العلوِّ الشاهق بهندسةٍ عجيبةٍ وإحكامٍ بديع .

* * *

الدول المتعاقبة على حكم الأندلس

الدول المتعاقبة على حكم الأندلس

وُلاة الأندلس إبّانَ تبَعيّتِها للدولة الأموية المركزية في دمشق من سنة ٩٢ حتى سنة ١٣٨ للهجرة

أتمّ موسى الفتح ، وتوغّل في الأندلس إلى بَرْشَلُونة في جهة الشرق ، وأربونة في الجوف . وضم قادس في الغرب ، ودوّخَ أقطارها ، وجمع غنائمها . وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دُرُوْبَه ودُروبَ الأندلس . ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم . مستلحماً لهم ، إلى أن يلحقَ بدار الخلافة .

ونُمي الخبرُ إلى الوليد (١) فاشتد قَلَقُه لمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أن ما همّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف . وأسرَّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع ، وكتب له بذلك عَهْدَه . فَفَتَّ ذلك في عزم موسى ، وقَفَلَ عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها (٢) .

وأنزل ابنَه عبدَ العزيز لِسَدّها وجهادِ عدوها ، وأنزله بقرطبة فاتخذها دارَ إمارة . واحتلّ موسى بالقَيْرَوان سنة خمس وتسعين ،

---

(١) ابن عبد الملك ، الخليفة الأموي بدمشق .

(٢) أي من يرابط في الثغور ويحميها من الجند .

وارتحل إلى المشرق سنة ستٍ بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العَجَل والظهر (١) ؛ يقال : إن من جملتها ثلاثين ألف رأسٍ من السَّبْيِ .

وولّى على إفريقية ابنَه عبدَ الله ؛ وقدم على سليمانَ بنِ عبدِ الملِك (٢) فسَخِطَه ونَكَبَه (٣).

وثارت عساكرُ الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لستين من ولايته ؛ وكان خَيِّراً فاضلاً . وافتتح في ولايته مدائنَ كثيرة .

ووَلِيَ بعده أيوب بن حبيبٍ اللَخْميّ ، وهو ابن أخت موسى ابنِ نُصير ، فولِيَ عليها ستة أشهر .

ثم تتابعت وُلاةُ العرب على الأندلس : تارةً من قِبَل الخليفة ، وتارةً من قِبَل عامِلِه بالقيروان ؛ وأثخنوا في بلاد الكفر ، وافتتحوا بَرْشَلُونَة من جهة المشرق . وحصون قَشتالَة وبَسائِطَها من جهة الجوف . وانقرضت أممُ القُوْط وأوى الجلالقَة (٤) ومَنْ بقي من أمم العجم إلى جبال قَشْتالَة وأَرْبُونَة وأفواه الدروب فتحصنوا بها ، وأجازت عساكرُ المسلمين ما وراء بَرْشَلُونَة من دروب الجزيرة حتى احتلّوا البسائط وراءَها (٥) . وتَوَغّلوا في بلاد الفرنجة .

---

(١) العجل : ما يحمل عليه من عربات ذات دواليب ، أو ما يشبه ذلك . والظهر : ما يحمل عليه من الدواب ويركب .

(٢) تولى سليمان الخلافة بعد موت الوليد سنة ٩٦ هـ .

(٣) سخطه : غضب عليه ومقته وكرهه ، ونكبه : أوقع به نكبة .

(٤) الجلالقة : أهل منطقة جليقية بالأندلس .

(٥) البسائط : الأراضي المنبسطة الفسيحة .

وعَصَفَتْ ريحُ الإسلام بأمم الكفر من كل جهة ، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلافٌ وتنازُعٌ أَوْجَدَ للعدوِّ بعضَ الكَرَّة. فرجع الإفرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد بَرْشَلُونَة لعهد ثمانين سنة من لَدُن فَتْحِها (١) . واستمر الأمر على ذلك .

وكان محمدُ بنُ يزيد ، عاملُ إفريقية لسليمان بن عبد الملك – لما بلغه مَهْلِكُ عبد العزيز بن موسى بن نُصير – بعث إلى الأندلس الحُرَّ بنَ عبدِ الرحمن بنِ عُثْمانَ الثَّقَفِيَّ ؛ فَقَدِمَ الأندلسَ ، وعزل أيوبَ بنَ حبيب . وولي سنتين وثمانية أشهر .

ثم بعث عمرُ بنُ عبدِ العزيز على الأندلسِ السَّمْحَ بن مالك الخَوْلانِيَّ ، على رأس المئة من الهجرة . وأمره أن يَخْمُسَ أرضَ الأندلسِ (٢) . فَخَمَسَها . وبنى قنطرةَ قرطبة ، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة ثِنْتَيْن ومئة .

فقدّم أهلُ الأندلس عليهم عبدَ الرحمن بنَ عبد الله الغافِقِيَّ .

إلى أن قَدِم عَنْبَسَةُ بنُ سُحَيْمٍ الكلبيُّ من قِبَل يزيدَ بن أبي مُسْلِم عاملِ إفريقية . فقدمها في صفر سنةَ ثلاثٍ ومئة ، فاستقام أمر الأندلس . وغزا الفرنجَةَ ، وتوغل في بلادهم ، واستُشْهِد سنة سبع ومئة ؛ لأربع سنين وأربعة أشهر .

ثم تتابعت وُلاة الأندلس من قِبَل أمراء إفريقية .

---

(١) أي استردوا لأنفسهم .

(٢) يخمسها : يأخذ خمس ريع ما تنتجه ، بعد أن يقسمها على الفاتحين .

فكان أَوَّلَهم يحيى بنُ سَلَمة الكلبيّ . أنفذه بِشْرُ بنُ صفوان الكلبي والي إفريقية لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبسة ، فقَدِمَها آخر سنة سبع . وأقام في ولايتها سنتين ونصفاً ، ولم يَغْزُ.

وقدم إليها عثمانُ بن أبي نِسْعَةَ اللخمي والياً من قِبَل عُبيدة ابن عبد الرحمن السُلَميّ . صاحب إفريقية .

وعَزَلَه لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القَيْسِي فوافاها سنة عشر . وعُزل قريباً ، يقال : لسنةٍ من ولايته . واختُلف هل تقدمه عثمان ، أو هو تقدم عثمانَ ؟

ثم ولي بعده الهيثم بن عُبَيْدِ الكِلابيُّ من قِبل عُبيدة بن عبد الرحمن أيضاً . قدم في المحرَّم سنة إحدى عَشْرَة . وغزا أرضَ مَقوشة فافتتحها ، وتوفي سنة ثلاث عشرة ومئة لسنتين من ولايته .

وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعي ، فولي شهرين .

ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قِبَل عُبيد الله بنِ الحَبْحاب صاحب إفريقية ، فدخلها سنة ثلاث عَشْرَة ، وغزا الإفرنجة. وكانت له فيهم وقائع . وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة في موضع يُعرف ببلاط الشهداء ، وبه عُرفت الغزوة . وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر .

ثم ولي عبدُ الملك بنُ قَطَن الفِهْرِيُّ. وقدم في رمضان سنة أربع عَشْرَةَ فولي سنتين — وقال الواقدي : أربع سنين — ، وكان ظَلوماً جائراً في حكومته . وغزا أرضَ البشكنس سنة خمس عشرة ومئة . فأوقع بهم وغَنِمَ . ثم عزل في رمضان سنة ستّ عَشْرَةَ .

وولي عُقْبَةُ بن الحجّاج السَّلُوْلِيْ من قِبَل عُبيد الله بن الحَبْحاب (١) . فأقام خَمْسَ سنين محمود السيرة . مجاهداً مظفّراً . حتى بلغ سكن المسلمين أَرْبُوْنَة . وصار رِباطُهم على نهر رُدُوْنَة.

ثم وثب عليه عبد الملك بن قَطَن الفهري سنة إحدى وعشرين فخلعه وقتله . ويقال : أخرجه من الأندلس . وولي مكانه إلى أن دخل بَلْجُ بنُ بِشْر بأهل الشام سنة أربع وعشرين ، فغلب عليه ، وولي الأندلسَ سنةً أو نحوها .

وقال الرازي : ثار أهل الأندلس بأميرهم عُقْبَةَ في صفر سنة ثلاثٍ وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولّوا عليهم عبد الملك ابن قَطَن ولايته الثانية . فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر : وتوفي بِقَرْمُونه في صفر سنة ثلاث وعشرين . واستقام الأمر لعبد الملك(٢) .

ثم دخل بَلْجُ بنُ بِشْرٍ القُشَيْرِيُّ بجند الشام ناجياً من وقعة كُلثوم بن عياض مع البربر بِمَلْوِيَةَ . فثار على عبد الملك وقتله وهو ابن سبعين سنة . واستوثق له الأمرُ بعد مقتل عبد الملك ، وانحاز الفهريون إلى جانب ، فامتنعوا عليه . وكاشفوه . واجتمع إليهم مَنْ أنكر فَعْلَتَهُ بابن قَطَن . وقام بأمرهم قَطَن وأمية ابنا عبدِ الملكِ بن قَطَن ، والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين . وهلك بَلْجٌ من الجراح التي نالته في حربهم . وذلك سنةَ أربعٍ وعشرين لسنةٍ أو نحوها من إمارته .

---

(١) والي إفريقية .

(٢) ابن قطن الفهري .

ثم ولي ثَعْلَبَةُ بنُ سلامةَ الجُذاميُّ ، وغلب على إمارة الأندلس بعد مَهْلك بَلْجٍ ، وانحاز عنه الفهريون فلم يُطيعوه . وولي سنتين أظهر فيهما العدلَ . ودانت له الأندلس عشرة أشهر إلى أن مالت به العصبية في يمانيته ففسد أمره . وهاجت الفتنة .

وقدم أبو الخَطّار حُسام بنُ ضرارٍ الكلبيُّ من قِبَل حَنْظَلَةَ بنِ صفوانَ عامل إفريقية . ركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ، فدان له أهل الأندلس ، وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي نِسْعة وابنا عبد الملك (١) ، فلقيهم . وأحسن إليهم ، واستقام أمره ، وكان شجاعاً كريماً ، ذا رأي وحزم ، وكَثُرَ أهلُ الشام عنده . ولم تحملهم قرطبة ، ففرقهم في البلاد . وأنزل أهل دمشق إلْبيرة لِشَبَهِها بها ، وسمّاها دمشق . وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص . وأهل قِنّسْرِينَ جيّان وسماها قِنّسْرين . وأهلَ الأُرْدُنّ رَيّةَ ومالَقَةَ وسماها الأُرْدُنّ ، وأهلَ فلسطين شَذُونَةَ — وهي شَرِيش — وسماها فلسطين ، وأهلَ مصرَ تُدمير وسماها مصر . وقفل ثعلبة إلى المشرق ، ولحق بمروان بن محمد ، وحضَرَ حروبَه .

وكان أبو الخَطّار أعرابياً عصبياً أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية . وتحامَلَ على المضرية ، وأسخط قيساً ، وأمر في بعض الأيام بالصُمَيْل بن حاتم . كبير القيسية — وكان من طوالع بَلْج . وهو الصُمَيْلُ بن حاتم بنِ شَمِر بن ذي الجوشن — ورأس المضرية فأقيم من مجلسه ، وتقنّع . فقال له بعض الحُجّاب وهو خارج من القصر : أقم عِمامَتَكَ يا أبا الجوشن . فقال : إن كان لي قوم

(١) ابن قطن الفهري ، وهما قطن وامية .

فسيقيمونها . فسار الصُمَيْلُ بنُ حاتمٍ أميرُهم يومئذٍ وزَعيمُهم وألَبَ عليه قومَه . واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية . فخُلِع أبو الخطار سَنَةَ ثمانٍ وعشرين ، لأربعٍ سنين وتسعة أشهر من ولايته .

وقدم مكانَه ثَوابَةُ بنُ سَلامَةَ الجُذاميُّ . وهاجت الحرب المشهورة ، وخاطبوا بذلك عبدَ الرحمن بنَ حبيب صاحبَ إفريقية . فكتب إلى ثَوابة بعهده على الأندلس مُنْسَلَخَ رَجَبَ سنة تسعٍ وعشرين ، فضبط الأندلسَ ، وقام بأمره الصُّمَيْل . واجتمع عليه الفريقان ، وهلك لسنةٍ من ولايته .

ووقع الخلاف بإفريقية . والْتاثَ أمرُ بني أمية بالمشرق(١) ، وشُغلوا عن قاصيةِ الثغور (٢) بكثرة الخوارج . وعظُم أمرِ المُسَوِّدَة(٣) . فبقي أهلُ الأندلسِ فوضى . ونَصَبوا للأحكام خاصة(٤) عَبْدَ الرحمنِ بنَ كَثير .

ثم اتفق جُنْدُ الأندلسِ على اقتسام الإمارة بين المُضَريّةِ واليَمانيّة وإدالَتِها (٥) بين الجندَيْن سنةً لكل دولة . وقدَّم المُضَريّةُ على أنفُسهم يوسفَ بنَ عبد الرحمن الفِهْريَّ سنةَ تسعٍ وعشرين . واستَتَمَّ سنةَ ولايته بقرطبةَ دارِ الإمارة . ثم وافَتْهُ اليَمانيةُ لميعادِ دالتهم ، واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم . فبَيَّتَهُم يوسفُ بمكان نزولهم من شَقَنْدَةَ في قرى قرطبة بممالأةٍ من الصُّمَيْلِ بنِ

(١) التاث أمرهم : اختلط وفسد واضطرب .
(٢) قاصية الثغور : الأماكن البعيدة المجاورة للأعداء ، والتي تجيء المخافة منها .
(٣) كانت أعلام العباسيين عند الدعوة إليهم سوداً . فسمي دعاتهم المسودة .
(٤) أي القضاء .
(٥) إدالتها : أي التناوب فيها .

حاتم والقيسية وسائر المُضَرِيَّة . فاستَلْحَموهم (١) ، وثار أبو الخَطَّار فقاتله الصُّمَيْلُ وهزمه وقتله سنة تسعٍ وعشرين ، واستبد يوسف بما وراء البحر من عُدْوَةِ الأندلس ، وغلب اليمنيةَ على أمرهم. فاستكانوا لِغَلَبِه . وتربّصوا الدوائر (٢) إلى أن جاء عبدُ الرحمن الداخل . وكان يوسفُ ولّى الصُّمَيْلَ سَرَقُسْطَةَ .

فلما ظهر أمر المُسَوِّدَة بالمشرق ثار الحُبابُ الزُهْرِيُّ بالأندلس داعياً لهم . وحاصر الصُّمَيْلَ بِسَرَقُسْطَةَ . واستمدَّ يوسفَ (٣) فلم يَمُدَّهُ رجاءَ هلاكهِ لما كان يَغَصُّ به . وأمدّته القيسية . فأخرج عنه الحُباب . وفارق الصُّمَيْلُ سرقسطة فَمَلَكَها الحُبابُ ، وولّى يوسُفُ الصُّمَيْلَ على طُلَيْطِلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان .

* * *

عِدَّةُ هؤلاء الولاة

قال ابن حيان في (المقتبس) : وقام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراءُ المرسلون منهم عليها من قِبَل أئمة المسلمين بالمشرق طَوالَ دولة بني أمية – رضي الله تعالى عنهم – إلى أن طرأ إليهافَلُّهم(٤) عند غَلَبَةِ بني العباس عليهم ، ودخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان فملكها وأعاد إليها الدولة الأموية التي

(١) استلحموهم : أرهقوهم غلبة في القتال ، وأنكروا فيهم .
(٢) تربصوا بهم الدوائر : انتظروها وتوقعوها .
(٣) أي طلب الصميل المدد والمعونة .
(٤) فلهم : من انهزم منهم .

أَوْرَثَها عَقِبَهُ حِقْبَةً . فكانت عِدَّةُ هؤلاء الأمراءِ مِنْ لَدُنْ أَوَّلِهم طارقِ بنِ زيادٍ إلى آخرهم يوسفَ بنِ عبد الرحمن الفِهْرِيِّ عشرين عاملاً .

مُدَّةُ حُكْمِ هؤلاءِ الوُلاة .

قال ابنُ حَيَّان : مُدَّتُهم منذ تاريخ الفتح من لُذَرِيق سلطانِ الأندلسِ النصراني – وهو يوم الأحد لخمسٍ خَلَوْنَ من شَوَّالَ سنةَ اثنتين وتسعين – إلى يوم الهزيمة على يوسفَ بنِ عبدِ الرحمن الفِهْرِيِّ ، وتَغَلُّبِ عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير المُلْكِ قُرْطُبَة – وهو يومِ الأضحى لعشرٍ خَلَوْنَ من ذي الحجة سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومئة – ستٌ وأربعون سنة . وخمسة أيام .

وعِدَّةُ سِنِيِّهم بالشمسي خمسٌ وأربعون سنةً ؛ وبالقمري سبع وأربعون سنة غيرَ أشهر .

* * *

دولة الأمويين الأولى

من سنة ١٣٨ هـ إلى سنة ٤٢٢ هـ

ملوكها ·

ثم كانت دولة بني أمية .

أولهم : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

ثم ابنه هشام الرضي .

ثم ابنه الحكَم بنُ هشام .

ثم ابنُه عبد الرحمن الأوسط

ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن .

ثم ابنه المنذر بن محمد

ثم أخوه عبد الله بن محمد

ثم ابنُ ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله .

ثم ابنه الحكمُ المستنصر . وكرسيُّهما الزهراء .

ثم هشام بن الحكم ، وفي أيامه بنى حاجبُه المنصور بن أبي عامر الزاهرة .

ثم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ؛ وهو أول خلفاء الفتنة ؛ وهُدمت في أيامه الزهراء والزاهرة . وعاد السرير إلى قرطبة .

ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر .

* * *

نشأتها وكيف بدأ أمرها

وأصل هذه الدولة ـ كما قال ابنُ خلْدون وغيرُ واحد ـ أن بني أميّةَ لما نزل بهم بالمشرق ما نزل ، وغلبهم بنو العباس على الخلافة . وأزالوهم عن كرسيِّها . وقتَلَ عبدُ الله بنُ عليٍّ مروانَ بنَ محمد ابن مروانَ بنِ الحكَمِ آخرَ خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومئــة . وتتَبَّعَ بني مروانَ بالقتل . فطَلبوا بَطْنَ الأرضِ من بَعْدِ ظَهْرِها(١) .

عبد الرحمن الداخل ، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس

وكان ممن أفلَتَ منهم عبدُ الرحمن بنُ معاوية بنِ هشام بنِ عبدِ الملك بنِ مروان ؛ وكان قومُه يتحيّنونَ له مُلْكاً بالمغرب (٢) . ويرون فيه علاماتٍ لذلك يأثُرونَها عن مَسْلَمةَ بنِ عبد الملك ؛ وكان هو قد سمعها منه مُشافهةً . فكان يُحدِّثُ نفسَه بذلك . فَخَلَصَ إلى المغرب . ونزل على أخواله نفزَةَ (٣) من برابرة

---

(١) طلبوا بطن الأرض : يريد أنهم اختفوا وبالغوا في الاختفاء حتى لكأن الأرض ابتلعتهم .

(٢) يتحينون : يترقبون وينتظرون حيناً .

(٣) نفزة : قبيلة من قبائل البربر سميت بهم قرية بمالقة .

طَرابُلُس . وشَعَرَ به عبدُ الرحمن بنُ حبيب ، وكان قد قتل ابني الوليدِ بن يزيدَ بنِ عبدِ الملك لما دخلا إفريقية ؛ فلَحِقَ بمُغيلَةَ(١) . وقيل : بمكناسة . وقيل : بقوم من زَنَاتة فأحسنوا قبوله ، واطمأن فيهم . ثم لحق بمَلِيلَة . وبعث بدراً مولاه إلى من بالأندلس من موالي المروانيين وأشياعهم . فاجتمع بهم . وبَثُّوا له في الأندلس دعوةً ونشروا له ذِكْراً . ووافق قدومه ما كان من الإِحَنِ (٢) بين اليمنية والمُضَرِيَّة . فأَصْفَقَتِ اليمنيةُ على أمره (٣) . لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيِّ وصاحبِهِ الصُّمَيْلِ . ورجع بدرٌ مولاه إليه بالخبر . فأجاز البحرَ سنة ثمان وثلاثين ومئة . في خلافة أبي جعفر المنصور (٤) . ونزل بساحل المُنَكَّب . وأتاه قومٌ من أهل إشبيلية فبايعوه ؛ ثم انتقل إلى كُورَةِ رَيَّةَ فبايعه عاملُها عيسى بنُ مُساور . ثم إلى شَذُونَة فبايعه عتّاب بن علقمة اللَّخْميُّ ؛ ثم إلى مَوْرُور (٥) فبايعه ابن الصباح ونَهَدَ إلى قرطبة فاجتمعت إليه اليمنية . ونُمي خبره إلى والي الأندلس يوسفَ بنِ عبد الرحمن الفِهْرِيِّ . وكان غازياً بِجِلِّيقية . فانفضَّ عسكره . ورجع إلى قرطبة ؛ وأشار عليه وزيرُه الصُّمَيْلُ بنُ حاتم بالتلطف له . والمكرِ به . لكونه صغير السِّنِّ . حديثَ عهدٍ بنعمة . فلم يتمَّ ما أراده . وارتحل عبدُ الرحمن من المُنَكَّب . فاحتلَّ بمالقَةَ فبايعه جُنْدُها ؛ ثم برُنْدَةَ ؛

(١) مغيلة : قبيلة من قبائل البربر سميت بهم قرية بمالقة .
(٢) الإحن : جمع (إحنة) وهي العداوة والبغض والحقد والكراهية .
(٣) أصفقت : اجتمعت واتفقت .
(٤) أول الخلفاء العباسيين ببغداد .
(٥) مورور : كورة متصلة بأحواز قرمونة ، وهي في الغرب والجوف من كورة (شذونة) .

ثم بِشَرِيْش كذلك . ثم باشبيلية . فتوافت إليه جنودُ الأمصار . وتَسَايَلَت المُضَرِيّةُ إليه حتى إذا لم يبق مع يوسفَ بن عبد الرحمن غيرُ الفِهْرِيّة والقَيْسِيّة لمكان الصُمَيْل منه زحف حينئذ عبد الرحمن الداخلُ . وناجزهم الحربَ بظاهر قرطبة . فانكشف يوسف . ولجأ إلى غَرْناطة فتحصَّن بها . واتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله . ثم رغب إليه يوسف في الصلح . فعقَدَ له على أن يسكن قرطبة . ثم أقفله معه . ثم نقضَ يوسف عَهْدَه . وخرج سنة إحدى وأربعين ومئة . ولحق بِطُلَيْطِلَةَ . واجتمع إليه زُهاءَ عشرين ألفاً من البربر . وقدَّم الأمير عبد القادر لقتاله عبدَ الملك بن عمر المرواني . وكان وَفَدَ عليه من المشرق . وكان أبوه عُمَرُ بنُ مروانَ بنِ الحكم في كفالة أخيه عبدِ العزيز بن مروان بمصر . فلما دخلت المُسَوِّدة أرضَ مصر خرج عبد الملك يَؤُمُّ الأندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة . حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين (١) . فعقد له على إشبيلية . ولابنه عمر بن عبد الملك على مَوْرور . وسار يوسف اليهما . وخرجا إليه ولَقِياه . وتَناجزَ الفريقان . فكانت الدائرة على يوسف . وأبْعَدَ المَفَرَّ . واغتاله بعضُ أصحابه بناحية طُلَيْطِلة . واحتزَّ رأسه . وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن . فاستقام أمره . واستقر بقرطبة . وثبت قَدَمُه في المُلْكِ . وبنى المسجدَ الجامع . والقصر بقرطبة . وأنفق فيه ثمانين ألف دينار . ومات قبل تمامه . وبنى مساجد . ووفد عليه جماعةٌ من أهل بيته من المشرق .

(١) أي سنة ١٤٠ ﻫ .

إعلان الاستقلال والانفصال عن الخلافة العباسية .

وكان يدعو للمنصور . ثم قطع دعوته ، ومهّدَ الدولةَ بالأندلس ، وأثل بها الملك العظيم لبني مروان والسلطان العزيز . وجدّد ما طُمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلحم الثوارُ عليه (١) على كثرتهم في النواحي . وقطع دعوة بني العباس من منابر أندلس . وسدّ المذاهب منهم دونها . وهلك سنة ثنتين وتسعين ومئة .

* * *

لقبه بالداخل ، وصقر قُريش .

وكان يُعرف بعبد الرحمن الداخل ، لأنه أولُ داخلٍ من ملوك بني مروان إلى الأندلس . وكان أبو جعفر المنصور يسميه (صقْر قُريش) لما رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل ، وما ركب إليها من الأخطار . وأنه تَهَدَّ إليها من أنْأى ديار المشرق من غير عصابةٍ ولا أنصار ، فغلب أهلَها على أمرهم ، وتناولَ المُلكَ من أيديهم بقوة شكيمةٍ ، ومَضاءِ عزْمٍ (٢) حتى انقاد له الأمر ، وجرى على اختياره . وأورثه عقِبَهُ ؛ وكان يسمى بالأمير ، وعليه جرى بَنُوهُ من بعده ، فلم يُدْعَ أحدٌ منهم بأمير المؤمنين تأدُّباً مع الخلافة بمقرّ الإسلام ومنتدى العرب (٣) ؛ حتى كان من عقِبِه

---

(١) استلحموا عليه : أرهقوه غلبة في القتال .

(٢) يقال : فلان ذو شكيمة : إذا كان صارماً ذا حدة . عسير الانقياد . ويقال : فلان قوي الشكيمة : إذا كان شديد الأنفة ، قوي النفس ، أبياً للضيم .

والمضاء : النفاذ . وأصله مضاء السيف ونحوه : وهو نفاذه في ضريبته .

(٣) بغداد .

عبدُ الرحمنِ الناصرُ . وهو ثامن بني أمية بالأندلس فتسمّى بأمير المؤمنين لِما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد الثلاثمئة (١) . وغَلبَةِ الأعاجم عليهم ، وكونهم لم يتركوا لهم غيرَ الاسم .

وتَوارثَ التلقيبَ بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد .

* * *

سيرَتُه وصفاته :

قال ابن حيان : ولما ألْفَى (الداخل) الأندلس ثغراً قاصياً(٢) . غُفْلاً من حِلْيَةِ المُلْك(٣) . عاطلاً(٤) . أرْهَفَ أهلها بالطاعة السلطانية . وحَنَّكَهم بالسيرة الملوكية .

وأخَذَهُم بالآداب فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءةَ ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدوّن الدواوين ، ورفَعَ الأواوين(٥) ، وفَرَضَ الأُعْطِيَة ، وعقد الألوية . وجَنّدَ الأجنادَ .ورَفَعَ العِمادَ ، وأوثقَ الأوتادَ . فأقام للملك آلتَه . وأخذ للسلطان عُدّتَه . فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحَذِروا جانِبَه . وتحامَوا حَوْزَتَه . ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس . واستقلّ له الأمر فيها . فلذلك ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور – بصدق حسه ، وبُعْدِ غَوْرِه . وسَعَة إحاطته –

---

(١) أي بعد سنة ٣٠٠ للهجرة .

(٢) الثغر : المكان الذي يخاف منه العدو لكونه على تخومه .

(٣) والغفل : الخلي .

(٤) والعاطل : الخالي من السلاح .

(٥) الأواوين : جمع (إيوان) أو (إوان) وهو بيت مبني طولا ، ومشارف الدار ، والعامة تقول (ليوان) .

يسترجعُ عبدَ الرحمن كثيراً ، ويَعْدِلُه بنفسه . ويُكثر ذكرَه ويقول : لا تعجبوا لامتداد أمرنا ، مع طولِ مِراسِه وقوة أسبابه . فالشأنُ في أمر فتى قريش الأَحْوَذيّ(١) الفَذّ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونَشَبِه(٢) ، وتَسَلّيه عن جميع ذلك بِبُعْدِ مَرْقى همته . ومضاءِ عزيمته . حتى قذف نفسه في لُجج المهالك . لابتناء مجده . فاقتحم جزيرةً شاسعة المحلّ . نائية المطمع . عصبيةَ الجُند . ضرب بين جُندها بخصوصيته . وقمع بعضهم ببعضٍ بقوة حيلته . واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته . حتى انقاد له عَصيُّهم . وذل له أَبيُّهم . فاستولى فيها على أريكته . مَلِكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه . حامياً لِذمارِه(٣) . مانعاً لَحوْزَتِه . خالطاً الرغبةَ إليه بالرهبة منه . إنّه ذلك لهو الفتى كلُّ الفتى ، لا يكذب مادِحُه .

وجعل ابنُ حيّان من النوادر العجيبة موافقةَ عبدِ الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية . والاستيلاء . والصرامة . والاجتراء على الكبائر . والقساوة . فإنّ أمّ كلٍّ واحدٍ منهما بَرْبريّةٌ .

وكان الداخلُ يقعد للعامّة . ويسمع منهم . وينظر بنفسه فيما بينهم . ويَتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظُلامته إليه دون مشقة .

وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقتَ طعامه ، ومَنْ وافق ذلك من طُلّاب الحوائج أكل معه .

---

(١) الأحوذي : السريع في كل ما أخذ فيه .
(٢) النشب : المال والعقار ، وأكثر استعماله في الأشياء الثابتة كالدور والضياع .
(٣) الذمار والذمار : كل ما لزمك حفظه مما وراءك ويتعلق بك وتلام على تضييعه من الحرم والأهل والحوزة والحشم .

وفي كتاب ابن زيدون أنه كان أصهبَ ، خفيفَ العارِضَيْن، بوجهه خالٌ . طويلَ القامة . نحيفَ الجسمِ . له ضَفيرتان ، أعور. أخْشَم . والأخْشَم : الذي لا يشُمُّ . وكان يلقب بصقر قريش . لكونه تغرّبَ وقَطَعَ البر والبحر . وأقام مُلْكاً قد أدبر وَحْدَه .

ولما ذكر الحجاري أنه أعور قال : ما أنشد فيه إلا قولَ امرىء القيس :

لكــنْ عُوَيْــر وَفَــى بِذِمّتِــهِ
لا عَــوَرٌ شانَــه ولا قِصَــرُ

تَوْطيدُه مُلْكَ الأُمويين ووفاتُه :

وقال ابن خَلدون : وفي سنة ست وأربعين سار العَلاء بنُ مُغيث اليَحْصُبِيُّ من إفريقية إلى الأندلس . ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور . واجتمع إليه خَلْقٌ . فسار عبدُ الرحمن إليه . ولقيه بنواحي إشبيلية . فقاتله أياماً . ثم انهزم العَلاء . وقُتل في سبعة آلافٍ من أصحابه . وبعثَ عبدُ الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة . فألقيت في أسواقها سراً . ومعها اللواء الأسود(١). وكتابُ المنصور للعَلاء . فارتاع المنصور لذلك وقال : ماهذا إلا

(١) وهو شعار بني العباس .

شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر . أو كلاماً هذا معناه.

وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ، ونافسوه مُلْكَه ، ولقي منهم خُطوباً عظيمة(١) ، وكانت العاقبةُ له ؛ واستراب في آخر أمره بالعرب . لكثرة من قام عليه منهم ، فرجع إلى اصطناع القبائل مِنْ سِواهم . واتخاذِ المَوالي ، ثم غزا بلاد الإفرنج والبَشْكَنْس (٢) ومَنْ وراءهم . ورجع بالظَّفَر ؛ وكان في نيته أن يجدِّد دولة بني مروان بالمشرق . فمات دون ذلك الأمل . وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ؛ إذ دخل الأندلسَ سنةَ ثمان وثلاثين ومئة . ومات سنة اثنتين وسبعين . وقيل : إحدى وسبعين ومئة . في خلافة الرشيد .

---

(١) الخطوب : جمع (خطب) بفتح فسكون : الأمر الشديد .

(٢) البشكنس : مقاطعات فرنسية وإسبانية واقعة على منحدرات جبال البيرنية الشمالية ، تسمى اليوم (الباسك) يقطنها شعب بهذا الاسم .

تولّي هشام بن عبد الرحمن الداخل

وتولّى المُلْكَ بعده ابنُه هشامٍ . بعهدٍ منه إليه ، وأمه أمُّ ولد اسمها (حُلَل) ، وأفضى إليه المُلْكُ وهو بماردة والٍ عليها ، وكان أبوه يوليه في صباه ويرشّحه للأمر . وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمانَ وهشام ،فيُذْكَر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال . وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سُخْفاً وهَذَياناً ، فيَكْبُرُ هشامٌ في عينه بمقدار ما يَصْغُرُ سليمان .

وقال يوماً لهشام : لمن هذا الشعر(١) :

وتَعْرِفُ فيه مِنْ أبيه شَمائلاً
ومِن خاله أو من يَزيدَ ومِنْ حُجُرْ

سماحةُ ذا ، مع بِرّ ذا . ووفاء ذا
ونائلِ ذا ، إذا صحا وإذا سَكِرْ

فقال له : ياسيدي ، لامرىء القيس ، مَلِك كِنْدَة . وكأنه قاله في الأمير ، أعزه الله(٢) ، فضمّه إليه استحساناً بما سمع منه ، وأمر له بإحسانٍ كثير ، وزاد في عينه .

ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين . فقال : لعلّهما لأحد أجلاف العرب، أما لي شُغْلٌ غير حفظ أقوال

---

(١) البيتان من قصيدة لامرىء القيس بن حجر الكندي يقوض في سعد بن الضباب ، وهو - فيما زعموا - أخو امرىء القيس . لأن أم سعد كانت زوجاً لحجر ، ثم فارقها وهي حامل ، فتزوجت الضباب فولدت سعداً على فراشه فنسب إليه .

(٢) يقصد والده عبد الرحمن .

بعض الأعراب ؟ فأطرق عبد الرحمن ، وعَلِمَ قَدْرَ ما بين الاثنين من المزيّة .

* * *

من سيرة هشام بن عبد الرحمن الداخل :

وكان هشام يذهب بسيرته مَذْهَبَ عُمَرَ بن عبدِ العزيز(١) ؛ وكان يبعث بقومٍ من ثِقاتِه إلى الكُوَرِ فيسألون الناسَ عن سير عُمّالِه ، ويخبرونه بحقائقها . فإذا انتهى إليه حَيْفٌ(٢) من أحدهم أوقع به ، وأسقطه ، وأنصف منه ، ولم يستعمله بَعْدُ(٣) . .

ولما وصفه زيادُ بن عبد الرحمن لمالك بنِ أنَسٍ قال : نسأل الله — تعالى — أن يزين مَوْسِمَنا بمثل هذا .

وفي أيامه فتحت (أرْبُونَة) . واشترط على المعاهِدين من أهل جِلّيقية من صِعاب شروطه انتقال عددٍ من أحمال التراب من سور (أربونة) المفتتحة يحملونها إلى بابِ قصره بقرطبة ؛ وبنى منه المسجدَ الذي قُدّام بابِ الجنان . وفَضَلَتْ منه فَضْلَةٌ بقيت مكوّمة .

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً ، ثم كانت الدائرةُ له .

---

(١) ثامن خلفاء بني أمية بدمشق .

(٢) الحيف : الظلم والجور ، وانتقاص الحق من صاحبه .

(٣) أي لم يعد يعهد إليه بإمارة .

وقصد إلى بلاد الحرب غازياً . وقصد (أَلْبَة) والقِلاع ، فلقي العدوَّ وظفر بهم . وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين(١) . وبعث العساكر إلى جِلِّيْقيةَ مع يوسف بن نجية فلقي ملكَها ابن منده ، وهزمه وأثخن في العدو .

وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لِغَزاة العدو . فبلغ أَلْبَةَ والقلاع فأثخن في نواحيها ، ثم بعثه في العساكر سنة سبعٍ وسبعين إلى أربونة جريدةً فأثخن فيها . ووطىء أرض برطانية . وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار . وهزمهم ؛ ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين . ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية، فانتهى إلى (أسْتُرْقة) فجمع له ملك الجلالقة، واستمد بملك البَشْكَنْس ثم خام عن اللقاء(٢) ، ورجع أدراجَه . واتبعه عبدُ الملك ، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى . فالتقوا بعبد الملك ، وأثْخنوا في البلاد . واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعضَ الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين .

ومن محاسنه أنه جَدَّدَ القنطرةَ التي يُضرب بها المَثَل بقرطبة ، وكان بناها السَّمْح الخَوْلاني عاملُ عمرَ بنِ عبد العزيز ، رضي الله عنه . فأحكمَ هشامٌ بِناءَها إلى الغاية ، وقال يوماً لأحد وزرائه : ما يقول أهل قرطبة ؟ فقال : يقولون : ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها

---

(١) أي سنة ١٧٥ هـ .

(٢) خام عنه : جبن ونكص . ولم يقو عليه .

إلى صيده وقَنَصِه ، فآلى هشامٌ على نفسه(١) أن لا يسلك عليها ، فلم يمرّ عليها بَعْدُ . ووفىَ بما حلف عليه .

ثم توفي سنة ثمانين ومئة ، لسبع سنين وتسعةِ أشهر من إمارته .

وقيل : لثمان .

وكان من أهل الخير والصلاح . كثيرَ الغزو والجهاد .

ومن محاسنه أيضاً إكمالُ بناء الجامع بقرطبة . وكان أبوه شرع فيه .

ومن محاسنه أنه أخرج المُصّدِّقَ(٢) لأخذ الزكاة ، على الكتاب والسنة .

وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر . وولد في شوال سنة ١٣٧ .

* * *

(١) آلى : حلف وأقسم .

(٢) المصدق : أصله (المتصدق) فقلبت التاء صاداً ثم أدغمت الصاد في الصاد . وأراد بالمصدق عامل الزكاة ، وهو الذي يجمعها ممن وجبت عليه . ويقال له الجابي أيضاً .

الحكَمُ بنْ هشام

وولي بعده ابنُه الحكَم بعهدٍ منه ، فاستكثر من المماليك ، وارتبط الخيل ، واستفحل مُلْكُه . وباشر الأمورَ بنفسه ، وفي خلال فتنةٍ كانت بينه وبين عـمّيْه اغتنم العدوُّ الكافر الفرصة في بلاد المسلمين ، وقصد بَرْشَلُونَةَ فملكوها سنة خمس وثمانين(١) ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى مادونَها . وبعث الحكَمُ العساكرَ مع الحاجب عبد الكريم ابن مُغيث إلى بلاد الجلالقة . فأثخنوا فيها . وخالفهم العدو إلى المضايق ، فرجع على التعبية وظفر بهم. وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً .

وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرَّبَض من قرطبة(٢) . لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذّاته . فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة ، مثل يحيى بن يحيى الليثي . صاحب مالك . وأحد رُواة المُوَطّأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرِهما فثاروا به . وخلعوه . وبايَعوا بعضَ قرابته ، وكانوا بالرَّبَضِ الغربي من قرطبة . وكان محله متصلاً بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم . وافترقوا . وهدم دُوْرَهم ومساكنهم. ولحقوا بفاس من أرض العُدْوة . وبالإسكندرية من أرض المشرق . ونزل بها جمعٌ منهم . ثم ثاروا بها فزحف إليهم عبدُ الله بن طاهر

(١) أي ١٨٥ هجرية .

(٢) الربض : كل ما حول المدينة من بيوت ومساكن ..

صاحب مصر للمأمون بن الرشيد . وغلبهم ، وأجازهم إلى أقريطش، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة .

* * *

من صفاته وسيرته :

وهو أوَّلُ مَنْ جَنَّد الأجناد. واتخذ العُدَّةَ . وكان أفحلَ بني أمية بالأندلس . وأشدَّهم إقداماً ونجدةً ؛ وكان يشبَّه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس. في شِدَّةِ المُلْكِ . وتَوْطيد الدولة ، وقَمْعِ الأعداء . وكان يؤثر الفقيهَ زيادَ بن عبد الرحمن . وحضر يوماً عنده(1) وقد غضب فيه على خادمٍ له لإيصاله إليه كتاباً كَرِهَ وصولَه فأمر بقطع يده . فقال له زياد : أصلح الله الأمير . فإن مالكَ بنَ أنس حدثني في خبرٍ رفعه أنَّ « مَنْ كَظَمَ غَيْظاً يَقْدِرُ على إنفاذه ملأه الله — تعالى — أمناً وإيماناً يومَ القيامة » فأمر أن يُمْسَكَ عن الخادم . ويُعفى عنه ، فسكن غضبُه وقال : الله إن مالكاً حَدَّثك بهذا ؟

فقال زياد : الله إن مالكاً حدثني بهذا .

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبعٍ وتسعين ومئة فأكْثَرَ فيها مُواساةَ أهلِ الحاجات .

وكان نَقْشُ خاتَمه : « بالله يَثِقُ الحكَم ويعتصم » .

وذكور ولده عشرون . وإناثُهم عشرون ؛ وأمه جاريةٌ اسمُها زُخْرُف .

وكان أسمرَ . طُوالاً ، أشَمَّ . نحيفاً .

ومدةُ ملكه ست وعشرون سنة . سامحه الله .

---

(1) اي حضر الفقيه زياد عند الحكم بن هشام .

وقال غير واحد : إنه أوّلُ مَنْ جعل للملك بأرض الأندلس أبّهةً ، واستعدَّ بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف : منهم ثلاثة آلاف فارس . وألفا راجل .

ثم توفي الحكَم بنُ هشام آخرَ سنةِ ستٍّ ومئتين لِسَبْعٍ وعشرينِ سنةً من ولايته . ومولده سنة ١٥٤ .

وقال ابن خلدون وغير واحد : إنه أوّل من جنّد بالأندلس الأجناد والمرتزقة . وجمع الأسلحة والعُدَد . واستكثر من الخدم والحواشي والحَشم . وارتبط الخيولَ على بابه . واتخذ المماليك . وكان يسميهم الخُرْسَ . لِعُجْمَتِهِم . وحُكي في عدتهم ما ما تقدم ثم قال : وكانت له عيونٌ يطالعونه بأحوال الناسِ . وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويقرّب الفقهاء والعلماء والصالحين . وهو الذي وطّأ المُلْكَ لعَقِبِهِ بالأندلس .

* * *

فتوحاته :

وكانت في أيام الحكَمِ حروبٌ وفِتَنٌ مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم .

وفي سنة ثنتين وتسعين جمع لُذَرِيقُ بنُ قارِلَّة مَلِكُ الفرنج جموعه ، وسار إلى حصار طَرَسونة ،فبعث الحكَم ابنَه عبد الرحمن في العساكر . فهزمه . ففتح الله على المسلمين وعاد ظافراً .

ولما كثر عَيْثُ الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكَم بالخارجين عليه . سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين ، فافتتح الثغور والحصون . وخرَّب النواحي . وأثخن في القتل والسبي والنهب ، وعاد إلى قرطبة ظافراً .

وفي سنة مئتين بعث العساكر مع ابن مغيث إلى بلاد الفرنج ، فخرب . وهدم عدة حصون . وأقبل عليه أليط . ملك الجلالقة في جموع عظيمة . وتنازلوا على نهر ، واقتتلوا عليه أياماً ، ونال المسلمون منهم أعظم النيل . وأقاموا كذلك ثلاث عَشْرَةَ ليلةً . ثم كثرت الأمطار ، ومَدَّ النهرُ ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

* * *

عبد الرحمن بن الحَكَم بن هشام

وقام بأمره من بعده ابنُه عبد الرحمن . بعهدٍ منه إليه ؛ ثم لأخيه المغيرة بعده . فغزا عبد الرحمن لأول ولايته إلى جِلِّيِّقِيَّةَ وأبعد ؛ وأطال المغيب . وأثخن في أمم النصرانية هنالك . ورجع .

* * *

من سيرته :

ويعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ؛ لأن الأولَ عبدُ الرحمن الداخل ؛ والثالث عبد الرحمن الناصر .

ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمانٍ وثلاثين ومئتين . بربيع الآخر . لإحدى وثلاثين سنة من إمارته .

ومولده بِطُلَيْطِلَةَ في شعبان سنة ست وسبعين ومئة .

وكان عالماً بعلوم الشريعة ؛ والفلسفة . وكانت أيامه أيام هدوء وسكون . وكثرت الأموال عنده . واتخذ القصورَ والمُتَنَزَّهات . وجلب إليها المياه من الجبال . وجعل لقصره مصنعاً اتخذه الناس شريعةً(١)

---

(١) المصنع : حوض يجتمع فيه ماء المطر . والشريعة : المورد ترده الشاربة ، يستقون منه .

وأقام الجسور . وبُنيت في أيامه الجوامعُ بِكُوَرِ الأندلس . وزاد في جامع قرطبة رواقين . ومات قبل أن يستتِمّه . فأتمّه ابنُه محمدٌ بَعْدَه . وبنى بالأندلس جوامع كثيرة . ورتّب رسومَ المملكة(١) . واحتجب عن العامّة .

ونَقْشُ خاتَمه : « عابد الرحمن بقضاء الله راضٍ »

وفي ذلك قيل :

خاتَمٌ للمُلْكِ أضحى ... حُكْمُه في الناس ماضي

عابدُ الرحمن فيه ... بقضاء الله راضي

وهو أول من أحدث هذا النقش ، وبقي وراثةً لمن بعده من ولده .

قال ابن سعيد : وفي أيامه انتهى مال الجباية إلى ألف ألف دينار في السنة ، وكان قبلُ لا يزيد على ستمئةِ ألف .

ومن توقيعاته : مَنْ لم يَعْرف وجهَ طلبه فالحرمانُ أولى به .

* * *

قدوم زرياب المغني عليه

وقدم عليه سنة ستٍّ ومئتين زرياب المغني من العراق ، وهو مولى

---

(١) أراد برسوم المملكة نظمها وأوامرها التي تسير عليها العامة والخاصة .

المهدي(١) ، ومتعلم إبراهيم الموصلي(٢) . واسمه عليّ بن نافع(٣) . فركب بنفسه لتلقّيه . على ما حكاه ابن خلدون . وبالغ في إكرامه . وأقام عنده بخير حال ، وأورث صناعةَ الغناء بالأندلس ، وخلّف أولاداً . فَخَلَفَهُ كبيرُهم عبدُ الرحمن في صناعته وحُظْوَته .

* * *

من حروبه وفتوحاته :

وفي سنة ثمان(٤) أغزى حاجِبَه(٥) عبد الكريم بن عبد الواحد إلى (أَلْبَةَ) والقلاع . فخرّب كثيراً من البلاد . وانتسفها . وفتح كثيراً من حصونهم . وصالح بعضَها على الجِزْيَة وإطلاق سراح المسلمين . وانصرف ظافراً .

وفي سنة أربع وعشرين بعث قريبَه عُبَيْدَ اللهِ بن البَلَنْسِيِّ لغزو أَلْبَةَ والقلاع . فسار . ولقي العدوّ فهزمهم . وأكثر القتلَ والسَّبْيَ فيهم . ثم خرج لُذَرِيْق ملكُ الجَلالِقة وأغار على مدينة سالم بالثغر(٦) . فسار إليه فرتون بن موسى ، وقاتَلَه ، فهزمه ،

---

(١) الخليفة العباسي ، واسمه محمد بن عبد الله أبي جعفر المنصور ، المتوفى سنة ١٦٩ هـ = ٧٨٥ م .

(٢) وهو إبراهيم بن ماهان (أو ميمون) بن بهمن الموصلي ، التميمي بالولاء . أوحد زمانه في الغناء ، ومن ندماء الخلفاء المهدي فالهادي فالرشيد . مات ببغداد سنة ١٨٨ هـ = ٨٠٤ م .

(٣) نابغة الموسيقى في زمنه وشاعر مطبوع ، توفي نحو سنة ٢٣٠ هـ = ٨٤٠ م .

(٤) أي سنة ٢٠٨ هـ .

(٥) الحاجب في الأندلس كالوزير في المشرق .

(٦) قال ابن سعيد : مدينة سالم بالجهة المشهورة بالثغر من شرقيّ الأندلس ، وهي مدينة جليلة .

وأكثر القتلَ والسبيَ في العدو والأسْر ثم سار .إلى الحصن الذي بناه أهلُ ألْبَةَ بالثغرِ نكايةً بالمسلمين . فافتتحه وهدمه ، ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جِلّيقِيّةَ فَدَوّخها وافتتح عِدّةً حصونٍ منها ، وجال في أرضهم ، ورجع بعد طول المقام بالسَّبْيِ والغنائم .

* * *

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم

من سيرته وحروبه :

ولما مات عبد الرحمن بن الحكم ولي ابنُه محمد ، فبعث ، لأول ولايته ، عساكرَ مع موسى بن موسى صاحب طُلَيْطِلَةَ . فعاث في نواحي أَلْبَةَ والقِلاع ، وفتح بعضَ حصونها ، ورجع ؛ وبعث عساكر أخرى إلى نواحي بَرْشَلُوْنَةَ وما وراءها . فعاثوا فيها . وفتحوا حصوناً من برشلونة ، ورجعوا .

ولما استمدَّ أهلُ طُلَيْطِلَةَ المخالفون من أهل بلاد الأميرِ محمد عليه بِمَلِكَيْ جِلِّيْقِيَةَ والبَشْكَنْس(١) لَقِيَهم الأمير محمد على وادي سُلَيْطَةَ(٢) وقد أَكْمَنَ لَهم ؛ فأوقع بهم ؛ وبلغت عِدَّةُ القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً .

وفي سنة خمسٍ وأربعين(٣) ظهرت مراكبُ المجوسِ ، وعاثوا في الأندلس ؛ فلقيهم مراكبُ الأمير محمد ؛ فقاتلوهم وغنموا منهم مَرْكَبين ؛ واستُشْهِد جماعةٌ من المسلمين .

---

(١) البشكنس : منطقة تعرف حالياً بالباسك ، وهي مقاطعات فرنسية إسبانية تقع على منحدرات جبال البيرنية الشمالية ، يقطنها شعب بهذا الاسم .

(٢) اسم هذا الوادي في تاريخ ابن خلدون الذي اقتبس منه هذا النص (وادي سليط) .

(٣) أي سنة ٢٤٥ هـ .

وفي سنة سبعٍ وأربعين أغزى محمدٌ إلى نواحي بَنْبَلُونَةَ(1) ، وصاحبُها حينئذٍ غَرْسِيةُ بن ونقة ، وكان يُظاهر أردن بن أذفنش(2) ، فعاث في نواحي بنبلونة ، ورجع وقد دَوَّخها وفتح كثيراً من حصونها ، وأَسَرَ فَرْتُونْت ابنَ صاحبها ، فبقي أسيراً بقرطبة عشرين سنة .

ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المُنْذِرَ في العساكر إلى نواحي أَلْبَةَ والقلاع فعاثوا فيها . وجمع لُذَرِيق للقائهم . فلقيهم وانهزم ، وأثخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر . فكان فتحاً لا كِفاءَ له .

ثم غزا الأميرُ محمدٌ بنفسه سنة إحدى وخمسين بلادَ الجَلالِقة ، فأثْخَنَ وخَرَّب .

وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأميرُ محمدٌ ابْنَه المنذرَ إلى دار الحرب(3) ، .

وفي السنة التي بعدها إلى بلاد بَنْبَلُونَة فدوَّخها ورجع .

وفي سنةِ ثمانٍ وستين أغزاه أيضاً إلى دار الحرب ، فعاث في نواحيها ، وفتح حصوناً .

ثم توفي الأميرُ محمد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومئتين ، لخمسٍ وثلاثين سنة من إمارته ؛ ومولده سنة سبعٍ ومئتين .

---

(1) مدينة في غرب الأندلس ، وهي مملكة فاصلة بين مملكتي قشتالة وبرشلونة ، مما يلي قشتالة من جهة الشرق .

(2) يظاهر : يعين .

(3) دار الحرب : هي الدار التي لا سلطان للمسلمين عليها .

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

ووَلِيَ بَعده ابنُه المُنْذِرُ ، ولم تَطُلْ مُدَّتُه ، وأقام في المُلك سنتين إلا نصفَ شهر ، وتوفي مُنْتَصَفَ صَفَر سنةَ خمسٍ وسبعين ومئتين .

* * *

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

ثم ولي أخوه عبد الله .

قال ابن خلدون : كان خَراجُ الأندلس قبله ثلاث مئة ِ ألف دينار : مئة ألف ٍ للجيوش ، ومئة ألف ٍ للنفقة في النوائب وما يَعْرِض ، ومئة ألف ٍ ذخيرةً ووَفْراً ، فأنفق الوفرَ حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثوار والمتغلبين في تلك السنة ، وقلّ الخراج .

وتوفي الأمير عبد الله سنة ثلاثمئة . ومدةُ مُلْكِه نحوٌ من خمسٍ وعشرين سنة .

* * *

عبد الرحمن الناصر

تَوَلِّيه :

وولي حافِدُه عبدُ الرحمن الناصر ابنُ ابنه ِ محمد . قتيلُ أخيه المُطَرِف .

وكانت ولايته من الغريب(١) ، لأنه كان شاباً . وأعمامُه وأعمام أبيه حاضرون . فتصدى إليها واحتازها دونهم ؛ ووجد الأندلسَ مضطربةً بالمخالفين . مُضْطَرِمةً بنيران المتغلبين . فأطفأ تلك النيران . واستنزَل أهلَ العصيان ، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نَيِّفٍ وعشرين سنةً من أيامه . ودامت أيامُه نحوَ خمسين سنة ؛ استفحل(٢) فيها مُلْكُ بني أمية بتلك الناحية .

* * *

تلَقُّبهُ بأمير المؤمنين :

وهو أول من تسمّى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين . عندما التاث أمرُ الخلافة بالمشرق(٣) . واستبدَّ مَوالي التُرك على بني العباس :

---

(١) أي من الأمور الغريبة .

(٢) استفحل : عظم وضخم .

(٣) التاث الأمر : اختلط واضطرب وتكدر .

وبلغه أن المقتدر قتله مُؤْنِسٌ المظفرُ مولاه سنةَ سبع عشرة وثلاثمئة . فتلقب بألقاب الخلافة .

* * *

حُبُّه للجهاد :

وكان كثيرَ الجهادِ بنفسه ، والغزوِ إلى دار الحرب ، إلى أن هُزِم عامَ الخندق سنة ثلاث وعشرين(١) ، ومحّصَ اللهُ(٢) فيها المسلمين ، فقعد عن الغزو بنفسه ، وصار يُرَدِّدُ الصوائف(٣) في كل سنة ، فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يَطَؤُوه قبلُ في أيام سَلَفِهِ ، ومَدَّت إليه أممُ النصرانية من وراء الدروب يدَ الإذعان(٤) . وأوفدوا عليه رُسُلَهم وهداياهم من رُوْمَةَ والقُسطنطينية في سبيل المُهادنة والسلم والاعتمال(٥) فيما يَعِنُّ في مَرْضاته ، ووصل إلى سُدَّتهِ الملوكُ من أهل جزيرة الأندلس ، المتاخمون لبلاد المسلمين ، بجهات قَشْتالَة ويَنْبَلُوْنَةَ وما يُنسب إليها من الثغور الجوفية ، فَقَبَّلوا يده ، والتمسوا رِضاه ، واحْتَقَبُوا جوائزَه ، وامْتَطَوا مَراكِبَهُ ، ثم سَما إلى مُلْكِ العُدْوَةِ فتناول سَبْتَةَ ، ونَقَلَ الفُرْضة(٦) من أيدي أهلِها سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وثلاثمئة ، وأطاعه بنو إدريس أمراءُ العُدْوة ، وملوكُ زَناتة(٧) والبربر ، وأجاز إليه

(١) أي سنة ٣٢٣ هـ .
(٢) محص : ابتلى واختبر .
(٣) الصوائف : جمع صائفة وهي الغزوة في الصيف .
(٤) الإذعان : الخضوع والطاعة والانقياد .
(٥) الاعتمال : هو العمل بجهد وإفراغ وسع ، دون تقصير ولا تهاون .
(٦) الفرضة : المرفأ والميناء .
(٧) زناتة : قبيلة من البربر .

الكثيرُ منهم . كما يُعْلَم من أخباره ، وبدأ أمْرَهُ أوّلَ ولايتِهِ بتخفيف المغَارم(١) عن الرعايا .

وفيه يقول ابنُ عَبْدِ رَبِّه صاحبُ (العِقْد)(٢) يوم تولى المُلْكَ :

بدا الهـــلالُ جـــديـداً
والمُلْكُ غَـــضٌ جـــديدُ

يا نِعْمَـــةَ اللهِ زِيـْــدي
إنْ كـــانَ فيـــكِ مَزِيـْــدُ

إنْ كـــان للصـــومِ فِـطْرٌ
فأنتَ للـــدهـــرِ عيـــدُ

وأراد بأول الأبيات أنه ولي مُسْتَهَلَّ ربيعِ الأول ، كما عُلم .

وما أشار إليه ابن خلدون في غزوة الخندق(٣) فصَّله المسعودي(٤) فقال ، بعد أن أجرى ذكرَ مخالفةِ أميةَ بنِ إسحاق على الناصر ودخولِهِ أرضَ النصارى ، ودلالتِه إياهم على عَوْراتِ المسلمين ما مُلَخَّصُه :

وغزا عبد الرحمن ، صاحبُ الأندلس . سَمُّورَةَ دارَ الجَلالِقة ؛ وكان عبد الرحمن في مئة ألفٍ أو يزيدون ؛ وكانت الوقعة بينه وبين رُدْمِيْر ملكِ الجَلالِقة في شَوّالَ سنةَ ٣٢٧ بعد الكسوف الذي كان

---

(١) المغارم : جمع (مغرم) وهو الدين . وما يجب أداؤه .
(٢) هو كتاب (العقد الفريد) لا بن عبد ربه الأندلسي . مطبوع .
(٣) وهو ما ورد في مطلع هذه الفقرة .
(٤) في كتابه (مروج الذهب) ج ٢ ص ٣٧ – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

في هذا الشهر بثلاثة أيام ، فكانت للمسلمين عليهم . ثم ثابوا(١) بعد أن حُوصِروا وأُلْجِئوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندقَ خمسين ألفاً .

وقيل : إن الذي منع رُذْمير من طلب مَنْ نجا من المسلمين أميةُ بنُ إسحاق . وخوَّفه الكمين ، ورَغّبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعُدَّة والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين .

ثم إن أُميّةَ استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن ، وتخلّص من رُذْمير ، وقَبِله عبد الرحمن أحسنَ قبول .

وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جَهّزَ عساكرَ مع عِدَّةٍ من قُوّاده إلى الجلالقة ، فكانت لهم بهم عِدَّةُ حُروب هلك فيها من الجلالقة ضِعْفُ ما قُتل من المسلمين في الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية . ورُذْمير ملكُ الجلالقة إلى هذا الوقت . وهو سنة ٣٣٢ .

وقال في موضعٍ آخر ما مُلَخّصُه : إن عبد الرحمن غزا في أزْيَدَ من مئة ألف فارسٍ من الناس . فنزل على دار مملكة الجلالقة . وهي مدينة سَمُّورة . وعليها سبعةُ أسوارٍ من أعجب البنيان . قد أحْكَمَتْهُ الملوكُ السالفة . وبين الأسوارِ فصلان وخنادقُ ومياهٌ واسعة ، وافتَتح منها سورين ، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدركه الإحصاء ، وممن عُرِف أربعين ألفاً ، وقيل : خمسين ألفاً ، وكانت للجلالقة والبشكنس على المسلمين .

انتهى كلام المسعودي .

* * *

(١) ثابوا : رجعوا وعادوا .

من غزواته :

وأخبار الناصر طويلة جداً . وقد مُنح الظفرَ على الثوار . واستنزلهم من مَعاقِلهم حتى صفا له الوقت ؛ وكانت له في جهاد العدو اليدُ البيضاء .

* * *

غزوة جليقية :

فمن غزواته أنه غزا سنة ثمان وثلاثمئة إلى جِلِّيْقِيَّة(١)، ومَلِكُها أردون بن أذفونش . فاستنجد بالبشكنس والإفرنجة ، وظاهرَ شانجة بن فرويلة صاحبَ يَنْبَلُونَة أمير البشكنس . فهزمهم . ووطىء بلادهم ، ودوّخ أرضهم ، وفتح معاقِلَهم . وخرّب حصونهم .

* * *

غزوة ينبلونة :

ثم غزا ينبلونة سنة ثنتي عَشْرَةَ . ودخل دار الحرب . ودوخ البسائط . وفتح المَعاقِلَ . وخرّب الحصونَ . وأفسدَ العمائرَ ، وجال فيها ، وتوغل في قاصيتها . والعدوُّ يحاذيه في الجبال والأوعار . ولم يظفر منه بشيء .

ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه ؛ وكان استمدَّ بالنصارى . فقَتَلَ الناصرُ مَنْ كان مع الثائر من النصارى أهلِ أَلْبَةَ . وفتح ثلاثين من حصونهم .

---

(١) جليقية أو جيلقية : منطقة في شمال غرب إسبانيا ، على المحيط الأطلسي . مركزها سانتياغو (شنت ياقب) .

وبلغه انتقاض (طوطة) مَلِكَةُ البشكنس فغزاها في (ينبلونة) ودوَّخَ أرضها . واستباحها ، ورجع إلى قرطبة .

ثم غزا غزوة الخندق سنة سبعٍ وعشرين إلى جِلِّيْقِيَّة فانهزم وأصيب المسلمون .

وقعد بعدها عن الغزو بنفسه . وصار يردد البعوثَ والصَّوائِفَ إلى الجهاد(١) . وبعث جيوشَه إلى المغرب فملك (سَبْتَةَ) و (فاساً) وغيرهما من بلاد المغرب . وطار صِيتُه ، وانتشر ذكره .

ولما هلك شانجة بن فرويلة ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أُمُّه (طُوْطَة) . وكَفَلَت وَلَدَه . ثم انتقضت على الناصر سنة خمسٍ وعشرين . فغزا الناصرُ بلادَها . وخرَّب نواحي (يَنْبَلُوْنَةَ) . وردَّد عليها : كما مرَّ في الغزوات .

وكان قبل ذلك . سنةَ ثنتين وعشرين(٢) غزا إلى (وَخْشَمَةَ) ، ثم رحل إلى (يَنْبَلُوْنَةَ) . فجاءته (طوطةُ) بطاعتها . وعقد لابنها (غَرْسِيَةَ) على (ينبلونة) . ثم عدل إلى (أَلْبَةَ) وبسائطها فدوَّخها . وخرَّب حصونَها .

ثم اقتحم جِلِّيْقِيَةَ ومَلِكُها يومئذٍ رُدْمِيْر بن أردون : فخام عن لقائه(٣) . ودخل (وَخْشَمَةُ) فنازله الناصر فيها . وهدم (بَرْغَشَ) وكثيراً من معاقلهم ، وهزمهم مراراً ، ورجع .

* * *

---

(١) البعوث : جمع (بعث) وهو العسكر الذي يبعث للقتال . والصوائف جمع (صائفة) وهي الفرقة التي تغزو في الصيف . و (الشاتية) : الفرقة التي تغزو في الشتاء .

(٢) أي سنة ٣٢٢ هـ .

(٣) خام عن لقائه : نكص وجبن .

علاقاته بالدول :

ثم وفدت عليه سنة ستٍ وثلاثين رُسُلُ صاحبِ قسطنطينية وهديته . وهو يومئذٍ قسطنطين ، واحتفل الناصر لقدومهم في يومٍ مشهود .

قال ابن خلدون : ركبتْ في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكّةٍ(١) ، وزُيِّنَ القصر الخلافي بأنواع الزينة ، وأصنافِ السُتور . وحُمل السريرُ الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقَرابة . ورُتِّب الوزراءُ والخَدَمَةُ في مواقفهم ، ودخل الرُّسُلُ فهالهم ما رأوه ، وقُرِّبوا حتى أدّوا رسالتهم ، وأمَرَ يومئذٍ الأعلامَ أن يخطبوا في ذلك المحفَل ، ويُعظّموا من أمر الإسلام والخلافة . ويشكروا نعمةَ الله على ظهور دينه وإعزازِه . وذِلّةِ عَدُوِّه ، فاستعدّوا لذلك ، ثم بَهَرَهُم هَوْلُ المجلس فوَجَموا ، وشرعوا في القول فأرتج عليهم ، وكان فيهم أبو علي القالي وافدُ العراق(٢) ، كان في جملة الحكم وليٍّ العهد ، ونَدَبَه لذلك استئثاراً(٣) فعجز ، فلما وَجَموا كلُّهم قام منذر بن سعيد البَلّوطي من غير استعداد ، ولا رَويّة ، ولا تَقَدَّمَ له أحدٌ بشيء من ذلك ، فخطب ، واستحضر ، وجلّى في ذلك القصد(٤) ، وأنشد شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض ، ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعَجِبَ الناسُ من شأنه أكثرَ من كل ما

---

(١) الشكة : السلاح التام ، والعدة الكاملة .

(٢) هو صاحب كتاب (الأمالي) المشهور وغيره ، واسمه إسماعيل بن القاسم . توفي سنة ٣٥٦ هـ ت ٩٦٧ م .

(٣) ندبه : اختاره ودعاه . والاستئثار : أن يؤثره على غيره ويقدمه عليه .

(٤) جلى : جاء سابقاً غيره . والمجلي من خيل السباق : أولها في بلوغ الغاية .

وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاّه القضاء بعدها ، وأصبح من رجالات المعالم ، وأخباره مشهورة . وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره ؛ ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشامَ ابنَ هُذيل بهدية حافلة . ليؤكد المودّة . ويُحسن الإجابة ، ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء . وجاءت معه رسل قسطنطين .

ثم جاء رسولٌ من ملك الصقالبة — وهو يومئذٍ دوقوه — ورسولٌ آخرُ من ملك الألمان . ورسولٌ آخر من ملك الإفرنجة وراء البرت(١) وهو يومئذ أوفة ، ورسولٌ آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق — وهو يومئذ كلدة — ؛ واحتفل الناصر لقدومهم ، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقفَ إلى ملكهم دوقوه ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين (٢) جاء رسول (أردون) يطلب السلم . فعقد له . ثم بعث في سنة خمسٍ وأربعين يطلب إدخال (فرد لند) قومس (قَشتيلة) (٣) في عهده . فأذن له في ذاك ، وأُدخل في عهده ، وكان غَرْسيَةُ بنُ شانجة قد استولى على جِلّيقيّة بعد أبيه شانجة بن فرويلة . ثم انتقض عليه أهلُ جِلّيْقيّة . وتولّى كبيرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور . ومال إلى أردون بن رَدْمير ؛ وكان غَرْسيَة بنُ شانجة حافداً (٤) لِطُوطَة ملكة البشكنس . فامتعضت لحافدها

(١) أي وراء جبال البيرنة بين إسبانيا وفرنسا .
(٢) أي ٣٤٤ للهجرة .
(٣) اسمه الافرنجي (فرديناند) ، ومن عادة العرب نقل الأسماء الأعجمية ببعض تحريف .
والقومس : الرجل الشريف ، والأمير ، والملك . (معربة) .
(٤) الحافد : الخادم ، التابع ، الناصر ، ولد الولد .

غرسية ، ووفَدتْ على الناصر سنة سبعٍ وأربعين مُلْقيةٌ بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رُدْمير الملك ، وإعانة حافدها غرسية ابن شانجة على مُلكه . ونصره من عدوه . وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر لقدومهم . وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غرسية ملك جلِّيقيّة فردّ عليه ملكَه . وخلع الجلالقة طاعة أردون إليه ، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته . وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك . وبما ارتكبه فردلند قَوْمَس قشتيلة في نَكْثِه ووثوبه . ويَعَيِّره بذلك عند الأمم ؛ ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك .

ولما وصل رسول كلدة ملك الإفرنجة بالشرق – كما تقدم – وصل معه رسول ملك بَرْشَلُونَة وطَرَّكُونة راغباً في الصلح ، فأجابه الناصر . ووصل بعده رسول صاحب رُوْمَة يخطب المودة ، فأجيب . انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

* * *

وفاته ، وشيء من سيرته وأقواله :

ثم توفي الناصر لدين الله ، ثاني – أو ثالث – شهر رمضان من عام خمسين وثلاث مئة . أعظم ما كان سلطانه ، وأعزّ ما كان الإسلام بملكه .

قال ابن خلدون : خلّف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف (١) ، ثلاث مرات . انتهى .

---

(١) أي خمسة آلاف مليار باصطلاح أهل زماننا .

وقال غير واحد : إنه كان يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجُنْد ، وثلثٌ للبناء وثلثٌ مُدَّخَر .

وكانت جباية الأندلس يومئذٍ من الكُور والقُرى خمسة آلاف ألف وأربعمئة ألف وثمانين ألف دينار ؛ ومن السوق المستخلص سبعمئة ألف وخمسةً وستين ألف دينار .

وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان .

وحُكي أنه وُجد بخط الناصر – رحمه الله – أيامُ السرور التي صفَتْ له دون تكدير يومُ كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويومُ كذا من كذا . وعُدَّتْ تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً.

فاعجب ، أيها العاقل ، لهذه الدنيا وعدم صفائها ، وبُخلها بكمال الأحوال لأوليائها . هذا الخليفة الناصر ، حلف السعود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملَكَها خمسين سنة وستة – أو سبعة أشهر – وثلاثة أيام ، ولم تَصْفُ له إلا أربعة عشر يوماً . فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو .

ومما ينسب للناصر من الشعر ، وقيل : لابنه الحَكَم قولُه :

مـا كـلُّ شـيءٍ فَقَـدْتُ إلا
عَـوَّضـني الـلـهُ منـه شَـيّا

إنـي إذا مـا مَنَعْـتُ خَـيْري
تبـاعَـد الخـيرُ مِـنْ يَـدَيّـا

مَـنْ كـان لـي نعمـةٌ عليـه
فإنهـا نعمـةٌ عَلَيّـا

* * *

المنتصرُ بالله الحَكَمُ بنُ عَبْدِ الرحمن الناصر

تَوَلّيه الحُكْمَ وبَيْعَتُه :

إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه . يوم الخميس ، وقام بأعباء الملك أتمَّ قيام ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له . ودعا الناس إلى بَيْعَتِه ، واستقبل من يومه النظر في تمهيدِ سلطانه ، وتثقيف مملكتِه ، وضبْطِ قصورِه . وترتيب أجناده .

وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيانِ المعروفين بالخلفاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم ، وتكفّلوا بأخذها على مَنْ وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم.

وأوصل إلى نفسه ، في الليل . دون هؤلاء الأكابر من الكُتّاب والوُصفاء والمقدّمين والعُرفاء . فبايعوه ، فلما كَمُلَتْ بَيْعَةُ أهلِ القصر تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبي مروان عُبيد الله المتخلف بأن يُلْزِمَه الحضور للبيعة دون معذرة ؛ وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حُدَيْر بالنهوض أيضاً إلى أبي الأصبغ عبد العزيز شَقيقِه الثاني ، فمضى إليهما كلٌّ واحدٍ منهما في قَطيع من الجُنْد (١) ، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء ، ونَفّذ غيرهما من

(١) القطيع : في الأصل : جماعة الغنم ، وأراد منه هنا الجماعة مطلقاً .

وجوه الرجال ، في الخيل ، لإتيان غيرهما من الإخوة . وكانوا يومئذ ثمانية . فوافى جميعُهم الزهراء في الليل ؛ فنزلوا في مراتبهم بفصلان دار المُلْك (١) . وقعدوا في المجلسين : الشرقي والغربي ، وقعد المستنصر بالله على سرير المُلْك ، في البهو الأوسط من الأبهاء المُذْهَبة التي في وسط المُمَرَّد (٢) ؛ فأول من وصل إليه الإخوة فبايعوه . وأنْصتوا لصحيفة البيعة ؛ والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها . ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم . ثم أصحاب الشرطة . وطبقات أهل الخدمة . وقعد الإخوة والوزراء والوجوه (٣) عن يمينه وشماله . إلا عيسى بن فُطَيْس فإنه كان قائماً يأخذ البَيْعَة على الناس ، وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة ، فاصطف في المجلس الذي قعد فيه أكابرُ الفتيان يميناً وشمالاً إلى آخر البهو . كلٌ منهم على قدره في المنزلة ، عليهم الظهائر البيض (٤)، شعارُ الحُزْن ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، ثم تلاهم الفتيان الوُصفاء (٥) عليهم الدروع السابغة (٦) ، والسيوف الحالية (٧) ؛ صفّيْن في السطح . وفي الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان (٨) من الفتيان الصقالبة الخِصْيان

---

(١) الفصلان : جمع فصيل . وهو الحائط القصير دون سور البلد ، أو دون الحصن .

(٢) الممرد : اسم المفعول من (مردت البناء تمريداً) : إذا سويته وأملسته .

(٣) الوجوه : جمع (وجه) ، وهو ذو الوجاهة بين الناس ، سموه بالوجه لأن الوجه هو الجزء الظاهر من الإنسان الذي فيه معالم صاحبه .

(٤) الظهائر : جمع (ظهارة) وهي ضد البطانة : ما يكون ظاهراً للرائي من الثوب .

(٥) الوصفاء : جمع (وصيف) وهو الخادم .

(٦) السابغة : الطويلة الواسعة .

(٧) الحالية : المحلاة .

(٨) أي المسنون .

لابسين البياض ، بأيديهم السيوفُ . يتصل بهم مَنْ دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ، ثم تلاهم الرماة مُتنكِّبين قِسِيَّهم وجعابَهم ، ثم وصلت صفوفَ هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوفُ العبيد الفحول ، شاكِين (١) في الأسلحة الرائقة . والعدة الكاملة ، وقامت التعبئة في دار الجُنْد والترتيب من رجّالة العبيد ، عليهم الجواشنُ والأقبية البيض (٢) ، وعلى رؤوسهم البَيْضات (٣) الصقلّبية ، وبأيديهم التِّراس الملونة والأسلحة المزينة . انتظموا صفّيْن إلى آخر الفُصُل ، وعلى باب السُّدَّة الأعظم البوابون وأعوانهم ؛ ومن خارج باب السُّدَّة فُرسان العبيد إلى باب الأقْباء (٤)، واتصل بهم فرسان الحَشَم ، وطبقات الجند ، والعبيد . والرماة . موكباً إثر موكب ، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء ؛ فلما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتُمِل جَسَدُ الناصر – رحمه الله – إلى قصر قرطبة للدفن هنالك في تربة الخلفاء .

وفي ذي الحجة من سنة خمسين (٥) تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحَكَم من البلاد للبيعة والتماس المطالب ، من أهل طُليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها ، فتَوَصَّلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء ، والقاضي منذر بن سعيد ، والملأ ، فأُخذت عليهم البيعةُ . ووُقّعت الشهادات في نُسَخِها .

* * *

(١) شاكي السلاح : ذو شوكة وحد في سلاحه .
(٢) الجواشن : جمع (جوشن) وهو الدرع . والأقبية : جمع قباء .
(٣) البيضات : جمع بيضة وهي الخوذة توضع على الرأس ، ويقال لها أيضاً المغفر .
(٤) الأقباء : جمع (قبو) بفتح فسكون . وهو الطاق الذي عقد بعضه إلى بعض .
(٥) أي سنة ٣٥٠ هـ .

شيءٌ من سيرته ومحبّته للعلم والعلماء :

وقال بعض المؤرخين في حق الحَكَم : إنه كان حسن السيرة، مُكْرِماً للقادمين عليه . جمع من الكتب مالا يُحَدُّ ولا يُوْصفُ كثرةً ونَفاسَةً حتى قيل : إنها كانت أربعمئة ألف مُجَلّد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها .

وكان عالماً نبيهاً ، صافي السريرة ، وسمع من قاسم بن أصبغ ، وأحمد بن دُحَيْم ، ومحمد بن عبد السلام الخُشَنِيّ ، وزكريا بن خَطّاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خَلْقٍ كثير سوى هؤلاء ؛ وكان يستجلب المصنّفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرامٍ بها ، قد آثر ذلك على لذّات الملوك ، فاستوسع عامه ، ودقَّ نظره ، وجَمّتْ استفادته ؛ وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحْوذياً (١) . نسيجَ وَحْدِه ، وكان ثقةً فيما ينقله . بهذا وصفه ابن الأبّار (٢) وبأضعافه وقال : عَجَباً لابن الفَرضي (٣) وابن بَشْكُوال (٤) كيف لم يذكراه .

وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءةٌ أو نظرٌ في أي

---

(١) الأحوذي : السريع في كل ما أخذ فيه .

(٢) ابن الأبار : محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ، أديب ومن أعيان المؤرخين الأندلسيين ولد ببلنسية سنة ٥٩٥ هـ = ٦٥٨م وقتل بتونس سنة ٦٥٨هـ = ١٢٦٠م له مصنفات منها (إعتاب الكتاب) مطبوع .

(٣) ابن الفرضي : أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي : مؤرخ ، حافظ ، أديب . له مصنفات منها (تاريخ علماء الأندلس) مطبوع . توفي سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م .

(٤) ابن بشكوال : خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال : مؤرخ بحاثة ، له مصنفات منها (الصلة) في تاريخ رجال الأندلس . مطبوع .

فن كان ، ويكتب فيه نسَب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن .

ومما يُنْسَبُ إليه من النظم قوله :

إلى الله أشكو من شمائل مُسْرِفِ
عليّ ظلومٍ لا يدين بما دِنْتُ

نأتْ عنه داري فاستراد صُدُودَه
وإني على وجْدي القديمِ كما كنتُ

ولو كنتُ أدري أنّ شَوْقيَ بالغٌ
من الوجْدِ ما بَلَغْتُه لم أكن بِنْتُ (١)

وقوله :

عَجِبْتُ وقد ودّعْتُهـا كيف لم أمُتْ
وكيف انْثَنَتْ بَعْد الوداعِ يَدي معي

فَيا مُقْلَتي العَبْرى عليها اسْكُبي دماً
ويا كَبِدي الحَرّى عليها تَقَطّعي

* * *

وِفادةُ مَلِكِ البَجلالِقَةِ عليه :

وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفةُ الحكم المستنصر بالله مَوْلَيَيْهِ محمداً وزياداً ابني أفلح الناصري بكتيبةٍ من

---

(١) الوجد : شدة الحب ، وبنت : نأيت وبعدت وفارقت .

الحَشَم لتلقّي غالب الناصري الذي خرجوا إليه ، صاحب مدينة (سالم) المورد للطاغية (أردون بن أذفونش) الخبيث في الدولة . المتملك على طوائف من أمم الجلالقة، والمنازع لابن عمه المملّك قبله (شانجة بن ردمير) ، وتبرع هذا اللعين (أردون) بالمسير إلى باب المستنصر بالله : من ذاته ، غير طالب إذن ، ولا مستظهرٍ بعهد ؛ وذلك عندما بلغه اعتزامُ الحكَم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو إليه ، وأخْذُهُ في التأهب له ؛ فاحتال في تأميل المستنصر بالله ، والارتماء عليه . وخرج قبل أمانٍ يُعقد له ، أو ذمةٍ تعصمه ، في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه ، تكنّفهم غالبٌ الناصري الذي خرجوا إليه . فجاء به نحو مولاه الحكَم ، وتلقّاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور . فأنزلاهم ثم تحركا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قرطبة . فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاماً المُصْحَفيَّ في جيشٍ عظيم . كاملِ التعبئة . وتقدموا إلى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى (أردون) إلى ما بين باب السُّدّة وباب الجِنان سأل عن مكان رمْسِ الناصر لدين الله : فأشير إلى ما يوازي موضعَه من داخل القصر . في الروضة . فخلع قَلَنْسُوتَه ، وخضع نحو مكان القبر ،ودعا،ثم رد قلنسوته إلى رأسه،وأمر المستنصرُ بإنزال (أردون) في دار الناعورة . وقد كان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوِطاء (١) ، وانتهى من ذلك إلى الغاية . وتوسّع له في الكرامة ولأصحابه . فأقام بها الخميس والجمعة .

فلما كان يوم السبت تقدم المستنصرُ بالله باستدعاء (أردون) ومن معه بعد إقامة الترتيب . وتعبئة الجيوش . والاحتفال في ذلك من العدد

---

(١) الوطاء : خلاف الغطاء .

والأسلحة والزينة. وقعد المستنصرُ بالله على سرير المُلْك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونُظَراؤهم صفاً في المجلس ، فيهم القاضي منذر بن سعيد ، والحكام والفقهاء، فأتى محمد بن القاسم بن طُمْلُس بالملك أردون وأصحابه : وعالي لَبُوسه ثوبٌ ديباجيٌّ رومي أبيض . ويَلْبُوالُ من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قَلَنْسُوةٌ روميةٌ منظومةٌ بجوهر ، وقد حَفَّتْه جماعةٌ من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤْنِسونه ويُبَصِّرونه . فيهم وليد بن حيزون ، قاضي النصارى بقرطبة ، وعُبيد الله بنُ قاسم ، مُطران طُلَيْطِلَة وغيرهما . فدخل بين صفَّيْ الترتيب يُقَلِّبُ الطَّرْف في نظمِ الصفوف ، ويُجيل الفكر في كثرتها ، وتظاهُرِ أسلحتها . ورائقِ حلْيَتها ؛ فراعَهم ما أبصروه وصلّبوا على وجوههم(١) ، وتأملوا . ناكسي رؤوسهم . غاضِّيْن من أجفانهم . قد سُكِّرتْ أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوَّل باب قصر الزهراء ، فترجّل جميع من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك (أردون) خاصة قَوامِسه (٢) على دوابهم حتى انتهوا إلى باب السُّدَّة . فأمر القوامس بالترجُّل هنالك . والمشي على الأقدام ؛ فترجّلوا .

ودخل الملك (أردون) وحده راكباً مع محمد بن طُمْلُس فأنزل في بُرْطُلٍ(٣) البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي مرتفعٍ مكسوّ الأوصال بالفضة ، وفي هذا المكان بعينه

---

(١) من عادة النصراني عندما يرى نعمة أو مخافة أن يرسم على نفسه الصليب بيده .

(٢) القوامس : جمع (قومس) .

(٣) البرطل : شبه المظلة .

نزل قبله عدوُّه ومناوئه (شانجة بن ردمير) الوافد على الناصر لدين الله - رحمه الله تعالى - فقعد أردون على الكرسي ، وقعد أصحابه بين يديه . وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشي ، وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح ؛ فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله وقف . وكشف رأسه ، وخلع بُرْنُسَه . وبقي حاسراً إعظاماً لما بان له من الدنو إلى السرير . واستُنْهِض فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو ؛ فلما قابل السرير خرَّ ساجداً سُوَيْعَةً ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خُطُوات . وعاد إلى السجود . ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة ، وأهوى إلى يده فناوله إياها ، وكرَّ راكعاً مُقَهْقِراً على عَقِبه إلى وِسادِ ديباجٍ مُثْقَلٍ بالذهب جُعل له هنالك ، ووُضِـع على قَدْرِ عَشْرةِ أذْرعٍ من السرير ، فجلس عليه . والبَهْرُ قد علاه(١) . وأُنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع(٢) . وناولهم الخليفةُ يده فقبّلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم . ووصل بوصولهم وليدُ بن حيزون . قاضي النصارى بقرطبة . فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم . فأطرق الحكَمُ عن تكلم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً كيما يَفْرخ روْعُه(٣) ؛ فلما رأى أنْ قد خُفِّض عليه(٤) افتتح تكليمه فقال : لَيَسرُّك إقبالُك . ويُغْبِطُك

(١) البهر : انقطاع النفس ، وتتابع تصاعده بسبب إعياء أو خوف .
(٢) الخنوع : الذل ، وأشد الخضوع .
(٣) يفرخ روعه : كناية عن الطمأنينة وذهاب الفزع .
(٤) خفض عليه : هون الأمر عليه ، وسكن فزعه .

تأميلُك ، فلدينا لك من حُسْنِ رأْيِنا ، ورحْبِ قبولنا فوق ما قد طلبتَه .

فلما تُرجم له كلامه إياه تطلّق وجه أردون(١) ، وانحطَّ عن مرتبته ، فقبّل البساط وقال : أنا عبد أمير المؤمنين مولاي . المُتَورِّكُ على فضله(٢) ، القاصد إلى مجده . المحكم في نفسه ورجاله . فحيث وضعني من فضله . وعوّضني من خدمته رجوتُ أن أتقدم فيه بنيّة صالحة . ونصيحةٍ خالصة .

فقال له الخليفة : أنت عندنا بمحلِّ من يستحق حسن رأينا . وسينالك من تقديمنا لك . وتفضيلِنا إياك على أهل مِلّتِك ما يُغْبِطُك ، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا(٣) . واستظلالك بظل سلطاننا .

فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة . وابتهل داعياً وقال : إن (شانجة) ابن عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني ، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك ، وأكارم الخلفاء ، لمن قصدهم وأمّلَهمْ ؛ وكان قصده قَصْدَ مُضْطَرَّ قد شَنَأَتْهُ رعيتُه(٤) ، وأنكرتْ سيرَتَهُ ، واختارتني لمكانه ، من غير سعيٍ مني ، علم اللهُ ذلك . ولا دُعاءٍ إليه ، فخلعتُه وأخرجتُه عن مُلكه مضطراً مُضْطَهَداً ، فتطوّل عليه(٥) — رحمه الله — بأن صرفه إلى مُلكه وقوّى سلطانَه . وأعزَّ نصره ؛ ومع ذلك فلم يَقُم

---

(١) تطلق وجهه : استبشر .
(٢) تورك عليه : اعتمد .
(٣) جنح إليه : مال ولجأ .
(٤) شنأته : كرهته وأبغضته .
(٥) تطول عليه : تفضل وأنعم وامتن .

بفرض النعمة التي أسْديَتْ إليه . وقصّر في أداء المفروض عليه ، وحقّه وحقّ مولاي أمير المؤمنين مِنْ بعده ؛ وأنا قد قصدتُ باب أمير المؤمنين لغير ضرورةٍ من قرار سلطاني ، وموضع أحكامي ، مُحَكَّماً له في نفسي ورجالي ومَعاقلي ومَنْ تحويه من رعيتي ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ، ومطرح الهمة .

فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية شأنُه ، ويترادف من إحساننا إليك أضعافُ ما كان من أبينا – رضي الله تعالى عنه – إلى نِدِّك(١) ، وإن كان له فضلُ التقدم بالجنُوح إلينا ، والقصد إلى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا يُنْقِصُكَ مما أنَلْناكَ ، وسَنَصْرِفُكَ مَغْبوطاً إلى بلدك ، ونشدُّ أواخيَّ مُلْكِكَ(٢) ، ونُمَلِّكُكَ جميعَ من انحاش إليك من أمتك ، ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرر به حَدَّ ما بينك وبين ابن عمك ، ونَقْبِضُه عن كلِّ ما بتصرُّفِه من البلاد إلى يدك ؛ وسيترادَفُ عليك من إفضالنا فوقَ ما احتَسَبْتَه ، والله على ما نقول وكيل .

فكرر (أردون) الخضوع ، وأسْهَبَ في الشكر ، وقام للانصراف مُقَهْقِراً لا يولّي الخليفة ظَهْرَه ؛ وقد تَكَنَّفَهُ الفِتيانُ فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، وقد علاه البَهْرُ ، وأذهله الرَّوْع ، من هَوْلِ ما باشره ، وجلالةِ ما عاينه من فخامة الخليفة ، وبَهاء

---

(١) الند : المثل والنظير .

(٢) الأواخي : جمع (أخية) بتشديد الياء ، وأصلها عود يغرز طرفاه في الأرض ، فيظهر منه شبه حلقة تشد فيها الدابة ، وتطلق أيضاً على الحرمة والذمة . والمراد هنا أنه سيقوي ملكه ويثبته له ويمنع عنه عدوه .

العزة ، فلما أن دخل المجلسَ ، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحطَّ ساجداً إعظاماً له . ثم تقدم الفتيانُ به إلى البهو الذي يحوي هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وسادٍ مُثْقَلٍ بالذهب . وأقبل نحوه الحاجب جعْفَرٌ ؛ فلما بَصُرَ به قام إليه ، وخضع له . وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجبُ عنه ، وانحنى إليه فعانقه . وجلس معه ، فغبّطه ، ووعده من إنجاز عِداتِ الخليفة له بما ضاعف سروره .

ثم أمر الحاجبُ جعفر فصُبّتْ عليه الخِلَعُ التي أمر بها الخليفة ، وكانت دُرّاعَةً منسوجةً بالذهب(١) ، وبُرْنُساً مثلها له لوزةٌ مفرغةٌ من خالص التبر ، مرصعةٌ بالجواهر والياقوت ، ملأت عَيْنَ العلجِ تَجِلّةً(٢) ، فخرَّ ساجداً ، وأعلن بالدعاء .

ثم دعا الحاجبُ أصحابَه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكَمُلَ جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخرَّ جميعُهم خاضعين شاكرين .

ثم انطلق الملكُ (أردون) وأصحابُه ، وقُدِّم لِركابِه في أول البَهْوِ الأوسط فرسٌ من عِتاق خيل الركاب ، عليه سَرْجٌ حلي ، ولجامٌ حلي مُفْرَغ ، وانصرف مع ابن طُمْلُس إلى قصر الرُّصافة ، مكانِ تضييفه ، وقد أُعِدَّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفَرْش والماعون . واستقر أصحابُه فيما لا كِفاءَ له من سعة التضييف .

---

(١) الدراعة : ثوب مفتوح بالمقدم ، كالجبة .

(٢) التجلة : الإجلال والاحترام .

وإرغاد العيش ، واستشعر الناسُ من مَسَرَّةِ هذا اليوم ، وعزةِ الإسلام فيه ما أفاضوا في التَّبَجُّحِ به ، والتحدثِ عنه أياماً .

* * *

فُتُوحاتُه :

قال ابن خلدون : ولأول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزا الحكَم المستنصر بنفسه ، واقتحم بلد (فرلند بن غند شلب) فنازل (شنت اشتبين) وفتحها عَنْوَةً ، واستباحها ، وقَفَلَ ؛ فبادروا إلى عقد السلم معه ، وانقبضوا عما كانوا فيه .

ثم أغزى غالباً مولاه بلادَ جِلِّيْقِيَّةَ ، وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، ولقيهم ، فهزمهم واستباحهم ، وأوطأ العساكرَ بلد (فردلند) ودَوَّخها .

وكان (شانجة بن رُدْمير) ملك البشكنس(١) قد انتقض ، فأغزاه الحكَمُ التُّجيبيَّ صاحبَ سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره ، فهزمهم . وامتنعوا بـ (قُوْرِيَّة)(٢) ، وعاثوا في نواحيها ، وقَفَل .

ثم أغزى الحكَمُ أحمدَ بنَ يعلى ، ويحيى بن محمد التُّجيبيَّ إلى بلاد بَرْشَلُونَةَ ، فعاثت العساكرُ في نواحيها .

وأغزى هُذَيْلَ بنَ هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القومس ، فعاثا فيها وقَفَلا .

---

(١) البشكنس : مقاطعة تسمى اليوم (الباسك) .

(٢) قورية : مدينة قريبة من ماردة .

وعظمت فتوحات الحكَم وقُوّادِ الثغور في كل ناحية ، وكان من أعظمها فتحُ (قُلُمْرِيَة)(١) من بلاد البشكنس على يد غالب ، فعمرها الحكَم ، واعتنى بها .

ثم فتح (قُطُوبِيَة) على يد قائد (وَشْقَة) وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث ، وفي بسيطها من الغنم والبقر والرَّمَك(٢) والأطعمة والسبي مالا يُحصى .

وفي سنة أربعٍ وخمسين سار غالب إلى بلد (ألْبَة) ، ومعه يحيى بن محمد التجيبي ، وقاسم بن مطرف بن ذي النون ، فابتنى حصنَ (غُرْماج) ، ودوّخ بلادهم ، وانصرف .

وظهرت في هذه السنة مراكبُ المجوس في البحر الكبير ، وأفسدوا بَسائِطَ أشبونة ، وناشَبَهُمُ الناسُ القتالَ ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكَمُ القوادَ لاحتراس السواحل ، وأمر قائدُ البحر عبد الرحمن بن رُماحس بتعجيل حركة الأسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهةٍ من السواحل .

* * *

وفاتُه :

وتوفي – رحمه الله تعالى – بقصر قرطبة ثاني صَفَر سنة ستٍّ وستين وثلاثمئة ، لِستَّ عَشْرَةَ سنةً من خلافته . وكان أصابه الفالجُ ، فلزم الفراشَ إلى أن هلك . – رحمه الله تعالى – . وكان قد شدَّدَ في إبطال الخمر في مملكته تشديداً عظيماً .

* * *

(١) قلمرية : مدينة من بلاد البرتغال اليوم .

(٢) الرمك : جمع (رمكة) وهي الفرس تتخذ للنسل .

المؤيّد بالله هشامُ بنُ الحكَم

وولي بعده ابنُه هشامٌ صغيراً ، سنُّه تسعُ سنين .

ولا ينافيه قول ابن خلدون : « قد ناهزَ الحُلُم » .

وكان الحكمُ قد استوزر له محمدَ بن أبي عامر ، ونقله من خُطّة القضاء إلى وزارته ، وفوّض إليه أموره ، فاستقلَّ .

قال ابن خلدون : وترقّت حال ابن أبي عامر عند الحكَم ، فلما توفي الحكَم ، وبُويِعَ هشام ، واُلقّبَ المؤيد بعد أن قُتِلَ لَيْلَتَئِذٍ المغيرةُ أخو الحكم المرشح لأمره ، تناولَ الفتكَ به محمد بن أبي عامرٍ هذا ، بممالأةٍ من جعفر بن عثمان المصحفي . حاجبِ أبيه ، وغالبٍ مولى الحكَم صاحبِ مدينة سالم ، ومن خصيان القصر يومئذٍ ورؤسائهم : فاتن وجؤذر ، فقتَل ابنُ أبي عامر المغيرةَ بِمُمالأَةِ مَنْ ذُكر ، وتمت البيعةُ لهشام .

* * *

قيامُ وزيرِه محمد بن أبي عامر بشؤون الحكم

ثم سما لابن أبي عامر أملٌ في التغلب على هشام ، لمكانه في السن ، وثاب له رأيٌ في الاستبداد . فمكر بأهل الدولة ، وضرب بين رجالها ،

وقتل بعضاً ببعض . وكان(١) من رجال اليمنية من مَعافر ، دخل جَدُّهُ عبدُ الملك مع طارق ؛ وكان عظيماً في قومه ، وكان له في الفتح أثر ؛ وعَظُمَ ابنُ أبي عامر هذا ، وغلب على المؤيَّدِ ، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام ، يسلِّمون وينصرفون . ، وأرْضَخَ للجند في العطاء(٢) ، وأعلى مراتبَ العلماء ، وقمع أهلَ البِدَعِ ؛ وكان ذا عقلٍ ورأيٍ وشجاعةٍ وبَصَرٍ بالحروب ، ودِيْنٍ متين .

ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم ، وحَطَّهم عن مراتبهم ، وقتل بعضاً ببعض . كلُّ ذلك عن هشامٍ وخَطِّه وتوقيعه ، حتى استأصلهم(٣) وفرَّق جموعَهم .

وأول ما بدأ بالصَّقالبة الخصيان الخدام بالقصر ، فحمل الحاجبَ المصحفيَّ على نكبتهم ، فنَكَبَهُمْ وأخرجهم من القصر ؛ وكانوا ثمانمئةٍ أو يزيدون ؛ .

ثم أصهر إلى غالبٍ مولى الحكم ، وبالغ في خدمته والتنصُّحِ له ، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة .

ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد بن علي بن حمدون صاحب المَسيلة ، وقائد الشيعة ممدوح ابن هانىء بالفائية المشهورة وغيرها ؛ وهو النازع إلى الحكم أولَ الدولة وبمن كان معه من زَناتة والبربر .

ثم قتل جعفراً بممالأة ابن عبد الودود وابن جَهْوَر وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم .

---

(١) أي الوزير محمد بن أبي عامر .
(٢) أرضخ له : أعطاه عطاء غير كثير .
(٣) استأصلهم : أفناهم ، وكأنه اقتلعهم من أصولهم وجذورهم .

ثم لما خلا الجوُّ من أولياء الخلافة والمرشحين للرئاسة رجع إلى الجند فاستدعى أهلَ العُدْوَة من رجال زَنَاتة والبرابرة فرتَّب منهم جنداً ، واصطنع أوْلياءَ ، وعرَّف عُرَفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم،فتغلب على هشام وحَجَره(١)، واستولى على الدولة ، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته ، من تعظيم الخلافة، والخضوع لها ، وردّ الأمور إليها ، وترديدِ الغزوِ والجهادِ ؛ وقدَّم رجال البرابرة وزَنَاتة ، وأخَّر رجالَ العرب ، وأسقطهم عن مراتبهم ، فتمَّ له ما أراد من الاستقلال بالملك ، والإستبداد بالأمر ؛ وبنى لنفسه مدينةً لنزله سماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ؛ وقعد على سرير الملك ؛ وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك ، وتسمّى بالحاجب المنصور ، ونُفِّذَت الكتبُ والمخاطباتُ والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسمَ الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيّدِ من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، وكَتْبُ اسمِه في السِّكَّةِ والطِّراز(٢) ، وأغفل ديوانه مما سوى ذلك ؛ وجنّد البرابرةَ والمماليك ، واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة ، وقَهَرَ مَنْ تَطاول إليها من العِلْيَة ؛ فظفر من ذلك بما أراد ، وردَّد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا ستاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه ؛ لم تنتكس له فيها راية ، ولا فُلَّ له جيش ، وما أصيب له بَعْثٌ ، وما هلكت له سَرِيَّةٌ ؛ وأجاز عساكرَه إلى

---

(١) حجره : منعه من التصرف .

(٢) السكة : الحديدة المنقوشة التي تطبع عليها الدراهم والدنانير .
والطراز : النمط ، وثوب ينسج للسلطان .

العُدْوَةِ ، وضرب بين ملوك البرابرة ، وضرب بعضهم ببعض ، فاستوثَقَ له مُلْكُ المغرب .

* * *

شيء من ترجمة المنصور بن أبي عامر وسيرته :

هو الملك الأعظم المنصور ، أبو عامر ، محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، المَعافريّ ، من قرية تَرْكَش . وعبد الملك جَدُّه هو الوافد على الأندلس مع طارق في أول الداخلين من العرب .

وأما المنصور فقد رحل إلى قرطبة ، وتأدب بها ، ثم اقتعد دكاناً(١) عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعِنُّ له كَتْبٌ من الخدم والمرافقين للسلطان ، إلى أن طلبت السيدة صُبْح أمُّ المؤيّد من يكتب عنها ، فعرّفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقّى إلى أن كتب عنها ، فاستحسنته ، ونبّهت عليه الحكمَ ، ورغبت في تشريفه بالخدمة ، فولاه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نجابة ، فترقّى إلى الزكاة والمواريث بإشبيلية ، وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره ، ولم يقصِّر – مع ذلك – في خدمة المصحفي الحاجِب إلى أن توفي الحكم ، وولي ابنُه هشام المؤيّد وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فجاشت الروم(٢) ، فجهز المصحفي ابنَ أبي عامر لدفاعهم ، فنصره الله عليهم ، وتمكن حبه من قلوب الناس .

---

(١) أي إنه اتخذ لنفسه دكاناً .

(٢) أي تحركت واضطربت .

وكان من أخباره الداخلة في أبواب البر والقربة بُنيان المسجد الجامع .

قال بعض مؤرخي المغرب : ومن ذلك بناؤه قنطرةً على نهر قرطبة الأعظم ، ابتدأ بناءها المنصورُ سنَةَ ثمانٍ وسبعين وثلاثمئة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسعٍ وسبعين ؛ وانتهت النفقة عليها إلى مئة ألف دينار وأربعين ألف دينار ، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدراً في مناقبه الجليلة ؛ وكانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عدولٌ عنها ، فأمر المنصور أمناءَه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم ، فساوموه بالقطعة ، وعرّفوه وجه الحاجة إليها ، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافَه فيها ، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده ، فيما ظنَّه أنها لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً كانت عنده أقصى الأمنية ، وشَرَطَها صحاحاً ، فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقده الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جهالته ؛ وأنِفَ من غَبْنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتُدفع له صِحاحاً ، كما قال . فقبض الشيخ مئة دينار ذهباً فكاد أن يخرج من عقله ، وأن يُجَنَّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلاً في شكر المنصور ، وصارت قصته خبراً سائراً .

ومن ذلك أيضاً بناء قنطرةٍ على نهر إسْتِجة ، وهو نهر شَنيل ، وتجشّم لها أعظمَ مؤنة ، وسهّل الطريق الوعرة ، والشعاب الصعبة .

ومن ذلك أيضاً أنه خطَّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره ويدرس فيه ، ويتبرك به .

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجَمْع ما علِق بوجهه من الغبار في

غزواته ومواطن جهاده(١) . فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة . عهد بتصييره في حَنُوْطِهِ(٢) . وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقعاً لحلولِ مَنِيَّتِهِ ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه . وغزْلِ بناتِهِ ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد .

* * *

وفاته :

وتوفي – رحمه الله – في غَزاته للإفرنج بِصَفَر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمئة . وحُمل في سريره على أعناق الرجال . وعسكرُه يحُف به . وبين يديه . إلى أن وصل إلى مدينة سالم .

ودامت دولته ستّاً وعشرين سنة . غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة . واحدة في الشتاء . وأخرى في الصيف .

* * *

قيام ابن المنصور بن أبي عامر بالوزارة والحكم :

ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك ، المظفر . أبو مروان فجرى على سَنَنِ أبيه(٣) في السياسة والغزو . وكانت أيامه

---

(١) فعل سيف الدولة الحمداني مثل ذلك . وأمر أن يجعل الغبار لبنة توضع تحت رأسه في قبره .

(٢) الحنوط : ما يوضع في ماء غسل الميت من الطيب والكافور والأشنان ونحوه .

(٣) أي على طريقته .

أعياداً دامت مدة سبع سنين ، وكانت تسمى بالسابع ، تشبيهاً بسابع العروس ، ولم يزل مثل اسمه مظفراً إلى أن مات سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمئة ، في المحرم ، وقيل : سنة ثمانٍ وتسعين .

* * *

قيام الابن الثاني للمنصور بن أبي عامر بالوزارة والحكم ، وطَمَعُه بالخلافة ، وفَشَلُه ، ومقتله ، وخلع المؤيد هشام :

قال ابن خلدون : ثم قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقَّبَ بالناصر لدين الله ، وقيل : بالمأمون ، وجرى على سَنَنِ أبيه وأخيه في الحَجْرِ على الخليفة هشام ، والاستبداد عليه ، والاستقلال بالمُلْكِ دُونَه ؛ ثم ثاب له رأيٌ في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام المؤيد أن يُوَلِّيه عهده ؛ فأجابه ؛ وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحَلِّ والعَقْد ، فكان يوماً مشهوداً .

ونقم عليه أهل الدولة ذلك فكان فيه حَتْفُه وانقراضُ دولتِه ودولةِ قومه . وكان أسرع الناسِ كراهةً لذلك الأمويين والقرشيين ، فغصُّوا بأمره (١) ، وأسِفوا من تحويل الأمر جُمْلةً من المُضَرِيَّةِ إلى اليمنية ؛ فاجتمعوا لشأنهم ، وتمشَّتْ من بعضٍ إلى بعضٍ رجالاتُهم ، وأجمعوا أمرهم في غيبةٍ من المذكور ببلاد الجلالقة ، في غَزَاةٍ من صَوائفه ؛ ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمئة ، وخلعوا هشاماً المؤيد .

* * *

(١) غص : شرق .

مبايعة محمد بن هشام ، وزوال دولة العامريين

وبايعوا محمدَ بنَ هشامِ بنِ عبد الجبار ، ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء . ولقّبوه المهدي بالله .

وطار الخبر إلى عبد الرحمن . الحاجب ، ابن المنصور بمكانه من الثغر فانفضّ جَمْعُه . وقفل إلى الحضرة مُدِلاّ بمكانه . زعيماً بنفسه . حتّى إذا قَرُبَ من الحضرة تسلل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ، وبايعوا المهديَّ القائمَ بالأمر ، وأغْرَوْه بعبد الرحمن . الحاجب ، لكونه ماجناً مستهتّراً ، غيرَ صالحٍ للأمر ؛ فاعترضه منهم مَنْ قَبَض عليه . واحْتَزَّ رأسَهُ وحمله إلى المهدي ، وإلى الجماعة.

وذهبت دولةُ العامريين كأن لم تكن . ولله عاقبةُ الأمور .

* * *

اضطراب الأمور ومبايعة سليمان بن الحكَم

وكان رؤساء البربر وزَناتَة لحقوا بالمهدي لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن ، وانتقاض أمره ؛ وكانت الأموية تَعْتَدُّ عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين ، وتنسب تغلُّبَ المنصور وغيره على الدولة إليهم فَسَخِطَتْهم القلوبُ ، وخَزَرَتْهُم العيون (١) . ولولا مالهم من العصبية لاستأصلهم الناس ، ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم ، وأمر المهديُّ أن لا يركبوا ، ولا يتسلّحوا ، وردَّ بعضَ رؤسائهم في بعض الأيام من باب القصر ، فانتهبت العامةُ دُوْرَهُم ،

(١) خزرتهم العيون : نظرت إليهم بلحاظها كبراً واستخفافاً للمنظور إليه .

وشكا بعضُهم إلى المهدي ما أصابهم فاعتذر إليهم وقتل من اتهم من العامة في أمرهم ، وهو مع ذلك مظهرٌ لبغضهم . مُجاهرٌ بسوء الثناء عليهم . وبلغهم أنه يريد الفتك بهم . فتمشّتْ رجالاتهم ، وأسرُّوا نجواهم ، واشْتَوَرُوا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر . وفشا في الخاصة حديثُهم ، فعُوجِلوا عن مَرامهم ذلك ، وأغرى بهم السواد الأعظم فثاروا بهم ، وأزعجوهم عن المدينة ، وتقبّض على هشام وأخيه أبي بكر وأحضرا بين يدي المهدي . فضرب أعناقهما . ولحق سليمانُ ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة . وتوامروا فبايعوه ولقّبوه (المستعين بالله) . ونهضوا به إلى ثغر طليطلة . فاستجاش بابن أذفونش ، ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة . وبرز إليه المهديّ في كافة أهل البلد ، وخاصة الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستاحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً . وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسَدَنَتِها ومؤذّنيها عالَمٌ ، ودخل المستعينُ قرطبة ختامَ المئة الرابعة . ولحق المهديُّ بطليطلة ، واستجاش بابن أذفونش ثانية فنهض معه إلى قرطبة ، وهزم المستعين والبرابرة بعَقَبَةِ البقر ، من ظاهر قرطبة ، ودخل قرطبة – أعني المهدي – ومَلَكَها ، وخرج المستعين مع البربر ، وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يُبقون على أحد . ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتّباعهم فكرّوا عليهم ، فانهزم المهدي وابن أذفونش ومَنْ معهما من المسلمين والنصارى ، واتبعهم المستعين إلى قرطبة . فأخرج المهدي هشاماً المؤيد للناس . وبايع له . وقام بأمر حجابته ظناً منه أن ذلك ينفعه . وهيهات ؛ وحاصرهم المستعين والبربر فخشي أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم فأغْرَوا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهديّ ، وإن الفتنة جاءت من قِبَله .

وتولّى كِبْرَ ذلكَ واضحٌ العامريُّ . فقتلوا المهدي . واجتمع الكافة على المؤيد . وقام واضحٌ بحجابته . واستمر الحصار . ولم يُغْنِ أهلَ قرطبة ما فعلوه شيئاً . إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة . وعُدمت المرافق . وجَهَدَهم الحصار ، وبعث المستعين إلى أهل ابن أذفونش يستقدمهم لمظاهرته . فبعث إليهم هشامٌ وحاجبُه واضح يكفّونهم عن ذلك بأن ينزلوا عن ثغور قشتالة التي كان المنصور افتتحها . فسكن عن مظاهرتهم عزمُ أذفونش ؛ ولم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبةَ ومن معه من البربر عَنْوَةً سنة ثلاث وأربعمئة . وقُتل هشامٌ سراً . وظن المستعينُ أنْ قد استحكمَ أَمْرُهُ . وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال . فولّوا المدن العظيمة . وتقلدوا البلاد الواسعة مثل : باديس ابن حَبُّوس في غَرْناطة . والبرزالي في قَرْمونة ، واليفرني في رُنْدَة . وهرزون في شَرِيش . وافترق شملُ الجماعة بالأندلس . وصار المُلْكُ طوائف . في آخرين من أهل الدولة . مثل ابن عباد بإشبيلية ، وابنُ الأَفْطَسِ ببَطَلْيَوْس . وابن ذي النون بطُلَيْطِلَةَ . وابن أبي عامرٍ ببَلَنْسية . وابن هود بِسَرَقُسْطَة . ومجاهد العامري بِدانية والجزائر .

* * *

دولة بني حمود

التي تخللت الدولة الأمويّة:

وكان علي بن حمود الحسني وأخوه قاسم من عَقِب إدريس مَلِكِ فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العُدْوَة إلى الأندلس . فَدَعَوا لأنفسهم ، واعصوصب عليهم البربر ، فملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمئة ، وقتلوا المستعين ، ومَحَوا مُلْكَ بني أمية . واتصل ذلك في خَلَفٍ منهم سبع سنين . ثم رجع المُلك إلى بني أمية .

* * *

علي بن حَمُّود واضطراب الأمور في هذه الدولة

وولي الأمرَ بعد المستعين علي بن حَمُّود الحسني ، تلقب بالناصر ، وخرج عليه العبيد وبعضُ المغاربة ، وبايعوا المرتضى أخا المهدي ، ثم اغتيل المرتضى . واستقام المُلْكُ لعلي بن حَمُّود نحوَ عامين إلى أن قتلته صقالبته بالحمّام سنة ثمانٍ وأربعمئة .

فولي مكانه أخوه القاسم . وتلقبَ بالمأمون ، ونازعه الأمرَ بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابنُ أخيه ، وكان على سَبْتَةَ فأجاز إلى

الأندلس سنة عشر (١) ، واحتل بمالقة ، وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما فبعثه إلى سَبْتَة ، ثم زحف يحيى إلى قرطبة فملكها سنة ثِنْتَيْ عَشْرَةَ وأربعمئة . وتلقّب المعتلي . وفرَّ عمُّه المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي ابن عَبّاد . واستجاش بعض البرابرة . ثم رجع إلى قرطبة سنة ثلاثَ عَشْرَةَ ومَلَكَها . ثم لحق المعتلي بمكانه من مالَقَة . وتغلب على الجزيرة الخضراء . وتغلّب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر ، وكان المأمون يعتدُّها حصناً لنفسه ، وفيها ذخائره . فلما بلغه الخبر اضطرب . وثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته . وخرج فحاصرهم فدافعوه . ولحق بإشبيلية فمنعوه . وكان بها ابنه فأخرجوه إليه . وضبطوا بلدهم . واستبدَّ ابن عَبّاد بملكها . ولحق المأمون بِشَرِيْش ، ورجع عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابنِ أخيه ، فبايعوه سنة خَمْسَ عَشْرَةَ . وزحف إلى عمه المأمون فتغلب عليه . ولم يزل عنده أسيراً وعند أخيه إدريس بمالقَة إلى أن هلك بمحبسه سَنَةَ سبعٍ وعشرين . وقيل : إنه خُنِق ، كما سيأتي .

واستقل المعتلي بالأمر . واعتقل بني عمه القاسم . وكان المستكفي من الأمويين استولى على قرطبة في هذه المدة عندما أخرج أهلُها العلوية ، ثم خلع أهلُ قرطبة المستكفي الأموي سنة ست عشرة . وصاروا إلى طاعة المعتلي . واستعمل عليهم ابنَ عَطّاف مِنْ قِبَلِهِ ، ثم نقضوا سنة سبع عشرة وصرفوا عاملهم ، وبايعوا للمعتد بالله الأموي ، أخي المرتضى . وبقي المعتلي يردِّد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت الكلمة على إسلام الحصون والمدائن له فعلا سلطانُه ، واشتد أمره إلى أن هلك

---

(١) أي سنة ٤١٠ هـ .

سنة تسعٍ وعشرين . اغتاله أصحابُه بِدَسِيسَةِ ابنِ عبّاد الثائر بإشبيلية . فاستدعى أصحابُه أخاه إدريس بن علي بنِ حَمُّود من سَبْتَةَ . ومَالَكوه . ولقّبوه المتأيد . وبايعته رُنْدَة وأعمالُها . والمَرِيّة والجزيرة الخضراء . وبعث عساكرَه لحرب أبي القاسم إسماعيل ابنِ عبّاد . والد المعتضِد بن عبّاد ، فجاؤوه برأسه بعد حروب ، وهلك ليومين بعد ذلك سنة إحدى وثلاثين .

وبويع ابنُه يحيى . ولم يتمّ له أمر .

وبويع حسن المستنصر ابن المعتلي . وفر يحيى إلى قَمارِش فهلك بها سنة أربعٍ وثلاثين .

ويقال : إنّه قَتَلَه نجا . وهلك حسن مسموماً بيد ابنة عمه إدريس. ثأرت منه بأخيها .

وكان إدريس بن يحيى المعتلي مُعْتَقَلاً بمالَقَة فأُخرج بعد خطوب . وبويع بها فأطاعته غرْناطة وقَرْمونة . ولقّبَ العالي .

وخُلع العالي سنة ثمانٍ وثلاثين ، وولي ابن عمه محمد بن إدريس ابن علي . وتلقب بالمهدي ، وتوفي سنة أربع وأربعين .

وبويع إدريس بن يحيى بن إدريس . ولُقّب الموفّق ، ولم يُخْطَب له بالخلافة . وزحف إليه العالي إدريس المخلوع . وكان بقَمارش فدخل عليه مالَقَة . وأطلق أيدي عَبيدِهِ عليها ، لحقده عليهم . ففر كثير منهم . وتوفي العالي سنة ست أو سبعٍ وأربعين .

وبويع محمد بن إدريس . ولُقّبَ المستعلي ، ثم سار إليه باديسُ ابنُ حَبُّوس سنة تسعٍ وأربعين وأربعمئة ، فتغلب على مالقة ، وسار

محمد إلى المَرِيّة مخلوعاً . ثم استدعاه أهلُ المغرب إلى مليلة فأجاز إليهم . وبايعوه سنة ستٍّ وخمسين . وتوفي سنة ستين .

وكان محمد بن القاسم بن حَمُّود لما اعتُقل أبوه القاسم بمالَقة سنة أربعَ عَشْرَةَ فرَّ من الاعتقال . ولحق بالجزيرة الخضراء وملَكها ، وتلقّب بالمعتصم إلى أن هلك سنة أربعين .

ثم ملكها بعده ابنه القاسم . الواثق إلى أن هلك سنة خمسين . وصارت الجزيرة للمُعْتَضِد بن عبّاد ، ومالَقة لابن حَبُّوس مُزاحماً لابن عبّاد .

وانقرضت دولة الأشراف الحمّوديين من الأندلس بعد أن كانوا يَدَّعُون الخلافة .

* * *

الدولة الأموية الثانية
ثم زوالها من الأندلس

تولي عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخي المهدي

وأما قرطبة فإن أهلها لمّا قطعوا دعوة الحمّوديين بعد سبع سنين من مُلْكِهم ، وزحف إليهم القاسم بن حَمّود في البربر ، فهزمهم أهل قرطبة . ثم اجتمعوا واتفقوا على ردّ الأمر لبني أمية ؛ واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، أخا المهدي ، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمئة ، ولقّبوه المستظهر ، وقاموا بأمره .

* * *

تولي المستكفي محمد بن عبد الرحمن

ثم ثار عليه — لشهرين من خلافته — محمد بن عبد الرحمن بن عُبيد الله ابن أميرِ المؤمنين الناصر لدين الله ، فاتّبعه الغَوغاء ، وفتَكَ بالمستظهر ، وتلقّب بالمستكفي ، واستقل بأمر قرطبة ؛ وهو والد الأديبة الشهيرة ولّادة ، وكان أبوه عبد الرحمن قتله المنصور بن أبي عامر لسعيه في الخلافة .

رجوع الأمر إلى المعتلي يحيى بن علي بن حَمُّود :

ثم بعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى المعتلي يحيى ابن علي بن حَمُّود سنةَ ستَّ عَشْرَةَ . وخلع أهلُ قرطبة المستكفي . وولّى عليهم المعتلي مِنْ قِبَله . وفر المستكفي إلى ناحية الثغر . ومات في مَفَرِّه .

* * *

مبايعةُ المعتد بالله هشامِ بنِ محمّد ، أخي المرتَضى . وانقطاع الدولة الأموية :

ثم بدا لأهل قرطبة فخلعوا المعتلي بن حَمُّود سنة سَبْعَ عَشْرَةَ . وبايع الوزيرُ أبو محمد جَهْوَرْ بنُ محمدِ بنِ جَوْهر عميدُ الجماعة وكبيرُ قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى . وكان بالثغر في لارِدة عند ابن هود ؛ وذلك سنة ثمان عشرة ، وتلقب المعتَدَّ بالله ، وأقام متردداً في الثغر ثلاثة أعوام .

واشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف . واتفقوا على أن ينزل دارَ الخلافة بقرطبة . فاستقدمه ابنُ جَهْوَر والجماعة ونزلها آخر سنة عشرين (١) ، وأقام بها يسيراً ، ثم خلعه الجُنْدُ سنة ثنتين وعشرين ، وفرَّ إلى لارِدَة ، فهلك بها سنة ثمانٍ وعشرين .

وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب.

* * *

---

(١) أي ٤٢٠ هـ .

ملوك الطوائف

وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف .وانتزى الأمراء (١) والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات . واقتسموا خُطَّتَها ، وتغلب بعضٌ على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوكٌ استفحل أمرهم ، وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجِزى(٢) للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم مُلْكَهم(٣) ، وأقاموا على ذلك بُرْهَةً من الزمان حتى قطع إليهم البحرَ مَلِكُ العُدْوة وصاحبُ مراكش ، أميرُ المسلمين يوسف بن تاشَفين اللمتوني(٤) فخلعهم ، وأخلى منهم الأرض .

* * *

بنو عبَّاد ملوكُ إشبيليةَ

فمن أشهرهم بنو عبَّاد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس . الذين

---

(١) أي وثبوا وغلبوا .

(٢) الجزى : جمع جزية (بكسر فسكون) : مقدار من المال يعطونه في نظير حمايتهم .

(٣) البز : أخذ الشيء بجفاء وقهر كالا بتزاز .

(٤) نسبة إلى قبيلة (لمتونة) البربرية .

منهم المعتمد بن عبّاد ، الشهير الذكر بالمغرب والمشرق . وفي (الذخيرة)(١) و (القلائد)(٢) من أخباره ما هو كافٍ شافٍ .

* * *

بنو جَهْوَر في قرطبة ثم بنو عباد

ومنهم بنو جَهْوَر ، كانوا بقرطبة في صورة الوزارة ؛ حتى استولى عليهم المعتمد بن عبّاد ، وأخذ قرطبة . وجعل عليها ولدَه . ثم كانت له وعليه حروب وخطوب . وفرّق أبناءه على قواعد الملك . وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس . وعلَتْ يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف . مثل ابن حَبّوس بغرناطة . وابن الأفطس ببطَلْيَوْس . وابن صُمادح بالمريّة ، وغيرهم . فكانوا يخطبون سِلْمَه ، ويُغْلونَ في مرضاته . وكلهم يدارون الطاغية . ويتّقونه بالجِزَى . إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين . واستفحل ملكه . فتعلقت آمال الأندلس بإعانته ، وضايقهم الطاغية في طلب الجِزْية . فقتلَ المعتمدُ اليهوديَّ الذي جاء في طلب الجزية للطاغية بسبب كلمةٍ قالها آسَفَهُ بها . ثم أجاز البحرَ صريخاً إلى يوسف بن تاشفين . فأجاز معه البحر . والتقوا مع الطاغية في الزّلاّقة . فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى . ونصر الله تعالى الإسلام نصراً لا كِفاءَ له حتى قال بعض المؤرخين : إنه كان عددُ النصارى ثلاثمئة ألف . ولم يَنْجُ منهم إلا القليل . وصبر فيها المعتمدُ صَبْرَ الكرام ؛ وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء؛ثم طلب الفقهاء

(١) هو كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام . مطبوع .
(٢) هو كتاب (قلائد العقيان) للفتح بن خاقان .

بالأندلس من يوسف بن تاشفين رَفْعَ المُكوس(١) والظُلامات عنهم ، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف ، فأجابوه بالامتثال ، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم . وهو خلالَ ذلك يُرددّ عساكره للجهاد ؛ ثم أجاز إليهم . وخلع جميعهم . ونازلت عساكرُه جميعَ بلادهم . واستولى على قرطبة وإشبيلية وبَطَلْيَوْس وغَرْناطة وغيرها ؛ وصار المعتمد بن عباد كبيرُ ملوك الأندلس في قبضته أسيراً بعد حروب ، ونقله إلى أغمات . قرب مراكش سنة أربعٍ وثمانين وأربعمئة . واعتقله هنالك إلى أن مات سنة ثمانٍ وثمانين .

وولي بعده غيرَ من تقدم بنو رَزين أصحابُ السهلة ،وبنو الِفهْرِيّ أصحاب البونت ، وتغلب عليهما أخيراً يوسف بن تاشفين .

* * *

بنو ذي النون ملوكُ طُلَيْطلة

ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ، ملوك طليطلة من الثغر الجوفي ؛ وكانت لهم دولةٌ كبيرة . وبلغوا في البَذْخ والتَرَف إلى الغاية ، ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له (الإعذار الذُنُوْني)(٢) وبه يُضْرب به المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم بمثابة عُرْسِ بوران(٣) عند أهل المشرق . والمأمون من بني ذي النون هو صاحب ذلك ؛ وهو الذي عَظُم بين ملوك الطوائف سلطانُه ، وكانت بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة . وغلب على قرطبة ومَلَكَها من يد ا..

(١) المكوس : جمع (مكس) بفتح فسكون : نوع من الضرائب .
(٢) الإعذار : الختان .
(٣) حين زفت إلى الخليفة المأمون العباسي .

عبّاد المعتمد ، وقَتَل ابنه أبا عمرو ، وغلب أيضاً على بَلَنْسِيَةَ وأخذها من يد بني ابن أبي عامر .

وفي أيام حافد المأمون — وهو القادر بن ذي النون — كان الطاغية ابن أذفونش قد استفحل أمره ، لما خلا الجوُّ من مكان الدولة الخلافية(١) وخفَّ ما كان على كاهله من إصر العرب(٢) . فاكتسح البسائط . وضايق ابنَ ذي النون . حتى أخذ من يده طُليطلة . فخرج له عنها سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمئة ، كما سبق ، وشَرَطَ عليه أن يُظاهِرَهُ على أهل بَلَنْسِيَة(٣) . فقبل شَرْطَه . وتسلّمها ابن أذفونش ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العَلِيِّ العظيم .

* * *

العامريُّون

ومن أعظم ملوك الأندلس الموالي العامريون مثل : خَيْران ، وزهير . وأشباههما ، وأخبار الجميع تطول .

* * *

بنو هود ، ملوك سَرَقُسْطَة

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ، ملوك سَرَقُسْطَة وما إليها ، ومن أشهرهم : المقتدر بالله ، وابنه يوسف المؤتمن .

---

(١) يريد بالدولة الخلافية أيام كان يحكم الأندلس خليفة واحد .
(٢) الإصر : الثقل ، والذنب .
(٣) يظاهره : يعينه .

وكان المؤتمن قائماً على الأمور الرياضية ، وله فيها تآليف ، ومنها كتاب (الاستكمال والمناظر) .

وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طُلَيْطِلَة . وعلى يده كانت وَقْعَةُ (وَشْقَة) ، وكان زحف سنة تسعٍ وثمانين في آلوف لا تُحصى من المسلمين ليدافعَ الطاغيةَ عن (وشقة) ، وكان محاصراً لها . فلقيه الطاغية وهزمه ، وهلك من المسلمين نحوُ عشرةِ آلاف ، وهلك هو شهيداً سنةَ ثلاثٍ وخمسمئة ، بظاهر سَرَقُسْطة في زحف الطاغية إليها .

وولي ابنه عبد الملك ، عمادُ الدولة . وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثنتي عشرة .

وتولى ابنُه سيف الدولة ، وبالغ في النكاية بالطاغية ، ثم اتفق معه ، وانتقل بِحَشَمِه إلى طُلَيْطِلة . فكان فيها حِمامُه(١) .

بنو الأفْطَسِ ملوك بَطَلْيَوْس

ومن مشاهير ملوك الطوائف بنو الأفطس . أصحابُ بَطَلْيَوْس وما إليها. والمظفر منهم هو صاحب التأليف المسمى بالمُظَفَّريّ. في نحو الخمسين مجلداً . والمتوكل منهم قُتل على يد يوسف بن تاشفين ، وفيه قال ابن عبدون قصيدته المشهورة :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعد العَيْنِ بالأثَرِ
فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ

(١) الحمام : (بكسر الحاء) : الموت .

وهي من غُرر القصائد الأندلسية .

* * *

الموحّدون

ولما استولى ملوك لَمْتُونَةَ على بلاد الأندلس . وأزالوا ملوك الطوائف منها . وبقيت عمالُهم تتردد إليها وبنوهم حتى فَشِلَتْ رِيحُهم ، وهبت ريح الموحّدين . — أعني عبدَ المؤمن بن علي وبنيه — فحاربوا لَمْتُونة. واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ، ثم أجازوا البحرَ إلى الأندلس . وملكوا أكثر بلاد الأندلس . ومَلَكَ بنو مَرْدَنيش شرقَ الأندلس .

وملخص ذلك أن الأندلس كان مُلْكُها مجموعاً لِلَمْتُونَةَ بعد خلعهم ملوكَ الطوائف ؛ فلما اشتغل لمتونة في العُدْوَة بحرب الموحدين اضطربت عليهم الأندلس ، وعادت إلى الفُرْقة بعضَ الشيء . ثم خلص أكثرُها لعبد المؤمن وبنيه . بعد حروبٍ منها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مَرْدَنيش وقائده ابن هَمْشَك بِفَحْصِ غَرناطة . وقد استعان ابنُ مَرْدَنيش بالنصارى على الموحدين . فهزمهم عبد المؤمن . وقَتَلَهم أَبْرَحَ قتل . واستخلص غرناطة سنة سبعٍ وخمسين وخمسمئة من يد ابن مردنيش .

وولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنُه يوسف ، وأجاز إلى الأندلس . وكانت له مواقف في جهاد العدو .

وولي بعده ابنه يعقوب المنصور . الطائرُ الصيّت ؛ وكانت له في

النصارى بالأندلس نكايةٌ كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأَرَك(١) التي تضاهي وقعة الزَّلاَّقَة أو تزيد .

والأرك : موضع بنواحي بَطَلْيَوْس ، وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمئة . وغنم فيها المسلمون ما عَظُم قدره ؛ وكان عِدَّةُ من قُتل من الفرنج – فيما قيل – مئة ألف وستةً وأربعين ألفاً ، وعِدَّةُ الأَسارى ثلاثين ألفاً . وعِدَّة الخيام مئة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفاً . والبغال مئة ألف ؛ والحمير أربعمئة ألف ، جاء بها الكفارُ لحمل أثقالهم لأنهم لا إبِلَ لهم .

وأما الجواهر والأموال فلا تُحصى .

وبِيعَ الأسير بدرهم . والسيفُ بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم . والحمار بدرهَم .

وقسم يعقوب الغنائمَ بين المسلمين بمقتضى الشرع . ونجا ألفنش ملكُ النصارى إلى طليطلة في أسوإ حال . فحلق رأسه ولحيته . ونكص صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراشٍ ، ولا يَقْرَبَ النساءَ ، ولا يركب فرساً ولا دابةً حتى يأخذ بالثأر . وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ .

ثم لقيه يعقوب وهزمه ، وساق خَلْفَه إلى طُلَيْطِلَةَ(٢) ، وحاصره ، ورمى عليها بالمجانيق ، وضيق عليها ، ولم يبق إلا فتحُها ، فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه ، وبَكَيْنَ بين يديه ،

---

(١) الأرك : حصن منيع بمقربة من قلعة رباح أول حصون أدفونش بالأندلس (الروض) .
(٢) أي تبعه .

وسألنه إبقاء البلد عليهن . فرقَّ لهنَّ . ومَنَّ عليهن بها ، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جَلَّ . وردَّهن مُكْرَمات ، وعفا بعد القدرة ، وعاد إلى قرطبة فأقام شهراً يقسم الغنائم . وجاءته رسل الفنش بطلب الصلح ؛ فصالحه ، وأمَّنَ الناسَ مُدَّتَه .

ولما استفحل أمر الموحِّدين بالأندلس استعملوا القرابةَ على الأندلس ، وكانوا يسمونهم السادة . واقتسموا ولايتها بينهم ؛ ولهم مواقف في جهاد العدو مذكورة .

وكان صاحب الأمر بمراكش يأتي الأندلسَ للجهاد . وهزم يعقوب المنصورُ — كما سبق قريباً — بالأَرَك ابنَ أذفونش ملك الجلالقة الهزيمة الشنعاء .

وأجاز ابنُه الناصرُ الوالي بعده البحرَ إلى الأندلس من المغرب سنةَ تسع وستمئة . ومعه من الجنود مالا يُحصى . حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمئة ألف مقاتل . فمحّص الله المسلمين(١) بالموقع المعروف بالعُقاب(٢) . واستُشْهِد منهم عِدَّةٌ ؛ وكانت سببَ ضعف المغرب والأندلس .

أما المغرب فبِخَلاءِ كثيرٍ من قراه وأقطاره .

وأما الأندلس فبطلب العدوِّ لهم ؛ لأنه لما التاثَ أمر الموحدين(٣)

---

(١) محص الله المسلمين : ابتلاهم واختبرهم .

(٢) قال الحميدي في (الروض المعطار) : « العقاب » بكسر العين : بالأندلس ، بين جيان وقلعة رباح وكانت في هذا الموضع موقعة عظيمة وهزيمة على المسلمين شنيعة في منتصف صفر سنة ٦٠٩ » .

(٣) التاث أمرهم : اختلط واضطرب .

بعد الناصر بن المنصور انتزى السادة بنواحي الأندلس(١) ، كلٌّ في عمله ، وضَعُف ملكهم بمراكش فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية(٢) ، بعضهم على بعض ، وإسلامِ حصون المسلمين إليه في ذلك ، فمشت رجالات الأندلس ، وأعقابُ العرب منذ الدولة الأموية ، وأجمعوا على إخراجهم ، فساروا به لِحِيْنٍ واحد(٣) ، وأخرجوهم . وتولّى كِبْرَ ذلك محمد بن يوسف بن هود الجُذامي ، الثائر بالأندلس ، وابن مَرْدَنِيش وثوارٌ آخرون .

* * *

بنو الأحمر

وقال ابن خلدون : ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الأحمر . وتلقب محمد هذا بالشيخ ، فجاذَبَه الحبل . وكانت لكل واحدٍ منهما دولة أَورثها بنيه . انتهى .

ابن هود

وكان ابن هود يخطب للعباسي صاحب بغداد ، ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروبٌ وخطوب إلى أن كان آخرهم الواثقُ بن المتوكل . فضايقه الفنش والبرشلوني فبعث بالطاعة لابن الأحمر . فبعث إليه ابن

---

(١) انتزوا : تفلتوا وذهبوا . والأسياد : هم أقرباء الحكام الموحدين . كما تقدم قبل قليل .

(٢) الاستجاشة : الاستعانة وطلب المدد .

(٣) أي في وقت واحد .

أشقيلولة . وتسلم مُرْسِيَة منه . وخطب لابن الأحمر بها . ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر . فأوقع به النصارى في طريقه . ثم رجع الواثق إلى مُرْسِيَة ثالثةً . فلم يزل إلى أن ملكها العدوّ من يده سنة ثمان وستين وستمئة ، وعوّضه عنها حصناً يسمى يُسْر ، وهو من عملها ، فبقي فيه إلى أن هلك . وانقرضت دولة ابن هود . والله وارث الأرض ومَنْ عليها .

* * *

أصلهم :

قال ابن خلدون : أصلهم من أَرْجُونَةَ ، من حصون قرطبة . ولهم فيها سَلَفٌ من أبناء الجند . ويعرفون ببني نصر . وينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخَزْرَج . وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر . ويعرف بالشيخ . وأخوه إسماعيل . وكانت له وجاهة في ناحيتهم .

ولما فشلت ريح الموحّدين . وانتزى الثوار بالأندلس . وأعطى السادة حصونَها للطاغية . واستقلّ بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود . الثائر بمُرْسِيَة بدعوة العباسية . وتغلّب على شرق الأندلس أجمع . فتصدى الشيخ هذا للثورة عليه . وبويع له سنة تسع وعشرين وستمئة ، ودعا لأبي زكرياء صاحب إفريقية ، وأطاعته جَيّان وشَرِيش سنةَ ثلاثين بعدها . واستظهر على أمره(1) بقَرابته من بني نصر . وأصهاره بني أشقيلولة ، ثم بايع لبني هود ، سنة إحدى وثلاثين عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد .

* * *

(1) استظهر به : تقوى به ، وكأنه جعله لنفسه ظهراً يحميه .

خروجُ أبي مروان الباجي :

ثم ثار بإشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها . ورجوعه إلى مُرْسِيَة ،فداخَلَه محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوّجه ابنته ، فأطاعه . ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين . ثم فتك بابن الباجي فقتله . وتناول البطشَ به علي بن أشقيلولة . ثم راجع أهل إشبيلية بعدها بشهر دعوةَ ابنِ هود . وأخرج ابنَ الأحمر . ثم تغلب على غرناطة سنة خمسٍ وثلاثين بمداجاةِ أهلها حين ثار ابن أبي خالد بدعوته فيها . ووصلته بيعتها وهو بِجَيّان . فقدم عليها علي بن أشقيلولة . ثم جاء على أثره ونزلها . وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله . ثم تغلّب على مالَقة . ثم تناول المَرِيّة من يد ابن الرميمي وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاثٍ وأربعين . ثم بايعه أهل لُوْرقة سنة ثلاثٍ وستين .

وكان ابن الأحمر أولَ أمره وصل يده بالطاغية . استظهاراً على أمره . فعضده وأعطاه ابن هود ثلاثين حصناً في كفّ غَرْبِه(١) بسبب ابن الأحمر . وليعينه على مُلك قرطبة . فتسلمها ، ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمئة . أعادها الله .

ثم نازل إشبيلية سنة ستٍّ وأربعين وابنُ الأحمر معه . ثم دخلها صُلْحاً ، ومَلَكَ أعمالها . ثم ملك مُرْسية سنةَ خمسٍ وستين ، ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كُوْرَةً كُوْرَة ، وثَغْراً ثغراً إلى أن ألجأ المسلمين إلى سِيْفِ البحر(٢) ما بين رُنْدَةَ من الغرب ،

---

(١) الكف : المنع ، والغرب : حدة الشيء وقوته وشدته .

(٢) سيف البحر : شاطئه .

والبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحلَ من الغرب إلى الشرق ، وفي قدر مرحلةٍ أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف .

ثم سَخِط ابنُ الأحمر . وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه ، وتلاحق بالأندلس الغُزاة من بني مَرِيْن وغيرهم . وعقد ملك المغرب يعقوبُ بنُ عبدِ الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم فأجازوا في حدود الستين وستمئة . وتقبّل ابنُ الأحمر إجازتَهم . ودفع بهم في نحر عدوّه . ورجعوا . ثم تناسلوا إليه بعد ذلك . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمئة ، وولي بعده ابنه محمد الفقيه . وأوصاه باستصراخ بني مَرِيْن . ملوكِ المغرب بعد الموحّدين إن طَرَقَهُ أمرٌ أن يَعْتَضِد بهم. فأجاز الفقيهُ إلى يعقوب بن عبد الحق سلطانِ فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين. فأجاب صريخه ، وأرسل ابنه وعساكره معه . ثم أجاز على إثره ، وتسلّم الجزيرة الخضراء من ثائرٍ كان بها ، وخطّها ركايا لجهاده . ونزل إليه ابن الأحمر عن (طَريف) وما إليها من الحصون . وهزَم هو وابنُ الأحمر زعيمَ النصرانيةِ دَنَّنَة . وفرّق جَمْعَه . وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة . وبث سراياه وبعوثه في أرض النصرانية . ثم خاف ابنُ الأحمر على ملكه . وصالحَ الطاغيةَ . ثم عاد . انتهى كلام ابن خلدون ملخصاً .

وثبتت قَدَمُ عَقِبِ ابن الأحمر بالأندلس ، واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل : الجزيرة . وطريف . ورُنْدَة التي كانت بيد بني مَرِيْن .

وبعد مدةٍ ألَبّ ملوكُ النصارى سنة تِسْعَ عَشْرَةَ وسبعمئة على غرناطة ، وجاءها الطاغية (دون بِطْرُه) في جيشٍ لا يُحصى ، ومعه

خمسة وعشرون ملكاً ، وكان من خبر هذه الوقعة أن الإفرنج حشدوا وجمعوا . وذهب سلطانهم (دون بِطْرُه) إلى طُلَيْطِلَةَ ، ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا ، وسجد له ، وتضرع . وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس . وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغَرناطة وغيرها . وعزموا على الاستنجاد بالمَرِيْنيِّ أبي سعيد ، صاحبِ فاس . وأنفذوا إليه رسلاً . فلم ينجع ذلك الدواء(١) . فرَجعُوا إلى أعظم الأدوية . وهو اللّجأُ إلى الله تعالى . وأخلصوا النيات . وأقبل الإفرنج في جموعٍ لا تحصى ،فقضى ناصرُ مَنْ لا ناصرَ له سواه بهزم أمم النصرانية . وقتل طاغيتهُم (دون بطره) ومن معه . وكان نصراً عزيزاً ، ويوماً مشهوراً مشهوداً .

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس فرج بن نصر . المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصِّن البلادَ والثغور . فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء . فانتدب السلطانُ ابن الأحمر لردّهم . وجهز الأساطيل والرجال ؛ فلما رأوا ذلك طلبوا إلى طليطلة . وعزموا على استئصال المسلمين ، وتأهبوا لذلك غايةَ الأُهبة . ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار ، والأقوات في المراكب . ووصل العدو إلى غرناطة ، وامتلأت الأرض بهم ، فتقدم السلطان إلى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني بالخروج إلى لقائهم بأنجاد المسلمين(٢) وشجعانهم . فخرج إليهم يوم الخميس الموفي عشرين لربيع الأول .

---

(١) نجع الدواء : نفع .

(٢) الأنجاد : جمع (نجد) وهو الشجاع .

ولما كان ليلة الأحد أغارت سَرِيّةٌ من العدو على ضيعةٍ من المسلمين . فخرجت إليهم جماعةٌ من فرسان الأندلس الرماة . فقطعوهم عن الجيش . وفرت تلك السّرِيّةُ أمامهم إلى جهة سلطانهم . فتبعهم المسلمون إلى الصبح . فاستأصلوهم وكان هذا أولَ النصر .

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين . فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم ، في تلك الجيوش العظيمة . فركبوا ، وحملوا بجملتهم . فانهزم الفرنج أقْبَحَ هزيمة . ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد .

ومن العجب أنه لم يُقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً ، وقيل : عشرة أنفس . وقيل : كان عسكر الإسلام نَحْوَ ألف وخمسمئة فارس . والرجّالة نحواً من أربعة آلاف راجل . وقيل دون ذلك . وكانت الغنيمة لا توصف . وطلبت النصارى الهدنة ، فعُقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال سلطان فاس والمغرب . وهو جبل طارق . ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المَرِيني صاحبُ فاس والمغرب،بعد أن أنفق عليه الأموال . وصرف إليه الجنود والحشود . ونازلته جيوشه مع ولده وخَواصّه . وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين ؛ واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمالَ مالٍ في بنائه . وحصْنه . وسُوْرِه ، وأبراجه . وجامِعِه . ودُوْرِه ، ومخازنه ؛ ولما كاد يتم ذلك نازله العدوُّ براً وبحراً ، فصبر المسلمون ، وخيّب اللهُ سعيَ الكافرين ؛ فأراد السلطان المذكور أن يحصّن سفحَ الجبل بِسورٍ محيطٍ به من جميع

جهاته حتى لا يطمع عدوٌ في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المُحال ؛ فأنفق الأموال، وأنصف العمال . فأحاط بمجموعه إحاطةَ الهالة بالهلال ؛ وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة . وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر . وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان . ولما أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس ، واجتمع عليه ابن الأحمر . وقاتلهم الطاغية هزمهم في وقعة طريف . واستولى على الجزيرة الخضراء حتى قيّضَ اللهُ من بني الأحمر الغنيَّ بالله محمداً الذي كان لسان الدين بن الخطيب وزيرَه . فاسترجعها وجُمْلَةَ بلادٍ كَجَيّانَ وغيرها .

وكانت له في الجهاد مواقف مشهورة . وامتدَّ ملكُه واشتدَّ حتى محا دولةَ سلاطين فاس مما وراء البحر . ومَلَكَ جبلَ الفتح ، ونصر الله الإسلامَ على يده .

وبقي مُلكُ الأندلس في عقِبه إلى أن أخذَ ما بقي من الأندلس العدو الكافر . واستولَى على حَضْرَةِ المُلْكِ غَرْناطة ، أعادَها الله للإسلام . وخلت جزيرةُ الأندلس من أهْلِ الإسلام .

والسلطانُ الذي أخذَت على يده غَرْناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ، ومُحيتْ رُسومُها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله . واسطة عِقْدِهم ، ومُشيد مبانيهم الأنيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة . وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بِفاس . العائد منها لملكه في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل

قاتل سلطان النصارى (دون بطره) بمرج غرناطة ، ابن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الأنصاري ، الخزرجي . رحمهم الله تعالى جميعاً .

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمَليْلَة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه . متلهفاً على ما خلّفه ، وبنى بِفاس بعضَ قصور على طريق بنيان الأندلس . رأيتُها ودخلتها(١) ، وتوفي . - رحمه الله تعالى - بفاس عام أربعين وتسعمئة .

* *

(١) المقري مؤلف النفح .

الحكم والإدارة والمجتمع

صفات أهل الأندلس

قال صاحب (فرحة الأنفس)(١) : وأهل الأندلس عرَبٌ في الأنسابَ ، والعزة ، والأَنَفَة . وعُلُوّ الهمم ، وفصاحة الألسن ، وطِيْبِ النفوس ، وإِباءِ الضَّيْم . وقلة احتمال الذل ، والسماحة في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنيّة .

هِنْدِيُّونَ في إفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها ، وضبطهم لها ، وروايتهم .

بغداديون في نظافتهم ، وظَرْفهم ،ورِقّة أخلاقهم، ونباهتهم . وذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودةِ قرائحهم ، ولطافة أذهانهم ، وحدة أفكارهم ، ونفوذ خواطرهم .

يونانيون في استنباطهم للمياه ، ومعاناتهم لضروب الغِراسات ، واختيارهم لأجناس الفواكه ، وتدبيرهم لتركيب الشجر ، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر ، وصنوف الزهر .

فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ، ومنهم ابن بَصّال صاحب كتاب (الفلاحة) الذي شهدت له التجربة بفضله .

---

(١) عنوانه الكامل (فرحة الأنفس في فضلاء العمي من أهل الأندلس) للبلنسي أبي عبد الله محمد بن غالب ، الكاتب الوزير المتوفى سنة ٧٦٧ هـ .

وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ، ومقاساة النَّصَبِ في تحسين الصنائع ؛ أحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب .

* * *

نبذة من تاريخ الحكم في الأندلس منذ الفتح :

كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاةِ عليها(١) . من سلاطين إفريقية ، واختلافُ الولاة داعٍ إلى الاضطراب ، وعدم تأثُّل(٢) الأحوال ، وتربية الضخامة في الدولة .

ولما صارت الأندلس لبني أمية ، وتوارثوا ممالكها ، وانقاد إليهم كل أبيٍّ فيها ، وأطاعهم كلُّ عَصِيٍّ . عَظُمت الدولة بالأندلس ، وكبرت الهمم ، وترتبت الأحوال ، وترتبت القواعد(٣) ، وكانوا ، صدراً من دولتهم – يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف ؛ ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من برِّ العُدْوَةِ ما ضَخُمَتْ به دولتهم ؛ وكانت قواعدهم إظهارَ الهيبة ، وتمكن الناموس من قلوب العالم ؛ ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل بأقوالهم ، وإحضارهم في مجالسهم ، واستشارتهم . ولهم حكايات في تاريخ ابن حيّان : منها ما هو مذكورٌ من توجُّه الحكم على خليفتهم ، أو على ابنه أو أحدِ حاشيته المختصين(٤) . وأنهم كانوا في نهايةٍ من

---

(١) يريد باختلاف الولاة تعاقبهم على حكمها .

(٢) عدم تأثل الأحوال : أي عدم ثباتها أو استقرارها .

(٣) ترتبت الأحوال : انتظمت ووضع كل شيء في موضعه .

ترتبت القواعد : استقرت وتمكنت وثبتت .

(٤) يريد أن القضاة كانوا يحكمون على هؤلاء بحقوق الآخرين .

الانقياد إلى الحق لهم أو عليهم ؛ وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة ؛ ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتّك أمرهم ثم اضمحلّ .

وكانت ألقاب الأُوَل منهم : الأمراء ، أبناء الخلائف ، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين إلى أن وقعت الفتنة بِحَسَدِ بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رُتِّبَتْ عليه . فاستبدّت ملوكُ الممالك الأندلسية ببلادها ، وسُمُّوا بملوك الطوائف . وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين ، وإن لم يبق لهم خلافة ، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المُجْمَعِ على إمامتهم .

وصار ملوك الطوائف يَتَباهَوْنَ في أحوال الملك ، حتى في الألقاب ، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بِنُعُوْتِ الخلفاء ، وترفّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ؛ وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفّه والضخامة التي تتوزع على ملوكٍ شتى فتكفيهم ، وتنهض بهم للمباهاة ، ولأجل توثّبهم على النعوت العباسية . قال ابن رشيقٍ القيرواني(١) :

مما يُزَهِّدُني في أرضِ أندلسٍ
تلقيبُ مُعْتَضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها
كالهرِّ يحكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأسدِ

وكان عبّاد بن محمد بن عبّاد قد تلقب بالمُعْتَضِد ، واقتفى سيرةَ المعتضد العباسي أميرِ المؤمنين . وتلقّب ابنُه محمد بن عبّاد بالمعتمد ، وكانت لبني عبّاد مملكة إشبيلية ، ثم انضاف إليها غيرُها .

---

(١) نسب ابن خلكان هذين البيتين لأبي بكر بن عمار ، وذكر أنهما من الأسباب التي حملت المعتمد بن عباد على قتل ابن عمار . (انظر وفيات الأعيان لابن خلكان) .

وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الأحيان ، على أُبَّهَةِ الخلافة . وقانون لهم في ذلك معروف ، إلى أن كانت الفتنة ، فازْدَرَتِ العيونُ ذلك الناموس . واستخفّت به .

وقد كان بنو حَمُّود من ولد إدريس العَلَوِيّ الذين تَوَثّبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون ، ويأخذون أنفُسَهم بما يأخذها خلفاء بني العباس ؛ وكانوا إذا حضرهم منشد المدح ؛ أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب ، والحاجب واقفٌ عند السِّتْر يجاوب بما يقول له الخليفة ؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبوني(١) أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمُّودي الذي خُطب له بالخلافة في مالَقَة ؛ وأنشده قصيدته المشهورة النونية التي منها قولُه :

وكأنَّ الشمسَ لمّا أشْرَقَتْ
فانْثَنَتْ عنها عُيونُ الناظرينْ

وجهُ إدريسَ بنِ يحيى بنِ عليّ
بنِ حَمُّودٍ أميرِ المؤمنينْ

وبلغ فيها إلى قوله :

انظُرونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُوْرِكم
إنه من نُوْرِ ربِّ العالمينْ

---

(١) اسمه عبد الرحمن ، وكنيته أبو زيد ، وهو أديب أندلسي أشبوني ، نسبة إلى أشبونة ، وهي مدينة متصلة بشنترين قريبة من البحر المحيط ، يوجد على ساحلها العنبر الفائق ، ويقال فيها (لشبونة) ، وهي اليوم عاصمة دولة البرتغال .

رفع الخليفةُ السِّتْرَ بنفسه وقال : انظر كيف شئت ، وانبسطَ مع الشاعر ؛ وأحْسَنَ إليه .

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يَتَبَسَّطُونَ للخاصَّة وكثيرٍ من العامة ، ويُظهرون مداراةَ الجندِ وعوامِّ البلد ؛ وكان أكثرهم يحاضر العلماءَ والأدباء . ويحب أن يشتهر عنه ذلك عند مباديه في الرياسة .

ومذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبدادَ عن إمامِ الجماعة ، وصار في كلِ جهةٍ مملكةٌ مستقلة يتوارث أعيانُها الرياسة . كما يتوارث ملوكُها المُلْكَ . ومَرَنُوا على ذلك(١) فصَعُب ضبطُهم إلى نظام واحد ، وتمكنَ العدوُّ منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع ؛ إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبَنيه ، وتلك القواعدُ في رؤوسهم كامنة . والثوار في المعاقل تثور ؛ وتَرومُ الكَرَّةَ(٢) إلى أن ثار ابنُ هُوْدٍ . وتلقب بالمتوكل . ووجد القلوبَ منحرفةً عن دولة بَرِّ العُدْوَة ، مهيأةً للاستبداد ؛ فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهلِ المُفْرِط . وضعفِ الرأي ؛ وكان(٣) مع العامّةِ كأنه صاحبُ شَعْوَذَةٍ . يمشي في الأسواق . ويضحك في وجوههم ، ويبادرهم بالسؤال . وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطانٍ ، فأعجب ذلك سُفَهاءَ الناس وعامّتَهم العَمْياء ؛ وكان كما قيل :

---

(١) مرنوا على ذلك : تعودوه .

(٢) الكرة : الرجوع إلى ما كانوا عليه .

(٣) أي ابن هود .

أمــــــورٌ يضحك السفهــــاءُ منهـــا
ويبكي من عــــــواقبهـــــا الحليـــمُ

فآلَ ذلك إلى تَلَفِ القواعد العظيمة . وتملُّكِ الأمصار الجليلة(١) . وخروجها من يد الإسلام .

* * *

(١) الأمصار : جمع (مصر) وهو البلد الكبير .

خَراجُ الأندلس وجباية الأموال

وكان مبلغُ خَراجِ الأندلس الذي كان يؤدّى إلى ملوك بني أمية قديماً ثلاثمئة ألف دينار ، دراهم أندلسية ، كلَّ سنةٍ قوانين ، وعلى كل مدينةٍ من مدائنهم مالٌ معلوم ، فكانوا يُعطون جُنْدَهم ورجالَهم الثلث من ذلك مئة ألف دينار ، وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومُؤَنِ أهلهم مئة ألف دينار ، ويدّخرون لحادثِ أيامهم مئة ألف دينار .

* * *

مالُ الجباية أيام عبد الرحمن الأوسط :

انتهى مال الجباية في أيام عبد الرحمن الأوسط إلى ألف ألف دينار في السنة ، وكان قبلُ لا يزيد على ستمئة ألف .

* * *

مال الجباية أيام المنذر بن محمد :

قال ابن خلدون : كان خراج الأندلس قبل المنذر بن محمد ثلاثمئة ألف دينار : مئة ألف للجيوش ، ومئة ألفٍ للنفقة في النوائب ، وما يَعْرِض ، ومئة ألف ذخيرةً ووفراً ، فأنفق الوَفْرَ حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثوار والمتغلبين في تلك السنين ، وقلَّ الخراج .

* * *

بيوت المال أيام عبد الرحمن الناصر :

قال ابن خلدون : خلّف الناصرُ في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف . ثلاثَ مرات .

وقال غير واحد : إنه كان يقسم الجبايةَ أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مُدّخَر . وكانت جباية الأندلس يومئذٍ من الكُوَر والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمئة ألف وثمانين ألف دينار . ومن السوق والمستخلَص سبعمئة ألف وخمسةٌ وستين ألفَ دينار ؛ وأما أخماسُ الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان .

* * *

الوزارة :

وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعةٍ يُعَيِّنُهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير ، فيسميه الحاجب .

وكانت هذه المراتبُ لضبطها عندهم ، كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف : فكان الملك منهم — لِعِظَم اسم الحاجبِ في الدولة المروانية . وأنه كان نائباً عن خليفتهم — يسمى بالحاجب ، ويرى أن هذه السِّمَةَ أعظمُ ما تُنُوْفِسَ فيه وظُفر به ؛ وهي موجودةٌ في أمداح شعرائهم وتواريخهم ، وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم . وصار الوزير

الذي ينوب عن الملك يُعْرف بذي الوزارتين . وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب . وقد لا يكون كذلك . بل عالماً بأمور المُلك خاصةً .

* * *

صاحب الخَراج

وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير . وأكثر أتباعاً وأصحاباً ، وأجدى منفعةً ، فإليه تميل الأعناق . ونحوَه تُمَدُّ الأكُفُّ . والأعمال مضبوطة بالشهود والنُّظّار . ومع هذا إن تأثَّلَتْ حالته(١) ، واغتر بكثرة البناء والاكتساب نُكِبَ وصُودِرَ . وهذا راجعٌ إلى تقلُّب الأحوال . وكيفية السلطان .

* * *

الوظائف الكتابية

وأما الكتابة فهي على ضربين :

أعلاهما كاتب الرسائل . وله حظٌّ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس . وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السِّمَةِ يَخُصُّه مَنْ يعظِّمه في رسالة . وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة . لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظةً . فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلُّط الألسن في المحافل . والطعن عليه وعلى صاحبه .

---

(١) تأثل : تأصل .

والكاتب الآخر كاتب الزِّمام . هكذا يعرفون كاتب الجَهْبَذَة(١) ، ولا يكون بالأندلس وبَرِّ العُدْوَةِ لا نصرانياً ولا يهودياً البَتّةَ ، إذ هذا الشغل نبيه(٢) يحتاج إلى صاحبه عظماءُ الناس ووجوهُهم .

* * *

القضاء

وأما خُطّةُ القضاء بالأندلس فهي أعظم الخُطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين . وكون السلطان لو توجّه عليه حُكْمٌ حضر بين يدي القاضي . هذا وصفها في زمان بني أمية ، ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيلَ أن يتّسمَ بهذه السِّمَةِ إلا مَنْ هو والٍ للحكم الشرعي ، في مدينة جليلة ؛ وإن كانت صغيرة فلا يُطْلَقُ على حاكمها إلا مُسَدَّد ، خاصة .

وقاضي القضاة يقال له : قاضي القضاة . وقاضي الجماعة .

* * *

الشرطة

وأما خُطّةُ الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن . معروفة بهذه السِّمَة ، ويُعرف صاحبُها في ألْسُنِ العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل .

---

(١) الجهبذ : (بفتح الجيم وسكون الهاء وفتح الباء ، أو بكسر الجيم وسكون الهاء وكسر الباء) : الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء ، والجمع جهابذة . وهو معرب من الفارسية ، وفارسيته (كهبذ) . والجهبذة : مصدر ذلك أي معرفة تمييز الجيد من الرديء .

(٢) نبيه : رفيع القدر ، عالي الشأن .

وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتلُ لمن وجب عليه دون استئذان السلطان . وذلك قليل . ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم .

وهو الذي يَحُدُّ على الزنى . وشرب الخمر ، وكثيرٌ من الأمور الشرعية راجعٌ إليه ، قد صارت تلك عادة تَقَرَّرَ عليها رضى القاضي ؛ وكانت خطة القاضي أوفر وأتقى عندهم من ذلك .

* * *

الحسبة

وأما خُطّةُ الاحتساب فإنها عندهم موضوعةٌ في أهل العلم والفِطَن . وكأنَّ صاحبَها قاضٍ .

والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانُه معه . وميزانُه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان . لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان ، للربع من الدرهم رغيف على وزنٍ معلوم ، وكذلك للثمن ؛ وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبيَّ الصغيرَ أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان . وكذلك اللحم . تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدَّ له المحتسب في الورقة .ولا يكاد تخفى خيانته ؛ فإن المحتسبَ يَدُسُّ عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر الوزنَ المحتسبُ ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس.

فلا تسأل عما يَلْقى . وإن كثر ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والتجريس(١) في الأسواق نُفي من البلد .

ولهم في أوضاع الاحتساب قوانينُ يتداولونها ويتدارسونها كما تُتَدارَسُ أحكام الفقه ، لانها عندهم تدخل في جميع المبتاعات . وتتفرع إلى ما يطول ذكره .

* * *

العَسَس

وأما خُطّةُ الطواف بالليل ، وما يقابل من المَغْرِب أصحابَ أرباع في المشرق فإنهم يعرفون في الأندلس بالدّرابين ، لأن بلاد الأندلس لها دروبٌ بأغلاق(٢) تُغْلَق بعد العَتَمة . ولكل زقاقٍ بائتٌ فيه(٣) ، له سراجٌ معلّق . وكلبٌ يسهر ، وسلاحٌ مُعَدٌّ ؛ وذلك لشطارة عامتها ، وكثرة شرّهم ، وإعيائهم في أمور التّلصُّص . إلى أن يظهروا على المباني المشيدة . ويفتحوا الأغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم ، أو يطالبهم بعد ذلك ؛ ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع (دار فلان دُخلت البارحة) و (فلانٌ ذبحه اللصوص على فراشه) ؛ وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة

---

(١) الأصل في هذه المادة الجرس المعلوم ، وهو أداة من أدوات الإعلان والتشهير ثم قالوا : (جرس فلان فلاناً) إذا فضحه وشهر به وأعلن على الملأ مساوئه ، ونَدد عليه بها ، وكأنما وضع في رقبته جرساً . وعامة أهل الشام تنطقها بالصاد (جرص) .

(٢) الأغلاق : جمع (غلق) بفتح الغين واللام : القفل ونحوه . ويطلق في بلاد الشام على الباب الحديدي للحانوت . ولعل المراد هنا أبواب حديدية للدروب .

(٣) أي من يبيت فيه من الحراس .

الوالي ولِينِه ، ومع إفراطه في الشدة . وكون سيفه يقطر دماً ، فإن ذلك لا يُعْدَم .

وقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقودٍ سرقه شخصٌ من كَرْمٍ وما أشبه ذلك ، ولم ينته اللصوص .

* * *

المجتمع الأندلسي

تَدَيُّنُ أهلِ الأندلس

وأما قواعد أهل الأندلس في ديانتهم فإنها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين ، ولكن الأغلبَ عندهم إقامةُ الحدود(١) . وإنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك وإنكاره وإن تهاون فيه أصحابُ السلطان .

وقد يَلجُ السلطانُ في شيء من ذلك ولا ينكره فيدخلون عليه قصره المشيد . ولا يعبؤون بِخَيْلِهِ ورَجِله(٢) حتى يُخرجوه من بلدهم . وهذا كثير في أخبارهم .

وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكلَّ يوم .

* * *

أزياء الأندلسيين

أزياء المدنيين :

وأما زيُّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لا سيما في شرق الأندلس ، فإن أهلَ غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً

---

(١) الشرعية ، كقطع يد السارق وقتل القاتل .

(٢) يريد من بالخيل: الفرسان لأنهم يركبونها ، ويريد بالرجل : الرجالة الذين يسيرون على أقدامهم .

مشاراً إليه إلا وهو بعمامة ؛ وقد تسامحوا بشرقها في ذلك . ولقد رأيتُ عزيزَ بن خطّاب(١) أكبرَ عالمٍ بمُرْسيَة، في حضرةِ السلطان في ذلك الأوان : وإليه الإشارة ، وقد خطب له بالمُلكِ في تلك الجهة وهو حاسرُ الرأس ، وشَيْبُه قد غلب على سواد شعره .

وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعِمّةٍ في شرقٍ منها أو غرب .

وابن هود : ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عِمامة .

وكذلك ابنُ الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده .

وكثيراً ما يتزيّا سَلاطينُهم وأجنادُهم بزيِّ النصارى المجاورين لهم فسلاحُهم كسلاحهم . وأقبيتُهم من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم ؛ وكذلك أعلامُهم وسروجهم .

* * *

أزياء العسكريين :

ومحاربتهم بالتِّراس والرماح الطويلة للطعن . ولا يعرفون الدبابيس(٢) : ولا قِسِيَّ العرب(٣) . بل يعدُّون قِسِيَّ الإفرنج

(١) نسبه إلى جد أبيه ، وهو عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب . كان رئيس مرسية ، وقتل سنة ٦٣٦ هـ .

والقائل هنا هو ابن سعيد صاحب كتاب (المغرب) المتوفى سنة ٦٨٥ هـ .

(٢) الدبابيس : جمع (دبوس) وهو هنا عصا من خشب أو حديد في رأسها شيء كالكرة .

(٣) القسي : جمع (قوس) .

للمحاصرات في البلاد ، أو تكون للرّجّالة عند المُصافَفَة للحرب(١) ، وكثيراً ما تصبر الخيل عليهم ، أو تمهلهم لأن يؤثروها .

ولا تجد في خواص الأندلس وأكثرِ عَوامّهم من يمشي دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظّمون .

وغفائر الصوف(٢) كثيراً ما يلبسونها حُمْراً وخضراً ، والصُّفْرُ مخصوصة باليهود ولا سبيلَ ليهودي أن يتعمّم البَتّةَ .

والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يُسْدِلونَها من تحت الأذن اليسرى .

وهذه الأوضاع التي بالمشرق(٣) في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس ؛ وإن رأوا في رأس مشرقيٍّ داخلٍ إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف . ولا يأخذون أنفسهم بتعلمها . ولم يستحسنوا غير أوضاعهم . وكذلك في تفصيل الثياب .

* * *

العناية بالنظافة :

وأهل الأندلس أشد خلقِ الله اعتناء بنظافة ما يَلْبَسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم .

وفيهم من لا يكون عنده إلا قُوتُ يومِهِ فيطويه صائماً(٤) ، ويبتاع صابوناً يغسل فيه ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها .

* * *

(١) الصواب (المصافة) بتشديد الفاء . وهي اصطفاف الجنود ووقوفهم صفوفاً .

(٢) الغفائر : جمع (غفيرة) أو (غفارة) وهي لباس يغطي العنق والقفا ، وتطلق أيضاً على لباس على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ويتدلى منه شيء على القفا .

(٣) يريد بالمشرق بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية .

(٤) يطويه : من الطوى ، وهو الجوع ، أو أن يتعمد البقاء دون طعام .

التدبير والتحوط :

وهم أهل احتياطٍ وتدبيرٍ في المعاش ، وحفظٍ لما في أيديهم خوفَ ذُلّ السؤال ، فلذلك قد يُنْسَبون للبخل .

ولهم مُروءات . على عادة بلادهم ، لو فَطِن لها حاتم(١) لفضّل دقائقها على عظائمه .

ولقد اجتزت مع والدي(٢) على قريةٍ من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشدّ النَّيْل ، فأوينا إليها ، وكنا على حال تَرَقُّبٍ من السلطان ، وخُلُوٍّ من الرفاهية . فنزلنا في بيت شيخٍ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم به فحماً تُسَخِّنون به فإني أمضي في حوائجكم ، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحماً ، فأضرم ناراً ، فجاء ابنٌ له صغير ليصطلي ، فضربه ، فقال له والدي : لِم ضَرَبْتَه ؟ فقال : يتعلم استغنام أموال الناس ، والضجرَ للبرد من الصِّغَر . ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعطِ هذا الشابّ كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه ، فدفع كساءه إليّ ؛ ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبيّ منتبهاً ويده في الكساء ، فقلت ذلك لوالدي ، فقال : هذه مروءات أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم . أعطاك الكساء ، وفضّلكَ على نفسه ، ثم أفكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص . فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه

---

(١) يريد حاتم الطائي ، الشاعر العربي الجاهلي المشهور بالكرم .

(٢) القائل هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، صاحب كتاب (المغرب في حلى المغرب) . المتوفى سنة ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م .

خوفاً من انفصالك به وهو نائم . وعلى هذا للشيء الحقير فَقِس الشيء الجليل .

* * *

امتناع التسول :

قال ابن سعيد : وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدورة التي تُكَسِّلُ عن الكد ، وتخرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحةٌ عندهم إلى النهاية ، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلبُ سَبُّوه وأهانوه ، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحبَ عذر .

* * *

الخدمة في القصور

وقال بعض من أرخ الأندلس : كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتىً وسبعمئة وخمسين فتىً ، ودُخالَتُهم من اللحم(١) كلَّ يوم ـ حاشا أنواع الطير والحوت ـ ثلاثة عشر ألف رطل ؛ وعدة النساء بقصر الزهراء الصغارِ والكبارِ . وخَدَم الخدمة ستة آلاف وثلاثمئة امرأة وأربع عشرة .

---

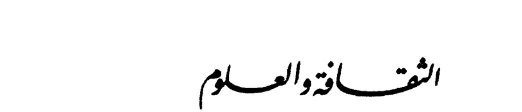
(١) الدخالة : ما يدخل عليهم .

وقيل: إن عدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمئة وخمسون. وجعل بعضٌ مكانَ الخمسين سبعةً وثمانين(١) .

وقال آخر : ستة آلاف صقلبي وسبعة وثمانون ؛ والمرتّب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ، ويُنقع لها من الحِمَّص الأسود ستة أقْفِزَة كلَّ يوم(٢) .

* * *

(١) أي ٣٧٨٧ صقلبياً .
(٢) الأقفزة : جمع (قفيز) وهو مكيال يسع ما وزنه نحو ٢٧,٨ كغ ، أو هو مكيال يتواضع الناس عليه بتعدد أقطارهم .


الثقافة والعلوم

اهتمام الأندلسيين بالعلم :

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرَصُ الناس على التميز ؛ فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه (١) أن يُرى فارغاً . عالةً على الناس . لأن هذا عندهم في نهاية القُبح ؛ والعالمُ عندهم معظم من الخاصّة والعامّة . يشار إليه . ويُحال عليه ، ويَنْبُهُ قَدْرُه وذكرُه عند الناس ، ويُكْرَمُ في جوارٍ أو ابتياع حاجة ، وما أشبه ذلك .

ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارسُ تُعينهم على طلب العلم ؛ بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرةٍ ، فهم يقرؤون لأن يَتعلّموا ، لا لأن يأخذوا جارياً (٢) ؛ فالعالمُ منهم بارعٌ لأنه يطلب ذلك العلم بباعثٍ من نفسه يحمله على أن يترك الشغلَ الذي يستفيد منه . وينفق من عنده حتى يعلم .

(١) يربأ بنفسه : يرفعها .

(٢) المراد بالجاري هنا : المرتب الذي يأخذه ، ويسمى وظيفة أيضاً . وأما تسمية أهل عصرنا العمل وظيفة فهي من باب تسمية الشيء باسم سببه ، لأن العمل سبب الوظيفة التي هي الراتب .

وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإنّ لهما حظاً عظيماً عند خَواصّهم . ولا يتظاهر بها خوفَ العامة ، فإنه كلما قيل : (فلان يقرأ الفلسفة) أو (يشتغل بالتنجيم) أَطْلَقَتْ عليه اسم زِنْدِيْق ، وقيّدت عليه أنفاسَه . فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان . أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة . وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت . وبذلك تقرَّب المنصور ابن بي عامر لقلوبهم أوّلَ نهوضه ، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن . على ما ذكره الحِجاري ، والله أعلم .

وقراءة القرآن بالسبع (١) . ورواية الحديث عندهم رفيعة .

وللفقه رونقٌ ووجاهة . ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك . وخواصّهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم .

وسِمَةُ الفقيه عندهم جليلة . حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم ، الذي يريدون تنويهه (٢) بالفقيه ، وهي الآن (٣) بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق . وقد يقولون للكاتب والنّحْوي واللغوي فقيه . لأنها عندهم أرفع السّمات .

وعلم الأصول عندهم متوسط الحال(٤) .

(١) أي بالقراءات السبع .
(٢) نوه به : رفعه ، وقواه ، وعرفه .
(٣) أي سمة الفقيه .
(٤) أي علم أصول الدين أو أصول الفقه .

والنحو عندهم في نهايةٍ من علو الطبقة . حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هَرَمِ الزمانِ إلا جِدَّةً ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه . وكل عالمٍ في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو – بحيث لا تخفى عليه الدقائق – فليس عندهم بمستحقٍّ للتمييز ، ولا سالمٍ من الازدراء ؛ مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشَّلَوْبِيني أبي علي(١) المشارِ إليه بعلم النحو في عصرنا ، الذي غَرَّبَتْ تصانيفُه وشرَّقَتْ ، وهو يُقرىء دَرْسَه لضحك بملء فيه . من شدة التحريف الذي في لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب ، وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه . ولكن ذلك مُراعىً عندهم في القراءات والمخاطبات بالرسائل .

وعلم الأدب المنثور : من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرَفات الحكايات أَنْبَلُ علمٍ عندهم . وبه يُتَقَرَّبُ من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومَنْ لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غُفْلٌ مُسْتَثْقَل (٢) .

* * *

(١) هو أبو علي عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي الأندلسي الإشبيلي النحوي . المعروف بالشلوبيني . كان إماماً في النحو ، مستحضراً له غاية الاستحضار . توفي سنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م .

(٢) الغفل من الرجال : من ليس له حسب ولا تجربة . والمراد هنا أن الناس يهملونه ولا يجعلون له قيمة ، ولا يعاملونه معاملة النابهين وذوي الأقدار .

منزلة الشعر عندهم :

والشعر عندهم له حظ عظيم ؛ وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم حظٌ ووظائف(١) . والمجيدون منهم يُنْشِدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة . ويوقّع لهم بالصِّلات على أقدارهم ، إلا أن يختلّ الوقت ، ويغلب الجهل في حينٍ ما . ولكن هذا الغالب ؛ وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يَعْظُم في نفسه لا محالة . ويَسْخُفُ ويظهر العُجب عادةٌ قد جُبِلوا عليها .

* * *

عنايتهم بالكتب :

ومن محاسن قرطبة ظَرْفُ اللباس ، والتظاهر بالدين ، والمواظبة على الصلاة ، وتعظيم أهلها لجامعها العظيم . وكسر أواني الخمر حيثما وقع عين أحدٍ من أهلها عليها ، والتستّر بأنواع المنكرات ، والتفاخر بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم .

وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأهلُها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب . صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يَحْتَفِلُ أن تكون في بيته خزانة كتب . وينتخب فيها ، ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب . والكتاب الفلاني ليس عند أحدٍ غيره . والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصّله وظفر به .

---

(١) الوظائف : جمع وظيفة ، وهي هنا المرتب الذي يأخذونه .

قال الحضرمي : أقمت مرةً بقرطبة ، ولازمتُ سوقَ كُتُبها مدةً أترقب فيه وقوعَ كتابٍ كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع ، وهو بخط فصيح ، وتفسير مليح ، ففرحْتُ به أشدّ الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه. فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا ، أرِني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي . قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوتُ منه ، وقلت له : أعزّ الله سيدَنا الفقيه ، إن كان لك غرضٌ في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوقَ حَدِّه . قال : فقال لي : لستُ بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب ، واحتفلتُ فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضعٌ يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد ، استحسنتُه ، ولم أبالِ بما أزيْدُ فيه . والحمد لله على ما أنعم من الرزق ، فهو كثير .

قال الحضرمي : فأحرجني ، وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطي الجوز مَنْ لا له أسنان ، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندي قليلاً ، وتَحُولُ قلة ما بيدي بيني وبينه .

* * *

محبة الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر للعلم والعلماء والكتب :

وكان الحكم محباً للعلوم ، مكرماً لأهلها ، جَمّاعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحدٌ من الملوك قبله .

قال أبو محمد بن حزْم : أخبرني تَليد الخصِيّ – وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان – أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعٌ وأربعون فهرسة . وفي كل فهرسة عشرون ورقة . ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير .

وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة (١) . جُلبت إليها بضائعه من كل قطر .

قال أبو محمد بن خلدون . ولما وفد على أبيه أبو علي القالي (٢) ، صاحب كتاب (الأمالي) من بغداد أكرم مثواه . وحَسُنَتْ منزلته عنده . وأورث أهلَ الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر . واستفاد علمه .

وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار . ويرسل إليهم الأموال لشرائها . حتى جَلَبَ منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وبعث في كتاب (الأغاني) إلى مصنِّفه أبي الفرج الأصفهاني – وكان نسبه في بني أمية – وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العَيْن ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . وأمثال ذلك . وجمع بداره الحُذّاق في صناعة النسخ ، والمَهَرَة في الضبط والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله (٣) .

---

(١) نفقت السوق : راجت وكثر طالبو ما فيها .

(٢) وهو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون ، أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب . له مصنفات . توفي سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م .

(٣) تقول : (أوعى الشيء والكلام إيعاء) تريد أنه حفظه وجمعه . وأوعى الزاد والمتاع : جعله في وعاء وجمعه فيه .

واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحدٍ من قبله ولا من بعده ، إلا ما يُذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء .

ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرُها في حصار البربر وأمر بإخراجها وبيعها الحاجبُ واضح من موالي المنصور بن أبي عامر ، ونُهِبَ ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة ، واقتحامهم إياها عَنْوَةً .

وقال بعض المؤرخين في حقّ الحَكَم : جمع من الكتب ما لا يُحَدُّ ولا يوصف كثرةً ونَفاسةً . حتى قيل : إنها كانت أربعمئة ألف مجلّد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها .

وسمع من قاسم بن أصبغ ، وأحمد بن دُحَيْم ، ومحمد بن عبد السلام الخُشَني ، وزكريا بن خَطّاب وأكثر عنه ؛ وأجاز له ثابت ابن قاسم ، وكتب عن خلقٍ كثيرٍ سوى هؤلاء .

وكان يَسْتَجْلِبُ المصنّفاتِ من الأقاليم والنواحي، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا غرامٍ بها، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودَقَّ نظره ، وجمَّت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أَحْوَذِياً (١) ، نسيجَ وحدِه ؛ وكان ثقةً فيما ينقله . بهذا وصَفَه ابن الأبّار وبأضعافه وقال : عجباً لابن الفَرَضي وابن بَشْكُوال كيف لم يذكراه. وقلّما يوجد كتابٌ من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فنٍّ كان ، ويكتب فيه نسبة المؤلف ، ومولده ، ووفاته ، ويأتي من بعد بغرائبَ لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن .

(٢) الأحوذي : السريع في كل ما أخذ فيه .

أنواعُ العلومِ وحركةُ التأليف

من رسالة لابن حزم الأندلسي يذكر فيها أنواع العلوم وحركة التأليف في الأندلس :

قال ابن حزم : وأما جهتنا في ذلك ما جرى به المَثَل : « أزْهَدُ الناس في عالمٍ أهلُه » .

وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام – قال : « لا يفقد النبيُّ حُرْمَتَهُ إلا في بلده » .

وقد تيَقَّنَّا ذلك بما لقي النبي – صلى الله عليه وسلم – من قريش . وهم أوفرُ الناس أحلاماً (١) . وأشدُّهم تَثَبُّتاً ، مع ما خُصُّوا به من سكناهم أفضلَ البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ، حتى خص الله تعالى الأَوْسَ والخَزْرَجَ (٢) بالفضيلة التي أبأنَهم بها عن جميع الناس(٣) ، والله يؤتي فضله من يشاء .

ولا سيَّما أندلسنا فإنها خُصَّتْ من حسد أهلها للعالِمِ الظاهر فيهم ، الماهرِ منهم ، واستقلالهم كثيرَ ما يأتي به (٤) ، واستهجانهم

---

(١) الأحلام : جمع (حلم) بكسر فسكون : العقل والأناة .

(٢) الأوس والخزرج : هم أهل المدينة النبوية المنورة الذين هاجر إليهم رسول الله .

(٣) أبانهم : ميزهم وأظهرهم .

(٤) استقلالهم : رأوه قليلا .

حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدّة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارقٌ مُغير ، ومنتحلٌ مُدّعٍ ، وإن توسط قالوا : غثٌّ بارد ، وضعيفٌ ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السّبْق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلّم ؟ وفي أي زمانٍ قرأ ؟ ولأمّه الهبَل (١) .

وبعد ذلك إن وَلجتْ به الأقدارُ أحد طريقين ، إما شُفوفاً بائناً يُعْليه على نُظَرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهنالك حَمِيَ الوطيس (٢) على البائس ، وصار غَرَضاً للأقوال (٣) ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعُرْضَةً للتطرق إلى عِرْضِه ؛ وربما نُحِل ما لم يَقُل ، وطُوِّقَ ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يَفُهْ به ولا اعتقده قلبه ، وبالحَرِيّ وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من السلطان بحظٍّ أن يَسْلَم من المتالف ، وينجو من المخالف ؛ فإن تعرض لتأليف غُمِزَ ولُمِز ، وتعرَّض وهُمِز ، واشتُطَّ عليه ، وعَظُم يسيرُ خَطْبِه ، واستُشْنِعَ هيِّنُ سقَطِه ، وذهبت محاسنه ، وسُتِرت فضائلُه ، وهُتِف ونُودي بما أغفل ، فتنكسرُ لذلك همته ، وتكِلُّ نفسُه ، وتَبْرُدُ حَمِيَّتُه ، وهكذا عندنا نصيبُ من ابتدأ يحوك شِعْراً ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يُفْلِت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النُّصُب إلا الناهضُ الفائت ، والمطفف المستولي على الأمد .

---

(١) الهبل : الثكل ، وهو فقدان الولد ، ويستعار لفقد العقل والتمييز .

(٢) الوطيس : التنور ، أو شبهه يختبز فيه ويشتوي ، أو حجارة مدورة إذا حميت لا يمكن أن توطأ .

(٣) الغرض : الهدف الذي يرمى فيه الشيء المقصود .

وعلى ذلك جُمع ما ظنه الظانُّ غيرَ مجموع . وأُلِّفَتْ عندنا تآليف في غاية الحسن ، لنا خطر السبق في بعضها .

فمنها كتاب (الهداية) لعيسى بن دينار ، وهي أرفع كتبٍ جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب . فمنها كتاب الصلاة ، وكتاب البيوع ، وكتاب الجدار في الأقضية ، وكتاب النكاح والطلاق .

ومن الكتب المالكية التي أُلِّفت بالأندلس كتاب القصيّ مالك بن علي ، وهو رجلٌ قرشي من بني فِهْر ، لقي أصحابَ مالك ، وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسنٌ فيه غرائب ومُسْتَملحات من الرسائل المولّدات .

ومنها كتاب أبي إسحاق إبراهيم بن مزين في تفسير (المُوَطّأ)(١) ؛ والكتب المستقصية لمعاني (المُوَطّأ) وتوصيل مقطوعاته من تآليف ابن مزين أيضاً ؛ وكتابُه في رجال (الموطأ) وما لمالك عن كل واحدٍ منهم من الآثار في (مُوَطّئِه) .

وفي تفسير القرآن : كتاب أبي عبد الرحمن بقِيّ بن مَخْلَد . فهو الكتاب الذي أَقْطَعُ قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلَّف في الإسلام تفسيرٌ مثلُه ، ولا تفسير محمد بن جرير الطَّبَرِيّ ، ولا غيره .

ومنها في الحديث مصنَّفُه الكبير الذي رتّبه على أسماء الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – فروى فيه عن ألف وثلاثمئة صاحبٍ

(١) كتاب الموطأ لا بن مالك ، في الحديث .

ونَيِّفٍ ، ثم رتّب حديث كل صاحبٍ على أسماء الفقه وأبواب الأحكام . فهو مصنَّفٌ مُسْنَدٌ . وما أعلمُ هذه الرتبة لأحدٍ قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث ، وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مئتي رجلٍ وأربعةٍ وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلامٌ مشاهير .

ومنها (مصنّفُه) في فضل الصحابة والتابعين ومَنْ دونَهم الذي أربى فيه على (مصنّف) أبي بكر بن أبي شيبة ، و (مصنّف) عبد الرزاق بن همام . و (مصنّف) سعيد بن منصور . وغيرها ؛ وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيءٍ من هذه ؛ فصارت تآليف هذا الإمام الفاضل قواعدَ الإسلام ، لا نظير لها ؛ وكان متخيّراً لا يقلّد أحداً ، وكان ذا خاصةٍ من أحمد بن حنبل — رضي الله عنه — .

ومنها في أحكام القرآن : كتاب ابن أمية الحِجاري . وكان شافعيَّ المذهب ، بصيراً بالكلام على اختياره .

وكتاب القاضي أبي الحكَم منذر بن سعيد : وكان داودي المذهب(١) ؛ قوياً على الانتصار له .

وكلاهما في أحكام القرآن غاية .

ولمنذر مصنفات منها كتاب (الإبانة عن حقائق أصول الديانة)

ومنها في الحديث : (مُصَنَّف) أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح ، ومصنف محمد بن عبد الملك بن أيمن .

---

(١) أي على مذهب داود الظاهري .

وهما مصنفان رفيعان . احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات .

ولِقاسم بن أصبغ هذا تآليف حِسانٌ جداً منها (أحكام القرآن) على أبواب كتاب إسماعيل وكلامه .

ومنها كتاب (المجتبى) على أبواب كتاب ابن الجارود (المنتقى) وهو خيرٌ منه ، وأنقى حديثاً ، وأعلى سَنَداً ، وأكثر فائدة .

ومنها كتابٌ في فضائل قريش وكنانة .

وكتابه في الناسخ والمنسوخ .

وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في (الموطأ) .

ومنها كتاب (التمهيد) لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر ، وهو الآن يُعَدُّ في الحياة ، لم يبلغ سنَّ الشيخوخة : وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثلَه أصلاً ، فكيف أحسن منه .

ومنها كتاب (الاستذكار) وهو اختصار (التمهيد) المذكور .

ولصاحبنا أبي عمر بن عبد البر المذكور كتب لا مثيل لها :

منها كتابه المسمى (بالكافي في الفقه) على مذهب مالك وأصحابه : خمسة عشر كتاباً اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه ، وبوَّبه : وقرَّبه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال في معناه .

ومنها كتابه في الصحابة، ليس لأحدٍ من المتقدمين مثله، على كثرة ما صنفوا في ذلك .

ومنها كتاب (الاكتفاء) في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء ، والحجة لكل واحدٍ منهما .

ومنها كتاب (بهجة المَجالس وأُنس المُجالس) مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات .

ومنها كتاب (جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي روايته) .

ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف ابن الفرَضي ، في المختلف والمؤتلف من أسماء الرجال . ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين(١) ، وبلغ أبو الوليد — رحمه الله تعالى — نحو الثلاثين لا أعلم مثله في فنه البتّة .

ومنها تاريخ أحمد بن سعيد . ما وَضع في الرجال أحدٌ مِثْلَه إلا ما بلغَنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره ؛ وأحمد بن سعيد هو المتقدم في التأليف ، القائم في ذلك .

ومنها كتب محمد بن يحيى بن مفرج القاضي ، وهي كثيرة منها أسفارٌ سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري . وكتب كثيرة جمع فيها فِقْهَ الزُّهْرِيّ .

ومما يتعلق بذلك (شرح الحديث) لعامر بن خَلَف السَّرَقُسْطِيّ ، فما شآه أبو عُبيد إلا بتقدم العصر فقط(٢) .

ومنها في الفقه : (الواضحة) . والمالكيون لا تَمانُعَ بينهم في فضلها واستحسانهم إياها .

---

(١) أي جزأين .
(٢) شآه : فاقه وزاد عليه .

ومنها (المستخرجة من الأسمعة) وهي المعروفة بـ (العُتْبِيّة) ، ولها عند أهل إفريقية القدر العالي . والطيران الحثيث .

والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام الإشبيلي . المعروف بابن المكوي ؛ والقرشي أبو مروان المعيطي في جمع أقاويل مالك . كلها على نحو الكتاب الباهر الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلها .

ومنها كتاب (المنتخب) الذي ألفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر ابن لُبابة . وما رأيت لمالكيٍّ قَطُّ كتاباً أنبلَ منه في جمع روايات المذهب . وشَرْح مُسْتَغْلَقِها ، وتفريع وجوهها .

وتآليف قاسم بن محمد ، المعروف بصاحب الوثائق ، وكلها حسنٌ في معناه ؛ وكان شافعي المذهب ، نظاراً جارياً في ميدان البغداديين .

ومنها في اللغة : الكتاب (البارع) الذي ألفه إسماعيل بن القاسم ، يحتوي على لغة العرب .

وكتابه في (المقصور والممدود والمهموز) لم يؤلف مثلُه في بابه .

وكتاب (الأفعال) لمحمد بن عمر بن عبد العزيز ، المعروف بابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العُبَيْديين . فلم يوضع في فنه مثلُه .

وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب ، المعروف بابن التَّيَّاني ، في اللغة ، لم يؤلَّف مثلُه اختصاراً وإكثاراً وثقةَ نقلٍ . وهو أظنُّ في الحياة بَعْدُ .

وههنا قصةٌ لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله ، المعروف بابن الفَرَضي حدثني أن أبا الجيش مجاهداً صاحبَ الجزائر ودانية ، وجّه إلى أبي غالب أيام غَلَبَتِه على مُرْسية ، وأبو غالب ساكنٌ بها،ألفَ دينارٍ أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور : (مما ألّفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد) فردَّ الدنانير . وأبى من ذلك . ولم يفتح في هذا باباً البتّةَ . وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزتُ الكذبَ لأني لم أجمعه له خاصة ، بل لكل طالب . فاعْجَبْ لهمّة هذا الرئيس وعُلُوّها . وأعجبْ لنفس هذا العالِم ونزاهتها .

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد . في اللغة . المعروف بكتاب (العالم) نحو مئة سفرٍ ، على الأجناس ، في غاية الإيعاب . بدأ بالفَلَك وختَم بالذَّرّة .

وكتاب (النوادر) لأبي علي إسماعيل بن القاسم ، وهو مُبارٍ لكتاب (الكامل) لأبي العباس المبرِّد . ولَعَمْري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخَبَراً فإن كتاب أبي علي لأكثرُ لغةً وشِعراً .

وكتاب (الفصوص) لصاعد بن الحسن الرَّبَعِيّ . وهو جارٍ في مضمار الكتابين المذكورين .

ومن الأنحاء تفسير الحَوْفِيّ لكتاب الكسائي ، حسنٌ في معناه .

وكتاب ابنِ سِيْدَه في ذلك ، المنبوز بـ (العالم والمتعلم) .

وشَرْحٌ له لكتاب الأخفش .

ومما أُلّف في الشعر : كتاب عُبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الأندلس ، كتابٌ حسن .

وكتاب (الحدائق) لأبي عمر أحمد بن فرج . عارَضَ به كتاب (الزهرة) لأبي محمد بن داود . رحمه الله تعالى . إلا أن أبا بكر إنما أدخل مئة باب ، في كل باب مئة بيت ، وأبو عمر أورد مئتي باب ، في كل باب مئة بيت ليس منها بابٌ تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسنَ الاختيارَ ما شاء وأجاد ؛ فبلغ الغاية ؛ وأتى الكتابُ فرداً في معناه .

ومنها كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسن الكاتب . وهو حيٌّ بَعْدُ .

ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن الإفليلي لشعر المتنبي . وهو حسن جداً .

ومن الأخبار : تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم . وذلك كثير جداً .

وكتابٌ له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ؛ على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم بِريّة ووقائعه وسيره وحروبه ؛ وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجِلِّيقيّ القائم بالحَوْف . وفي أخبار بني قبس ، والتُجيبيين ، وبني الطويل ، والثغر . وقد رأيت من ذلك كتباً مصنفةً في غاية الحسن .

وكتاب مُجزّأً في أجزاء كثيرة في أخبار ريّة وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها ، تأليف إسحاق بن سلَمة بن إسحاق الليثي .

وكتاب محمد بن الحارث الخُشَنِيّ . في أخبار القضاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس .

وكتاب في أخبار الفقهاء بها ؛

وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس ، في خمسة أسفار ضخمة . من أحسن الكتب في الأنساب وأوسعها .

وكتاب قاسم بن أصبغ في الأنساب . في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز .

وكتابه في فضائل بني أمية ؛ وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره ، وانتشر ذكره .

ومنها كتبٌ مؤلفة في أصحاب المعاقل والأَجْناد الستة بالأندلس .

ومنها كتب كثيرة جُمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر —رحمه الله تعالى— رأيت منها أخبار شعراء إلبيرة ، في نحو عشرة أجزاء.

ومنها كتاب الطوالع في أنساب أهل الأندلس .

ومنها كتاب التاريخ الكبير ، في أخبار أهل الأندلس تأليف أبي مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، من أجلّ كتاب أُلِّف في هذا المعنى . وهو في الحياة بعدُ لم يتجاوز الاكتهال .

وكتاب (المآثر العامرية) لحسين بن عاصم . في سِيَر ابن أبي عامر وأخباره .

وكتاب الأفشتين محمد بن عاصم النحوي . في طبقات الكتّاب بالأندلس .

وكتاب سَكَن بنِ سعيد في ذلك .

وكتاب أحمد بن فرج في المُنْتَزِين(١) والقائمين بالأندلس وأخبارهم .

وكتاب أخبار الأطباء لسليمان بن جلجل .

وأما **الطب** : فكُتُبُ الوزير يحيى بن إسحاق ، وهي كتبٌ حِسانٌ رفيعة .

وكُتُب محمد بن الحسن المَذْحِجِيّ ، أستاذنا . رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني ، وهي كتبٌ رفيعةٌ حِسان .

وكُتُب التصريف لأبي القاسم خَلَف بنِ عياش الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه . ولئن قلنا إنه لم يؤلّف في الطب أجمعُ منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لَنَصْدُقَنّ .

وكُتُب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير من أجلّ الكتبُ وأنفعِها .

وأما **الفلسفة** : فإني رأيت فيها رسائل مجموعة ، وعيوناً مؤلفةً لسعيد بن فَتْحون السرقسطي ، المعروف بالحمار ، دالّةً على تمكنه من هذه الصناعة .

وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المَذْحِجِيّ في ذلك فمشهورة متداوَلةٌ وتامة الحسن ، فائقة الجَوْدة ، عظيمة المنفعة .

وأما **العدد والهندسة** : فلم يُقْسَم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا ، إلا أني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم

---

(١) انتزى : توثب .

ممن اتُّفِق على رسوخه فيه يقول : إنه لم يؤلَّف في الأَزْياج(١) مثل زيج مسلمة . وزيج ابن السَّمْح . وهما من أهل بلدنا . وكذلك كتاب (المساحة المجهولة) لأحمد بن نصر . فما تقدم إلى مثله في معناه .

وإنما ذكرنا التآليف المستحقة للذكر . والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقلٌ عالمٌ إلا في أحدها .

وهي إما شيء يخترعه لم يُسْبَق إليه .

أو شيء ناقص يتممه .

أو شيء مستغلق يشرحه .

أو شيء طويل يختصره دون أن يُخِلَّ بشيءٍ من معانيه .

أو شيء متفرق يجمعه .

أو شيء مختلط يرتبه .

أو شيء أخطأ فيه صاحبه يصلحه .

وأما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

وأما علم الكلام : فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النِّحَل . فقلَّ لذلك تصرُّفُهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عَرِيَّةٍ منه . وقد كان فيهم قومٌ يذهبون إلى الاعتزال ، نُظّارٌ على أصوله . ولهم فيه تآليف . منهم خليل بن إسحاق ، ويحيى بن السمينة ، والحاجب موسى بن حُدَيْر . وأخوه الوزير ، صاحب

(١) الأزياج : جمع (زيج) آلة يعرف بها مقادير حركات الكواكب وإخراج الطوالع .

المظالم ، أحمد ، وكان داعيةً إلى الاعتزال . لا يستتر بذلك . ولنا على مذهبنا الذي تخيّرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى(١) وهو—وإن كان صغير الجُرْم ، قليلَ عدد الورق، يزيد على المئتين زيادة يسيرةً —فعظيم الفائدة ، لأنّا أسقطنا منه المشاغبَ كلّها، وأضربنا عن التطويل جملةً . واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحسّ ، وبديهةِ العقل لها بالصحة . ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة . منها ما قد تم،ومنها ما شارف التمام . ومنها ما قد مضى منه صدرٌ ويعين الله — تعالى — على باقيه . لم نقصد به قَصْدَ مباهاة فنذكرها . ولا أردنا السمعة فنسميها . والمراد بها ربّنا — جَلَّ وَجْهُهُ — ، وهو وليُّ العون فيها ، والمليُّ بالمجازاة عليها . وما كان لله — تعالى — فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبلدنا هذا — على بُعده من يَنْبوع العلم ، ونَأيه من محلة العلماء(٢) — فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طُلب مثلها بفارسَ ، والأهوازِ ، وديار مُضَر ، وديار ربيعة ، واليمن . والشام أعوز وجودُ ذلك . على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ، ومَراد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصِّمّة الكِلابي في الشعر لم نُباهِ به إلا جريراً والفرزدق . لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره . فهو جارٍ على مذاهب الأوائل . لا على طريقة المُحْدَثين .

---

(١) لا بن حزم ، صاحب هذه الرسالة مذهب معروف هو مذهب أهل الظاهر .

(٢) يقصد بغداد والعراق ، مقر الخلافة العباسية .

وإذا سَمَّيْنا بقيَّ بنَ مَخْلَد لم نسابق به إلا محمدَ بنَ إسماعيلَ البخاريَّ، ومُسْلِمَ بنَ الحجّاجِ النيسابوريّ ، وسليمانَ بنَ الأشعثِ السِّجِسْتانيَّ ، وأحمدَ بن شُعيب النّسائي .

وإذا ذكرنا قاسمَ بن محمد لم نُباه به إلا القفّال ، ومحمد بن عقيل الفريابي ، وهو شريكهما في صحبة المُزَني أبي إبراهيم . والتّتَلْمُذ له .

وإذا نَعَتْنا عبدَ الله بن قاسم بن هلال ، ومنذر بن سعيد لم نُجارِ بهما إلا الحسن بن المفلس ، والخلاّل ، والديباجي ، ورُوَيْمَ بنَ أحمد . وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته .

وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لُبابة ، وعمّه محمد بن عيسى ، وفضلَ بنَ سَلَمة لم نُناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكَم ، ومحمد بن سحنون ، ومحمد بن عبدوس .

وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرياحي ، وأبي عبد الله محمد بن عاصم فلأنهما لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرِّد .

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن درّاج القَسْطَلّي لَمَا تأخر عن شأو بشارِ بنِ بُرْد ، وحبيب ، والمتنبي . فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد المرادي . وكلّ هؤلاء فَحْلٌ يُهاب جانبه . وحصانٌ ممسوح الغُرّة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد ، صديقُنا وصاحبُنا . وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة

وشِعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسانٍ مركبٍ من لسانَيْ عمرو بنِ سهل ومحمد بن عبد الله بن مَسَرَّة في طريقه التي سلك فيها ،وإن كُنّا لا نرضى مذهبه . في جماعةٍ يكثر تعدادهم .

* * *

تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم :

قال ابن سعيد ـــ بعد ذكره هذه الرسالة ـــ ما صورته : رأيت أن أذَيِّلَ ما ذكره الوزير الحافظ أبو محمد بن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني . والله ـــ تعالى ـــ وليُّ الإعانة .

أما **القرآن** : فمن أجلِّ ما صُنِّف في تفسيره كتاب (الهداية إلى بلوغ النهاية) في نحو عشرة أسفار ، صنفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي . وله كتاب (تفسير إعراب القرآن) ، وعدَّ ابنُ غالب في كتاب (فرحة الأنفس) تآليف مكي المذكور فبلغ بها ٧٧ تأليفاً . وكانت وفاته سنة ٤٣٧ .

ولأبي محمد بن عَطِيّة الغَرْناطي في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق . وصاحبه من فضلاء المئة السادسة .

وأما **القراءات** : فلِمكّي المذكور فيها كتاب (التبصرة) .

وكتاب (التيسير) لأبي عَمْرو الداني مشهور في أيدي الناس .

وأما **الحديث** : فكان بعصرنا في المئة السابعة الإمام أبو الحسن علي بن القطّان القرطبي . الساكن بحضرة مراكش ، وله في تفسير

غريبه وفي رجاله مصنفات . وإليه كانت النهاية والإشارة في عصرنا ؛ وسمعت أنه كان اشتغل بجمع أمهات كتب الحديث المشهورة ، وحذف المكرر .

وكتاب رُزَيْن بن عمار الأندلسي . في جمع ما يتضمنه كتاب مُسْلِم والبخاري والمُوَطّأ والسُّنَن والنّسائي والترْمِذِي كتاب جليل مشهور في أيدي الناس بالمشرق والمغرب .

وكتاب (الأحكام) لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي مشهور متداول القراءة . وهي أحكام كبرى . وأحكام صغرى . قيل : ووسطى .

وكتاب (الجمع بين الصحيحين) للحميدي مشهور .

وأما **الفقه** : فالكتاب المعتمد عليه الآن . الذي ينطلق عليه اسم الكتاب عند المالكية حتى بالإسكندرية فكتاب (التهذيب) للبراذعي السّرقُسْطي .

وكتاب (النهاية) لأبي الوليد بن رُشْد كتاب جليل معظمٌ ، معتمد عليه عند المالكية .

وكذلك كتاب (المنتقى) للباجي .

وأما **أصول الدين** ، **وأصول الفقه** : فللإمام أبي بكر بن العربي الإشبيلي من ذلك ما منه كتاب (العواصم والقواصم) المشهور بأيدي الناس . وله تصانيف غير هذا .

ولأبي الوليد بن رُشْد في أصول الفقه ما منه (مختصر المستصفى) .

وأما **التواريخ** : فكتاب ابن حيان الكبير المعروف (بالمتين)في نحو

ستين مجلدة ؛ وإنما ذكر ابن حزم(١) كتاب (المقتبس) وهو في عشر مجلدات .

و (المتين) يذكر فيه أخبار عصره . ويمعن فيها مما شاهده ؛ ومنه ينقل صاحب (الذخيرة) ؛ وقد ذيّل عليه أبو الحجاج البيّاسي أحدُ معاصرينا ، وهو الآن بإفريقية ، في حضرتها تونس ، عند سلطانها تحت إحسانه الغمر .

وكتاب المظفر بن الأفطس ، مَلك بَطَلْيَوْس . المعروف (بالمُظَفَّري) نحو كتاب (المتين) في الكِبَر ؛ وفيه تاريخٌ على السنين ، وفنون وآدابٌ كثيرة .

وتاريخ ابن صاحب الصلاة ، في الدولة اللمْتُونية .

وذكر ابن غالب أن ابن الصيرفي الغَرناطي له كتاب في أخبار دولة لَمْتونة ، وأن أبا الحسن السالمي له كتاب في أخبار الفتنة الثانية بالأندلس ، بدأ من سنة ٥٣٩ ، ورتبه على السنين ، وبلغ به سنة ٥٤٧ .

وأبو القاسم خَلَف بن بشكوال له كتاب في تاريخ أصحاب الأندلس ، من فتحها إلى زمانه ، وأضاف إلى ذلك من أخبار قرطبة وغيرها ما جاء في خاطره .

وله كتاب (الصلة) في تاريخ العلماء .

وللحُميدي قبله (جذوة المقتبس) .

---

(١) في الرسالة المتقدمة الذكر .

وقد ذيّل كتاب (الصلة) في عصرنا هذا أبو عبد الله بن الأبّار البلنْسي ، صاحب كتاب (سلطان إفريقية) .

وذكر ابن غالب أن الفقيه أبا جعفر بن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليفة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن . قال : وفارقته سنة ٥٦٥ وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المتقدمة الذكر له كتبٌ جَمّةٌ في التواريخ ، مثل كتاب (نقط العروس ، في تواريخ الخلفاء) .

وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب (التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس) على منزع كتاب (التعيين في خلفاء المشرق) للمسعودي .

وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطُلَيْطِليّ كتاب (التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم) ، وكتاب (جامع أخبار الأمم) .

وأبو عمر بن عبد البر له كتاب (القصدُ والأَمَم في معرفة أخبار العرب والعجم) .

وعريب بن سعد القرطبي له كتاب (اختصار تاريخ الطبري) قد سعد باغتباط الناس به ، وأضاف إليه تاريخ إفريقية والأندلس .

ولأحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن الفياض كتاب (العِبَر) .

وكتاب أبي بكر الحسين بن محمد الزبيدي في أخبار النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس .

وكتاب القاضي أبي الوليد بن الفرَضيّ في أخبار العلماء والشعراء . وما يتعلق بذلك .

وليحيى بن حكَم الغزَّال تاريخ ألفه كلّه منظوماً ، كما صنع أيضاً بعده أبو طالب المتنبي من جزيرة شُقْر في التاريخ الذي أورد منه صاحب (الذخيرة) ما أورد .

وكتاب (الذخيرة)(١) لابن بسام . في جزيرة الأندلس . ليس هذا مكان الإطناب في تفضيلها . وهي كالذيل على (حدائق) ابن فرج . وفي عصرنا صنف الفتح كتاب (القلائد)(٢) . وهو مملوء بلاغة . والمحاكمة بين الكتابين ذكرت بمكان آخر .

ولصاحب (القلائد) كتاب (المطمح)(٣) . وهو ثلاث نسخ : كبرى . ووسطى . وصغرى . يذكر فيها من الذين ذكرهم في (القلائد) ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم .

وكتاب (سمط الجمان وسقط المرجان) لأبي عمرو ابن الإمام بعد الكتابين المذكورين . ذكر مَنْ أخلاّ بتوفيته حقّه من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المئة السادسة . وذيّل عليه – وإن كان ذيلاً قصيراً – أبو بحر صفوان بن إدريس المُرْسِيّ بكتاب (زاد المسافر) ذكر فيه جماعة ممن أدرك المئة السابعة .

وكتاب أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري المسمى (المُسْهِب في فضائل المغرب) صنفه بعد (الذخيرة) و (القلائد) من أول ما عُمرت الأندلس إلى عصره ؛ وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى

---

(١) عنوانه الكامل : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . مطبوع .

(٢) هو الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان ، وكتابه (قلائد العقيان) في أخبار شعراء المغرب . مطبوع .

(٣) عنوانه الكامل : (مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس) مطبوع أيضاً .

ذكر البلاد وخواصّها مما يختص بعلم الجغرافيا . وخلطه بالتاريخ وفنون الأدب على ما هو مذكور في غير هذا المكان ، ولم يصنّف في الأندلس مثلُ كتابه ، ولذلك فضّله المصنّف له عبد الملك بن سعيد ، وذيّل عليه ، ثم ذيّل على ذلك ابناه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى كاتب هذه النسخة . ومُكَمّل كتاب (فلك الأدب ؛ المحيطُ بحُلَى لسان العرب) المحتوي على كتابَيْ (المُشْرق في حُلى المَشْرِق) و (المغرب في حُلى المَغْرِب) . فيكفي الأندلس في هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستةِ أشخاص في ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ . وقد احتوى على جميع ما يُذاكَرُ به ويحاضَر بحُلاه من فنون الأدب المختارة على جَهْد الطاقة في شرقٍ وغرب . على النوع الذي هو مذكور في غير هذا الموضع .

ومن أغفلتُ التنبيه على عصره ، وغير ذلك من المصنفين المتقدمي الذكر فيَطلب المُلْتَمس منهم في مكانه المنسوب إليه كابن بسّام في (شَنْتَرين) ، و (الفتح) في (إشبيلية) وابن الإمام في (إسْتِجَة) ، والحِجاري في (وادي الحجارة) .

وأما ما جاء منثوراً من فنون الأدب : فكتاب (سراج الأدب) لأبي عبد الله . ابن أبي الخصال رئيسِ كتّاب الأندلس ، صنفه على منزعِ كتاب (النوادر) لأبي علي و (زهر الآداب) للحُصْري .

وكتاب (واجب الأدب) لوالدي موسى بن محمد بن سعيد . واسمه يغني عن المراد به .

وكتاب (اللآلي) لأبي عُبيد البكري على كتاب (الأمالي) لأبي علي البغدادي ، مفيد في الأدب .

وكذلك كتاب (الاقتضاب ، في شرح أدب الكتّاب) لأبي محمد ابن السيْد البَطَلْيوسي .

وأما (شرح سقط الزند) له فهو الغاية . ويكفي ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه .

وشروح أبي الحَجّاج الأعلم لشعر المتنبي والحماسة ، وغير ذلك مشهورة .

وأما كتب **النحو** : فلأهل الأندلس من الشروح على (الجُمل)(١) ما يطول ذكره .

فمنها شَرْح ابنِ خروف ، ومنها شَرْح الرُّنْدِيّ ، ومنها شرح شيخنا أبي الحسن بن عُصفور الإشبيلي ، وإليه انتهت علوم النحو ، وعليه الإحالة الآن من المشرق والمغرب ، وقد أتيت له من إفريقية بكتاب (المقرّب)(٢) في النحو ، فتُلُقِّي باليمين من كل جهة ، وطار بجناح الاغتباط .

ولشيخنا أبي علي ، الشّلوبين ، كتاب (التوطئة) على (الجزولية) وهو مشهور .

ولابن السِّيْد ، وابن الطّراوة ، والسُّهَيْلِيّ من التقييدات في النحو ما هو مشهور عند أصحاب هذا الشأن ، معتمدٌ عليه .

---

(١) كتاب الجمل لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، المتوفى سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٩ م .
(٢) لابن عصفور .

ولأبي الحسن بن خَرُوف شرح مشهور على (كتاب سيبويه) .

وأما كتب **علم الجغرافيا** : فيكفي في ذلك كتاب(المسالك والممالك) لأبي عُبيد البكري الأَوْنَبي .

وكتاب (معجم ما استعجم . من البقاع والأماكن) .

وفي كتاب (المسهب) للحجاري في هذا الشأن ، وتذييلنا عليه في هذا الكتاب الجامع ما جمع زبد الأولين والآخرين في ذلك .

وأما كتب **علم الموسيقي** : فكتاب أبي بكر بن باجة الغَرناطي في ذلك فيه كفاية ، وهو في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق ، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد .

وليحيى الخُدُجّ المُرْسِيّ كتاب (الأغاني الأندلسية) على منزع (الأغاني) لأبي الفَرَج ، وهو ممن أدرك المئة السابعة .

وأما كتب الطب : فالمشهور بأيدي الناس في المغرب . وقد سار أيضاً في المشرق ، لنبله كتاب (التيسير) لعبد الملك بن أبي العلاء بن زُهْر .

وله كتاب (الأغذية) أيضاً . مشهور مغتبَطٌ به في المغرب والمشرق .

ولأبي العباس ابن الرومية الإشبيلي . من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب في الأدوية المفردة . وقد جمع أبو محمد المالَقي الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن حشر عليه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة . ككتاب الغافقي . وكتاب الزهراوي . وكتاب الشريف الإدريسي الصَّقِلّي وغيرها . وضبطه على حروف المعجم . وهو النهاية في مقصده .

وأما كتب الفلسفة : فإمامُها في عصرنا أبو الوليد بن رُشْد القُرْطبي وله فيها تصانيف جَحَدَها لما رأى انحراف منصور بني عبد المؤمن عن هذا العلم . وسجنه بسببها .

وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور المذكور . على هذا العلم . بإشبيلية .

وهو علمٌ ممقوتٌ بالأندلس . لا يستطيع صاحبُه إظهارَه . فلذلك تخفى تصانيفه .

وأما كتب التنجيم : فلابن زيد الأسقف القرطبي فيه تصانيف : وكان مختصاً بالمستنصر بن الناصر المرواني . وله ألّف كتاب (تفصيل الأزمان . ومصالح الأبدان) وفيه من ذكر منازل القمر ، وما يتعلق بذلك . ما يُستحسن مقصده وتقريبه .

وكان مطرِّف الإشبيلي في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن . إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه إلى الزندقة . بسبب اعتكافه على هذا الشأن فكان لا يُظهر شيئاً مما يصنف .

* * *



الصناعات في الأندلس

الصناعات والخِدَمات في الأندلس

بعض ما اشتهرت به الأندلس من الصناعات :

قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل . وللمتعصبين لها في ذلك كلامٌ كثير . فقد اختصت المَرِيّةُ ومالَقَة ومُرْسِيَة بالموشّى المذهب . يتَعَجّبُ من حسن صنعته أهلُ المشرق إذا رأوا منه شيئاً .

وفي تَنْتالَةَ . من عمل مُرْسِيَة تُعملُ البُسُطُ التي يُغالى في ثمنها بالمشرق .

ويُصنع في غَرْناطة وبَسْطَةَ من ثياب اللباس المحرَّرَة الصنفُ الذي يَعْرَفُ بالملبّد المختّم ، ذو الألوان العجيبة .

ويُصنع في مُرْسِيَة من الأسِرَّةِ المرصعة ، والحُصُر الفتانةُ الصنعة . وآلاتُ الصُّفْر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة(١) وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبْهرُ العقلَ . ومنها تُجَهّزُ هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها .

ويُصنع بها وبالمَرِيّةِ ومالَقَة الزجاجُ الغريبُ العجيبُ . وفَخّار مُزَجّجٌ مُذهب .

---

(١) الأمقاص : جمع (مقص) ، وهو اسم آلة من القص . والقياس في جمعه (مقاص) .

ويُصنع بالأندلس نوعٌ من المُفَصَّصِ المعروفِ في المشرق بالفُسَيْفساء . ونوعٌ يُبْسَطُ به قاعاتُ ديارهم يُعْرَفُ بالزُّلَيْجِيّ ، يشبه المُفَصَّصَ ، وهو ذو ألوانٍ عجيبةٍ يُقيمونه مقام الرخام الملوّن الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذَرْوان وما يجري مجراه .

* * *

المجبنات والقطائف في شَرِيْش :

قال الحجاري : إن مدينة شَرِيْشَ بنتُ إشبيلية . وواديها ابن واديها . ما أشبه سُعْدى بسعيد !

وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق . لأهلها هِمَمٌ . وظَرْفٌ في اللباس . وإظهار الرفاهية . وتَخَلُّقٌ بالآداب . ولا تكاد ترى بها إلا عاشقاً أو معشوقاً . ولها من الفواكه ما يَعُمُّ ويَفْضُل .

ومما اختصت به إحسانُ الصنعة في المجبنات . وطِيبُ جُبْنِها يعين على ذلك . ويقول أهل الأندلس : مَنْ دخل شَرِيْشَ ولم يأكل بها المُجَبَّنات فهو محروم .

والمُجَبَّنات : نوعٌ من القطائف يضاف إليها الجبنُ في عجينها ، وتُقلى بالزيت الطيب .

* * *

إدارة الطواحين بالماء :

وقد أفرد ابن غالب في (فرحة الأنفس للآثار الأولية التي بالأندلس) من كتابه مكاناً فقال : « منها ما كان من جلبهم الماء من البحر المَلِح

إلى الأَرْحِيْ(١) التي بِطَرَّكُونَة . على وزنٍ لطيف . وتدبير مُحْكَمٍ حتى طحنت به ؛ وذلكَ من أعجب ما صنع » .

قلنا : وهذا ما طلبت اختراعه بنت ملك قادس التي سبقت قصتُها في فصل (عجائب الأندلس) .

فأما صاحب الرُّحِيِّ(٢) فإنه عَمَد إلى أشكال اتخذها من الحجارة . نَضَدَ بعضَها إلى بعض(٣) . في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبَرِّ الكبير . في الموضع المعروف بزْقاق سَبْتَةَ . وسدَّد الفُرَجَ التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته . وأوصل تلك الحجارةَ من البر إلى الجزيرة ؛ وآثاره باقية إلى اليوم . في الزقاق الذي بين سَبْتَةَ والجزيرةِ الخضراء — وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرةٍ كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سَبْتَةَ إلى الجزيرة . والله أعلم أيُّ القولين أصح . غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني — فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جَلَبَ الماءَ العذبَ من جبلٍ عالٍ في البر الكبير . وسلَّطه من ساقيةٍ مُحْكَمةٍ ؛ وبنى بجزيرة الأندلس رَحىً على هذه الساقية .

* * *

(١) الأرحي : جمع رحى . والرحى : الطاحون .

(٢) الرحي : جمع رحى أيضاً .

(٣) نضد بعضها إلى بعض : جعل بعضه فوق بعض متراصفاً متناسقاً .

آلات الحرب التي تصنع بالأندلس

وأما آلات الحرب من التّراس(١) ؛ والرماح . والسُّرُوج . والأكْجُم . والدروع . والمَغافر(٢) فأكثر همم أهل الأندلس — فيما حكى ابن سعيد — كانت مصروفة إلى هذا الشأن ، ويُصنع فيها — في بلاد الكفر — ما يَبْهَرُ العقول .

قال ابن سعيد : « والسيوف البرذليات مشهورة بالجَوْدَة . وبَرْذيل : آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق .

والفولاذ الذي بإشبيلية إليه النهاية .

وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره » .

ومحاربتهم بالتِّراس والرماح الطويلة للطعن . ولا يعرفون الدبابيس(٣) ولا قِسِيَّ العرب(٤) بل يُعِدُّون قِسِيَّ الإفرنج للمحاصرات في البلاد . أو تكون للرَّجّالة عند المصافقة للحرب . وكثيراً ما تصبر الخيل عليهم أو تُمهلهم لأن يؤثروها .

ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامِّهم مَنْ يمشي دون طَيْلَسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون . وغفائر الصوف(٥) كثيراً ما يلبسونها حُمْراً وخُضْراً . والصفر

---

(١) التراس : جمع ترس .

(٢) المغافر : جمع (مغفر أو مغفرة) وهو زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع به المتسلح .

(٣) الدبابيس : جمع (دبوس) . تقدم قبل قليل .

(٤) القسي : جمع (قوس) .

(٥) الغفائر : جمع (غفيرة) أو (غفارة) وهو لباس يغطي العنق والقفا ، وتطلق الغفارة على لباس على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، ويتدلى منه شيء على القفا .

مخصوصة باليهود . ولا سبيلَ ليهودي أن يتعمّمَ البتّةَ . والذؤابة لا يُرْخيها إلا العالم،ولا يصرفونها بين الأكتاف . وإنما يُسْدِلونها من تحت الأذن اليسرى . وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس . وإن رأوا في رأسِ مشرقيٍّ داخلٍ إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف . ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها . لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غيرَ أوضاعهم . وكذلك في تفصيل الثياب .

أقنية الرّيّ

قال ابن غالب : ومن ذلك ما صنعه الأُوَل أيضاً من جلب الماء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس . من العين التي في إقليم الأصنام : جلبوه في جوف البحر . في الصخر المجوّفِ ذكراً في أنثى . وشقّوا به الجبال . فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنَوا له قناطر على حنايا . فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان المذكور : فإذا صادف سَبْخَةً بُني له رصيف وأجري عليه . هكذا إلى أن انتُهي به إلى البحر . ثم دُخل به في البحر . وأُخرج في جزيرة قادس . والبنيان الذي عليه الماء في البحر ظاهرٌ بيِّن . قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

وصْفُ الطرق

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس .

قال ابن غالب في بعض أخبار رومية : إنه لما وَلي بوليش المعروف بجاشر . وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها . كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها . وإلى المغرب . وإلى الشمال . وإلى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلطة وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرضَ الأندلس . ورَكَزَها شرقيَّ قرطبة ببابها المُتَطامِنِ المعروف بباب عبد الجبار . ثم ابتدأها من باب القنطرة قبليَّ قرطبة إلى شَقَنْدَةَ إلى إِسْتِجَةَ إلى قَرمُونة إلى البحر . وأقام على كل ميل سارِيةً قد نُقش عليها اسمه . من مَدينة رومية .

وذُكر أنه أراد تَسْقيفَها في بعض الأماكن راحةً للخاطرين من وَهَجِ الصيف وهَوْل الشتاء ، ثم توقّع أن يكون ذلك فساداً في الأرض . وتغييراً للطرق عند انتشار اللصوص وأهلِ الشر فيها ، في المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هي عليه .

* * *

التجارة والأسواق في إشبيلية

قال بعض مَنْ وَصَف إشبيلية : إنها مدينة عامرة ، على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة ، وعليه جسرٌ مربوط بالسفن . وبها أسواق قائمة . وتجارات رابحة . وأهلُها ذَوو أموالٍ عظيمة ؛

وأكثرُ مَتاجرهم الزيتُ . وهو يشتمل على كثيرٍ من إقليم الشَرَف، وإقليم الشَرَف على تلٍّ عالٍ من ترابٍ أحمرَ ،مسافتُه أربعون ميلاً في مثلها . يمشي به السائر في ظل الزيتون والتين .

ولها – فيما ذكر بعض الناس – قرىً كثيرةٌ ، وكلُ قريةٍ عامرةٌ بالأسواق والديار الحسنة ، والحمّامات . وغيرها من المرافق .

* * *

من أعيان الأندلس

من الوُزراء

جعفر المُصْحَفِيّ

قال الفتح بن خاقان في كتاب (مطمح الأنفس) : الحاجب جعفر المصحفي . تجرد للعَلْيا . وتمرد في طلب الدنيا . حتى بلغ المنى . وتَسوَّغَ ذلك الجَنى . فَسَما دون سابقة . وارتمى إلى رتبة لم تكن لِنِيَّتِه بمطابقة . والتاحَ في أفياء الخلافة . وارتاح إليها بعِطْفِه كَنَشْوان السُّلافة ، واستوزره المستنصر . وعنه كان يسمع . وبه كان يُبْصر . فأدرك بذلك ما أدرك . ونصب لأمانيه الحبائلَ والشَّرَك . واقتنى وادَّخر . وأزرى بمن سواه وسَخِر . واستعطفه المنصور محمد بن أبي عامر ونَجْمُه بَعْدُ غائرٌ لم يَلُحْ . وسرُّه مكتومٌ لم يُبَحْ . فما عَطَفَ . ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف . فأقام في تدبير الأندلس ما أقام والأندلس متغيرة . والأذهان في تكيُّف سَعْدِه متحيرة . فناهيكَ من ذكرٍ خلد ، ومن فخرٍ تقلد . ومن صعبٍ راض . وجناح فتنةٍ هاضَ(١) . ولم يزل بنجاد تلك الخلافة معتقلاً . وفي مطالعها منتقلاً . إلى أن توفي الحكَم . فانتقض عقدُه المُحْكَمُ . وانبرت إليه النوائب . وتسددت إليه من الخطوب سهامٌ صَوائب ؛

(١) هاض الجناح : كسره .

واتصل إلى المنصور ذلك الأمر . واختص به كما مال بيزيدَ أحوه الغَمْرِ(١) . وأناف في تلكِ الخلافة . كما شَبَّ قبل اليوم عن طوقه عمرو(٢) ، وانتدب المصحفي بصدرٍ قد كان أَوْغَرَه . وساءه وصغّره ، فاقتص من تلك الإساءة . وأَغَصَّ حلقه بأي مَساءة ، فأخمله . ونكبه . وأرجله عما كان الدهرُ أركبه . وألهب جوارحه حزَناً ، ونَهب له مدَّخَراً ومُختَزَناً . ودمّرَ عليه ما كان حاط . وأحاط به من مكروهه ما أحاط . وغبّرَ سنين في مهوى تلك النكبة . وجوَى تلك الكُرْبةِ ، ينقله المنصور معه في غزواته . ويعتقله بين ضيق المُطْبِقِ(٣) ولَهَواتهِ . إلى أن تَكوَّرت شَمْسُه(٤) ، وفاظت(٥) بين أثناء المحن نَفْسُه .

ومن بديع ما حُفظ له في نكبته قوله يستريح من كُرْبته :

صَبَرْتُ على الأيــــــامِ لمــا تَوَلّتِ
وألزمتُ نفسي صَبْرَهـــــــا فاستمرتِ

وما النفس إلا حيث يجعلهــــا الفتى
فإن طمعت تاقـــــتْ وإلا تسلّـــتِ

---

(١) الغمر : من لم يجرب الأمور .

(٢) يقال في المثل : شب عمرو عن الطوق .

(٣) المطبق : سجن كان بالزهراء قرب قرطبة .

(٤) تكورت الشمس : التف ضوؤها كما تلف العمامة ، فذهبت ، كناية عن الانكساف .

(٥) فاظت النفس : خرجت .

فواعَجَبـــــاً للقلب كيف اعترافُــه

وللنفس بعد العز كيـــف استَذَلّـتِ

وكانت على الأيــــام نفسي عزيزةً

فلما رأت صبري على الـــذل ذَلّتِ

فقلت لها : يا نفسُ مُوتي كريمـــةً

فقد كانت الدنيـــا لنا ثم وَلّـــتِ

وكان له أدب بارع . وخاطرٌ إلى نظم القريض يسارع .

فمن محاسن نظامه وإنشاده التي بعثها إيناسُ دهره بإسعاده قوله :

لِعينيكِ في قلبي عـــليٌّ عيـــونِ

وبين ضلوعي للشجونِ فُنُـــونُ

لَئِنْ كان جسمي مُخْلَقـــاً في يـــد الهوى

فَحُبُّكِ عندي في الفـــؤاد مَصونُ

وله . وقد أصبح عاكفاً على حُمَيّاه . هاتفاً بإجابة دنياه . مرتشفاً ثغرَ الأنس مُتَنَسِّماً ريّاه ، والملك يغازله بِطَرْفٍ كَليل(١) . والسعدُ قد عُقِد عليه منه إكليل . يصف لونَ مُدامِه ، وما تعرَّض له منها دون ندامه :

(١) الكليل : المتعب ، العيي .

صفراءُ تَطْرق في الزجاج فإن سَرَتْ
في الجسم دَبّتْ مثـــلَ صِلٍّ لادغِ(١)

خَفِيَتْ عـــلى شُرّابها فكأنمـــا
يجدون ريّـــاً من إناءٍ فـــارغِ

ومن شعره الذي قاله في السَّفَرْجَلِ مُشَبِّهاً . وغدا به لنائم البديعِ منبهاً ، قوله يصف سفرجلة . ويقال إنه ارتجله :

ومُصْفَرَّةٍ تختالُ في ثوب نـــرجسٍ
وتَعْبَقُ عن مسكٍ زكي التنفُّسِ

لهـــا ريحُ محبـــوبٍ وقسوةُ قلبـــه
ولونُ مُحِبٍّ حُلّةَ السُّقْـــم مكتسي

فَصُفْرَتُهـــا من صُفْرَتي مستعارةٌ
وأنفاسها في الطّيـــب أنفاسُ مؤنسي

وكان لها ثوبٌ من الزُغـــبِ أغْـــبر
على جسم مصفرٍّ من التِّبْر أمْـــلسِ

فلما استتمت في القضيب شبابَهـــا
وحاكت لها الأوراقُ أثوابَ سُنْـــدُسِ

(١) الصل : الحية الخبيثة ، أو الدقيقة الصفراء .

مددتُ يدي باللطف أبغي اجتناءَهـــــا
لأجعلها ريحانتي وسط مجـــــلسي

فبزَّتْ يدي غَضَبـــــاً لها ثوب جسمها
وأعْرَيتُها باللطف من كل مَلْبَسِ

ولما تعرَّت في يدي من بُــــرودهـــا
ولم تبق إلا في غِلانـــةِ نَرْجِسِ

ذكرتُ لها من لا أبوح بــــذكره
فأذبلَها في الكف حَــــرُّ التنــــفسِ

وله ، وقد أعاده المنصور إلى المُطْبِق . والشجون تُسرع إليه وتسبق ، مُعَزِّياً لنفسه . ومجتزياً بإسعاد أمسه :

أجازي الــــزمان عـــــلى حالــــه
مجازاة نفسي لأنفــــاسهــــا

إذا نَفَسٌ صاعدٌ شفَّهـــــــــــا
توارت بـــــه دون جُــــلاّسها

وإن عكفت نكبـــةٌ للــــزمان
عكفـــــتُ بنفسي عـــــلى رأسها

ومما حُفِظَ له في استعطافه ، واستنزالِه للمنصور واستلطافه قوله :

عفا الله عنكَ ، ألا رحمةٌ
تجود بعفوك أن أبعدا

لئن جلَّ ذنبٌ ولم أعتمده
فأنت أجلُّ وأعلى يدا

ألم تر عبداً عدا طَوْرَه
ومولىً عفا ورشيداً هَدَى

ومُفْسِدَ أمرٍ تلافيْتَه
فعاد وأصلحَ ما أفسدا

أَقِلْني أقالَكَ مَنْ لم يزل
يَقيك ويصرف عنك الردى

المنصورُ بنُ أبي عامر

[هو محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المُعافري القحطاني . أبو عامر ، المعروف بالمنصور بن أبي عامر . أمير الأندلس في دولة المؤيد بالله الأموي . وأحد الشجعان الدهاة . أصله من الجزيرة الخضراء . قدم قرطبة شاباً ، طالباً للعلم ، فبرع . واستخلف على قضاء كورة (ريّة) ثم عُهد إليه بوكالة السيدة صبح (أم هشام المؤيد) فولي النظر

في أموالها وضياعها . وعظمت مكانته عندها . وولي الشرطة والسكة والمواريث ، وأضيف إليه القضاء . بإشبيلية . ولما مات المستنصر الأموي كان (المؤيد) صغيراً . وخيفَ الاضطراب فضمن ابن أبي عامر لأم المؤيد سكون البلاد . واستقرار الملك لابنها . وقام بشؤون الدولة . وغزا . وفتح . ودامت له الإمرة ستاً وعشرين سنة] .

كان له في كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخرٌ من المفاخر الإسلامية .

فمنها أن بعض الأجناد نسي رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم . فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العسكر . وهذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث . لأنهم لما أشرب قلوبَهم خوف شرذمةِ المنصور وحزْبهِ . وعلم كلٌ من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه . لجؤوا إلى الفرار . والتحصن بالمعاقل والقلاع . ولم يحصل منهم إلا الإشراف من بُعدٍ والاطلاع .

ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مرَّ بين جبلين عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج . فلما جاوز ذلك المحل — وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يميناً وشمالاً — لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام . ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا مَنْ وراءهم . وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين . وكان الوقت شتاءً . فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر .

وتقدم ببناء الدور والمنازل . وبجمع آلات الحرث ونحوها . وبث سراياه فَسَبَتْ وغنمت فاسترقّ الصغار ، وضرب أعناق الكبار . وألقى جثثهم حتى سد بها المدخل الذي من جهته . وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلداً خراباً . فلما طال البلاء على العدو أرسل إليه في طلب الصلح . وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك . فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه . فأجابهم : إن أصحابي أبوا أن يخرجوا . وقالوا : إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة . فإذا غزونا عدنا . فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يجعلوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي . وأن يُمِدُّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده وأن يُنَحُّوا جِيَفَ القتلى عن طريقه بأنفسهم . ففعلوا ذلك كله وانصرف.

ولَعَمْري إن هذا لَعِزٌّ ما وراءه مطمح . ونصرٌ لا يكاد الزمان يجوز بمثله ويسمح . خصوصاً إزالتهم جِيَفَ قتلاهم من الطريق . وغَصَصهم في شرب ذلك بالريق .

ومن مآثره التي هي في جبين عصره غُرَّة ، ولِعَيْنِ دهره قُرَّة . أنه لما خَتَنَ أولادَه خَتَنَ معهم من أولاد أهل دولته خمسمئة صبي ، ومن أولاد الضعفاء عدداً لا يُحصر . فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار خمسمئة ألف دينار . وهذه مكرمةٌ مُخَلَّدة ، ومِنَّةٌ مُقَلَّدة . فالله — سبحانه — يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء . ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسنَ العزاء .

ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظن أن أكثر

جُنْدِه من سَبْيِه . على ما حققه بعض المؤرخين . وذلك غاية المنح من الله والمن .

ومن أخباره الدالة على إقبال أمره . وخيبة عدوه . أنه ما عاد قط من غزوة إلا استعد لأخرى . ولم تُهزم له قَطُّ راية . مع كثرة غزواته : شاتية وصائفة . وكفاه ذلك فخراً .

ومنها أنه لَقِيَتْه ـ وقد عاد من بعض غزواته ـ امرأةٌ نَغَّصَتْ عليه بلوغ مُناه وشهواته . وقالت له : يا منصور . استمع ندائي . فأنت في طيب عيشك وأنا في بكائي . فسألها عن مصيبتها التي عَمَّتْها وغَمَّتْها . فذكرت له أن لها ابناً أسيراً في بلادٍ سَمَّتْها . وأنها لا يهنأ عيشُها لفقده . ولا يخبو ضرام قلبها من وقده . وأنشد لسان حالها :

يـــــا ذلك المـــــلك العـــــليّ
وَيْحَ الشجـــــــيّ مـــــن الخليّ

فرحب المنصور بها . وأظهر الرقة بسببها . وخرج من القابلة(١) إلى تلك المدينة التي فيها ابنُها ، وجاسَ أقطارَها وتخللها . حتى دوّخها إذ أناخ عليها بِكَلْكَلِه(٢) وذلّلها . وأعراها من حُماتها ، وبنود

(١) القابلة : أي السنة المقبلة .

(٢) أناخ الدهر بكلكله على فلان : يريدون أنه نال منه أعظم النيل ، والكلكل . صدر البعير .

الإسلام المنصورة ظلّلها . وخلّص جميعَ من فيها من الأسرى . وجلبت عَواملُه إلى قلوب الكَفَرة كسراً . وانقلبت عيون الأعداء حَسْرَى . وتلا لسانُ حال المرأة (فإن مع العُسْر يُسْراً . إنّ مع العُسْر يُسْراً) .

فهكذا تكون الهمة السلطانية . والنخوة الإيمانية . فالله — سبحانه — يُرَوِّح تلك الأرواحَ في الجِنان . ويرقي درجاتها ويعاملها بمحض الفضل والامتنان .

وكان من أخباره الداخلة في أبواب البر والقربة بنيان المسجد الجامع .

ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الأعظم . ابتدأها المنصور سنه ثمان وسبعين وثلاثمئة . وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين . وانتهت النفقة عليها إلى مئة ألف دينار وأربعين ألف دينار . فعظمت بها المنفعة . وصارت صدراً في مناقبه الجليلة .

ومن ذلك أيضاً بناء قنطرة على نهر إسْتِجَة . وهو نهر شَنيل . وتجشم لها أعظم مؤنة . وسهّل الطريق الوعرة . والشعاب الصعبة .

ومن ذلك أيضاً أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله في أسفاره وغزواته . ويدرس فيه . ويتبرك به .

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده . فكان الخَدَمُ يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله . حتى اجتمع له منه صُرّةٌ ضخمة . عهد بتصييره في حَنوطه . وكان يحملها حيث سار مع أكفانه . توقعاً لحلول ميتته . وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه .

وغزّل بناته . وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد . فكان كذلك .

وكان متسماً بصحة باطنه . واعترافه بذنبه . وخوفه من ربه . وكثرة جهاده ، وإذا ذُكّر بالله ذكر . وإذا خُوِّف عقابه ازدجر ، ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر . لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين .

وكان عدلُه في الخاصة والعامة . وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل .

وقال ابن حيان : إنه كان جالساً في بعض الليالي . وكانت ليلةً شديدة البرد والريح والمطر . فدعا بأحد الفرسان وقال له : انهض الآن إلى فجّ طليارش وأقم فيه . فأول خاطر يخطر عليك سُقْه إلي . قال : فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه . إذ وقف عليه قرب الفجر شيخٌ هَرِمٌ على حمارٍ له . ومعه آلة الحطب . فقال له الفارس : إلى أين تريد يا شيخ ؟ فقال : وراء حطب . فقال الفارس في نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطباً . فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ قال : فتركته . فسار عني قليلاً . ثم فكرت في قول المنصور . وخفتُ سطوته ، فنهضت إلى الشيخ وقلت له : ارجع إلى مولانا المنصور . فقال له : وما عسى أن يريد المنصور من شيخٍ مثلي ؟ سألتك بالله أن تتركني أذهب لطلب معيشتي . فقال له الفارس : لا أفعل . ثم قدم به على المنصور . ومثّله بين يديه وهو جالسٌ لم ينم ليلته تلك . فقال المنصور للصقالبة : فتّشوه . ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً . فقال : فتشوا برذعة حماره . فوجدوا

داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليُقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي المرطومة(١) فلما انبلج الصبحُ أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة . فضرُبت أعناقهم . وضُربت رقبةُ الشيخ معهم .

* * *

أبو عبد الله بنُ الحكيم الرُّنْديّ

هو الوزير الشهير . أبو عبد الله بن الحكيم الرندي ، ذو الوزارتين .

رحل إلى مصر والحجاز والشام . وأخذ الحديث عن جماعة . ومن مشايخه بِرُنْدة الشيخ الأستاذ النحوي أبو الحسن علي بن يوسف العبدوي السفاح . أخذ عنه العربية . وقرأ عليه القرآن بالروايات السبع ، وأخذ عن الخطيب بها أبي القاسم بن الأيسر . وأخذ — رحمه الله — عن جماعة من أعلام الأندلس . وأخذ في رحلته عن الجلة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر .

ومن شعره قوله :

هل إلى رَدِّ العَشيّاتِ الوصال
سببٌ أم ذاك من ضَرْبِ المُحال

حالة يسري بها الوهم إلى
أنها تثبت برءاً باعتلال

(١) المرطومة : المرمية . .

وليالٍ ما تبقّى بعدها
غير أشواقي إلى تلك الليال

إذ مجال الوصل فيها مسرحي
ونعيمي آمرٌ فيها ووال

ولحالات التراضي جولة
مرحت بين قبول واقتبال

فبِوادي الخَيْفِ خوفي مُسْعِدٌ
وبأكناف منىً أسنى مُوال

لست أنسى الأنس فيها أبداً
لا ولا بالعذل في ذاك أبال

وغزال قد بدا لي وجهه
فرأيت البدر في حال الكمال

ما أمالَ التيهُ من أعطافه
لم يكن إلا على خصل اعتدال

وقال العلامة ابن رشيد في (مِلْء العَيْبَة) : لما قدمنا المدينة سنة ٦٨٤ كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم . وكان أرْمَدَ ، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار ، وإعظاماً لمن حَلَّ تلك الديار ، فأحس بالشفاء ، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله :

ولما رأينا من ربــــوع حبيبنـــا
بيثربَ أعـــلاماً أثرْنَ لنا الُحبَّا

وبالترب منها إذ كَحَلْنا جفوننـــا
شُفِيْنا فلا بأساً نخـــاف ولا كربا

وحين تبدّى للعيـــون جمالُهـــا
ومن بعدها عنـــا أُديلَتْ لنـــا قُرْبا

نسحُّ سجالَ الدمع في عرصاتِهـــا
ونلثم من حُبٍّ لِواطِئِـــه التُّرْبا

وإن بقـــائي دونـــه لَخسارةٌ
ولو أن كفـــي تملأ الشرق والغـــربا

فيا عجبـــاً ممن يحـــب بزعمه
يقيم مـــع الدعوى ويستعمل الكتبـــا

وزَلّاتُ مثـــلي لا تُعَدَّدُ كثرةً
وبُعـــدي عن المختار أعظمهـــا ذنبا

وخطُّ الوزير ابن الحكيم في غاية الحسن . وقد رأيته مراراً ، وملكتُ بعضَ كتبه .

ونَثْرُه - رحمه الله تعالى - أعلى من شعره . كما نبّه عليه لسان الدين في (الإحاطة) .

* * *

أبو عامرٍ أحمدُ بنُ عبد الملك بن شُهَيْد الأَشجعيّ

الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد الأَشْجَعِيّ : عالمٌ بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قَصَبَ السَّبْق فيها . لا يُشْبِهُه أحدٌ من أهل زَمانه . ولا ينسق ما نَسَقَ من دُرِّ البيان وجُمانِه . توغل في شعاب البلاغة وطُرُقِها . وأخذ على متعاطيها ما بين مغْرِبها ومَشْرِقِها . لا يُقاوِمُهُ عمرو بن بحر (١) . ولا تراه يغترف إلا من بحر . مع انطباعٍ . مشى في طريقه بأَمَدِّ باع (٢) ؛ وله الحَسَبُ المشهور ، والمكانُ الذي لم يَعْدُه ظهورٌ . وهو من ولد الوضاح ، المتقلِّدِ تلك المفاخر والأوضاح . والضحاك صاحب يوم المَرْج ، وراكبِ ذلك الهَرْج . وأبو عامر حفيدُه هذا من ذلك النسب . ونبعٌ لا يُراشُ إلا من ذلك الغَرَب (٣) ،وقد أثبتَ له ماهو بالسحر لاحقٌ . ولنور المحاسنِ ماحِقٌ . فمن ذلك قوله :

إن الكريمَ إذا نابَتْهُ مَخْمَصَةٌ
أبدى إلى الناس رِيّاً وهو ظمآنُ (٤)

يحني الضلوعَ على مثل اللظى حُرَقاً
والوجهُ غَمْرٌ بماءِ البِشْرِ رَيّانُ

---

(١) هو أبو عثمان الجاحظ ، إمام أهل البلاغة ، صاحب المصنفات المشهورة ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م .

(٢) أمد باع : أطول باع .

(٣) راش السهم : ركب عليه الريش .

والغرب : نوع من الشجر . وفي الكلام كناية .

(٤) المخمصة : الجوع .

وهو مأخوذٌ من قول الرَّضِيِّ :

مـا إنْ رأيـتُ كَمَعْشـرٍ صَـبَرَوا
عِـزّاً عـلـى الأزلات والأزَمِ (١)

بسـطـوا الوجـوه وبـين أضلعهـم
حَـرُّ الجـوى ومـآلـمُ الكَلْـمِ

ولـه أيضاً :

كلفـتُ بالحـب حتى لـو دنـا أجـلي
لمـا وَجَـدْتُ لِطَعْـمِ المـوت من ألـمِ

كِـلا النـدى والهـوى قِـدْمـاً وَلِعْـتُ بـه
وَيْـلي من الحـب أو ويـلي مـن الكـرم

وأخبرني الوزير أبو الحسين بن سِراج – وهو بمنزل ابن شُهَيد – وكان من البلاغة في مدى غاية البيان . ومن الفصاحة في أعلى مراتب التِّبْيان . وكنا نحضر مجلس شرابه . ولا نغيب عن بابه ؛ وكان له بباب الصومعة من الجامع موضعٌ لا يفارقه أكثر نهاره . ولا يُخْليه من نثر دُرَرِه وأزهاره ، فقعد في ليلة ٢٧ من رمضان في لُمَةٍ (٢) من إخوانه ، وأئمة سُلْوانه ، وقد حَفُّوا به ليقطفوا نُخَبَ أدبه ، وهو يخلط لهم الجِدَّ بالهزل . ولا يُفْرِطُ في انبساط مشتهر ، ولا انقباض جزْل ،

(١) الأزلات ، جمع (أزل) وهو الضيق والشدة . والأزم : جمع (أزمة) وهي الشدة أيضاً .

(٢) اللمة : الشكل والمثل والترب .

وإذا بجارية من أعيان أهل قرطبة . معها من جواريها . من بَسترها ويُواريها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، وتبتغي منزلاً لاستغفار ذنبها ، وهي مُنْتَقِبَةٌ . خائفة ممن يرقبها مترقبة ، وأمامها طفلٌ لها كأنه غصن آس . أو ظبيٌ يمرحُ في كِناس (١) ؛ فلما وقعت عينُها على أبي عامر ولّت سريعة . وتولّت مَرُوْعة . خيْفةَ أن يُشَبِّبَ بها ، أو يشهرها باسمها . فلما نظرها قال قولاً فضحها به وشهرها :

ونـاظِـرةٍ تحـت طـيِّ القنـاعِ
دعـاهـا إلـى اللـه بالخـير داعـي

سَـعَـتْ خِيفْيـةً تبتغـي مـنزلاً
لـوصـل التبتُّـلِ والانقطـاعِ

فجـاءت تَهـادى كمثـل الرَّؤوم
تُـراعي غـزالاً بِـرَوْضِ اليَفـاعِ (٢)

وجـالـت بموضعنـا جـولـةً
فحـلَّ الـربيـع بتلـك البقـاعِ

أتتنـا تَبَخْـتَرُ فـي مَشْـيِهـا
فَحَلَّـت بـوادٍ كثـيرِ السبـاعِ

وريْعَـتْ حِـذاراً عـلى طفلهـا
فنـاديتُ يـا هـذه لا تُـراعي

(١) الكناس : مغارة والمكان الذي يستتر فيه .

(٢) اليفاع : المشرف عن الأرض والجبل . أو التل المشرف .

غَـزالُـكِ تَفَـرَقُ منـه الليـوثُ
وتفـزع منـه كُمـاةُ المِصـاعِ (١)
فولّـــت والمسك في ذَيلهـــا
علـى الأرض خـطٌ كظهـرِ الشجـاعِ

* * *

ابن زَمْرَك

هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي، يكنى أبا عبد الله . ويعرف بابن زَمْرَك .

أصله من شرقي الأندلس، وسكن سلفه روض البيازين من غَرناطة، وبه ولد ونشأ . وهو من مفاخره .

حالُه : هذا الفاضل صدرٌ من صدور طلبة الأندلس، وأفراد نُجبائها، مُختَصَر . مقبول . هش . عذبُ الفكاهة . حلو المجالسة . حسن التوقيع . خفيف الروح . عظيم الانطباع ، شَرِهُ المذاكرة ، فَطِنٌ بالمعَاريض . حاضر الجواب . شُعْلَةٌ من شُعَل الذكاء ، تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة . فَكِهٌ . غَزِلٌ مع حياء وحِشمةٍ ، جوادٌ بما في يده . مشارك لإخوانه . نشأ عَفّاً طاهراً . كَلِفاً بالقراءة . عظيمُ الدُؤوب . ثاقب الذهن . أصيل الحفظ ، ظاهر النُبْل . بعيد مدى الإدراك . جيد الفهم ، فاشتهر فضلُه ، وذاع أرَجُه . واضطلع

(١) المصاع : الضراب والجلاد .

بكثيرٍ من الأغراض . وشارك في كثير من الفنون ، وأصبح مُتَلَقّفَ كُرَةِ البحث (١) . وصارخ الحَلْقة . ومظنّة الكمال .

ثم ترقى في درجة المعرفة والاطّلاع . وخاض لُجّةَ الحفظ . وركض قَلَمَ التقييد والتسويد والتعليق ، ونصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب . وفوق المحفل المجموع . مُسْتَظهِراً (٢) بالفنون التي بَعُدَ فيها شأوُه (٣) من العربية والبيان . وما يقذف به في لُجّ النقل من الأخبار والتفسير ، متشوقاً مع ذلك إلى السلوك (٤) . مصاحباً للصوفية ، آخذاً نفسه بارتياضٍ ومجاهدة .

ثم عانى الأدبَ فكان أَمْلَكَ به . وأعمل الرحلةَ في طلب العلم والازدياد فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم بن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعُرِف في بابه بالإجادة؛ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس . واستقر بالمغرب ، أَنِسَ له ، وانقطع إليه ، وكرَّ في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه ، فَلَطُفَ منه محلُّه ، وخصَّه بكتابة سِرِّه .

وثابتِ الحال ، ودالت الدولة ، وكانت له الطائلة ، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية ، كثير الدالّة ، مضطلعاً بالخطة خطاً وإنشاءً ولسناً ونقداً ، فَحَسُنَ منابُه ، واشْتَهَرَ فضلُه ، وظهرت مشاركته ، وحسنت وساطته ، ووسع الناسَ تَخَلّقُه ، وأرضى للسلطان

---

(١) كناية عن غلبه وسبقه .

(٢) استظهر فلان بكذا : تقوى به .

(٣) الشأو : المدى ، والغاية والأمد .

(٤) يريد سلوك طريق أهل التصوف .

حمله ، وامتد في ميدان النظم والنثر باعُه ، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بديعة الشأو في مدى الإجادة .

شيوخه : قرأ العربية على الأستاذ ، رحلة المغرب في فنها أبي عبد الله ابن الفخّار . ثم على القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني . والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد ابن لب ، واختص بالفقيه الخطيب الصدر المحدّث أبي عبد الله بن مرزوق . فأخذ عنه كثيراً من الرواية . ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقرىء القادم من الأندلس . وذاكره ، وقرأ الأصول الفقهية على أبي منصور الزواوي ، ويروي عن جماعة منهم القاضي أبو البركات بن الحاج ، والمحدّث أبو الحسين بن التلمساني ، والخطيب أبو عبد الله ابن الأوْشِيّ ، والمقرىء أبو عبد الله بن بييش . وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف ، الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوي التلمساني ، واختص به اختصاصاً لم يَخْلُ فيه من استفادة مِران وحُنْكَةٍ في الصنعة .

شعره : وشعره مُترامٍ إلى هدف الإجادة ، خفاجيّ النزعة (١) ، كَلِفٌ بالمعاني البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة .

ومن شعره في غير المطوّلات :

لقــد زادني وجــداً وأغـرى بـي الجــوى
ذُبــالٌ بأذيـال الظــلام قــد التفّــا

(١) نسبة إلى (ابن خفاجة) الشاعر الأندلسي المشهور .

تشير وراء الليل منه بَنانَةٌ
مُخَضَّبَةٌ والليلُ قد حجب الكفّا

تلوح سِناناً حين لا تَنْفَحُ الصبا
وتبدي سواراً حين تَثْني له العِطْفا

قطعت به ليلاً يطارحني الجوى
وآونةً يبدو ، وآونةً يخفى

إذا قلت لا يبدو أشالَ لسانَه
وإن قلت لا يخفى الضياء به كَفّا

إلى أن أفاق الصبحُ من غمرة الدُّجى
وأهدى نسيمُ الروض من طيبه عَرْفا

لك الله يا مصباح أشبهت مهجتي
وقد شفّها من لوعة الحب ما شفّا

ومن أبياته الغراميات :

فيادي قد تملكه الغَرامُ
ووَجْدي لا يُطاق ولا يُرامُ

ودمعي دونه صَوْبُ الغوادي
وشَجْوي فوق ما يشكو الحمامُ

إذا ما الوجدَ لم يبرح فؤادي
على الدنيا وساكنِها السلامُ

وبما يرجع إلى باب الفخر ، ولَعَمْري لقد صدق :

ألائمةٌ في الجود والجودَ شيمةٌ
جُبِلْتُ على إيثارها يومَ مولدي

ذريني فلو أني أخلَّدُ بالغنى
لكنتُ ضنيناً بالذي ملكتْ يدي

وقال :

لقد علم الله أني امرؤٌ
أجَرِّرُ ذيل العفاف القشيبْ

فكم غمّض الدهرُ أجفانَه
وحازت قداحي بوصل الحبيب

وقيل : رقيبكَ في غفلةٍ
فقلت : أخاف الإله الرقيبْ (١)

(١) وشعره كثير أورد المقري كثيراً منه ، وله ديوان وتوفي نحو سنة ٧٩٣ هـ =
١٣٩٠ م .

من القضاة

منذرُ بنُ سَعيد البَلّوطي

هو منذر بن سعيد البلوطي : قاضي الجماعة بقرطبة : كان لا يخاف في الله لَوْمَةَ لائم .

وكان ــ على متانته وجزالته ــ حَسَنَ الخُلُق ، كثير الدُعابة ، فربما ساء ظنُ من لا يعرفه ، حتى إذا رامَ أن يصيب من دِينِه شعرةً ثار له ثورة الأسد الضاري .

فمن ذلك ما حدَّث به سعيدٌ ابنُه قال : قعدنا ليلةً من ليالي شهر رمضانَ المعظم مع أبينا للإفطار بداره البرانية ، فإذا سائل يقول : أطعموني من عشائكم ، أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة ، هذه الليلة ؛ ويكثر من ذلك . فقال القاضي : إن استجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا أحد .

وحكى عنه قاسم بن أحمد الجُهَنِيّ أنه ركب يوماً لحيازة أرض مُحَبَّسة في رَكْبٍ من وجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم اللؤلؤي ونُظَراؤه قال : فَسِرْنا نَقْفوه (١) وهو أمامنا ، وأمامه أمناؤه يحملون خرائطه . وذووه عليهم السكينة والوقار ؛ وكانت

---

(١) نقفوه : نتبعه .

القضاة حينئذٍ لا تُراكَب ولا تُماشى . فعرض له في بعض الطريق كلابٌ مع مُسْتَوْحِمَة (١) ، والكلاب تَلْعَقُ هَنَها وتدور حولها فوقف وصرف وجهه إلينا وقال : ترون يا أصحابنا ما أبرَّ الكلاب بالهَن الذي تلعقه وتكرمه . ونحن لا نفعل ذلك . ثم لوى عنانَ دابته . وقد أضحكنا . وبقينا متعجبين من هزله .

وقال منذر بن سعيد : كتبتُ إلى أبي علي البغدادي أستعير منه كتاباً من الغريب (٢) . وقلت :

بِحَقِّ رِيمٍ مُهَفْهَفْ ... وَصُدْغِهِ المُتَعَطِّفْ
ابْعَثْ إليَّ بِجُزْءٍ ... من الغريب المصنف (٣)

فقضى حاجتي . وأجاب بقوله :

وحَقِّ دُرٍّ تألَّفْ ... بِفِيكَ أيَّ تألُّفْ
لأَنْعَتَنَّ بما قد ... حوى الغريبُ المصنَّفْ
ولو بعثتُ بنفسي ... إليك ما كنتُ أسرفْ

فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة .

وذكر ابن الأصبغ الهمداني عن منذر أنه خطب يوماً ، وأراد التواضع ، فكان من فصول خطبته أن قال : حتى متى ، وإلى متى أعِظُ ولا أتعظ ، وأزْجُرُ ولا أنزجر ، أدُلُّ الطريقَ إلى المستدلِّين ، وأبقى مقيماً مع الحائرين ؟ كلا ، إن هذا لهو البلاءُ المُبين(إنْ هيَ إلا فِتْنَتُكَ

(١) مستوحمة : تظهر الرغبة في اللقاح .
(٢) في الغريب من اللغة .
(٣) يريد كتاب (الغريب المصنف) للقاسم بن سلام الهروي .

تُضِلُّ بها مَنْ تَشاء ، وتَهْدي مَنْ تَشاء . .) الآية . اللهم فرِّغني لما خلقتني له . ولا تَشْغَلْني بما تَكَفَّلْتَ لي به . ولا تحرمني وأنا أسألك ، ولا تعذبني وأنا أستغفرك . يا أرحم الراحمين .

وسمع منذر بالأندلس من عُبيد الله بن يحيى بن يحيى ونظرائه ؛ ثم رحل حاجاً سنة ثمان وثلاثمئة فاجتمع بعدة أعلام . وظهرت فضائله بالمشرق . وممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابوري سمع عليه كتابَه المؤلّف في اختلاف العلماء المسمى بـ (الإشراف) . وروى بمصر كتاب (العَيْن) للخليل (١) عن أبي العباس بن وَلاّد . وروى عن أبي جعفر بن النّحاس .

وكان منذر متفنناً في ضروب العلوم . وغلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري ، فكان منذر يُؤْثِر مذهَبه ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته . ويأخذ به في نفسه وذويه؛ فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه ، وهو الذي عليه العمل بالأندلس . وحمل السلطانُ أهلَ مملكته عليه .

وكان خطيباً بليغاً ، عالماً بالجدل ، حاذقاً فيه ، شديدَ العارضة ، حاضرَ الجواب ، عتيده (٢) . ثابتَ الحجة ، ذا شارة عجيبة ومنظر جميل ، وخُلُقٍ حَميد ، وتواضُعٍ لأهل الطلب . وانحطاطٍ إليهم ، وإقبالٍ عليهم .

---

(١) ابن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م ، إمام اللغة والأدب في عصره ، وواضع علم العروض .

(٢) عتيده : أي كان حاضر الجواب ، معداً له .

وكان – مع وقاره التام – فيه دُعابةٌ مُسْتَمْلَحة ، وله نوادر مستحسنة .

وكانت ولايته القضاء بقُرْطُبَة للناصر في شهر ربيع الآخر سنة تسعٍ وثلاثين وثلاثمئة . ولبث قاضياً من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته ، ثم للخليفة الحكَم المستنصر إلى أن توفي – رحمه الله تعالى – عقب ذي القعدة من سنة خمسٍ وخمسين وثلاث مئة ؛ فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبّر عنه في المشرق بـ (قضاء القضاة) (١) ستة عشر عاماً كاملة . لم يُحفظ عليه فيها جَوْرٌ في قضية ، ولا قَسْمٌ بغير سَوِيّة ، ولا ميلٌ لهوى.ولا إصغاء إلى عناية . رحمه الله تعالى ورضي عنه ؛ ودفن بمقبرة قريش بالرَّبَضِ الغربي من قرطبة جوفيَّ مسجد السيدة الكبرى ، بقرب داره .

وله – رحمه الله – تواليف مفيدة منها كتاب (أحكام القرآن) ، و (الناسخ والمنسوخ) وغير ذلك في الفقه ، والكلام ، في الرد على أهل المذاهب . تغمده الله تعالى برضوانه .

وكان منذر شديد الصلابة في أحكامه . والمهابةِ في أقضيته . وقوة الحكومة (٢) . والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده . لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمَنْ دونه .

حضر يوماً في (الزهراء) مع الخليفة الناصر ، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصرَ قصيدةً منها :

(١) وصاحبه يدعى (قاضي القضاة) .
(٢) أي المحاكمة .

سَيَشْهَدُ ما أبْقَيتَ أنّكَ لم تكن
مُضيْعاً وقد مكّنْتَ للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتُقى
وبالزهرة الزهراء للمُلك والعَلْيا

فاهتز الناصر وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشداً :

يا بانيَ الزهراء مستغرقاً
أوقاتَه فيها أما تَمَهّلُ

لله ما أحسنَها رونقاً
لو لم تكن زهرتُها تذبلُ

فقال الناصر : إذا هَبَّ عليها نسيمُ التذكار والحنين ، وسَقَتْها مدامعُ الخشوع يا أبا الحكم ، لا تذبل إن شاء الله تعالى .

فقال منذر : اللهم اشهد أني قد بَثَثْتُ ما عندي . ولم آلُ نُصحاً .

أبو بكْر بنُ العربي

قال ابن سعيد : هو الإمام القاضي الشهير ، فخر المغرب ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المَعافِرِيّ ، قاضي قضاة كورة (إشبيلية) ، ذكره الحِجاري في (المسهب) . طبّق الآفاقَ بفوائده .

وملأ الشامَ والعراقَ بأوابده ، وهو إمامٌ في الأصول والفروع ، وغير ذلك .

ومن عرّف بابن العربي وذكره ابنُ الإمام في (سِمْط الجُمان) والشَقَنْدي في (الطُّرَف) .

وكان قد صحب المهديَّ بنَ تُوْمَرْتَ بالمشرق ، فأوصى عليه عبد المؤمن . وكان مُكْرَماً عنده .

ولقي أبا بكر الطُرْطوشي . وما بَرِحَ معظماً إلى أن تولّى خطة القضاء . ووافق ذلك أن احتاج سور إشبيلية إلى بنيانِ جهةٍ منه . ولم يكن بها مالٌ متوفر . ففرض على الناس جلودَ ضحاياهم ؛ وكان ذلك في عيد أضحى ، فأحضروها كارهين . ثم اجتمعت العامة العمياء . وثارت عليه . ونهبوا داره . وخرج إلى قرطبة .

سمع بالأندلس أباه وخالَه أبا القاسم الهَوْزني ، وأبا عبد الله السرقسطي . وببجاية أبا عبد الله الكُلاعِيَّ ، وبالمهدية أبا الحسن بن الحداد الخولاني . وسمع بالإسكندرية من الأنماطيّ . وبمصرَ من أبي الحسن الخلعي . وبدمشقَ غيرَ واحد كأبي الفتح نصر المقدسي . وبمكة أبا عبد الله الحسين الطبري . وابن طلحة ، وابن بُندار ، وقرأ الأدب على التبريزي ، وعمل — رحمه الله تعالى — على مدينة إشبيلية سوراً بالحجارة والآجر بالنُّوْرة ، من ماله .

وكان — كما في الصلة(١) — حريصاً على آدابها وسِيَرها ، ثاقب

---

(١) كتاب (الصلة) في تاريخ رجال الأندلس ، لابن بشكوال ، خلف بن عبد الملك بن مسعود الخزرجي المتوفى سنة ٥٧٨ ه = ١١٨٣ م . جعله ذيلا لكتاب ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس) . مطبوع .

الذهن في تمييز الصواب فيها ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ، ولين الكنَفَ ، وكثرة الاحتمال ، وكرم النفس ، وحسن العهد ، وثبات الود .

لقي ببغداد الشاشي الإمام أبا بكر ، والإمام أبا حامد الطوسي الغزالي ، ونُقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيتُ به من العلم إلا الباجيّ ، أو كلاماً هذا معناه .

وكان من أهل التفنن في العلوم ، متقدماً في المعارف كلها ، متكلماً على أنواعها ، حريصاً على نشرها ، وقام بأمر القضاء أحمد قيام ، مع الصرامة في الحق ، والقوة والشدة على الظالمين ، والرفق بالمساكين . وقد روي عنه أنه أمر بثَقْبِ أشداقِ زامر ، ثم صُرِف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبَثِّه ، وقرأ عليه الحافظ بن بشكوال بإشبيلية .

وقال القاضي عياض : ولكثرة حديثه وأخباره ، وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناسُ فيه الكلام ، وطعنوا في حديثه . وتوفي مُنْصَرَفه من مراكش ، من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة إشبيلية فحبسوا بمراكش نحو عام ، ثم سرحوا ، فأدركته منيته .

وروى عنه خَلْقٌ كثير ، منهم القاضي عياض ، وأبو جعفر بن الباذّش وجماعة .

حكى في دخوله بدمشق بيوت بعض الأكابر أنه رأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ، ثم يعود من ناحية أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك ، حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إلينا ، فأخذها

الخدم ووضعوها بين أيدينا . فلما فرغنا ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية ، فعلمتُ السِّرَّ . وإن هذا لعجيب .

ومن تآليف الحافظ أبي بكر بن العربي المذكور :

كتاب (القبس في شرح موطأ مالك بن أنس) وكتاب (ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك) وكتاب (أنوار الفجر) وكتاب (أحكام القرآن) وكتاب (عارضة الأحوذي(١) في شرح الترمذي) وكتاب (مراقي الزُّلَف) وكتاب (الخلافيات) وكتاب (نواهي الدواهي) وكتاب (سراج المريدين) وكتاب (المُشْكِلين : مُشْكِل الكتاب والسُّنَّة) وكتاب (الناسخ والمنسوخ في القرآن) وكتاب (قانون التأويل) و (كتاب النيرين في الصحيحين) وكتاب (سراج المهتدين) وكتاب (الأمد الأقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى) وكتاب في الكلام على مُشْكِل حديث السبحات والحجاب . وكتاب (العقد الأكبر للقلب الأصغر) و (تبيين الصحيح في تعيين الذبيح)(٢) و (تفصيل التفضيل بين التحميد والتهليل) ورسالة (الكافي في أن لا دليل على النافي) وكتاب (السباعيات) وكتاب (المسلسلات) وكتاب (المتوسط في معرفة صحة الاعتقاد . والرد على من خالف أهل السنة من ذوي البِدَع والإلحاد) ، وكتاب (شرح غريب الرسالة) وكتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) عشرون مجلداً . وكتاب (حديث الإفك)(٣)

(١) العارضة : قوة الحجة مع القدرة على الكلام . والأحوذي : الرجل المشمر في حجته ، السريع النشيط .

(٢) اختلف العلماء في أي ابني نبي الله إبراهيم الخليل هو الذبيح : إسماعيل أم إسحاق

(٣) الذي رميت به أم المؤمنين السيدة عائشة وبرأها الله في آيات من سورة النور .

وكتاب (شرح حديث جابر في الشفاعة) وكتاب (شرح حديث أم زَرْع) وكتاب (ستر العورة) وكتاب (المحصول في علم الأصول) وكتاب (أعيان الأعيان) وكتاب (ملجأ المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين) وكتاب (ترتيب الرحلة) وفيه من الفوائد مالا يوصف .

وقال ابن العربي: حَذِقْتُ القرآن ابن تسع سنين ، ثم ثلاثاً لضبط القرآن والعربية والحساب . فبلغت ست عشرة ؛ وقد قرأت من الأحرف نحواً من عشرة(١) بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوه(٢) . وتمرنت في العربية واللغة ، ثم رحل بي أبي إلى المشرق . ثم ذكر تمام رحلته . رحمه الله تعالى .

* * *

ابنُ مُغيث

هو القاضي الأجل يونس بن عبد الله بن مُغيث .

قال الفتح بن خاقان في (مطمح الأنفس) : قاضي الجماعة في قرطبة . فاضلٌ . ورَعٌ . مبرزٌ في النُّسّاك والزُّهّاد . دائمُ الأرق في التخشع والسُّهاد . مع التحقق بالعلم ، والتميز بحماه ، والتحيز إلى فئة الورع وأهله .

وله تآليف في التصوف والزهد ، منها (كتاب المنقطعين إلى الله) و (كتاب المجتهدين) وأشعارٌ في هذا المعنى . منها قوله :

(١) أي من قراءات القرآن الكريم .

(٢) هذه من أحكام تجويد القرآن .

فرَرْتُ إليكَ مــــن ظلمي لـــــنفسي
وأوحشني العبـــــاد وأنـــتَ أنسي

قصدتُ إليك منقطعــــــاً غـــريباً
لتؤنس وحـــــدتي في قـــعر رمسي

والعظمى مــــن الحاجات عنـــــدي
قصدتُ وأنت تعـــــــلم سرَّ نفسي

ولما أراد المستنصر بالله غزو الروم تقدم إلى أبي محمد والده بالكون في صحبته . ومسايرته في غزوته . فاعتذر بعذر يجده : وألم لا ينجده . فقال له الحكَم : إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العبـاس أعفيته من الغَزاة ، وجازيتُه أفضل المجازاة . فأجابه إليه ، على أن يؤلفه بالقصر . فزعم أنه رجل مَزْوْر ، وأن ذلك الموضع ممتنعٌ على مَنْ يُلِمُّ به ويزور . فألّفه بدار الملك المطلة على النهر ، وأكمله فيما دون شهر . وتوفي المستنصر إذ ذاك .

وقال ابن مغيث :

أتوا حِسّه إذ قيل جَـــدَّ نُحُولُـــهُ
فلم يبق من لحمٍ عليــه ولا عظـــمِ

فعادوا قميصاً في فـــراشٍ فـــلم يروا
ولا لمسوا شيئاً يـــدل عـــلى جسمِ

طواه الهوى في ثوبِ سُقْمٍ من الضنى
وليس بمحسوسٍ بعينٍ ولا وهـــمِ

* * *

من القراء

أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني

ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق : من هو الأحق بالتقديم والسبق الشهير عند أهل الغرب والشرق . الحافظ . المقرىء . الإمام . الرباني . أبو عمرو الداني ، عثمانُ بن سعيد بنِ عثمانَ بنِ سعيد بن عمر الأموي . مولاهم ، القرطبي ، صاحب التصانيف التي منها (المُقْنِـع) و (التيسير) .

وعُرف بالداني لسكناه (دانيَة) . وولد سنة ٣٧١ . وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٩٧ فمكث بالقيروان أربعة أشهر ، ودخل مصر في شوّالها . فمكث بها سنة ، وحجَّ ، ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩ ، وقرأ بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسي وغيره بقرطبة ، وعلى أبي الحسن بن غَلْبون ، وخلَف بن خاقان المصري ، وأبي الفتح فارس بن أحمد . وسمع من أبي مسلم الكاتب ، وهو أكبر شيخ له ، ومن عبد الرحمن بن عثمان القُشَيْريّ . وحاتم بن عبد الله البزار . وغير واحدٍ من أهل مصر وسواها ، وسمع من الإمام أبي الحسن القابسي ، وخلّف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس ، وتلا عليه خَلْقٌ منهم: مُفَرّج الأقفالي ، وأبو داود بن نجاح ، صاحب (التنزيل) في الرسم ، وهو من أشهر

تلامذته . وحدَّث عنه خَلْقٌ كثير : منهم خَلَفُ بنُ إبراهيم الطُّليطلي .

قال أبو محمد عُبيد الله الحَجَريّ : ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الداني ، ولا بعد عصره أحدٌ يُدانيه ولا يضاهيه في حفظه وتحقيقه ؛ وكان يقول : ما رأيت شيئاً قط إلا كتبتُه ، ولا كتبتُه إلا حَفِظْتُه ، ولا حَفِظْتُه فنسيتُه .

قال ابن بَشْكوال : كان أبو عمرو أحد الأئمة في علمِ القرآنِ ؛ ورواياته ، وتفسيرِه ، ومعانيه ، وطُرُقِه ، وإعرابِه . وجَمَعَ في ذلك كله توالِيفَ حِساناً .

وله معرفة بالحديث وطُرُقِه وإعرابِه وأسماءِ رجاله .

وكان حسن الخط والضبط ، من أهل الحفظ والذكاء واليقين ؛ وكان دَيِّناً فاضلاً وَرِعاً تقياً .

وقال بعضهم : كان أبو عمرو مُجابَ الدعوة ؛ مالكيَّ المذهب .

وقال بعض أهل مكة : إن أبا عمرو الداني مقرىء متقدم . وإليه المُنْتَهَى في علم القراءات . وإتقان القرآن . والقراء خاضعون لتصانيفه . واثقون بنقله في القراءات . والرسم ، والتجويد ، والوقف ، والابتداء ، وغير ذلك .

وله مئة وعشرون مصنفاً .

وروى عنه بالإجازة رَجُلان : أحمد بن محمد بن عبد الله الخَوْلاني ، وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة .

وكانت وفاته — رحمه الله تعالى — بِدانِيَةَ في نصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمئة .

* * *

أبو بكر بن عاصم

قال الوزير الكاتب الشهير . القاضي أبو يحيى بن عاصم القيسي الأندلسي — رحمه الله — في وصف أبيه القاضي أبي بكر بن عاصم، صاحب (التحفة) في علم القضاء .

وهو محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي . قاضي الجماعة ؛ الرئيس أبو بكر .

ونص المحتاج إليه في هذا المحل من كلام ولده قوله — رحمه الله — : إن بسطتُ القولَ ؛ أو عدَّدْتُ الطَّوْلَ(١) ، وأحكمتُ الأوصافَ ، وتوَخيْتُ الإنصاف(٢) أنفَدْتُ الطُروسَ(٣) ، وكنت كما يقول الناس في المثل : من مَدَحَ العروس(٤) ، وإن ضربتُ عن ذلك صفحاً فابئسما صنعتُ . ولشرٍّ ما أمسكتُ المعروف ومنعت . ولكَمْ من حقوق الأبوة أضعت . ومن ثديٍ للمَعَقَّةِ(٥) رضعتُ . ومن شيطانٍ لغَمَصَةِ الحقِّ(٦) أطَعْتُ ، ولم أردْ إلا الإصلاحِ ما استطعت ؛

---

(١) الطول : الفضل .

(٢) توخيت الإنصاف : قصدته .

(٣) أنفدت : أفنيت . والطروس : ما يكتب فيه من كاغد وغيره .

(٤) يقال في المثل : من يمدح العروس إلا أهلها .

(٥) المعقة : العقوق ، وهو ضد البر .

(٦) غمصة الحق : أراد كفران النعمة ، وترك الشكر عليها .

وإنْ تَوَسّطْتُ واقتصرتُ ، وأوجزتُ واختصرتُ ، فلا الحقَّ نصرت ، ولا أفنانَ البلاغة هَصَرْتُ . ولا سبيلَ الرُّشْدِ أبصرتُ ، ولا عن هوى الحَسَدَة أقصرت .

هذا ولو أني أجْهَدْتُ ألسنةَ البلاغة فَجَهِدَتْ ، وأيقظت عيون الإجادة فَسُهِّدَتْ(١) . واستعرتُ مواقف عكاظَ(٢) على ما عَهِدَتْ ، لَمَا قَرَّرْتُ من الفضل إلا ما به الأعداءُ قد شَهِدَتْ ، ولا اسْتَقْصَيْتُ من المجد إلا ما أوصت به الفئة الشانئة(٣) لخالفها الأبْتَر وعهدت .

فقد كان – رحمه الله – عَلَمَ الكمال ، ورَجُلَ الحقيقة ، وقاراً لا يخفّ راسِيْه ، ولا يَعْرَى كاسِيْه . وسكوناً لا يطرق جنبه . ولا يرهب غاليه . وحِلْماً لا تزلُّ حَصَاتُه(٤) ، ولا تُهْمَلُ وَصَاتُه ، وانقباضاً لا يُتَعَدّى رَسْمُه . ولا يُتجاوز حكمُه ، ونزاهةً لا تَرْخُصُ قيمتُها ، ولا تلينُ عزيمتُها ، وديانةً لا تُحسرُ أذيالُها ، ولا يَشِفُّ سِرْبالُها(٥) . وإدراكاً لا يُفَلُّ نَصْلُه ، ولا يُدْرَكُ خَصْلُه(٦) . وذهناً لا يخبو نورُه . ولا ينبو مَطْرورُه(٧) ،

---

(١) طال الأرق .

(٢) عكاظ ، موضع قرب مكة المكرمة كانت تقوم فيه سوق ، وكان يحضرها الشعراء والخطباء فيتناشدون ويتفاخرون .

(٣) الشانئة : المبغضة .

(٤) الحصاة : العقل .

(٥) يشف : يبين ما تحته .

(٦) الخصل : الإصابة في الرمي .

(٧) المطرور : المحدد .

وفهماً لا يخفى فلقُه . ولا يُهزَمُ فيَلْقَهُ ، ولا يُلْحَقُ بَحرُه . ولا يعطل نَحرُه . وتحصيلاً لا يفلت قنيصُه ، ولا يُسام حَريصُه ، بل لا يحلُّ عقالُه ، ولا يصدأ صِقالُه ، وطلباً لا تتحد فنونُه ، ولا تتعين عيونه . بل لا تحصر معارفه . ولا تقصر مصارفه ، يقوم أتمَّ قيامٍ على النحو على طريقة متأخري النحاة . جمعاً بين القياس والسماع ، وتوجيه الأقوال البصرية . واستحضار الشواهد الشعرية ، واستظهار اللغات والأَعْرِبَة . واستبصاراً في مذاهب المُعْرِبَة ، مُحلِّياً أجيادَ تلك الأعاريب . من علمي البديع والبيان بجواهر أسلاك ، ومُجلِّياً في آفاق تلك الأساليب . من فوائد هذين الفنين زواهرَ أفلاك ، إلى ما يتعلق بذلك من قافيةٍ للعَروض وميزان . وما للشِّعر من بُحورٍ وأوزان . تَضَلَّعَ بالقراءات أكمل اضطلاع ، مع التحقيق والاطلاع ، فيقنع ابن الباذش من إقناعه(١) ، ويشرح لابن شُرَيْح ما أشكل من أوضاعه . ويقصر عن رتبته الداني(٢) ، ويحرز صدر المِنَصَّة من (حرز الأماني) (٣) .

ويشارك في المنطق . وأصول الفقه . والعدد(٤) ، والفرائض . والأحكام مشاركةً حسنة .

ويتقدم في الأدب نظماً ونثراً ، وكتباً ، وشعراً . إلى براعة الخط . وإحكام الرسم ، وإتقان بعض الصنائع العملية ، كتسفير الكتب ، وتنزيل الذهب وغيرهما .

---

(١) ابن الباذش : مقرىء له كتاب (الإقناع) .

(٢) الداني : هو أبو عمرو عثمان بن سعيد . وتقدمت ترجمته قبل قليل .

(٣) حرز الأماني : قصيدة في القراءات للإمام الشاطبي .

(٤) العدد : الحساب ، وهو من ألزم اللوازم لإتقان الفرائض (تقسيم التركات) .

نشأ بالحضرة العلية . لا يغيب عن حلقات المشيخة . ولا يَريْمُ(١) عن مَظانّ الاستفادة . ولا يفتر عن المطالعة والتقييد ، ولا يسأم من المناظرة والتحصيل . مع المحافظة التي لا تنخرم ولا تنكسر . والمفاوضة في الأدب ونظم القريض والفكاهة التي لا تقدح في وقار . انتهى ملخصاً .

وقد أطال في تعريفه بأوراق عدة ثم قال : مولده في الربع الثالث من يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى من عام ستين وسبعمئة ، كما نقلته من خط ابنه ، ثم قال : وله مسائل متعددة في فنون شتى ، ضَمَّنَها كلَّ سديد من البحث وصحيح النظر .

وأما كتبه فالدُّر النفيس . والياقوت الثمين . والروضُ الأُنُف(٢)، والزهر النضير . نَصاعةَ لفظٍ ، وإصابةَ غرض . وسهولة تركيب ، ومتانة أساوب . انتهى .

ثم ذكر مشيخته وأطال . ثم سرد تآليفَه :

الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام .

والأرجوزة المسماة بِمَهْيَع الوصول(٣) . في علم الأصول : أصول الفقه .

والأرجوزة الصغرى المسماة بمرتقى الوصول للأصول ، كذلك .

والأرجوزة المسماة بنَيْل المُنى في اختصار (الموافقات)(٤) .

والقصيدة المسماة بإيضاح المعاني في القراءات الثماني .

---

(١) لا يريم : لا يبرح ولا يفارق .

(٢) الروض الأنف : الذي لم يرعه أو لم يطأه أحد .

(٣) المهيع : الطريق الواضح .

(٤) كتاب (الموافقات) للإمام الشاطبي .

والقصيدة المسماة بالأمل المرقوب في قراءة يعقوب .

والقصيدة المسماة بكنز المفاوض في علم الفرائض .

والأرجوزة المسماة بالموجز في النحو . حاذى به رَجَزَ ابن مالك في غرض البسط له والمحاذاة لقصده .

والكتاب المسمى بالحدائق في أغراض شتى من الآداب والحكايات .

توفي بين العصر والمغرب يوم الخميس حادي عشر شوال عام تسعة وعشرين وثمانمئة .

انتهى كلام الوزير ابن عاصم ؛ وإنما ذكرته لأن أهل الأندلس يقولون في حقه : إنه ابن الخطيب الثاني(١) .

(١) يقصد أن الأول هو لسان الدين بن الخطيب .

من علماء الحديث

ابن عبد البر

قال الفتح بن خاقان في كتاب (مطمح الأنفس) : الفقيه ، الإمام العالم . الحافظ ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر .

إمام الأندلس وعالمهـا . الذي التاحَتْ(١) به معالمهُا . صَحّحَ المَتْنَ والسَّنَد وميَّزَ المُرْسَل من المُسْنَد . وفرَّق بين الموصول والقاطع(٢) ، وكسا الملةَ منه نورٌ ساطع ، حَصَرَ الرواةَ ، وأحْصَى الضعفاء منهم والثقات ، وجَدَّ في تصحيح السقيم ، وجدَّد منه ما كان كالكهف والرقيم ، مع معاناة العلل . وإرهاف ذلك العلل ، والتنبيه والتوقيف . والإتقان والتثقيف . وشرح المقفَل . واستدارك المُغْفَل. وله فنون هي للشريعة رِتاج(٣) . وفي مفرق الملة تاج ، أشهرتْ للحديث ظُبا، وفرعت لمعرفته رُبا. وهَبّتْ لتَفَهّمه شَمالٌ وصَبا(٤)، وشَفَتْ منه وصَباً(٥) .

---

(١) التاحت : ظهرت وبانت .

(٢) متن الحديث : نصه ، والسند : الرجال الذين رووا الحديث . والمرسل والمسند والموصول والمنقطع من أنواع الحديث النبوي .

(٣) الرتاج : القفل .

(٤) الشمال : ريح تهب من جهة القطب ومن مطلع الشمس .

والصب : ويح رخية تهب من الشرق .

(٥) الوصب : شدة التعب والعناء والمرض .

وكان ثقة ، والأنفسُ على تفضيله متفقة .

وأما أدبه فلا تُعْبَر لُجَّتُهُ ، ولا تُدْحَضُ حُجَّتُهُ ، وله شعرٌ لم نجد منه إلا ما نفث به أَنَفَةً . وأقصى فيه عن معرفة ، فمن ذلك قوله وقد دخل إشبيلية فلم يلق فيها مَبَرَّةً . ولم يَلْقَ من أهلها تَهَلُّلَ أسِرَّة(١) ، فأقام بها حتى أخْلَقَه مَقامُه . وأطبقه اغتمامُه فارتحل وقال :

تنكّـــر مـــن كنا نُسَرُّ بقـــربـــه
وعـــاد زُعـــافاً بعدما كان سلسلا

وحُـــقَّ لجـــارٍ لم يوافقـــه جارُه
ولا لاءمَتْـــهُ الدارُ أن يتحـــولا

بُليـــت بحمصٍ والمقـــام ببلـــدةٍ
طويلاً لَعَمْري مُخْلِقٌ يُوْرِثُ البِلى(٢)

إذا هان حُـــرٌّ عند قومٍ أتـــاهـــمُ
ولـــم يَنْأَ عنهم كان أعمى وأجهلا

ولـــم تُضْرب الأمثـــالُ إلا لِعـــالمٍ
ومـــا عُوتِـــبَ الإنسانُ إلا ليَعْقلا

---

(١) أسرة الوجه : خطوط تكون في الجبين .

(٢) حمص : اسم بلدة في سورية ، أطلقه العرب على مدينة إشبيلية بالأندلس .

وقال يوصي ابنه بمقصورة :

تجافَ عن الدنيا وهوِّن لقدرها
وَوَفِّ سبيلَ الدين بالعُروة الوُثْقى

وسارعْ بتقوى اللهِ سرّاً وجهرةً
فلا ذمةً أقوى – هُديتَ – من التقوى

ولا تَنْسَ شُكْرَ اللهِ في كل نعمةٍ
يَمُنُّ بها فالشكر مستجلِبُ النعمَى

فَدَعْ عنكَ مالا حظَّ فيه لعاقلٍ
فإن طريقَ الحقِّ أبلجُ لا يَخْفى

وَشُحَّ بأيامٍ بقيْنَ قلائلٍ
وعُمْرٍ قصيرٍ لا يدوم ولا يبقى

ألم تر أن العمر يمضي مُوَلِّياً .
فجِدَّتُه تَبْلى ومُدَّتُه تفنى

نخوض ونلهو غفلةً وجهالةً
ونَنْشُرُ أعمالاً وأعمارُنا تُطوى

تواصلُنا فيه الحوادثُ بالردى
وتنتابُنا فيه النوائبُ بالبَلْوى

عَجِبْتُ لنفسٍ تبصرُ الحقَّ بيِّناً
لَدَيْهَا وتأبى أن تفارق ما تهوى

وتسعى لما فيه عليها مَضَرَّةٌ
وقد علمتْ أنْ سوف تُجزى بما تسعى

ذنوبيَ أخشاها ولستُ بآيسٍ
وربِّيَ أهلٌ أن يُخاف وأن يُرْجى

وإن كان ربي غافراً ذَنْبَ مَنْ يشا
فإنِّيَ لا أدري أأُكرمُ أم أخزى

* * *

أبو الربيع سليمان بن موسى الكَلاعي

(هو سليمان بن موسى بن سالم الكَلاعي الحِمْيَريّ ، أبو الربيع ، محدِّث الأندلس وبليغها في عصره . من أهل بَلَنْسِيَة)(١) .

وكان – رحمه الله تعالى – حافظاً للحديث ،مُبَرِّزاً في نقده، تام المعرفة بطُرقه ، ضابطاً لأحكام أسانيده . ذاكراً لرجاله ، ريّانَ من الأدب . خطب بِبَلَنْسِيَة ، واستُقْضي . وكان ، مع ذلك . من أولي الحزم والبسالة ، والإقدام والجزالة ، حضر الغزوات . وباشر القتال بنفسه . وأبلى بلاءً حسناً ، وروى عن أبي القاسم بن حَبيش وطبقته،

(١) توفي سنة ٦٣٤ هـ .

وصنف كتباً منها (مصباح الظُلَم) في الحديث ، و (الأربعون) عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة . و (الأربعون السُّباعية) و (السُّباعِيّات من حديث الصَدَفي) ،و (حليّة الأمالي،في الموافقات والعوالي) و (تحفة الوُرّاد ونَجْعَة الرُّواد) و (المسلسلات) و (الإنشادات) وكتاب (الاكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء). و (ميدان السابقين وحَلْبَة الصادقين المصَدّقين) في غرض كتاب (الاستيعاب)(١) ، ولم يكمله،و (المعجم) فيمن وافقت كنيته زوجه من الصحابة و (الإعلام بأخبار البخاري الإمام) و (المعجم في مَشْيَخَةِ أبي القاسم بن حَبيش) و (برنامج رواياته) و (جَنْيُ الرُّطَب في سَنِيّ الخُطَب) و (نكتة الأمثال، ونفثة السحر الحلال) و (جهد النصيح . في معارضة المعري في خطبة الفصيح) و (الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحِكَم واختراع الأمثال) و (مفاوضة القلب العليل . ومنابذة الأمل الطويل . بطريقة المعري في ملقى السبيل) و (كتاب مجازفتي اللحن للاحن الممتحن) مئة مسألة مُلْغَزَة . و (نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم في مثال النعل النبوية على لابسها أفضل الصلاة والسلام)

قال ابن رشيد : لو قال : (وزكاة النثير والنظيم) لكان أحسن .

وله كتاب (الصحف المُنَشَّرَة . في القطع العشرة) و (ديوان رسائله) سِفْرٌ ، و (ديوان شعره) سِفْرٌ .

وكانت وقعة أنيجةَ التي قُتل فيها الحافظ أبو الربيع الكلاعي — رحمه الله تعالى — يوم الخميس لعشرٍ بَقِيْنَ من ذي الحجة سنة أربعٍ

---

(١) كتاب الاستيعاب في تراجم الصحابة لابن عبد البر . مطبوع مشهور .

وثلاثين وستمئة ، ولم يزل – رحمه الله تعالى – متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار ، مقبلاً على العدو ، ينادي المنهزمين : أَعَنِ الجنة تفرون ؟ حتى قُتل صابراً محتسباً بَرَّد الله مَضْجَعَهُ . وكان دائماً يقول : إن منتهى عمره سبعون سنة ، لرؤيا رآها في صغره ، فكان كذلك .

ومن شعره :

أمولى الموالي ليس غَيْرُكَ لي مولى
وما أحدٌ – يارَبِّ – منك بِذا أَوْلى

تَبارَكَ وجهٌ وُجِّهَتْ نحوه المُنى
فأوْزَعَها شكراً ، وأوسعها طَوْلاً

وما هو إلا وَجْهُكَ الدائم الذي
أقلُّ حُلى علياته يُخْرِسُ القولا

تبرأتُ من حَوْلي إليك وقوتي
فكن قوتي في مطلبي وكُنِ الحَوْلا

وهَبْ لي الرضى مالي سوى ذاك مُبْتَغى
ولو لقيتْ نفسي على نيله الهولا

* * *

يحيى بن يحيى الليثي

ومن الراحلين من الأندلس الفقيه المحدِّث يحيى بن يحيى الليثي ، راوي (المُوَطَّأ) عن مالك رضي الله تعالى عنه .

ويقال : إن أصله من برابرة مَصْمودة(١) .

وحُكي أنه لما ارتحل إلى مالك لازمه . فبينما هو عنده في مجلسه ، مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل : قد حضر الفيل ، فخرج أصحاب فقيهها مالك كلهم ولم يخرج يحيى ، فقال له مالك : مالَكَ لم تخرج وليس الفيل في بلادك ؟ فقال : إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك ، وأتعلم من هَدْيك وعلمك ولم أكن لأنظر إلى هذا الفيل ، فأعجب به مالك وقال : هذا عاقل الأندلس . ولذلك قيل : إن يحيى هذا عاقل الأندلس . وعيسى ابن دينار فقيهها ، وعبد الملك بن حبيب عالِمها .

ويقال : إن يحيى راويها ومُحَدِّثها .

وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ في رجب . وقبره يُستسقى به بقرطبة .

وقيل : إن وفاته في السنة التي قبلها ، والله أعلم .

وروايته (الموطأ) مشهورة ، حتى إن أهل المشرق الآن يُسْنِدون (الموطأ) من روايته كثيراً ، مع تعدد رواة (الموطأ) والله أعلم .

وكان يحيى بن يحيى روى (الموطأ) بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشَبَطون ، وسمع من يحيى بن مُضَر القيسي

---

(١) مصمودة : قبيلة بربرية ، مشهورة بالشوكة والعدد .

الأندلسي ، ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنة ، فسمع من مالك بن أنس (الموطأ) غير أبوابٍ في كتاب الاعتكاف ، شكّ في سماعها ، فأثبت روايته فيها عن زياد ، وذلك مما يدل على ورَعِه .

وسمع بمصر من الليث بن سعد ، وبمكة من سفيان بن عُيينة ، وتفقّه بالمدنيين والمصريين كعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، العُتَقيّ ، وسمع منهما ، وهما من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازَمته له .

وانتهت إليه الرياسة بالأندلس ، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار ، وتفقه به جماعة لا يُحْصَوْن عدداً . وروى عنه خَلْقٌ كثير ، وأشهر رواة (الموطأ) وأحسنُهم روايةً يحيى المذكور ، مع أمانته ودينه ، معظّماً عند الأمراء ، يُكنى عندهم ، عفيفاً عن الولايات ، متنزهاً ، جلت رُتْبتُه عن القضاء ، وكان أعلى من القضاة قدراً عند ولاة الأمر بالأندلس ، لزهده في القضاء وامتناعه .

لما انفصل يحيى عن مالك ، ووصل إلى مصر ، رأى ابن القاسم يدوِّن سماعه من مالك ، فنَشِط للرجوع إلى مالك ليسمع منه المسائل التي رأى ابن القاسم يدونها ، فرحل رحلة ثانية ، فألفى مالكاً عليلاً . فأقام عنده إلى أن مات(١) . وحضر جنازته ، فعاد إلى ابن القاسم وسمع منه سماعه من مالك .

هكذا ذكره ابنُ الفرَضي في تاريخه . وهو مما يرُدُّ الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكاً عن زكاة التين ، فقال له :

---

(١) مات مالك بن أنس بالمدينة النبوية سنة ١٧٩ هـ = ٧٩٥ م .

لا زكاة فيها . فقال : إنها تُدَّخر عندنا ، ونَذَرَ إن وصل إلى الأندلس أن يرسل لمالك سفينةً مملوءة تيناً ، فلما وصل أرسلها فإذا مالك قد مات .

قال ابن الفَرَضي : ولما انصرف يحيى إلى الأندلس كان إمام وقته وواحدَ بلاده ، وكان ممن اتُّهم بالهَيْج في وقعة الرَّبض المشهورة ، ففر إلى طُلَيْطِلَة ، ثم استأمن فكتب له الأمير الحكَم أماناً ، وانصرف إلى قرطبة .

وقيل : لم يُعْطَ أحدٌ من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أُعطِيَ يحيى من الحُظْوَةِ ، وعظَم القدر ،وجلالة الذِّكْر .

وقال ابن بَشْكوال : إن يحيى بن يحيى كان مُجابَ الدعوة ، وإنه أخذ في سمته وهيئة ونفسه ومقعده هيئاتِ مالِك .

ويحكى عنه أنه قال : أخذتُ برِكاب الليث بنِ سعد ، فأراد غلامُه أن يمنعني ، فقال : دَعْهُ ، ثم قال لي الليث : خَدَمَكَ العلم . فلم تزل بي الأيام حتى رأيت مالكاً .

* * *

مــن الفقهــاء

ابن حزْم :

هو أبو محمد بن حَزْم الظاهري .

قال ابن حيان وغيره : كان ابنُ حزم صاحب حديث وفقهٍ وجَدل ، وله كتب كثيرة في المنطق والفلسفة لم يَخْلُ فيْها من غلط .

وكان شافعيَّ المذهب ، يناضل الفقهاء عن مذهبه ، ثم صار ظاهرياً ، فوضع الكتب في هذا المذهب ، وثبت عليه إلى أن مات .

وكان له تعلقٌ بالأدب ، وشنّع عليه الفقهاء ، وطعنوا فيه ، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه ، وتوفي بالبادية عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمئة .

وقال صاعد في تاريخه : كان ابن حزم أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفةً ، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار .

أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمئة مجلد . نقله عن تاريخ صاعد الحافظُ الذهبي .

قال الذهبي : وهو العلاّمة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ابن غالب بن صالح الأموي . مولاهم ، الفارسي الأصل ، الأندلسي،

القرطبي ، الظاهري صاحب المصنفات ، وأول سماعه سنة ٣٩٩ .
وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدّة الذهن ، وسعةِ العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنِّحَل والعربية والآداب والمنطق والشعر . مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد، والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

قال الغزالي — رحمه الله تعالى — : وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد بن حزم يدل على عِظَم حفظه ، وسيلان ذهنه .

وعلى الجملة فهو نَسيجُ وحْدِه ، لولا ما وُصف به من سوء الاعتقاد والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد .

وذكر الذهبي أن عمره اثنتان وسبعون سنة ، وهو لا ينافي قول غيره « إنه كان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر » ، لأنه ولد — رحمه الله تعالى — بقرطبة ، بالجانب الشرقي في رَبَض مُنْيَةِ المغيرة، قبل طلوع الشمس ، وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخرَ ليلة الأربعاء آخرَ يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمئة، بطالع العَقْرب ، وتوفي ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦ وكان كثير المواظبة على التأليف .

ومن جملة تآليفه كتاب (الفصَل بين أهل الأهواء والنِّحَل) وكتاب (الصادع والرادع ، على من كفّر أهل التأويل من فِرَق المسلمين والرد على فِرق التقليد) وكتاب (شرح حديث المُوَطّأ ، والكلام على مسائله) وكتاب (الجامع في حد صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها) ، وكتاب (التلخيص والتخليص)،

في المسائل النظرية وفروعها التي لا نَص عليها في الكتاب والحديث) وكتاب (منتقى الإجماع ، وبيانه من جملة مالا يعرف فيه اختلاف) ، وكتاب (الإمامة والخلافة ، في سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها ، وكتاب (أخلاق النفس) وكتاب (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال) وكتاب (كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس) .

قال ابنه أبو رافع الفضل : اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربعمئة مجلد ، تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة .

وحُكي أن الحافظ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامر بنَ شُهيد في يوم غزير المطرِ والوحلِ ، شديد الريح . فلقيه أبو عامر ، وأعظمَ قَصْدَه على تلك الحال وقال له : ياسيدي ، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم ؟ فأنشده أبو محمد بن حزم بديهاً :

فلو كانت الدنيا دُوَيْنَكَ لُجةَ
وفي الجو صَعْقٌ دائمٌ وحريقُ

لسهّل وُدّي فيك نحوك مسلكاً
ولم يتعذر لي إليك طريقُ

ولابن حزم أيضاً قوله :

لا تلمني لأن سبقةَ لحظ
فاتَ إدراكُها ذوي الألبابِ

يسبق الكلب وثبة الليث في العـد
و ويعلو النُّخالُ فوق اللبابِ

وقال يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير :

أنا الشمس في جو العلوم منيرةٌ
ولكنَّ عيبي أن مطلعيَ الغربُ

ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ
لجدَّ على ما ضاع من ذكري النهبُ

ولي نحو آفاق العراق صَبابةٌ
ولا غرو أنْ يستوحش الكَلِفُ الصبُّ

فإن ينزل الرحمنُ رحليَ بينهم
فحينئذٍ يبدو التأسف والكربُ

فكم قائلٍ أغفلتُه وهو حاضرٌ
وأطلب ما عنه تجيء به الكتبُ

هنالك يدري أن للعبد قصةً
وأن كساد العلمِ أفتُه القربُ

فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا
له ودنوُّ المرء من دارهم ذنبٌ

وإن مكاناً ضاق عني لضيقٌ
على أنه فيحٌ مَهامِهُه سُهْبُ(١)

وإن رجالاً ضيعوني لَضُيَّعٌ
وإن زماناً لم أنل خِصْبَه جَدْبْ

وقال لما أحرق المعتضد بن عبّاد كُتُبَه بإشبيلية .

دعونيَ من إحراق رَقٍ وكاغِدٍ
وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ من يدري

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطاسُ ، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلّت ركائبي
وينزل إنْ أنزل ويُدْفَنُ في قبري

* * *

أبو الوليد الباجي

قال ابن ماكولا في حقه : إنه فقيه ، متكلم ، أديب ، شاعر ، سمع بالعراق ، ودرس الكلام ، وصنف إلى أن مات .

وكان جليلاً رفيع القدر والخطر .

وقال غير واحد : إنه ولد سنة ٤٠٣ ﻫ ، وارتحل سنة ٤٢٦ ،

(١) المهامه : جمع مهمه : الصحراء . والفيح : جمع فيحاء ، وأراد الواسعة .

وجاور ثلاثة أعوام ملازماً لأبي ذر الهَرَوِيّ الحافظ ، يخدمه ، ورحل إلى بغداد ودمشق ، ولقي في رحلته غير واحد ، وتفقه بالقاضي أبي الطيب الطبري وغيره .

وقال أبو علي بن سُكّرة : ما رأيت مثل أبي الوليد الباجي ، وما رأيت أحداً على هيئته وسَمْتِهِ وتوقير مجلسه. ولما كنت ببغداد قدم ولده أبو القاسم فسرتُ معه إلى شيخنا قاضي القضاة الشاشي ، فقلت له : أدام الله تعالى عزّك . هذا ابن شيخ الأندلس ، فقال : لعله ابنُ الباجي ، فقلت : نعم . فأقبل عليه .

قال القاضي عياض : وكثرت القالَةُ في القاضي أبي الوليد لمداخلته الرؤساء . وولي قضاء أماكن تصغر عن قدره ، وكان يبعث إلى تلك النواحي خلفاءه . وربما أتاها المرةَ ونحوَها ؛ وكان في أول أمره مُقِلاً حتى احتاج إلى القَصْدِ بشعره. واستأجر نفسه مدة مقامه ببغداد ، فيما سمعته مستفيضاً لحراسةِ دَرْبٍ . وقد جمع ابنه شِعْرَه .

قال : ولما قدم الأندلسَ وجد لكلام ابنِ حَزْمٍ طلاوة . إلا أنه كان خارجاً عن المذهب . ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه . فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه . واتبعه على رأيه جماعةٌ من أهل الجهل . وحلّ بجزيرة مَيُورْقَة . فَتَرَأَّسَ فيها . واتبعه أهلُها . فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك . فدخل إليه ، وناظَرَه . وشهر باطلَه . وله معه مجالس كثيرة .

وذكر ابن بَسّام(١) أن أبا الوليد الباجي نشأ وهمته في العلم .

---

(١) أي في كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) . وهو مطبوع مشهور .

وأنه بدأ بالأدب . فبرز في ميادينه . وجعل الشعر بضاعته فنال به من كل الرغائب ، ثم رحل فما حلّ بلداً إلا وجده ملآنَ بذكره . نشوانَ من قهوتي نظمه ونثره . فمال إلى علم الديانة . فمشى بمقياس . وبنى على أساس ، حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه . ويرتاحون للأخذ عنه ، ثم كرَّ . واستُقْضِيَ في طريقه بحلب ، فأقام بها نحواً ما عام .

قال : وبلغني عن ابن حزم أنه كان يقول : لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم .

وصنف أبو الوليد كتباً كثيرة منها كتاب (التسديد إلى معرفة التوحيد) وكتاب (سنن المنهاج وترتيب الحِجاج) وكتاب (إحكام الفُصُول في أحكام الأصول) وكتاب (التعديل والتجريح لمن خرَّج عنه البخاري في الصحيح) وكتاب (شرح المُوَطّأ) . وهو نسختان : نسخة سماها (الاستيفاء) ثم انتقى منه فوائد سماها (المنتقى) في سبع مجلدات . وهو أحسن كتاب أُلِّفَ في مذهب مالك . لأنه شرح فيه أحاديث (المُوَطّأ) وفرَّع عليه تفريعاً حسناً . وأفرد منه شيئاً سماه (الإيماء) . وقال بعضهم : إنه صنف كتاب (المعاني في شرح الموطأ) فجاء عشرين مجلداً عديمَ النظر . وكان أيضاً صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سماه (الاستيفاء) . وله كتاب (الإيماء) في الفقه . خمس مجلدات .

ومن تصانيفه : (مختصر المختصر) في مسائل (المُدَوَّنَة) . وله كتاب (اختلاف الموطأ) وكتاب (الإشارة) في أصول الفقه . وكتاب (الحدود) وكتاب (سنن الصالحين) وكتاب (التفسير) لم

يُتِمّـهُ . وكتاب (شرح المنهاج) وكتاب (التبيين لسبيل المهتدين في اختصار فِرَقِ الفقهاء ، وكتاب (السراج) في الخلاف ولم يتـ وغير ذلك .

ثم إنه قدم بغداد . وأقام بها ثلاثة أعوام يدرّس الفقه . و الحديث . فلقي بها عدةً من العلماء كأبي الطيب الطبري . والإ الشهير أبي إسحاق الشيرازي . والصيمري وابن عُمْروس المالكي وأقام بالموصل سنةً مع أبي جعفر السِّمْناني يأخذ عنه علم الكلا فبرع في الحديث وعلله ورجاله . وفي الفقه وغوامضه وخِلاف وفي الكلام ومَضايِقهِ ، وتَرَبّج مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغد بحيث روى كل واحدٍ منهما عن الآخر . رضي الله تعالى عنهم ونفع بهما . ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلمٍ حَصَّله مع الفقر والتعفف .

وقال الفتح بن خاقان في (قلائد العقيان) . ما صورته : العلوم اللائح . وقَطْرُها الغادي الرائح ، وثَبيرُها(١) الذي لا يُزْحـ ومُنيرها الذي ينجلي به ليلُها الأَسْحَم .

كان إمام الأندلس الذي تُقتبس أنوارُه ، وتُنْتَجَعُ نُجو وأغوارُه . رحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهراً ، وقطف العلم أزاهراً . وتفنن في اقتنائه . وثنى إليه عِنانَ اعتنائه . حتى مملوءَ الوِطاب . وعاد بلَمْحُ طَلَبِهِ إلى الإرطاب . فكرَّ إلى الأنـ بحراً لا تُخاض لُجَجُه ، وفجراً لا يُطْمَسُ منهجه ؛ فتـ الدول . وتلقته الخيل والخَوَل . وانتقل من محجر إلى ناظر ، و

(١) ثبير : جبل بظاهر مكة المكرمة . يريد أنه يضاهيه .

من يانع بناضر ، ثم استدعاه المقتدر بالله فصار إليه مرتاحاً . وبدا بأفقه مُلتاحاً(١) . وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعُه . وبدأ وَخْدُه في سُبُل الهدى وإيضاعُه(٢) . وكان المقتدر يباهي بانحياشه إلى سلطانه . وبإيثاره لحضرته باستيطانه . ويحتفل فيما يرتبه له ويجريه ، وينزله في مكانه متى كان يوافيه . وكان له نظمٌ يُوْقِفُه على ذاته . ولا يصرفه في رَفَثِ القول وبَذاتِه(٣) . فمن ذلك قوله في معنى الزهد :

إذا كنت أعلم علم اليقين
بأن جميع حياتي كساعه

فلِمْ لا أكون ضنيناً بها
وأجعلها في صلاحٍ وطاعه

ولَعَمْري إنه لم يُوَفَّ القاضي أبا الوليد الباجي حقه الواجب المفترض . ووَددتُ أنه مَدَّ النَّفَس في ترجمته بعبارة يعترف ببراعتها مَنْ سَلَّمَ له ومن اعترض . فإن ترجمة المذكور مما سَطَّرَه أفسحُ مجالاً ، وأفصحُ رَوِيّةً وارتجالاً .

وبالجملة فهو أحد الأعلام بالأندلس ، وهو سليمان بن خَلَف بن سعد بن أيوب بن وارث التُّجيبي . وذكره ابنُ بَسّام في (الذخيرة) وابن خَلِّكان(٤) ، وغيرُ واحد . وأصله من بَطَلْيَوْس ، وانتقل

---

(١) الملتاح : الساطع المشرق المضيء .

(٢) الوخد والإيضاع : نوعان من السير السريع .

(٣) الرفث : القول الفاحش .

والبذاة : هي البذاءة .

(٤) أي في كتابه (وفيات الأعيان) . وهو مطبوع مشهور .

جده إلى باجة قرب إشبيلية ، وليس هو من (باجة) القيروان .
ومولده سنة ٤٠٣ ورحل سنة ٤٢٦ فقدم مصر ، وسمع بها ، وأجّر نفسَه ببغداد لحراسة الدروب ؛ وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب ، ويعقد الوثائق إلى أن فشا علمه . وتبيأت له الدنيا ؛ وشهرتُه تغني عن وصفه .

ومَن ذكره الحِجاري في (المسهب) وابن بَشْكَوال في (الصلة) وأنه حجَّ أربع حِجَجٍ . رحمه الله تعالى . وتوفي بالمَرِيّة لإحدى عشرة بقيت من رجب ، وقيل : ليلةَ الخميس تاسعَ رجب ، وقيل : تاسع عشر صفر سنة أربعٍ وسبعين وأربعمئة .

* * *

محمد بن يوسف المُرْسِي

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة :

مُرْسِيّ سكن شاطبة ، ودارُ سلفه بَلَنْسِيَة ، سمع أبا علي الصَّدَفي واختص به ، وأكثر عنه ، وإليه صارت دواوينه وأصولُه العِتاق وأمهاتُ كتبه الصحاح ، لصهرٍ كان بينهما .

وسمع أيضاً أبا محمد بن أبي جعفر . ولازم حضور مجلسه للتفقه به . وحَمَل ما كان يرويه ، ورحل إلى غرب الأندلس فسمع محمد بن عتّاب . وأبا بحر الأسدي . وأبا الوليد بن رُشْد . وأبا عبد الله بن الحاج . وأبا بكر العربي وغيرهم . وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني ،

وأبو الوليد بن طريف ، وأبو الحسن بن عفيف . وأبو القاسم بن صواب ، وأبو محمد بن السِّيْد وغيرهم .

ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين وخمسمئة فلقي بالإسكندرية أبا الحجاج بن نادر المَيُورْقيَ . وصَحِبَه ، وسمع منه ، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام ، وأدى فريضة الحج في سنة إحدى وعشرين ، ولقي بمكة أبا الحسن رزَين بن معاوية العَبْدَريَّ إمام المالكية بها . وأبا محمد بن صدقة المعروف بابن عزال ، من أصحاب كريمة المروزية . فسمع منها وأخذ عنهما . وروى عن أبي الحسن علي بن سند بن عياش الغساني ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصانيفه ، ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية ، ولقي أبا طاهر بن عوف . وأبا عبد الله بن مسلم القرشي ، وأبا طاهر السِّلَفيَّ ، وأبا زكريا الزناتي وغيرهم ، فأخذ عنهم ، وكان قد كتب إليه منها أبو بكر الطرطوشي وأبو الحسن بن مُشَرَّف الأنماطي ، ولقي في صدره بالمهدية أبا عبد الله المازريَ فسمع منه بعض كتاب (المعلم) وأجاز له باقيه . وعاد إلى مُرْسِيَةَ في سنة ست وعشرين . وقد حصَّل في رحلته علوماً جمة . ورواية فسيحة .

وكان عارفاً بالسنن والآثار . مشاركاً في علم القرآن وتفسيره ، حافظاً للفروع . بصيراً باللغة والغريب ، ذا حظ من علم الكلام ، مائلاً إلى التصوف . مُؤْثِراً له ، أديباً بليغاً خطيباً فصيحاً ، ينشىء الخطب مع الهَدْي والسمت والوقار والحلم ، جميل الشارة . محافظاً على التلاوة بالخشوع ، راتباً على الصوم ؛ وولي خطة الشورى بِمُرْسِيَةَ مضافةً إلى الخطبة بجامعها ، وأخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه .

ثم ولي القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمين ، ونُقل إلى قضاء (شاطبة) فاتخذها وطناً ، وكان يُسْمِعُ الحديث بها وبِمُرْسِية وبَلَنْسِيَةَ ، ويقيم الخُطَب أيام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقباً عليها ، وقد حدَّث بالمَرِيّةِ وهناك أبو الحسن بن موهب . وأبو محمد الرُّشاطي وغيرها ، وسمع منه أبو الحسن بن هُذيل (جامع الترمذي) ، وألّف كتابه (شجرة الوهم ، المترقية إلى ذِرْوة للفهم) ، ولم يُسْبَق إلى مثله ، وليس له غيره . وجمع فَهْرَسَةً حافلة .

ووصفه غير واحدٍ بالتفنن في العلوم والمعارف ، والرسوخ في الفقه وأصوله ، والمشاركة في علم الحديث والأدب .

وقال ابن عيّاد في حقه : إنه كان صليباً في الأحكام ، مقتفياً للعدل ، حسنَ الخَلْقِ والخُلُق ، جميلَ المعاملة ، لَيِّنَ الجانب ، فَكِه المجالسة ، ثَبْتاً ، حَسَنَ الخط ، من أهل الإتقان والضبط .

وحُكي عنه أنه كانت عنده أصولٌ حِسانٌ بخط عمه ، مع الصحيحين بخط الصَّدَفي ، في سِفْرَيْن .

قال : ولم يكن عند شيوخنا مثل كُتُبِه في صحتها وإتقانها وجودتها . ولا كان فيهم مَنْ رُزق عند الخاصة والعامة من الحظوة، والذِّكْر ، وجلالة القدر ما رُزِقَه .

وتوفي بِشاطِبةَ مصروفاً عن قضائها آخرَ ذي الحجة سنة خمسٍ وخمسين وخمسمئة ، ودفن أول يومٍ من سنة ستٍ وخمسين وخمسمئة بالروضة المنسوبة إلى أبي عمر بن عبد البَرّ . ومولده في رمضان سنة ٤٩٦ .

* * *

ابن حَوْط الله

قال لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) : أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حَوْطِ الله الأنصاري ـ الحارثي .

كان فقيهاً جليلاً أصولياً كاتباً أديباً شاعراً متفنناً في العلوم . وَرِعاً ، دَيِّناً ، حافظاً ، ثَبْتاً ، فاضلاً .

درس (كتاب) سيبويه ، و (مُسْتَصفى) أبي حامد الغزالي .

وكان ــ رحمه الله تعالى ــ مشهوراً بالعقل والفضل ، معظّماً عند الملوك . معلوم القدر لديهم ، يخطب في مجالس الأمراء ، والمحافل الجمهورية ، مقدَّماً في ذلك بلاغةً وفصاحةً إلى أبعد مضمار .

ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومُرْسِيَة وسَبْتَة وسَلا ومَيُورْقة فتظاهر بالعدل . وعُرف بما أبطن من الدّين والفضل . وكان من العلماء العاملين . مجانباً لأهل البدعِ والأهواء ، بارعَ الخط ، حَسَنَ التقييد . وسمع الحديث فحصل له سماعٌ لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل الغرب . وسمع على الجهابذة ، كابن بَشْكَوال وغيره ، وقرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار وصغار .

وكَمل له على أبي محمد بن عبد الله بين قراءة وسماع نحوٌ من ستة وثلاثين تأليفاً ، منها الصحيحان ، وأكثرَ عن ابن حُبَيْش وابن الفخار ، والسُّهَيْلِيّ وغيرهم .

ومولده في مَحَرَّم سَنَةَ ٥٤١ ، ومات بغَرْناطة سَحَرَ يوم

الخميس ثاني ربيع الأول سنة ٦١٢ ، ونُقل منها في تابوته الذي أُلحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبانَ من السنة المذكورة إلى مالَقَةَ فدفن بها ، رحمه الله تعالى .

وللمذكور ترجمة واسعة جداً ، وألْمَعْتُ بما ذُكر على وجه التبرك بذكره . رحمه الله تعالى ورضي عنه .

* * *

من الأدباء

لسان الدين بن الخطيب(١)

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السَّلْمانيّ . قُرْطُبِيُّ الأصل ، ثم طُلَيْطِلِيُّ ، ثم لَوْشِيُّ ، ثم غَرْناطِيُّ . يُكنى أبا عبد الله ، ويُلَقَّبُ من الألقاب المشرقية بلسان الدين .

كان مولده – كما في « الإحاطة » في الخامس والعشرين من شهر رجب عامَ ثلاثةَ عَشَرَ وسبعمئة . ونشأ بغَرْناطة .

وقرأ وتأدَّب على مشيختها ، واختصَّ بصحبة الحكيم المشهور يَحْيَى بن هُذَيْل ، وأخذَ عنه العلوم الفلسفية ، وبَرَزَ في الطّب . وانتحل الأدبَ ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلأ من حَوْلِ اللسان نظمُه ونثرُه ، مع انتقاء الجيّد منه ، ونبغَ في الشعر والتَّرْسيل بحيث لا يُجارَى فيهما ، وامتدح السلطانَ أبا الحجّاج من ملوك بني الأحمر لعَصْرِه ، وملأ الدنيا بمدائحه ، وانتشرتْ في الآفاقِ . فرقّاهُ السلطان إلى خدمتِه ، وأثبتَه في ديوانِ الكُتّاب ببابه مرؤوساً بأبي

---

(١) من أشهر وزراء الأندلس ، ويلقب ذا الوزارتين ، إلا أن فضله في الأدب والتاريخ والشعر والتآليف في كل ذلك جعلنا نلحقه بهذا الباب (من الأدباء) .

الحسن بن الجيّاب شيخ العُدْوتين في النّظْم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، وكاتبَ السلطانَ بغرناطة من لَدُنْ أيام محمّد المخلوع من سَلَفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبدّ عليه ، فاستبد ابنُ الخطيب برياسة الكتاب ببابه مثناةً بالوزارة ولقبه بها . فاستقلّ بذلك ، وصدرتْ عنهُ غرائبُ من الترْسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدْوَة ، ثم داخلَهُ السلطانُ في تولية العمال على يَده بالمشارطات فجمع له بها أموالاً ، وبلغ به في المخالَصة إلى حيث لم يبلغْ بأحد ممن قبله ، وسَفَرَ عنه إلى السّلطان أبي عنان ملك بني مَرِيْن بالعُدْوة معزّياً بأبيه السّلطان أبي الحسن ، فَتَجلّى في أغراض سفارته ، ثم هَلَكَ السلطان أبو الحجّاج سنة خمسٍ وخمسين وسبعمائة، عَدَا عليه بعض الزّعانف في سُجُوده للصّلاة ، وطعنَه فأشواه ، وفاض لوقته ، وتعاورَتْ سُيُوف الموالي المعلوجي هذا القاتل ، فمزّقوه أشلاءً وبويعَ ابنُه محمدٌ لوقْته ، وقام بأمره مولاهُم رِضْوانُ الرّاسخ القَدَم في قيادة عَساكرهم وكفالة الأصاغر من مُلوكهم . واستبدّ بالدّولة ، وأفرد ابنَ الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، وجُعِل ابنُ الخطيب رَديفا لرِضْوان في أمْره ، ومشاركاً في استبداده مَعَه ، فجرَتِ الدولة على أحسنِ حالٍ وأقوم طريقةٍ ، ثم بعثوا الوزير ابنَ الخطيب سَفيراً إلى السّلطان أبي عنان مستمدّين منه على عدوّهم الطاغية على عادتهم مع سَلَفه ، فلمّا قَدِمَ على السلطان ومَثَلَ بين يديه تقدَّم الوفدَ الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذَنَه في إنشاد شعرٍ قَدَّمه بين يدي نَجْواه ، فأذنَ له ، وأنشد وهو قائم :

خليفـــــة الله ساعَـــدَ لقَـــدرُ
عُـــلاك مــا لاحَ في الدُّجَى قَمَرُ

ودافعَتْ عنْكَ كفُّ قُدْرتِه
ما ليس يستطيعُ دفْعَهُ البَشَرُ

وَجْهُكَ في النائباتِ بَدْرُ دُجى
لنا وفي المحْلِ كفُّكَ المطَرُ

والنّاسُ طُرّاً بأرضِ أنْدَلُسٍ
لولاكَ ما أوْطَنُوا ولا عَمَرُوا

وجُمْلَةُ الأمْرِ أنّه وَطَنٌ
في غيْرِ علْياكَ مالَهُ وَطَرَ

ومَنْ بهِ مُذْ وصَلْتَ حَبْلَهُمُ
ما جَحَدوا نِعْمةً ولا كفَرُوا

وقدْ أهمّتهم بأنفُسِهِم
فوَجّهوني إليْكَ وانْتَظَرُوا

فاهتزّ السلطانُ لهذه الأبيات . وأذِنَ له في الجُلوس ، وقال له قبل أن يجلس : ما ترجعُ إليهم إلا بجميع طلباتهم . ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردَّهم بجميع ما طلبوه ، وقال شيخُنا القاضي أبو القاسم الشرّيف ، وكان معه في ذلك الوفد : لم نسمَعْ بسفير قَضَى سِفارتَه قبل أن يُسلِّم على السلطان إلا هذا . ومكثتْ دولتُهم هذه بالأندلس خمسَ سنين ، ثم ثَار بهم محمد الرئيس ابنُ عم السلطان شركة في جده الرئيس أبي سعيد ، وتحيّن خروجَ السلطان إلى متنزَّهه خارجَ الحمْراء ، وتسوَّر دارَ الملك المعروفة بالحمْراء ، وكبَس رِضوانَ في بيته فقَتَلَه ، ونَصبَ للملك إسماعيل ابن السلطان أبي الحجّاج

بما كان صهره على شقيقته ، وكان معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه ، وبايع له ، وقام بأمره مستبداً عليه ، وأحسَّ السلطان محمد بقرعْ الطبول وهو بالبستان ، فركب ناجياً إلى وادي آش ، وضبَطها ، وبعثَ بالخبَر إلى السّلطان أبي سالم إثْر ما استولى على مُلك آبائه بالمغرب ، وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندَهم بالأندلس ، واعتقل الرئيسَ بالدّولة هذا الوزير ابنَ الخطيب وضَيّق عليه في مَحبَسه ، وكانتْ بينَه وبين الخطيب ابن مَرْزُوق مودّة استحكمت أيام مقامه بالأندلس ، وكان غالباً على هوَى السلطان أبي سالم ؛ فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعدّه زَبُوناً على أهل الأندلس ، ويكفّ به عادية القَرابة الموشّحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب ، فقبِلَ ذلك منه وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه ، وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التّلمْساني ، وحمّله مع ذلك الشفاعة في ابنِ الخطيب وحلّ مُعْتقَله ، فأطلق ، وصَحِبَ الشريف أبا القاسم إلى وادي آش . وسار في ركاب سلطانه ، وقدموا على السّلطان أبي سالم ؛ فاهتزّ لقدوم ابن الأحمر وركبَ في الموْكب لتلقّيه ، وأجلسه إزاء كرسيّه . وأنشد ابنُ الخطيب قصيدته يستصرِخُ السلطانَ لنُصْرتَه . فوعَدَه ، وكان يوماً مشهوداً . ثم أكرم مثواه ، وأرغد نُزُلَه ، ووفّر أرزاق القادمين مع ركابه ، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجِراية والإقطاع ، ثم استيأس واستأذن السلطانَ في التّجوال بجهاتِ مراكش والوقوف على أعمال المُلْك بها ، فأذنَ له ، وكتب إلى العُمّال بإتْحافه ، فتباروْا في ذلك ، وحصَل منه على حَظ ، وعندما مرَ بسَلا إثر قُفُوله من سفره دَخَل مقبرةَ المُلوك بشَالة ، ووقفَ على قبْر

السلطان أبي الحسن ، وأنشد قصيدةً على روي الراء يرثيه ويستجيرُ به في استُرجاع ضِياعه بغرناطة ، مطلعها :

إنْ بانَ مَنْزِلُهُ وشَطّتْ دَارُه
قامَتْ مَقَامَ عِيانِهِ أخْبَارُهْ

قَسَّمْ زَمَانَكَ عِبْرَةً أو عَبْرَةً
هذا ثَرَاهُ وهَذِهِ آثَارُه

فكتَبَ السلطانُ أبو سالم في ذلك أهل الأنْدلُسِ بالشّفاعة ، فشفّعوه ، واستقرَّ هو بسلا متبذأً عن سُلْطانه طول مُقامه بالعُدْوة ، ثم عادَ السلطان محمد المخلوعُ إلى مُلْكه بالأندلس سنة ثلاثٍ وستين وسبعمائة ، وبعَثَ عن مخلّفه بفاس من الأهْل والولد ، والقائم بالدّولة يومئذ الوزير عُمَر بن عبد الله بن علي ، فاستَقْدمَ ابنَ الخَطيب من سَلا ، وبعثهَم لنَظَره ، فسُرَّ السُّلطان لقدومه ، وردّه إلى مَنْزلَته كما كان مع رضوان كافِله ، وكانَ عُثمان بن يَحْيى ابن عُمَر ، شيخ الغُزاة وابنُ أشياخهم ، قد لَحِقَ بالطّاغية ملك النّصارى في ركاب أبيه عندما أحس بالشر من الرئيس صاحب غَرناطة، وأجاز يَحْيَى من هُنَالِك إلى العُدْوة ، وأقام عثمان بدار الحرْب ، فصَحِب السلطانَ في مَثْوَى اغْترابه هنالِك ، وتقلّب في مَذاهِب خِدمته ، وانحرفوا عن الطّاغية عندما يئسوا منَ الفَتْح على يَده ، فتحولّوا عنه إلى ثغور بلادهم . وخاطَبوا الوَزيرَ عُمَرَ بنَ عبدِ الله في أن يمكنّهم من بعض الثغور الغربية التي لطاعتهم بالأندلس يرتقبون منها الفَتْحَ ، وخاطَبَني السُّلطان المخلوع في ذلك ، وكانَتْ بيني وبينَ عمرَ بن عَبْد الله ذِمّة مَرْعِيّة . وخاصية متأكّدة ،

فوقَيْتُ للسلطان بذلك من عُمَر بن عبد الله وحملتُه على أن يردّ عليه مدينة رُنْدةَ إذ هي من تُراث سَلَفِه ، فقبل إشارتي من ذلك ، وتسوَّغها السلطان المخلوع ، ونزَل بها ، وعثمان بن يَحْيَى في جُمْلَته ، وهو المقدَّم في بِطانَتِه ، ثم غزَوْا منها مالقةَ ، فكانَتْ رِكاباً للفَتْح ، وملَكَها السلطانُ ، واستولى بعدها على دار مُلْكه بغَرْناطة ، وعثمانُ بنُ يَحْيَى متقدّم القَدَم في الدَّوْلة ، عريقٌ في المُخَالصة ، وله عَلَى السلطانِ دالّة واستبدادٌ على هواه ، فلمّا وَصَلَ ابنُ الخطيب بأهل السّلطان ووَلَدِه ، وأعادَه إلى مكانه في الدَّولة من عُلُوّ يده ، وقبول إشارته ، أدركَتْهُ الغَيْرَةُ . من عُثْمان . رنكرَ على السُّلطان الاستكفاءَ به،وأراه التخوُّفَ من هؤلاء الأَعيْاص(١) على مُلكه . فَحَذِرَه السلطانُ ، وأخذ في التدبير عليه ، حتى نكبه وأباه وإخوتَه في رَمَضان سنةَ أربع وستين وسبعمائة . وأودعهم المُطْبق(٢) ، ثم غرَّبهم بعد ذلك ، وخلاَ لابن الخطيب الجوّ ، وغلَب على هَوَى السلطان ، ودَفَع إليه تدبيرَ الدَّولة ، وخلَط بنيه بندمائه وأهلِ خَلْوته . وانفردَ ابنُ الخطيب بالحل والعَقْد ، وانصرَفَتْ إليه الوُجوه ، وعلّقَتْ به الآمال ، وغشي بابَه الخاصةُ والكافةُ . وغَصَّتْ به بِطانَةُ السلطان وحاشيتُه ، فتفنّنُوا في السّعاياتِ فيه ، وقد هَمَّ السلطانُ عَنْ قبولها ، ونُمي الخبر بذلك إلى ابنِ الخطيب، فشمر عن ساعده في التّفويض ، واستخدم للسلطانِ عبدِ العزيز ابنِ السلطان أبي الحَسَن ملكِ العُدْوَة يومئذٍ في القَبْض على ابنِ عمّه عبْد الرحمن بن أبي يَفْلوسن ابن السلطان أبي علي ابنِ السلطان أبي

(١) الأعياص : جمع عيص . وهو لغة : الأصل وأعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأربعة ، وهم العيص ، وأبو العيص ، والعاص ، وأبو العاص .

(٢) المطبق : سجن بغرناطة .

سَعيد ابنِ السّلطان يَعْقوب بن عبدِ الحقّ ، كانُوا قد نصبوه شيخاً على الغُزاة بالأندلس لما أجازَ من العُدْوَةِ بعدما جاسَ خِلالَها لطلب الملكِ ، وأضرم بها نارَ الفتِنْنَةِ في كُلِّ ناحية ، وأحسن دفاعَه الوزير عمر بنُ عبد الله القائم حينئذ بدوْلَة بني مَرين ، فاضْطُرَّ إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيُره مسعود بن ماسَاي . ونَزَلوا على السُّلطان المخلوعِ أعوامَ سَبْعَةٍ وستين وسبعمئة . فأكرم نُزلَهم، وتُوفي علي بن بدر الدين شيخُ الغُزَاة ، فقدمَ عبدُ الرحمن مكانه ، وكان السلطان عبد العزيز قد استبدَّ بملكه بعد مَقْتَل الوَزير عُمَرَ ابنِ عَبْد الله ؛ فغصَّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك ، وتوقّع انتقاضَ أمْرِه منهم . ووَقفَ على مُخاطبات من عَبْدِ الرحمن يَسْر بها في بني مرين ، فجزع لذلك ، ودَاخلَهُ ابنُ الخطيب في اعْتِقَالِ ابنِ أبي يَفْلوسن وابنِ ماسَاي وإرَاحةِ نَفْسِه من شَغْبِهم على أن يكون له المكانُ من دولَتِه متى نَزَع إليه ، فأجابه إلى ذلك ، وكَتَبَ له العهد بخطّه على يد سفيره إلى الأندلس وكاتبِه أبي يَحْيَى بن أبي مَدْيَن ، وأغرى ابنُ الخطيب سلطانَه بالقَبْض على ابنِ أبي يَفْلوسن وابنِ ماساي ، فقبَض عليهما واعتَقَلَهما .

وفي خِلالِ ذلك استحكمَتْ نَفْرةُ ابنِ الخطيب لما بَلَغَه عن البِطانَةِ من القَدْح فيه والسِّعاية . وربما تخيّل أنّ السلطانَ مالَ إلى قَبُولها . وأنهم قد أحْفَظُوه عليه . فأجمعَ التحوُّلَ عن الأندلس إلى المغْرِب ، واستأذَنَ السلطان في تفقّد الثغورِ ، وسارَ إليها في لُمّة من فُرْسانه . وكانَ معه ابنهُ علي الذي كان خالصةً للسلطان . وذهَبَ لِطيّته ، فلمّا حاذَى جَبَلَ الفَتْح فُرضَة المجاز إلى العُدوة مال اليه ، وسرّح إذنه بَيْن يديه . فخَرَج قائدُ الجبل لتلقّيه ، وقد كانَ

السّلطان عبدُ العزيز أوعَزَ إليه بذلك ، وجَهّزَ له الأسطولَ من حينه ، فأجاز إلى سَبْتَةَ ، وتلقّاه وَلاتُها بأنواع التكرمة وامتْثالِ المراسم ، ثم سار لقصدِ السُّلطان . فقَدِم عليه سنة ثلاث وسَبعين وسبعمائة بمقامه من تِلِمسْان ، فاهتزّتْ له الدولة ، وأركبَ السلطانُ خاصّتَه لتلقّيه ، وأحلّهُ من مجلسه بمحلِّ الأمْنِ والغِبْطة ، ومن دَوْلَتِه بمكانِ التّنْويه والعِزة . وأخرج لوَقْتِه كاتبَه أبا يَحيَى بن أبي مَدْيَن سَفيراً إلى صَاحِب الأندلس في طَلَبِ أهْلِه ووَلَدِه ، فجاء بهم على على أكمل حالاتِ الأمْنِ والتكرمة . ثم أكثرَ المنافِسُونَ لَه في شأنِه ، وأغْرَوْا سلطانَه بتَتَبّع عَثَراتِه ، وإبداء ما كانَ كامناً في نَفْسه من سَقَطاتِه ، وإحصاء معايبه . وشاعَ على ألْسِنَة أعدائه كلماتٌ منسوبة إلى الزّنْدَقة أحْصَوْها عليه ونسَبُوها ، ورُفِعَتْ إلى قاضي الحَضْرةِ أبي الحَسَن بنِ الحَسَن ، فاستْرْعاها ، وسَجّل عليه بالزّنْدَقة ، وراجعَ صاحِبُ الأندلس رأيه فيه ، وبعَثَ القاضي ابنُ الحَسَنَ إلى السّلطان عبدِ العزيز في الانتقام منْه بتلكَ السّجلات . وإمضاء حكْمِ الله فيه ، فصَمّ عن ذلك . وأنف لذمتِه أن تُخْفَر . ولجوارِه أن يُرَدَّ . وقال لَهم : هَلاّ انتقمتُم منْهُ وهو عندكُمْ وأنتم عالمونَ بما كان عليه ، وأما أنا فلا يَخلُص إليه بذلك أحد ما كان في جواري ، ثم وفّرَ الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهْلِ الأندلس في جُمْلَتِه ، فلَما هَلَكَ السلطانُ عبدُ العزيز سنةَ أربع وسبعين وسبعمائة . ورجع بنو مَرين إلى المَغْرِب وتركُوا تِلمِسْان سار هُو في ركابِ الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدّولة ، فنَزَل بفَاسٍ ، واستكْثَر من شراء الضّياع ، وتأنقَ في بِناء المَساكن

واغْتِراسِ الجنان . وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى . واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره .

نَكْبَتُه ومَقْتَلُه :

« ولما اسْتَوْلى السلطانُ أبو العَبّاس على البلد الجديد دارِ ملكه فاتِحَ ستٍّ وسبعين استقلَّ بسلطانه ، والوزيرُ محمد بن عثمان مستبدٌّ عليه . وسليمان بن داود بن أعراب كبيرُ بَني عَسْكر رديفُه . وقد كان الشرطُ وقع بينَه وبينَ السُّلطان ابنِ الأحمر — عندما بويع بطنجة — على نكْبَةِ الوزير ابنِ الخطَيب وإسْلامِه إليه . لما نُمِي إليه عَنْه أنه كان يُغْري السلطان عبد العَزيز بمُلْكِ الأندلس . فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ، ولقيه أبو بكر بن غازي بساحَة البلد الجديد فهزَمَه السلطانُ ولازمَه بالحِصار ، أوى معه ابنُ الخطيب إلى البلد الجديد خَوْفاً على نَفْسِه . فلما استولى السلطانُ عَلى البلد أقام أياماً ، ثم أغراه سليمانُ بن داود بالقَبْض على ابنِ الخطيب ، فقبضوا عليه . وأودعوه السجنَ . وطيّروا بالخبر إلى السلطان ابنِ الأحمر . وكان سليمانُ بنُ داود شديدَ العداوةِ لابنِ الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابنُ الأحمر على مشيخَة الغُزَاة بالأندلس متَى أعادَه اللهُ تعالى إلى ملكه . فلمّا استقرَّ إليه سلطانه أجازَ إليه سليمان سفيراً عن الوزير عُمَر بن عبدِ الله ومُقْتَضياً عهده من السلطان ، فصدَّه الوزيرُ ابنُ الخطيب عن ذلك ، محتجاً بأن تلك الرياسَة إنما هي لأعياص الملك من بني عبد الحقّ . لأنهم يَعْسوب زَنَاتة . فرجَع سليمان . وأثار حقد ذلك لابن الخطيب . ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتباتٌ ينْفُثُ كلٌّ واحد

منهما لصاحبه بما يُحفِظُه مما كَمن في صُدُورهما ، وحينَ بلغ خبرُ القبض على ابنِ الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيرَه بعد ابنِ الخطيب ، وهو أبو عبد الله ابنُ زَمْرَك ، فقدم على السلطان أبي العبّاس ، وأحْضَرَ ابنَ الخطيب بالمشورة في مَجْلس الخاصة ، وعرض عليه بعضَ كلمات وقَعَتْ له في كتابه في المحبّة ، فعظمَ النكير فيها ، فوُبِّخ ونُكّل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ، ثم نُقِل إلى مَحْبسه ، واشْتَوَرُوا في قتْلِه بمُقْتَضى تلك المقالات المسجّلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ، ودس سليمانُ بنُ داود لبعْضِ الأوغاد من حاشيته بقَتْلِه فطرَقُوا السِّجْنَ ليلاً ، ومعهم زعانِفَةٌ جاؤوا في لَفيف الخدم مع سُفَراء السُّلطان ابنِ الأحمر وقَتَلُوه خنَقاً في مَحْبَسه ، وأخرج شِلْوُه(١) من الغد ، فدُفِن بمقبرة باب المحروق ، ثم أصْبَحَ من الغد على سافَة قَبْره(٢) طريحاً ، وقد جُمعَتْ له أعواد ، وأضرمَتْ عليه نار ، فاحترَقَ شَعْرُه ، واسودَّ بَشَرُه ، فأعيد إلى حُفْرَته ، وكان في ذلك انتهاءُ مِحْنَتِه ، وعَجِب الناسُ من هذه الشّنعاء التي جاء بها سليمان ، واعتدُّوها من هَنَاته ، وعظُمَ النكيرُ فيها عليه وعلى قَوْمِه وأهل دولته ، والله الفعّال لما يريد »(٣) .

وكان — عفَا الله تعالى عنه — أيّام امتحانه بالسِّجن يتوقّع مصيبةَ الموت فتَجْهَشُ هواتِفُه بالشّعر يبكي نَفْسَه ، ومما قالَ في ذلك ، رَحِمَه اللهُ تعالى :

---

(١) الشلو : الجسد .

(٢) السافة : الأرض بين الرمل والجلد .

(٣) كان ذلك سنة ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م .

بَعُدْنا وإنْ جاوَرَتْنا البيوتُ
وجِئنا بوَعْظٍ ونَحْنُ صُموتُ

وأنْفاسُنا سَكَنَتْ دُفْعَةً
كَجَهرِ الصّلاةِ تَلاهُ القُنوتُ

وكُنّا عِظاماً فَصِرْنا عِظاماً
وكُنّا نَقُوتُ فَها نَحْنُ قُوتُ

وكُنّا شُمُوسَ سَماءِ العُلاَ
غَرَبْنا فَناحَتْ عَلَيْنا السُموتُ

فكَمْ جَدَّلَتْ ذا الحُسَامِ الظبا
وذُو البَخْتِ كَمْ جَدَّلَتْهُ البخوتُ

وكَمْ سِيقَ للقَبْرِ في خِرقَةٍ
فَتىً مُلِئَتْ مِنْ كُسَاه التُخُوتُ

فَقُلْ للعِدا ذَهَبَ ابْنُ الخطيبِ
وفَاتَ ، ومَنْ ذا الّذي لا يَفُوتُ

ومَنْ كانَ يَفرَحُ مِنْهُمْ لَهُ
فَقُلْ : يَفْرَحِ اليَوْمَ مَنْ لا يَمُوتُ

* * *

المعتمد بن عبّاد

هو المعتمد على الله ، أبو القاسم ، محمد بن المعتضد أبي عمرو عبّاد ابن القاضي أبي القاسم بن عبّاد :

ملكٌ مَجيدٌ ، وأديب على الحقيقة مُجيد . وهُمامٌ تحلّى به للمُلْك لَبّة وللنظم جِيدٌ . أفنى الطغاة بسيفه وأباد ، وأنسى بِسَيْبِه ذكرَ الحارث بن عبّاد ، فأطلع أيامه في الزمان حُجولاً وغُرَراً ، ونَظَمَ معاليه في أجيادها جواهرَ ودُرراً . وشيّد في كل معلوّةٍ فناءه ، وعمر بكل نادرةٍ مستغربةٍ وبادرةٍ مستظرفة أوقاته وآناءه . فنفقت به للمحامد سوق ، وبَسَقَتْ ثمراتُ إحسانه أيَّ بُسُوقٍ . مَنَعَ وقَرَى ، وراشَ وبَرَى ، ووصل وفرى ؛ وكان له من أبنائه عدة أقمار نَظَمَهُمْ نَظْمَ السلك ، وزين بهم سماءَ ذلك المُلك ؛ فكانوا معاقل بلاده ، وحُماةَ طارفه وتِلاده (١) إلى أن استدار الزمان كهيئته ، وأخذ البؤسُ في فَيْئَتِه . واعتز الخلافَ وظهر ، وسَلَّ الشّتاتُ سيفَه وشَهَر ، والمعتمد — رحمه الله تعالى — يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات ، بين تلك الثُّبات (٢) ، والمقام في ذلك المقام إلى أن بدل القطب بالواقع . واتسع الخَرقُ على الراقع ، فاستعضد بابن تاشفين » . فورد عليه كتابُه يُشعر بالوفاء . فثاب إليه فكرُ خاطره وفاءَ . وثبت خلال تلك المدة للنِّزال ، ودعا مَنْ رامَ حربه نَزَالِ . إلى أن أصبح والحروبُ قد نهبته ، والأيام تسترجع منه ما وهبته ، فثُلَّ ذلك العرش . واعتدت الليالي حين أمِنَتْ من الأَرْش (٣) ، فنُقل من صَهَوات

---

(١) الطارق : الجديد . والتليد : القديم .

(٢) الثبات : مفردها (ثبة) بضم الثاء وفتح الباء وهي الجماعة .

(٣) الأرش : الدية .

الخيول إلى بطون الأجفان ، وهذه الدنيا جميع مالديها زائل . وكلُّ مَنْ عليها فانٍ ، فما أغنت تلك المملكة ، وما دفعت ، ولَيْتَها ما ضَرَّت إذا لَم تكن نفعت . وكلٌّ يَلْقى مُعَجَّلَهُ ومُؤَجَّلَهُ ، ويبلغ الكتابُ أجَلَه .

وقال الفقيه القاضي أبو بكر بن خميس – رحمه الله تعالى – حين ذكر تاريخ بني عَبّاد : وقد ذكر الناسُ للمعتمد من أوصافه ما لا يبلغ من كثرته إلى إنصافه . وأنا الآن أذكر نُبَذاً من أخباره ، وأرْدِفُها بما وقفت عليه من منظومات أشعاره ، فانه – رحمه الله تعالى – جَمُّ الأدب رائقهُ ، عالي النظم فائقُه، كان يسمى بمحمد ، ويكنى بأبي القاسم ، على كنية جده القاضي ، استبد بالأمر عند موت أبيه المعتضد . وفي ذلك يقول الحُصْرِيّ – رحمه الله تعالى – :

مـات عَبّـادٌ ولكـن	بقـي الفـرعُ الكريـم
فكـأنَّ الميـتَ حـيٌّ	غـير أن الضـاد ميم (١)

واجتاز إلى طنجة (٢) فلقيه الحُصْرِيُّ الشاعر ، وكان قد ألّف له كتاب (المستحسن من الأشعار) فلم يُقْضَ بوصوله إليه إلا وهو على تلك الحالة ، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحُصْرِيّ : ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته ، فوالله ما أملك غيره . فوجد تحته جملة مال فأخذه. ثم انتقل حتى وصل (أغمات) . ولم يزل بها إلى أن مات (٣) . رحمه الله تعالى :

* * *

(١) يريد أن ضاد (المعتضد) صارت ميماً في (المعتمد) .

(٢) بعد هزيمته أمام يوسف بن تاشفين .

(٣) سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م . وله ديوان شعر مطبوع .

صفوان بن إدريس

قال في (الإحاطة) ما ملخَّصُه : صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس ، التُجيبيُّ ، المُرْسِيُّ ، أبو بحر .

كان أديباً حسيباً ، ممتعاً من الظَّرْف . ريّانَ من الأدب . حافظاً سريعَ البديهة . ترِفَ النشأة ، على تَصاوُنٍ وعفافٍ ، جميلاً ، سَرِيّاً ، ممن تساوى حظه في النظم والنثر ، على تَبايُن الناس في ذلك.

روى عن أبيه وخاله ابنِ عم أبيه القاضي أبي القاسم بن إدريس ، وأبي بكر بن مغاور ، وأبي رجال بن غلبون ، وأبي العباس بن مضاء . سمع عليه (صحيح مسلم) ، وأبي القاسم بن حَبيش ، وابن حَوْط الله ، وأبي الوليد بن رُشْد ، وأجاز له ابنُ بَشْكُوَال ، وروى عنه أبو إسحاق بن اليابُرِيّ ، وأبو الربيع بن سالم ، وابن عيشون ، وله تواليف أدبية ، منها : (زاد المسافر) وكتاب (الرحلة) وكتاب (العجالة) سِفْران يتضمنان من نظمه ونثره أدباً لا كِفاءَ له ، وانفرد من تأبين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركته من حكايات كثيرة .

ثم سرد لسان الدين جملة من نظمه إلى أن قال : وقال في غرض الرُّصافي من وصف بلده ، وذكر إخوانه يساجله في الغَرَضِ والرَّوِيِّ عقب رسالةٍ سماها (طراد الجياد في الميدان، وتنازع اللِدات والأخدان) في تقديم مُرْسِيَةَ على غيرها من البلدان » :

لعلَّ رسولَ البَرْقِ يَغْتَنِمُ الأَجْرا
فينشُرُ عني ماءَ عَبْرَتِهِ نَشْرا

معاملةً أربى بها غيرَ مذنبٍ
فأقضيه دمعَ العينِ عن نقطةٍ بَحْرا

لِيَسْـقيَ مِـنْ تُـدْمـيْرَ قَطْـراً محيبـاً
يقـرُّ بِعَيْنِ القطـر أن تَشْـربَ القَطْـرا

ويقـرضـه ذوبَ اللجـينِ وإنمـا
توفّيـه عيـني مـن مدامعهـا تِـبْرا

ومـا ذاك تقصـيراً بهـا غـير أنـه
سجيةُ مـاء البحـر أن يُـذْوِيَ الزهـرا (١)

ومن مقطوعاته قوله :

يـا قمـراً مطلعُـه أضلعـي
لـه سـواد القلـب فيهـا غَسَـقْ

وربمـا استوقـد نـارَ الهـوى
فنـاب فيهـا لـونُهـا عـن شَـفَـقْ

مَلَكْتَـني فـي دَوْلَـةٍ مـن صِبـا
وصِدْتَـني فـي شَـرَكٍ مـن حَـدَقْ

عنـديَ مـن حبـك مـا لـو سَـرَتْ
فـي البحـر منـه شعلـةٌ لاحـترقْ

وشعرُه الرمْلُ والقَطْرُ كثرةً ؛ فلنختمه بقوله :

قـالـوا ، وقـد طـال بـي مـدى خطـئي
ولـم أزل فـي تَجَـرُّمِـي سـاهـي:

(١) هذه القصيدة في ٥١ بيتاً .

أعـددتَ شيئـاً ترجـو النجـاةَ بـه ؟
فقلـتُ : أعـددتُ رحمـة اللـه

ورحل إلى مَرّاكُش في جهاز بنت بلغت التزويج ، وقصد دارَ الخلافة مادحاً ، فما تيسر له شيء من أمله . ففكر في خيبة قَصْدِه ، وقال : لو كنت أمَّلْتُ الله – سبحانه – ومدحتُ نبيَّه – صلى الله عليه وسلم – وآلَ بيتِه الطاهرين . لبلغتُ أملي . بمحمود عملي ، ثم استغفرَ اللهَ – تعالى – من اعتماده في توجهه الأول (١) . وعلم أنْ ليس على غير الثاني مُعَوَّل (٢) ، فلم يَكُ إلا أن صَوّب نحو هذا المقصد سَهْمَه . وأمضى فيه عزمه . وإذا به قد وجّه عنه ، فأُدخل على الخليفة فسأله عن مقصده ، فأخبره مفصحاً به ، فأنفذه وزاده عليه وأخبره أن ذلك لرؤيا رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – في النوم يأمر بقضاء حاجته . فانفصل مُوَفّى الأغراض . واستمر في مدح أهل البيت – عليهم السلام – حتى اشتهر بذلك ، وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمئة ، وسنُّه دون الأربعين ، وصلى عليه أبوه ، فإنه كان بمكانٍ من الفضل والدين . رحم الله تعالى الجميع .

وقال ابن سعيد وغيره : ولد صفوان سنة ستين وخمسمئة ، أو في التي بعدها ، وديوان شعره مشهور بالمغرب .

وقال ابن الأبار : وكان من جملة الكتاب البلغاء ، ومَهَرَةِ الأدباء الشعراء ، ناقداً ، فصيحاً ، مدركاً جليلَ القدر ، متقدماً في النظم والنثر ، ممن جمع ذلك .

---

(١) أي إلى المخلوقين .

(٢) أي عن الله تعالى .

وله رسائل بديعة ، وقصائد جليلة ، وخصوصاً في مراثي الحسين — رضي الله تعالى عنه (١) —

• • •

الفتح بن خاقان

قال لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) : الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تعرف بقلعة الواد ، من قرى (يَحْصُب) ، يكنى أبا نصر ، ويعرف بابن خاقان .

حاله : كان آية من آيات البلاغة ، لا يُشَقّ غبارُه ، ولا يُدْرَك شأْوُه ، عذبَ الألفاظ ، ناصعَها ، أصيل المعاني وَثيقَها ، لَعُوباً بأطراف الكلام مُعْجِزاً في باب الحُلى والصفات ، إلا أنه كان مجازفاً. مقدوراً عليه ، لا يَمَلّ من المُعاقَرَة والقَصْف (٢) . حتى هان قدرُه ، وابتذلت نفسه ، وساء ذكرُه . ولم يَدَعْ بلداً من بلاد الأندلس إلا دخله مُسْتَرْفِداً (٣) أميرَه ، واغلاً في علِيّته .

قال الأستاذ في (الصلة) (٤) : وكان معاصراً للكاتب أبي عبد الله ابن أبي الخصال ، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته (٥) .

---

(١) وقد ذكر المقري ولسان الدين بعض شعره .

(٢) المعاقرة : شرب الخمر .

والقصف : الإقامة في أكل وشرب ولهو .

(٣) مسترفداً : طالباً الرفد (بكسر الراء وسكون الفاء) وهو : العطاء .

(٤) هو ابن بشكوال .

(٥) أخلدت به : يريد أنها نزلت به . وأصل المعنى : جملته يسكن إليها .

وقال ابن عبد الملك : قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض مُخْمَراً ، فتنسّم بعضُ حاضري المجلس رائحةَ الخمر ، فأعلمَ القاضي بذلك . فاستَثْبَتَ وحَدَّه حداً تاماً (١) ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحدَّ بثمانية دنانير وعِمامة . فقال الفتح حينئذ لبعض أصحابه : عزمتُ على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بـ (قلائد العقيان) فقلت : لا تفعل ، وهي نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائز أن تُنْسى . وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يَجِدُكَ قد ذكرتَ فيه مَنْ هو مثلُه ودونَه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك فيقال له : فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر . قال : فتبيّنَ ذلك ، وعلم صِحّتَه ، وأقرَّ اسمه .

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجة أبي بكر ، آخرِ فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به في تكذيبه إياه في مجلس إقرائه ، إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ، ووصف حَلْياً ، وكان يبدو من أنفه فَضلَةٌ خضراءُ اللون ، فقال له: فمن تلك الجواهر إذن الزمردةُ التي على شاربك ، فثلبه في كتابه بما هو معروف . وعلى ذلك فأبو نصر نسيجُ وحْدِه . غفر الله تعالى له .

مشيخته : روى عن أبوي بكرٍ بن سليمان بن القصيرة ، وابن عيسى بن اللبانة ، وأبي جعفر بن سعدون الكاتب ، وأبي الحسن بن سراج ، وأبي خالد بن بشتغير ، وأبي الطيب بن زرقون ، وأبي عبد الله بن خُلَصة الكاتب ، وأبي عبد الرحمن بن طاهر ، وأبي عامر

---

(١) حد شارب الخمر .

ابن سرور ، وأبي محمد بن عبدون ، وأبي الوليد بن الحجاج ، وابن دريد الكاتب .

تواليفه : ومصنفاتُه شَهيرةٌ ، منها : (قلائد العقْيان) و مَطْمَحُ الأنفُس) ، و (المطمح) أيضاً (١) ، وتَرَسلُه مُدَوَّنٌ ؛ وشعره وسط ، وكتابته فائقة .

شعره : من شعره وثبت في (قلائده) يخاطب أبا يحيى بن الحاج:

أكعبةُ عَلْياءٍ وهَضْبَةَ سُؤدُدٍ
وروضةَ مجدٍ بالمفاخر تمطرُ

هنيئاً لِمَلْكٍ زار أفْقَكَ نُورُه
وفي صفحتيه من مَضائك أسْطُرُ

وإني لخفّاق الجناحين كلما
سرى لك ذكرٌ أو نسيمٌ معطّرُ

وقد كان واشٍ هاجنا لِتَهاجُرٍ
فَبِتُّ وأحشائي جَوًى تَتَفَطّرُ

فهل لك في وُدٍّ ذوى لك ظاهراً
وباطنُه يندى صفاءً ويَقْطُرُ

ولَسْتُ بعِلْقٍ بِيْعَ بَخْساً وإنني
لأرْفَعُ أعلاقِ الزمان وأخطَرُ (٢)

---

(١) ذكر كتاب (المطمح) مرتين لأن الكتاب من نسختين إحداهما أكبر من الأخرى ،ويذكر أن ابن خلكان أن (المطمح) ثلاث نسخ :صغيرة ، ووسيطة ،وكبيرة.

(٢) العلق : النفيس .

فروجع عنه بما ثبت أيضاً في (قلائده) مما أوله :

ثَنَيْتُ أبا نصرٍ عِناني وربما
ثنت عزمةَ السهمِ المصمَّم أسْطُرُ

نثره : ونثره شهير .

وفاته : بمَرّاكُش ليلةَ الأحد لثمانٍ بَقيْنَ من مُحَرَّم ، من عام تسعة وعشرين وخمسمئة ، أُلْفِي قتيلاً ببيتٍ من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذُبح وعُبث به ، وما شُعر به إلا بعد ثلاث ليالٍ من قتله . انتهى نص (الإحاطة) .

وقال ابن سعيد في (المغرب) : فخر أدباء إشبيلية . بل الأندلس أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي . الإشبيلي ، صاحب (القلائد) و (المطمح) . ذكره الحِجاري في (المُسْهَب) ، الدهرُ من رواة قلائده . وحَمَلَةِ فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلي شمساً طبق الآفاقَ ضياؤها ، وعَمَّ الشرقَ والغربَ سناها وسناؤها . وكان في الأدب أرفع الأعلام . وحسنة الأيام .

ومن تأليف الفتح : (بداية المحاسن . وغاية المحاسن) ومجموع في ترسيله ، وتأليف صغير في ترجمة ابن السِّيْد البَطَلْيَوْسيّ نحو الثلاثة كراريس . على منهاج (القلائد) .

* * *

ابن عبد ربه

قال الفتح بن خاقان في ترجمة صاحب (العِقْد) الفقيه ، العالم ، أبي عمر أحمد بن عبد ربه (١) .

عالم ساد بالعلم ورَأَسَ ، واقتبس به من الحُظْوَة ما اقتبس، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره . واستطار شَرَرَ الذكاء فِكْرُه، وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية له مُتَّسِقَة .

وأما الأدب فهو — كان — حُجَّتُه ؛ وبه غمرت الأفهام لُجَّتُه؛ مع صيانةٍ ووَرَع ، وديانةٍ وَرَدَ ماءَها فكَرَعَ .

وله التأليف المشهور الذي سماه بالعِقْد (٢) ؛ وحماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه مُثَقَّفَ القناة (٣) . مُرْهَفَ الشَّباة (٤) ، تَقْصُرُ عنه ثواقبُ الألباب ، وتبصر السحر منه في كل باب، وله شعرٌ انتهى منتهاه ، وتجاوز سِماكَ الإحسانِ وسماه .

أخبرني ابن حَزْم أنه مر بقصرٍ من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لُبّه ، وألهبَ قلبُه ؛ فبينما هو واقف تحت القصر إذ رُشَّ بماءٍ من أعاليه ؛ فاستدعى رقعةً وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يـا مـن يَضِـنُّ بصـوت الطائـرِ الغَـرِدِ
مـا كنتُ أحسبُ هـذا الضَّـنَّ فـي أحـدِ

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه ولد سنة ٢٤٦ هـ ، وتوفي سنة ٣٢٨ هـ .
(٢) طبع بعنوان (العقد الفريد) في سبعة أجزاء سنه ١٩٦٥ م وبعدها .
(٣) القناة ، هنا : الرمح . ومثقف القناة : معدلها ، مقومها .
(٤) الشباة : طرف السنان ، والمرهفة : المحددة .

لو أن أسماعَ أهل الأرض قاطبةً
أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزدِ

فلا تَضِنَّ على سمعي ومُنَّ به
صوتاً يجول مجال الروح في الجسدِ

أما النبيذ فإني لست أشربه
ولا أُحَبِّلُ إلا نسوتي بيدي

وأخبرني بعضهم أن الخطيب أبا الوليد بن عيال حَجَّ ، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشرف . ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها : وحلة فخرٍ لا يحتسبها . فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلاً ، ثم قال : أَنْشِدْني لمليح الأندلس — يعني ابن عبد ربه — فأنشده :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا
ورَشاً بتقطيع القلوب رفيقا

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
دراً يعود من الحياء عقيقا

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
أبصرت وجهك في سناه غريقا

يا من تقطّع خَصْرُه من رقةٍ
ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل إنشادها استعادها منه وقال : يا بن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حبواً .

***

من الشعراء

ابن خاتمة

قال لسان الدين بن الخطيب : إنه الصدر المتفنن المشارك ، القوي الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الكثير الاجتهاد ، الموفور الأدوات ، المعين الطبع ، الجيد القريحة ، الذي هو حسنة بن حسنات الأندلس ، أحمد بن علي بن خاتمة ، من أهل المَرِيّة(١) .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور(٢) :

هو الدهر لا يبقي على عائذٍ به
فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه

فمن لم يُصَبْ في نفسه فمُصابُه
بفوتِ أمانيه وفقدِ حبائبه

ومنه قوله :

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل
تُقاه عُدّةً لصلاحِ أمرِكْ

(١) وتوفي بعد سنة ٧٧٠ هـ .

(٢) له ديوان مطبوع مشهور .

وبادر نحو طاعته بعزمٍ
فما تدري متى يقضي بعمْرِكْ

ومن نظمه في قرّان :

رُبَّ فرّان جلا صفحتهُ
لَهَبُ الفُرْنِ جلاءَ العَسْجَدِ

يُضْرِمِ النارَ بأحشاء الورى
مثلما يُضرِم في المستوقد

فكأن الوجهَ منه خُبْزَةٌ
فوقها الشَّعْرُ كقِدْرٍ أسودِ

* * *

ابن مَرْج الكُحْل

قال لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) :

هو محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم ، من أهل جزيرة شقر ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن مرج الكحل .

كان شاعراً مُفْلقاً ، غَزِلاً ، بارعَ التوليد ، رقيق الغَزَل .

وقال الأستاذ أبو جعفر : شاعر مطبوع . حسن الكتابة ، ذاكر للأدب . متصرفٌ فيه .

قال ابن عبد الملك : وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته ، وكان مُبْتَذَلَ اللباس ، على هيئة أهل البادية ، ويقال إنه كان أمياً .

من أخذ عنه : روى عنه أبو جعفر بن عثمان الوراد . وأبو الربيع بن سالم ، وأبو عبد الله بن الأبار ، وابن عسكر ، وابن أبي البقاء . وأبو محمد بن عبد الرحمن بن برطلة ، وأبو الحسن الرُعَيْني .

شعره ودخوله غرناطة : قال في عشية بنهر الغنداق من خارج بلدنا لوشة بنت الحضرة(١) ، والمحسوب مَن دَخَلَها أنه دخل البيرة ، وقد قيل : إن نهر الغنداق من أحواز بَرْجَة ، وهذا الخلاف داعٍ لذكره :

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ الكثيب الأعفـــــرِ
بين الفرات وبين شط الكـــوثــرِ

ولتَغْتَبِقْها قهـــوةً ذهبيـــةً
من راحتَيْ أحـــوى المراشف أحورِ(٢)

وعشية كم كنت أرقـــب وقتهـــا
سمحت بها الأيـــام بعد تَعَـذُّرِ

فلنا بهذا ما لنـــا في روضـــةٍ
تُهدي لِنـــاشِقِهـــا شميم العنبرِ

والدهر من نـــدم يسفّـــه رأيـــه
فيما مضى فيـــه بغير تكـــدُّرِ

---

(١) يريد بالحضرة قرطبة .

(٢) تغتبقها : تشربها غبوقاً ، والغبوق – بفتح الغين – : الشرب في وقت الغداة .
أحوى المراشف : أسمر الشفاه . وسمرة الشفة مما يتمدحه العرب .
والأحور : الشديد بياض بياض العين ، مع شدة سواد سوادها .

والوُرْقُ تشدو والأراكَـــة تنثني
والشمسُ تَرْفُلُ في قميصٍ أصفـــر

والروضُ بين مُفَضَّضٍ ومُـــذَهّبٍ
والزهر بين مـــدرهـــمٍ ومُـــدَنّر

والنهر مرقوم الأباطـــح والـــرُّبـــا
بِمُصَنْدَلٍ مـــن زهره ومعصفـــرِ

وكأنـــه وكأنّ خُضْرَةَ شَطِّـــه
سيفٌ يُسَلُّ على بساطٍ أخـــضرِ

وكأنمـــا ذاك الحبـــاب فِرِنْـــدُهُ
مهما طفـــا في صفحةٍ كالجوهـــر

وكأنه — وجهاتُه مَحفوفـــةٌ
بالآسِ والنعمـــان — خـــدٌّ مُعَذَّرِ

نهرٌ يهيـــم بحسنه مَنْ لم يَهِـــم
ويجيد فيه الشعرَ من لـــم يشعـــر

ما اصفرَّ وجهُ الشمس عند غـــروبها
إلا لفُرْقـــةِ حُسْنِ ذاك المنظـــرِ

ولا خفاءَ ببراعة هذا الشعر .

وفاته : توفي ببلده يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول عام أربعة وثلاثين وستمئة ، ودفن في اليوم بعده .

* * *

ابن شَرَف الجُذامي

هو الحكيم الفيلسوف ، أبو الفضل ، جعفر ابن أديب إفريقية أبي عبد الله محمد بن شرف الجُذامي .

ولد ببَرْجَة ، وقيل : إنه دخل الأندلس مع أبيه وهو ابن سبع سنين .

ومن نظمه قوله :

رأى الحُسْنُ ما في خـــده من بدائعٍ
فأعجبه ما ضمّ منـــــه وحَرّفـــا

وقال لقد ألفيت فيـــه نـــوادراً
فقلت لـــه لا بل غريبـــاً مصنفا(١)

وقوله :

قد وقف الشكر بـــي لديكـــم
فاستْ أقـــوى عـــلى الوفـــاده

ونلت أقصى المـــرادِ منـــكم
فصرت أخشى مـــن الزيـــادة

وقوله :

إذا ما عَـــدُوُّكَ يـــوماً سمـــا
إلى رتبةٍ لم تُطِـــقْ نَقْضَهـــا

---

(١) فيه تورية بكتاب (النوادر) وكتاب (الغريب المصنف) .

فَقَبِّلْ ولا تَأْنَفَنْ كَفَّه
إذا أنت لم تستطع عضَّها

وقوله ، وقد تقدم به على كل شاعر :

لم يبق للجور في أيامهم
غير الذي في عيون الغيدِ من حَوَرِ

وأول هذه القصيدة :

قامت تجر ذيول العَصْبِ والحِبَرْ
ضعيفةُ الخصر والميثاق والنظرِ

وكان قد قصر أمداحه على المعتصم ، وكان يفد عليه في الأعياد وأوقات الفُرَج والفتوحات . فوفد عليه مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرث فيها ، وأنشده الرائية التي مر مطلعها إلى أن بلغ قوله :

لم يبق للجور . . . . – البيت .

فقال له : كم في القرية التي تحرث فيها ؟ فقال . فيها نحو خمسين بيتاً ، فقال اه : أنا أسوِّغتكَ جميعَها لهذا البيت الواحد ، ثم وقّع اه بها ، وعزل عنها نظرَ كلِّ والٍ .

وله ابنٌ فيلسوف شاعر مثاه ، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المذكور وهو القائل :

وكريمٍ أجارني من زمان
لم يكن من خطوبه لي بدٌّ

منشدٌ كنمـــــا أقول تنـــــــاهى
ما لمـــــن يبتغي المكـــــارمَ حَدُّ

* * *

يحيى بن الحكَم الغزّال

قال ابن حيان في (المقتبس) : كان الغزّال حكيمَ الأندلس ، وشاعرَها ، وعرّافَها ، عُمِّر أربعاً وتسعين سنة ، ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس ، أولهم عبد الرحمن بن معاوية ؛ وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم .

ومن شعره :

أدركتُ بالمصر مـــــــوكاً أربعـــــة
وخامساً هـــــذا الذي نحن معــــــه

وكان الغزّال أقذع في هجاء علي بن نافع ، المعروف بزرياب ، فذكر ذلك للأمير عبد الرحمن ، فأمر بنفيه ، فدخل العراق ، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة . فوجدهم يلهجون بذكره ، ولا يُساوون شعرَ أحدٍ بشعره ، فجلس يوماً مع جماعة منهم ، فأزْرَوا بأهل الأندلس ، واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس ، فقال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيت الشَّرْبَ أكْـــــدَتْ سماؤُهم
تأبّطْتُ زِقّي واحتبستُ عنـــــائي(1)

(1) الشرب (بفتح الشين وسكون الراء) : جماعة الشاربين ، وأكدت سماؤهم : أصل معناه : احتبس .

فلما أتيتُ الحانَ ناديتُ ربَّه
فثاب خفيف الروح نحو ندائي

قليلَ هجوع العين إلا تعلةً
على وَجَلٍ مني ومن نُظَرائي

فقلت أذِقْنيها فلما أذاقها
طرحتُ عليه رَيْطَتي وردائي(١)

وقلت أعِرْني بَذْلَةً أستترْ بها
بذلتُ له فيها طلاق نسائي

فوالله ما بَرَّتْ يميني ولا وفت
له غير أني ضامنٌ بوفائي

فأُبْتُ إلى صَحْبي ولم أكُ آيباً
فكلٌّ يفدِّيني وحُقَّ فدائي

فأُعجبوا بالشعر ، وذهبوا في مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم : خفِّضوا عليكم فإنه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تداركت في شرب النبيذ خطائي
وفارقْتُ فيه شيمتي وحيائي

(١) الريطة ، هنا : الثوب الرقيق اللين . يريد أنه رهنهما عنده في ثمن ما يشرب .

فلما أتم القصيدة بالإنشاد خجلوا ، وافترقوا عنه .

وحُكي أن يحيى الغزّال أراد أن يعارض سورة (قل هو الله أحد) فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالةٌ لم يعرفها ، فأناب إلى الله ، فعاد إلى حاله .

وتوفي في حدود الخمسين ومئتين (١) .

* * *

(١) جمع بعض شعره وطبع مؤخراً .

ابن سِيْدَه

قال في (المَطمح) : الفقيه ، أبو الحسن ، علي بن أحمد المعروف بابن سِيْدَه : إمام في اللغة والعربية ، وهمامٌ في الفئة الأدبية، وله في ذلك أوضاع(١) ، لأفهام أخلافها(٢) استدرار واسترضاع ، حرَّرها تحريراً ، وأعاد طَرْف الذكاء بها قريراً ؛ وكان منقطعاً إلى الموفّق صاحب (دانية) ، وبها أدرك أمانيَه ، ووجد تَجرُّدَه للعلم وفراغه ، وتفرَّد بتلك الإراغة(٣) ، ولا سيّما كتابه المسمى بـ (المُحكَم) فإنه أبدعُ كتابٍ وأحكم ، ولما مات الموفق رائشُ جناحِه ، ومُثبتُ غُرَرِه وأوضاحه ، خاف من ابنه إقبال الدولة ، وأطاف به مكْرُوْهاً بعضُ من كان حوله ، إذ أهل الطاب كحيّاتٍ مُساورةٍ ، ففر إلى بعض الأعمال المجاورة ، وكتب إليه منها مستعطفاً :

ألا هل إلى تقبيـــل راحتـــــاك اليمنى
سبيلٌ فإن الأمـــن في ذاك واليُمنـــا

(١) يريد كتباً ألفها .
(٢) الأخلاف : جمع (خلف) وهو الضرع .
(٣) الإراغة : من راغ يروغ روغاً وروغاناً عن الشيء : مال وحاد وذهب وأقبل .

فتنضى همـــوم طلّحتْـــه خُطوبهـــا
ولا غارباً يُبقين منــــه ولا متْنــا

غريب نأى أهلـــوه عنه وشفّـــه
هواهـــم فأمسى لا يقـــرُّ ولا يهنا

فيا مالك الأملاك إني مُحَــــــلأٌ
عن الورْدِ لا عَنْه أذادُ ولا أدنـى(١)

تحققت مكروهـــاً فأقبلت شاكيـــاً
لَعَمْري أمأذونٌ لعبـــدك أن يُعْنـى

وإن تتأكد في دمي لك نيـــــة
فإني بسيفٍ لا أحب لــــه جفنــا

إذا ما غـــدا من حَــرِّ سيفك بارداً
فَقِدْماً غـدا من برد نعماكم سُخْنـا

وهل هي إلا ساعـــةٌ ثم بعـــدها
ستقرع ما عُمِّـرْتَ مـن ندمٍ سِنّا

وماليَ من دهـــري حياة ألـــذّهـــا
فتجعلها نُعمى عـــليَّ وتَمْتَنّــا

إذا ميتَةٌ أرْضَتْك عنا فهاتهـــا
حبيبٌ إلينا ما رضيتَ بـــه عنـا

---

(١) محلأ : يقال : حلأته عن ورود الماء تحليئاً أي : منعته أن يقربه .

وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربعمئة ، وعمره نحو الستين . رحمه الله تعالى .

* * *

أبو بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي

إمام اللغة والإعراب ، وكعبة الآداب ، أوضَحَ منها كلَّ إبهام ، وفضح دون الجهل بها محلَّ الأوْهام . وكان أحد ذوي الإعجاز ، وأسعد أهل الاختصار والإيجاز ، نَجَمَ والأندلسُ في إقبالها ، والأنفسُ أولَ تَهَمُّمِها بالعلم واهتبالها ، فنقعت له عندهم البضاعة ، واتفقت على تفضيله الجماعة ، وأشادَ الحَكَمُ بذكره ، فأورى بذلك زِنادَ فكره .

وله اختصار (العين) للخليل،وهو معدوم النظير والمثلِ ، و (لحن العامة) و (طبقات النحويين) وكتاب (الواضح) وسواها من كل تأليف مُخْجلٍ لمن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ، كأنما يتفجر من خاطره يَنْبوع ، وقد أثبتُّ له منه ما يُقترح ولا يُطْرَح . فمن ذلك قوله :

كيف بالدين القديم ... لك من أم تميم

ولقد كان شفاء ... من هوى القلب السقيم

يشرق الحسن عليها ... في دُجى الليلِ البَهيم

وكتب إلى أبي مسلم بن فهد ، وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيراً لسانُه، مُقْفِراً من المعالم جَنانُه :

أبا مسلمٍ إن الفتى بفـؤاده
ومِقْوَلِـه لا بالمـراكب واللُبْسِ

وليس رُواء المـرء يغني قُـلامة
إذا كان مقصوراً على قـصر النفسِ

وليس يفيد الحلمُ والعلـم والحِجا
أبا مسلم طـول القعود عـلى الكرسي

واستدعاه الحكَم المستنصر بالله أمير المؤمنين فَعَجّل إليه وأسرع ، فأمْرَعَ من آماله ما أمْرَعَ ، فلما طالت نَواه ، واستطالت عليه لوعته وجَواه ،وحنّ إلى مُسْتَكَنّه بإشبيلية ومثواه ، استأذنه في اللحوق بها فلوّمه ولواه ، فكتب إلى من كان يألفه ويهواه :

وَيْحَكِ يـا سَلْمُ لا تُـراعي
لا بُدَّ للـبَيْنِ مـن زمَاعِ

لا تحسبيني صـبرتُ إلا
كصبرِ مـيتٍ عـلى النـزاعِ

ما خلـق الله مـن عـذاب
أشد مـن وقفـة الـوداعِ

ما بينهـا والحِمـام فـرقٌ
إلا المنـاحات في النـواعي

إن يفترق شَمْلُنا وشيكاً
من بعد ما كان في اجتماعِ

فكلُّ شملٍ إلى افتراقٍ
وكل شَعْبٍ إلى افتراق

وكلُّ قربٍ إلى بِعادٍ
وكلُّ وصلٍ إلى انقطاع

وقال :

ما طلبت العلوم إلا لأني
لم أزل من فنونها في رياضِ

ما سواها له بقلبي حظ
غير ما كان للعيون المِراضِ

وقال :

أشْعِرَنْ قلبكَ باساً ليس هذا الناس ناسا
ذهب الإبريز منهم فبقوا بعد نحاسا
سامريِّين يقولو ن جميعاً لا مِساسا

وكان كتاب (العين) للخليل مختلَّ القواعد ، فامتعض له هذا الإمام،وصقل صدأه كما يُصقل الحسام ، وأبرزه في أجمل منزع ، حتى قيل : هذا مما أبدع واخترع ، وصيّره الحكم المستنصر مؤدباً لولده هشام المؤيد ، وبالجملة فهو في المغرب بمنزلة ابن دُرَيْد في المشرق .

* * *

يحيى بن علي اليَفْرَني

هو الفقيه النحوي ، الأديب . أبو زكريا . يحيى بن علي بن سلطان اليفرني ، ولد سنة ٦٤١ ، وبرع في العربية . وكان يلقّب في المشرق (جبل النحو) . وكان عند نفسه مجتهداً . وكان لا يجيز نكاح الكتابيات ، خلافاً للإمام مالك وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى . ويتمسك بقوله تعالى : (وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ورَحْمَةً) .

وكان يرى أن الطلاق لا يكون إلا مرتين : مرة للاستبراء ، ومرة للانفصال . ولا يقول بالثلاث ، وهو خلاف الإجماع .

وكان يقول في نهيه — عليه الصلاة والسلام — عن أكل ذي نابٍ من السِّباع : أي : مأكولِ كلِّ ذي ناب . وتبقى هي على الإباحة ، ويدل عليه قوله تعالى : (وما أكلَ السَّبُعُ) .

وكان يقول في قوله تعالى : (إنْ هذان لَساحِرانِ) . إن الهاء اسمُ (إنَّ) و (ذانِ لساحران) جملةٌ خبرٌ لإنَّ . ولا تحتاج لرابط ، لأنها تفسيرية ، والمعنى عنده : وأسرّوا النجوى قالوا إنها — أي نَجْوانا— هذان لساحران . أي : قولنا هذان لساحران . تثبيطاً للناس عن اتباعهما . وخطُّ المصحف يَرُدُّه . لكن في المصحف أشياء كتبت على غير المصطلح . مثل (مال هذا) و (لا أوضعوا) (لا أذبحنّه) .

قال ابن الطراح : ورأيت هذا المعنى لغيره ، وأظنه ابن النّحاس .

وتوفي اليفرني المذكور سنة ٧٠٠ . ومن شعره :

ماذا على الغُصُنِ الميّاس نــــو عَطَفــا
على صبابة صَبٍّ حالَــفَ الدنفـــا

يا رحمةً لفــــؤادي مـــــن مُعَــذِّبه
كم ذا يحمله أن يحمــــل الكَلَفَـــا

ويا رعى الله دهـــــراً ظل يجمعنـــا
في ظل عيشٍ صفا مـــــن طيبه وضفا(١)

مودةٌ بيننا في الحب كاملـــــــةٌ
ونحن لا نعرف الإعـــراض والصَّلَفـــا

* * *

(١) ضفا : طال .

من الفلاسفة

ابن باجـة

هو أبو بكر بن الصائغ التُّجيبي السَّرَقُسْطِيُّ(١) الذي قال في حقه لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) : إنه آخر الفلاسفة بجزيرة الأندلس ، وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب (القلائد) معاداة ، فلذلك هجاه ، وجعله آخر ترجمة فيه إذ قال ما نصه(٢) : الأديب أبو بكر بن الصائغ ، هو رَمَدُ عين الدين ، وكَمَدُ نفوس المهتدين ، اشْتَهَر سُخْفاً وجنوناً ، وهَجَرَ مفروضاً ومَسنونا ، فما يتشرّع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع . ناهيك من رجلٍ ما تطهّر من جَنابة ، ولا أظهر مَخِيلَةَ إنابة(٣) ، ولا استنجى من حَدَث ، ولا أشجى فؤاده بتَوارٍ في جَدَث ، ولا أقَرَّ ببارئه ومصوِّره ، ولا فرّ بتباريه في ميدان تَهوُّره ، الإساءةُ إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم ،

---

(١) واسمه محمد بن يحيى .

(٢) أي في كتاب (قلائد العقيان) .

(٣) المخيلة : مكان الظن .

ونبذه وراء ظهره ثانيَ عِطْفِه ، وأراد إبطال مالا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِنْ خَلْفه . واقتصر على الهيئة(١) . وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فَيْئَة(٢) . وحكم للكواكب بالتدبير . واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهي والإبعاد . واستهزأ بقوله تعالى : (إنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعاد) فهو يعتقد أن الزمان دور ، وأن الإنسان نباتٌ أو نَوْر ؛ حِمامُه تَمامُه . واختطافُه قِطافُه . قد محي الإيمان من قلبه فما لَه فيه رسم . ونسيَ الرحمنَ لسانُه فما يمر عليه اسم . وانتمت نفسُه إلى الضلال وانتسبت . ونفت (يَوْمَ تُجزى كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ) فقَصرَ عُمْرَهُ على طربٍ ولهو . واستشعر كلَّ كِبْرٍ وزَهْو ؛ وأقام سوق المُوَيْسيقى . وهام بحادي القطار وسقى ، فهو يعكُفُ على سماع التلاحين ، ويقف عليه كلَّ حين ، ويعلن بذلك الاعتقاد . ولا يؤمن بشيءٍ قادنا إلى الله تعالى في أسْلَسِ مَقاد ، مع منشأٍ وخيم ، ولؤمِ أصلٍ وخِيم(٣) .

وصورةٌ شوَّهَها الله وقَبَّحها ، وطَلْعَةٌ إذا أبصرها الكلبُ نبحها ، وقذارةٌ يؤذي البلادَ نَفَسُها ، ووَضَارةٌ(٤) يحكي الحدادُ

---

(١) أي علم الهيئة .

(٢) الفيئة : الرجوع .

(٣) الوخيم ، الأولى : من الوخامة ، وهو الوبي ، والوخيم ، الثانية : الواو حرف عطف . والخيم : الطبع .

(٤) الوضر : الوسخ .

دَنَسها ، وفَنَدٌ لا يعمر إلا كنَفَه(١) ، ولددةٌ لا يقيم إلا الصِّعادُ جَنَفَه(٢) .

وله نظم أجاد فيه بعض إجادة ، وشارف الإحسان أو كاده .

فمن ذلك ما قاله في عبدٍ حبشي كان يهواه ، فاشتمل عليه أسرٌ سعى إلى حشاه ، ونقله إلى حيث لم يعلم مثواه . فقال :

يا شائقي حيث لا أسطيع أدركه
ولا أقول غداً أغدو فألقاه

أما النهار فليلي ضمَّ شَمْلَتَهُ
على الصباحِ فأُولاه كأخراه

أغُرُّ نفسي بآمالٍ مزوَّرةٍ
منها لقاؤك والأيام تأباه

وله في الأمير أبي بكر بن إبراهيم ، قدّس الله تربته ، وآنس غُرْبَتَهُ مدائح انتظمت بِلبّاتِ الأوان ، ونظمت على كل شتيتٍ من الإحسان . فمن ذلك قوله :

تَوَضَّح في الدُّجى طَرْفٌ ضريرُ
سَنَاً بِلوِى الصَّرِيمة يستطير

---

(١) الفند : الخطأ في القول . والكنف : الجانب .

(٢) اللدد : الخصومه ، والصعاد : مفردها (صعدة) وهي الرمح ، والجنف : الميل .

فيا بأبي ولم أبذل يسيراً
وإن لم يَكْفِهِم ذاك الكثيرُ

بِرِيقٍ لا تقُلْ هو ثغر سلمى
فتأثَمَ ، إنه حُوبٌ وزُورُ(١)

فكيف وما أطلَّ الليلُ منه
ولا عَبَقَتْ بساحته الخمورُ

تراءى بالسدير فزاد قلبي
من البُرَحاء ما شاء السدّيرُ(٢)

فلولا أن يومَ الحشر يقضي
عليَّ بحكم مولىً لا يجورُ

دعوتُ على المشقّرِ أن يُجازى
بما تجزي به الدارُ الغَرورُ(٣)

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه الماتّة(٤) ويراها ، ويجود أبداً ثراها . فلما ولي الثغر والشرق لم يغفله من رَعْي ، ولم يَكِلْه إلى شفاعة وسعي . وحمله على ما كان يعتقد فيه من المَقْت ، واستعمله على ما كان يقتضيه خُلُق الوقت ، من إقامة الوعد ، وتسويغه كل

---

(١) الحوب : الإثم .
(٢) البرحاء : التعب والعناء .
(٣) الدار الغرور : الدنيا .
(٤) الماتة : ما يمت به إليه . أي : يتوصل .

نعيم رغد ، وتغليب حجة داحضة ، وإنهاض عثرةٍ غير ناهضة ، فتقلد وزارته ودولتُه تزهى منه بأندى من الوسميّ المبتكر ، وأهدى من النجم في الليل المعتكِر .

وكثيراً ما يغير هذا الرجل على معاني الشعراء ، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعَراء ، ويأخذ من أربابها أخْذَ غاصب ، ويعوِّضُهم منها كلَّ ناصب(١) ، فهذا مما أطال به كَمَدَ أبي العلاء وغَمَّه . فإنه أخذه من قوله يرثي أمّه :

فيـــا رَكْبَ المَنُـــونِ ألا رسولٌ
يُبَلِّغُ رُوْحَهـــا أَرَجَ الســـلامِ

سألت متى اللقـــاءُ فقيــــل حتى
يقوم الهـــامدون مـــن الرجام(٢)

ولما فاتت سَرَقُسْطَةُ من يد الإسلام ، وباتت نفوس المسلمين فَرَقاً منهم في يد الاستسلام ، ارتاب بقبح أفعاله ، وبرىء من احتذائه بتلك الآراء وانتقاله . وأخافه ذَنْبُه ، ونبا عن مضجع الأمنِ جَنْبُه ، فكرَّ إلى الغرب ليتوارى في نواحيه ، ولا يتراءى لعين لائمه ولاحيه ، فلما وصل شاطِبَةَ ، حضرة الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وجد باب نفاذه وهو مبهم ، وعاقه عنه مدلول عليه مُلْهَم ، فاعتقله اعتقالاً شفى الدينَ من آلامه ، وشهد له بعقيدة إسلامه ، وفي ذلك

(١) هم ناصب : حزن يعيي من ينزل به ويتة به .

(٢) الرجام : القبور . والأصل : الحجار المجتمعة .

يقول ، وهو معقول ، ويصرح بمذهبه الفاسد ، وغرضه المستأسد :

خَفِّضْ عليك فمـــا الزمان وريْبُه
شيء يدوم ، ولا الحياة تـــدومُ

واذهب بنفسٍ لم تضع لِتُحِلَّهـــا
حيث احتللتَ بهـــا وأنت عليـــمُ

يا صاحبي لفظـــاً ومعنًى خِلْتُه
مـــن قبـــلُ حتى بُيِّن التقسيمُ

دع عنـــك من معنى الإخاء ثقيلـه
وانبذ بـــذاك العـــبء وهو ذميم

وعزم عماد الدولة يوماً على قتله ، وألزم المُرْقَبين به التَّحَيُّلَ على خَتْلِه . فنُمي إليه الأمر الوعر ، وارتمى به في لُجَج اليأس الذُّعْر فقال :

أقول لنفسي حين قابلَتْهـــا الـــردى
فراغَتْ فراراً منـــه يُسرى إلى يُمنى

قري تحمـــدي بعض الذي تكرهينه
فقد طالما اعتدتِ الفرارَ إلى الأهْنـــا

ثم قضى له قَدَرٌ بإنظاره . وما أمضى إباحته ما كان رهين

انتظاره . ويُمْهَلُ الفاجرُ حكمةً من الله تعالى وعلماً : (وإنما نُمْلي لهم ليزدادوا إثماً) انتهى نص (القلائد) .

وتوفي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة ٥٢٣ ، وقيل سنة خمس وعشرين مسموماً في (باذنجان) بمدينة فاس . وهو تُجِيْبِيّ ، بضم التاء وفتحها .

وباجّة – بالباء الموحّدة . وبعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة – وهي القصة ، بلغة الفرنج .

وسَرَقُسْطَة – بفتح السين والراء ، وضم القاف ، وسكون السين الثانية . وبعدها طاء مهملة – : مدينة كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) : إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً ، له تصانيف في الرياضات والمنطق . وإنه وَزَرَ لأبي بكر الصحراوي صاحب سَرَقُسْطَة ، ووزر أيضاً ليحيى بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وإن سيرته كانت حسنة : فصلحت به الأحوال ، ونجحت على يديه الآمال ؛ فحسده الأطباء والكتّاب وغيرهم فقتلوه مسموماً(١) .

* * *

ابن سَبْعين

هو الفقيه الجليل ، العارف النبيل ، الحاذق ، الفصيح ، البارع . أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، الشهير بابن سَبْعين .

---

(١) انظر – إن شئت – سبب العداوة بين ابن باجة هذا ، والفتح بن خاقان في (نفح الطيب) ج٩ ص: ٢٤١ .

العَكّي ، المُرْسِيُّ ، الأندلسي ، ويلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين .

قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك : دَرَّسَ العربيةَ والآداب بالأندلس . ثم انتقل إلى سَبْتَةَ . وانتحل التصوف . وعكف برهةً على مطالعة كتبه(١) . والتكلم على معانيها . فمالت إليه العامة . ثم رحل إلى المشرق ، وحج حججاً . وشاع ذكره . وعظم صِيتُه . وكثر أشياعه . وصنف أوضاعاً كثيرة(٢) تلقَّوْها منه . ونقلوها عنه . ويُرمى بأمورٍ اللهُ تعالى أعلم بها وبحقيقتها ؛ وكان حسن الأخلاق . صبوراً على الأذى ، آيةً في الإيثار . انتهى .

وقال غير واحدٍ : إن أغراض الناس فيه متباينة . بعيدة عن الاعتدال . فمنهم المُرْهِقُ المكَفِّر ، ومنهم المقلِّدُ المعظِّم الموقِّر . وحصل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد . والنفرة والانتقاد . ما لم يقع لغيره ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره .

ولما ذكر الشريف الغرناطي عنه أنه كان يكتب عن نفسه (ابن ه) يعني الدارة التي هي كالصفر . وهي في بعض طرق المغاربة في حسابهم سبعون : وشهر لذلك بابن دارة ، ضمن البيت المشهور :

....
محا السيفُ ما قال ابن دارة أجمعـــــا(٣)

---

(١) أي كتب التصوف .
(٢) أي صنف الكتب الكثيرة .
(٣) هذا عجز بيت للكميت بن معروف الفقعسي وتمامه :
فلا تكثروا فيها الضجاج فانه محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

حسبما ذكره الشريف في شرح مقصورة حازم(١) . وقد طال عهدي به فليراجعه من ظفر به .

وقال صاحب (درة الأسلاك) في سنة ٦٦٩ ، ما صورته : وفيها توفي الشيخ قطب الدين ، أبو محمد . عبد الحق بن سَبْعين المُرْسي : صوفي متفلسفٌ ، متزهد متقشف . يتكلم على طريقة أصحابه(٢) . ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه.شاع أمره . واشتهر ذكره . وله تصانيف وأتباع . وأقوال يميل إليها بعض القلوب ، وتَمَلُّها بعض الأسماع . وكانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة . تغمده الله تعالى برحمته . انتهى .

وقال بعض الأعلام في حق ابن سبعين : إنه كان – رحمه الله تعالى – عزيز النفس . قليل التصنع . يتولى خدمة الكثير من الفقراء والسُّفارة أصحاب العبادات والدفانيس(٣) بنفسه ، ويحفُّون به في السَّكَك(٤) . ولما توفرت دراعي النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل ، ووجهت لألفاظه المعاريض . وفُلِّيَتْ موضوعاته ، وتعاورته الوحشة ، وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوبٌ يطول ذكرها .

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين – ومنهم لسان الدين بن الخطيب – في (الإحاطة) أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة

---

(١) هو حازم القرطاجني ، الأديب الأندلسي المشهور .

(٢) أي المتصوفة .

(٣) الدفانيس : جمع (دفنس) وهو في الأصل : الراعي الكسلان الذي يترك إبله ترعى وحدها وينام .

(٤) السكك : الطرق والدروب .

عن القدوم إليها ، فعظم عليه بذلك الحمْلُ . وقبحت الأحدوثة عنه .

لكنْ قال شهاب الدين بن أبي حَجَلة التلمساني . الأديب الشهير . وهو صاحب كتاب (السكردان) و (ديوان الصبابة) و (منطق الطير) و (الاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض) ما معناه : أخبرني الشيخ الصالح أبو الحسن بن بُرغوش التلمساني ، شيخ المجاورين بمكة . وكانت له معرفة تامة بهذا الرجل . أنه صدّه عن زيارة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه كان إذا قرب من بابٍ من أبواب مسجد المدينة – على ساكنها الصلاة والسلام – يُهراق منه دمٌ كدمِ الحيض . والله تعالى أعلم بحقيقة أمره . انتهى .

وقال لسان الدين : أما شُهْرَتُه ومحله من الإدراك والآراء والأوضاع والأسماء ، والوقوف على الأقوال . والقيام على مذاهب المتكلمين فما يُقضى منه العجب ..

توفي – رحمه الله تعالى – يوم الخميس تاسع شوال سنة ٦٦٩ .

وقال بعض الأكابر عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين ما نصه ببعض اختصار : هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم ، وتعدد المعارف . وكثْرة التصانيف ، ولد سنة ٦١٤ ودرس العربية والأدب بالأندلس ، ونظر في العلوم العقلية . وأخذ عن أبي إسحاق بن دهاق . وبرع في طريقه . وجال في البلاد . وقدم القاهرة . ثم حج واستوطن مكة ، وطار صيته ، وعظم أمره . وكثر أتباعه ، حتى إنه تَلْمَذَ له أمير مكة ، فبلغ من التعظيم الغاية .

وله كتاب (الدرج) وكتاب (السفر) وكتاب (الأبوبة اليمنية) وكتاب (الكد) وكتاب (الإحاطة) ورسائل كثيرة في الأذكار وترتيب السلوك والوصايا المواعظ والغنائم .

ومن شعره :

كم ذا تُمَوِّهُ بالشِّعْبَيْن والعَلَمِ
والأمرُ أوضحُ من نارٍ على علَمِ

وكم تعبِّر عن سَلْعٍ وكاظمةٍ
وعن زرودَ وجيرانٍ بذي سَلَمِ (١)

ظللتَ تسأل عن نَجْدٍ وأنتَ بها
وعن تِهامةَ هذا فِعْلُ مُتَّهَمِ

في الحي حي سوى ليلى فتسأله
عنها سؤالك وهمٌ جَرَّ للعَدَمِ

ونشأ — رحمه الله تعالى — تَرِفاً ، مُبَجَّلاً ، في ظلِّ جاهٍ ونعمة ، لم تفارق معها نَفْسُهُ البَأْوَ (٢) .

وكان وَسيماً جميلاً ، ملوكيَّ البِزَّة ، عزيزَ النفس ، قليل التصنع ، وكان آيةً من الآيات ، في الإيثار والجود بما في يده . رحمه الله تعالى.

توفي — رحمه الله تعالى — يوم الخميس تاسع شوال سنة ٦٦٩.

* * *

(١) سلع وكاظمة وزرود وذو سلم : أماكن في الجزير العربية .
(٢) البأو : عز النفس ، والفخر .

من الأطباء وعلماء الصيدلة

ابن الرومية

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل . الأموي. الإشبيلي ، النباتي ، المعروف بابن الرومية .

كان عارفاً بالعشب والنبات . صنف كتاباً حسناً كثير الفائدة في الحشائش . ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم ، ورحل إلى البلاد. ودخل حلب ، وسمع الحديث بالأندلس .

وقال البرزالي في حقه : إنه كان يعرف الحشائش معرفة جيدة . وسمع الحديث بدمشق من ابن الحرستاني ، وابن مُلاعب ، وابن العطار ، وغيرهم .

وقال بعضهم : اجتمعت به ، وتفاوضت معه في ذكر الحشائش فقلت له : قصب الذريرة قد ذُكر في كتب الطب . وذكروا أنه يستعمل منه شيء كثير ، وهذا يدل على أنه كان موجوداً كثيراً ، وأما الآن فلا يوجد ، ولا يخبر عنه بخبر ، فقال : هو موجود ، وإنما لا يعلمون أين يطلبونه ، فقلت : وأين هو ؟ فقال : بالأهواز منه شيء كثير . انتهى .

وأجاز البحرَ بعد سنة ٥٨٠ للقاء ابن عُبيد الله بِسَبْتَةَ ، فلم يتهيأ له ذلك . وحج — رحمه الله تعالى — في رحلته الأولى ، ولقي كثيراً ،

وروى عن عددٍ من الرجال والنساء ضَمّنَتهم (التذكرة) له . وله مختصر كتاب (الكامل) لأحمد بن عدي ، في رجال الحديث ،وله كتاب (المُعْلِم بما زاده البخاري على مُسْلِم) .

ويعرف بالنباتي لمعرفته بالنبات . ومولده في نحو سنة ٥٦١ . وتوفي - رحمه الله تعالى - باشبيلية مُنْسَلَخَ ربيع الثاني سنة ٦٣٧ . وقد رثاه أناس من تلامذته ، وألف بعضهم في التعريف به .

وسمع من ابن زرقون وابن الجد وابن عفير وغير واحد كأبي ذر الحبشي وسمع ببغداد من جماعة ، وحدّث بمصر أحاديث من حفظه . ويقال له : الحزمي - بفتح الحاء - نسبةً إلى مذهب ابن حزم ، لأنه كان ظاهريَّ المذهبَ.وكان زاهداً صالحاً ، وحكى بعضهم عنه أنه كان جالساً في دكانه بإشبيلية يبيع الحشائش وينسخ فاجتاز به الأمير أبو عبد الله بنُ هود . سلطان الأندلس فسلم عليه ، فردَّ عليه السلام ، واشتغل بنسخه ، ولم يرفع إليه رأسه ، فبقي واقفاً منتظراً أن يرفع إليه رأسه ساعة طويلة ، فلما لم يحفل به ساق فرسَه ومضى . وله كتابان حسنان في علم الحديث ، أحدهما يقال له (الحافل) في تكملة (الكامل) لابن عدي ، وهو كتاب كبير . قال ابن الأبّار : سمعت شيخنا أبا الخطاب بن واجب يثني عليه ويستحسنه . والثاني اختصر قيه (الكامل) لأبي أحمد بن عدي - كما سبق - في مجلدين.

وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعةً من أصحاب الحافظ أبي الوقت السجزي ، وأبي الفتح بن البطي ، وأبي عبد الله الغراوي ،وغيرهم من الأئمة .

وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق .

وكان متعصباً لابن حَزْم بعد أن تفقه في المذهب المالكي على ابن زرقون ، أبي الحسين ، وطالت صحبته له .

وكان بصيراً بالحديث ورجاله ، كثير العناية به .

واختصر كتاب الدار قُطني في غريب حديث مالك . وغيره

وفاق أهل زمانه في معرفة النبات ، وقعد في دكانٍ لبيعه .

قال ابن الأبّار : وهناك رأيته ولقيته غَيْرَ مرة ، ولم آخذ عنه ، ولم أستَجِزْهُ .

وسمع منه جُلُّ أصحابنا .

ومولده في شهر المحرم سنة ٥٦٧ ، وتوفي بإشبيلية ليلة الإثنين مستهلَّ ربيع الآخر سنة ٦٣٧ .

وقال ابن زرقون : مُنْسَلَخَ شهر ربيع الأول ، وحكى ذلك عن ولده أبي النور محمد بن أحمد . انتهى .

* * *

عبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهر الإيادي

أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زُهَر الإيادي، الأندلسي : صاحب البيت الشهير بالأندلس . حل إلى المشرق ، وتطبب به زماناً . وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ، ثم القيروان ، ثم استوطن مدينة دانية . وطار ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب . واشتهر بالتقدم في علم الطب حتّى فاق أهل زمانه ، ومات في مدينة دانية . رحمه الله تعالى .

* * *

محمد بن عبد الملك بن مروان بن زُهْر

أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زُهْر : هو عين ذلك البيت . وإن كانوا كلهم أعياناً علماء . رؤساء ، حكماء . وزراء ؛ وقد نالوا المراتب العلية . وتقدموا عند الملوك . ونفذت أوامرهم .

قال الحافظ أبو الخطاب بن دِحْيَة في (المُطْرِب من أشعار أهل المغرب) : كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زُهْر بمكان من اللغة مكين . وموردٍ من الطلب عَذْبٍ مَعين ؛ وكان يحفظ شعر ذي الرُّمّة ، وهو ثلث لغة العرب . مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب . مع سمو النسب . وكثرة الأموال والنَّشَب ، صحبتُه زماناً طويلاً واستفدتُ منه أدباً جليلاً ؛ وأنشد من شعره المشهور قوله :

وموسَّدين على الأكف خدودهم
قد غالهم نومُ الصباح وغالني

مازلتُ أسقيهمُ وأشربُ فَضْلَهم
حتى سكرتُ ونالهم ما نالني

والخمر تعلم كيف تأخذ ثأرها
إني أَمَلْتُ إناءَها فأمالني

ثم قال ابن دِحْيَة : وسألته عن مولده فقال : ولدتُ سنة سبع وخمسمئة ؛ قال : وبلغتني وفاته آخر سنة ٥٩٥ ، رحمه الله تعالى .

ومن المنسوب إلى أبي بكر بن زُهْر قوله في كتاب جالينوس المسمى بـ (حيلة البُرْء) وهو من أجلّ كتبهم وأكبرها :

حيلـــة البُــرْءِ صنعـــةٌ لعليلٍ
يـترجَّـى الحيــاة أو لِعليلــه

فــإذا جــاءت المنيـــة قــالــت :
حيلــة الــبُرء لــيس في الــبرء حيلــه

وقال ابن دِحيْة في حقه أيضاً : والذي انفرد به شيخنا . وانقاد لطباعه ، وصارت النُبهاء فيه من خوَلِه وأتباعه الموشحات . وهي زبدة الشعر ونُخْبَتُه . وخلاصة جوهره وصَفْوَتُه ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعةِ والضياءِ المُشرق .

* * *

أبو العلاء زُهْر بن عبد الملك

قال ابن دِحْيَة فيه: إنه كان وزير الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه ، وتوفي مُمْتَحَناً من نُغْلَةٍ بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قُرْطُبَة . وكانت بينه وبين الفتح (بن خاقان) صاحب (القلائد) عداوة .

* * *

أبو المطرف عبد الرحمن بن شُهَيد

وكان الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شُهيد : مصنف (الأدوية المفردة) آية الله تعالى في الطب . حتّى إنه عانى جميع ما في كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن بالأغذية ، أو ما يقرب منها ، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرى التداوي بالمركبة ما وجد سبيلاً إلى المفردة . وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه .

وله غرائب مشهورة في الإبراء من الأمراض الصعبة . والعلل المخوفة . بأيسر علاج وأقربه .

* * *

ابن البيطار

وهو عبد الله بن أحمد المالَقيّ ، الملقب بضياء الدين . وله عدة مصنفات في الحشائش لم يُسْبَق إليها . وتوفي بدمشق سنة ست وأربعين وستمئة . أكل عقاراً قاتلاً فمات من ساعته . رحمة الله تعالى .

* * *

من العلماء في العلوم التطبيقية

عباس بن فرناس :

ومن حكايات الأندلسيين في الذكاء واستخراج العلوم أن أبا القاسم عباس بن فرناس . حكيمَ الأندلس (١) ، أولُ من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة . وأول من فك بها كتاب (العروض) للخليل . وأول من فك الموسيقى ، وصنع الآلة المعروفة بالمنقالة ليعرف بها الأوقات . على غير رسمٍ ومثال ؛ واحتال في تطيير جثمانه ، وكسا نفسَه الريشَ . ومد له جناحين ، وطار في الجو مسافة بعيدة ، ولكنه لم يُحسن الاحتيال في وقوعه ، فتأذّى في مؤخّرِه . ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زِمِكّه (٢) ، ولم يعمل له ذنباً . وفيه قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات :

يطمُّ على العنقاء في طيرانها
إذا ما كسا جثمانَهُ ريشَ قَشْعَمِ

وصنع في بيته هيئة السماء . وخيّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود .

* * *

(١) عاش في عصر الخليفة عبد الرحمن الثاني . ابن الحكم توفي سنة ٢٧٤ هـ = ٨٨٧ م .
(٢) الزمك : ذنب الطائر ، ومثله الزمكى .

صاحب القبلة ، أبو عبيدة مسلم :

وأول من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرّق في صلاته (١) . وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان صاحب فقهٍ وحديث ، ودخل المشرق ، وسمع بمكة من علي بن عبد العزيز ، وبمصر من المُزَني وغيره .

* * *

ابن السمينة :

ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة ، من أهل قرطبة ، وكان بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدل . ودخل المشرق ، وقيل : إنه كان معتزلي المذهب (٢) .

* * *

أصبغ بن السمح :

وأبو القاسم أصبغ بن السمح (٣) ، وكان بارعاً في علم النجوم والهندسة . وله تآليف منها كتاب (المدخل إلى الهندسة . في تفسير

(١) أي يصلي نحو الشرق .
(٢) توفي سنة ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م .
(٣) واسمه أصبغ بن محمد بن السمح . توفي سنة ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م .

إقليدس ، وكتاب كبير في الهندسة وكتابان في الاسطرلاب (١) ، وزيج (٢) على مذاهب الهند المعروف بالسند هند .

* * *

ابن الصَّفّار :

وأبو القاسم بن الصَّفّار . وكان عالماً بالهندسة والعدد والنجوم. وله زيجٌ مختصر على مذاهب السند هند . وله كتاب في عمل الاسطرلاب .

الزَّهراوي :

ومنهم أبو الحسن الزهراوي. وكان عالماً بالعدد وبالطب والهندسة. وله كتاب شريف في المعاملات على طريق البرهان .

* * *

أبو الحكَم عمر الكرْماني :

ومنهم أبو الحكم عمرو الكرْماني (٣) ، من أهل قرطبة ، من الراسخين في علم العدد والهندسة ، ودخل المشرق ، واشتغل بحَرّان ؛ وهو أول من دخل برسائل إخوان الصفا إلى الأندلس .

* * *

---

(١) الاسطرلاب : آلة لقياس حركات الكواكب السيارة .

(٢) الزيج : آلة لمعرفة مقادير حركات الكواكب ، لا سيما السبعة السيارة لتقويم حركتها ، لمعرفة الساعات والأوقات وفصول السنة .

(٣) وهو أبو الحكم ، عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد الكرماني ، كان طبيباً جراحاً ، عالماً بالهندسة توفي سنة ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م .

ومنهم **أبو مسلم بن خلدون** (١) : من أشراف إشبيلية ، وكان متصرفاً في علوم الفلسفة والهندسة والنجوم والطب .

وتلميذه **ابن برغوث** ، وكان عالماً بالعلوم الرياضية .

وتلميذه **أبو الحسن مختار الرُّعَيني** : وكان بصيراً بالهندسة والنجوم.

وعبد الله بن أحمد السّرقُسْطي : كان ناقداً في علم الهندسة والعدد والنجوم .

ومحمد بن الليث : كان بارعاً في العدد والهندسة وحركات الكواكب .

وابن حَيّ : قرطبي بصير بالهندسة والنجوم ، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين وأربعمئة . ولحق بمصر . ودخل اليمن ، واتصل بأميرها الصُّلَيْحيّ القائم بدعوة المستنصر العبيدي . فحظي عنده ، وبعثه رسولاً إلى بغداد إلى القائم بأمر الله ، وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد .

هشام الوَقْشي :

وكان الحافظ أبو الوليد هشام الوقشي (٢) من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الشعر والعَروض ، وصناعة الكتابة ، والفقه ، والشروط ، والفرائض وغيرها . وهو كما قال الشاعر :

(١) وهو عمر بن أحمد (أو محمد) بن تقي بن عبد الله . توفي سنة ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧م . وهو غير ابن خلدون المؤرخ .

(٢) وهو هشام بن أحمد بن هشام الكناني ، توفي سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ م .

وكــان مــن العــلــوم بحيــث يُقْـضى
لـــه فـــي كـــل فـــن ٍّ بـــالجميـــع ِ

ومن شعره قوله :

قـــد بَيَّنَـــتْ فيـــه الطبيعـــةُ أنهـــا
بـــدقيـــق أعـــمـــال المهنـــدس مـــاهـــره

عُنِيَـــتْ بِمَبْسَـــمِـــه فخطَّـــتْ فوقـــه
بالمســـك خطـــاً مـــن محيـــط الـــدائـــره

وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز ، فهاله ذلك فقال :

لا أركـــب البحـــر ولـــو أنـــني
ضربـــتُ فيـــه بالعصـــا فـــانْفـلـــقْ (١)

مـــا إن رأت عيـــنيَ أمـــواجـــه
في فـــرق إلا تنـــاهـــى الفـــرَقْ

* * *

محمد بن عبدون الجبلي ، العَدَوِيّ :

من أهل قرطبة . أدب بالحساب والهندسة ؛ ورحل في سنة سبع ٍ وأربعين وثلاثمئة فدخل مصر والبصرة ، وعُني بعلم الطب فمهر فيه ، ودبر في مارستان الفسطاط ، ثم رجع إلى الأندلس في سنة ستين وثلاثمئة فاتصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله . وله في التكسير تأليف حسن . رحمه الله تعالى .

* * *

(١) يشير إلى قصة موسى عليه السلام التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ، وفيها أنه أمر بضرب البحر بعصاه فانفلق واتخذ لقومه طريقاً يبساً .

مِنْ أَعْلامِ النساء

حَفْصَة الركونية

هي حَفْصَة بنت الحاج الركونية . الشاعرة . الأديبة . المشهورة بالجمال والحسب والمال .

ذكرها الملاحي في تاريخه . وأنشد لها مما قالته في أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ارتجالاً بين يديه :

يـــاسيــد الناس يــامَــــنْ
يُــؤمَّـــلُ النــاسُ رِفْــدَهْ

امْنُـــنْ علـــيَّ بِطِرْسٍ
يكـــون للــدهــر عُدَّهْ

تَخُـــطُّ يُمنـــاك فيـــه
الحمـــد للـــه وحـــده

وأشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين . فإنها كانت أن يكتب السلطان بيده بخطٍ غليظ في رأس المنشور : « الحمد لله وحده » .

وأنشد لها أبو الخطاب في (المُطْربِ) قولَها :

ثنائـــي على تلك الثـــنايا لأنـــني
أقـــول على علمٍ وأنطـــقُ عن خُبْرِ

وأنصفـــها لا أكــذب اللهَ إنــــي
رَشَفْــــتُ بها ريقـــاً أرقَّ من الخمرِ

وتولع بها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن . ملك غَرْناطة ، وتغير بسببها على أبي جعفر بن سعيد ، حتى أدى تغيُّره عليه أن قتله ، وطلب أبو جعفر منها الاجتماع فَمَطَلَتْه قدر شهرين فكتب لها :

يـــامــن أجانـــب ذكر اسْـ
ـمِهِ وحُبُّـــــي عَـــلامَـــهْ

مـــا إن أرى الوعـــد يُقْضَـــى
والعمــــــر أخشـــى انصرامَهْ

اليـــــوم أرجـــوك لا أن
تكـــــون لي فـــي القيـــامه

لـــــو قـــد بَصُـــرْتَ بحالي
والليــــل أرخــــى ظـــلامه

أنـــوح شوقـــاً ووجـــداً
إذ تستــــريـــح الحمامــــه

صَــــبٌّ أطـــــال هـــواه
عـــــلى الحبيــــب غــــرامَه

لمـــــن يتيــــه عليــــه
ولا يــــردُّ ســـــلامــــهِ

إن لـــــم تُنيــــــلي أريْحــي
فـــاليــــأسُ يثنـــي زمــامَه

فأجابته :

يـــا مُـــدّعـــي في هـــوى الحُسْ
...نِ والغـــرامِ الإمـــامــهِ

أتــــى قريضُـــك الكـــن
لم أرض منــــه نظـــامَــه

أمُــــــدّعي الحـــب يثني
يـــأسُ الحــــبيب زمـــامه

ضَلَلْتَ كـــلَّ ضـــلالٍ
ولـــم تُـــفِدكَ الزعامــــهْ

مازلــــت تصحـــب مذ كنـ...
ـتَ فـــي السباق الســــلامه

حتــــى عثـــرتَ وأخْجَلْـ
ـت بافتضـــــاح الســــآمه

باللــــه فـي كـــل وقـــتٍ
يُبـــــدي السحــــابُ انسجـامه

والـــزهرُ فـــي كل حيـــنٍ
يـــشق عنــــه كمامَــــهْ

لـــو كنتَ تعــرف عذري
كففــــت غَرْبَ المـــلامــه

ووجهت هذه الأبيات مع موْصِل أبياته ، بعدما لعَنَتْه وسبّتْه وقالت له : لعن الله المرسِل والمرسَل . فما في جميعكما خير ، ولا لي برؤيتكما حاجة . وانصرف، بغايةٍ من الخزي .

ولما أطلّ على أبي جعفر . وهو في قلقٍ لانتظاره . قال له : ما وراءك ياعصام ؟ قال : ما يكون وراء مَنْ وجهه خلفٌ إلى فاعلة تاركة ؟ اقرأ الأبيات تعلم . فلما قرأ الأبيات قال للرسول : ما أسخف عقلك وأجهلك ! إنها وعدتني للقبة التي في جنتي المعروفة بالكمامة . سر بنا. فبادروا إلى الكمامة فما كان إلا قليلاً وإذا بها قد وصلت . وأراد عَتْبَها فأنشدت :

دعـــي عدّ الذنـــوب إذا التقينـــا
تعـــالَيْ لا نَعُـــدُّ ولا تَعُدّي

وجلسا على أحسن حالة ، وإذا برقعة الكُتُنْدِيّ الشاعر لأبي جعفر ، وفيها :

أبـــا جعفر يابن الكرام الأماجـــدِ
خلَوْتَ بمنْ تهواه رغمـــاً لحاســـد

فهـــل لك في خِلٍّ قنوعٍ مهـــذبٍ
كتـــومٍ . عليم باختفاء المراصـــدِ

يبيـــت إذا يخـــلو المحـــب بحبـــه
مُمَتَّـــعَ اللّذاتِ بخمسٍ ولامــد

فقرأها على حفصة . فقالت : لعنه الله . قد سمعنا بالوارش على

الطعام(١) ؛ والواغل على الشراب(٢) ، ولم نسمع اسماً لمن يعلم باجتماع محبين فيروم الدخول عليهما .

فقال لها : سَمِّيْهِ لنكتب له بذلك .

فقالت : أسميه الحائل ، لأنه يحول بيني وبينك إن وقعت عيني عليه فكتب له في ظهر رقعته :

يـــا مـــن إذا مـــا أتانـــي
جعلتــــه نُصْـبَ عيني

تـــراك ترضـى جلوســـاً
بيــــن الحبيــــب وبينـــي

إن كـــان ذاك فمـــاذا
تبغـــي سوى قُرْب حَيْنِـــي

والآن قـــد حصلـــت لي
بعــــد المِطَـــال بدَيْنـــي

فإن أتيـــت فدفعـــاً
منـــها بكلتـــا اليـــدين

---

(١) ورش الطعام : تناوله ، أو أكل أكلا شديداً .

(٢) الواغل : الداخل على القوم في شرابهم وطعامهم من غير دعوة ولا إنفاق ، وهو كالوارش على الطعام .

أو ليس تبغـــي وحاشـــا
ك أن تُـــرى طيرَ بَيْـــن

وفـــي مبينـــك بالخمـــ
سِ كـــل قبـــحٍ وشَيْـــن

فليسَ حقُّكَ إلا الـ . . .
خـاـــوً بالقمــــرين

وكتب له تحت ذلك ما كان منها من الكلام ، وذيّل ذلك بقوله :

سَمَّـــاك من أهواه حاثـــل
إن كنـــت بعـــد العتب واصـــل

مـــع أنَّ لَوْنَكَ مزعج
لو كنـــت تحبس بالسلاســـل

فلما رجع إليه الرسول وجده قد وقع بمطمورة نجاسة . وصار هَتْكَةً ؛ فلما قرأ الأبيات قال للرسول : أعلمهما بحالي ، فرجع الرسول وأخبرهما بذلك ، فكاد أن يُغْشى عليهما من الضحك . وكتبا إليه ارتجالاً ، كل واحد بيتاً بيتاً .

وابتدأ أبو جعفر فقال :

يـــا أسقطَ النـــاس ويـــا
أنْذَلَـــهم بـــلا مِرا

هـــذا مـــدى الدهر تُـــلا
قـــي نـــو أتيتَ في الكَرى

يا حيــــةً تشغــــف في الخَزْ
ءِ وتَشْنـــــا العنبـــــرا(١)

لا قــــرّب اللــهُ احتمــــا . .
عــــــأ بــــكَ حتى نُقْبرا

* * *

ومن شعرها :

سَـــــلامٌ يفتّـــحُ في زهره اا
كِمامُ وينطـــــق ورق الغصون

على نازحٍ قــــد توى في الحشـــا
وإن كـــان تُحرم منــــه الجفون

فـــــلا تحسبوا العبــدَ ينساكم
فـــذلك واللـــــه مالا يكــــون

وقولها من أبيات :

ولو لم يكن نجماً لما كان ناظــري
وقــــــد غبـــتُ عنه مظلماً بعد نوره

ســــلامٌ على تلك المحاسن من شجٍ
تناءت بنُعْمـــــاه وطيــــب سروره

(١) تشنا : تكره وتبغض ، والأصل : تشنأ ، بالهمز .

وقولها :

سَلُــــــوا البارقَ الخَفّاقَ والليل ساكن
أظَـــــلَّ بأحبابي يذكرني وَهْنا

لَعَمْـــــري لقد أهدى لقلبيَ خفقةً
وأمطـــــرني مُنْهَلُّ عارضِه الجفْنا

ونسب بعضهم إليها البيتين المشهورين .

أغـــار عليك من عَيْنَـــيْ رقيبـــي
ومنــــك ومـــن زمانـــك والمكان

ولـــو أني خبأتـــك في عيـــوني
إلـــى يـــوم القيامـــة ما كفاني

والله تعالى أعلم .

وكتبت إلى أبي جعفر :

رَأسْـــــتَ فما زال العداة بظلمهـــم
وعلمهمُ النامي يقولون ما رأس

وهـــــل منكَرٌ أن ساد أهلَ زمانه
جَموحٌ إلى العليـــا حَرُوْنٌ عن الدنس

وقال ابن دحية : حفصة من أشراف غرناطة . رخيمة الشعر ، رقيقة النظم والنثر . انتهى .

ومن قولها في السيد أبي سعيد ملك غرناطة تُهنئه بيوم عيد ، وكتبت إليه بذلك :

يـــاذا العُـــلا وابن الخليـــ
فةِ والإمـــامِ المرتضـــى

يهنيك عيـــدٌ قد جـــرى
فيه بمـــا تهوى القضـــــا

وأتـــاك مـــن تـــهواه في
قيـــد الإنـــابـــة والرضى

ليعيـــد من لَذّاتـــه
مـــا قـــد تصـــرَّمَ وانقضـــى

وذكر الملاحي في تاريخه أنها سألتها امرأةٌ من أعيان أهل غرناطة أن تكتب لها شيئاً بخطها فكتبت إليها :

يـــاربـــة الحسن . بـــل ياربة الكرم
غُضّـــــي جفونَكِ عما خطّه قلمي

تَصَفَّحِيه بلحظِ الوُدُّ مُنْعِمَةً
لا تحفلي برديء الخط والقـــلم

واتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها في بستان بِحَوْزِ مُؤمَّل ، على مايبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ، ونَضارة النعيم ؛ فلما حان الانفصال قال أبو جعفر ، وكان يهواها كما سبق :

رعـــى الله ليلاً لم يَرُحْ بمذمم
عشية وارانـــا بِحَوْزِ مُؤَمَّل

وقـــــد خفقــت من نحو نجدٍ أريجةٌ
إذا نفحـــــت هبــت بِرَيّا القَرَنْفُلِ

وغرد قُمْريٌّ على الدوح وانثنـــــى
قضيبٌ من الريحان من فــوق جــدولِ

يرى الروض مسروراً بما قد بدا لــه
عِنــاقٌ وضمٌّ وارتشافُ مُقَبَّــــلِ

وكتب بها إليها بعد الافتراق . لتجيبه على عادتها في مثل ذلك ، فكتبت إليه بقولها :

لَعَمْرُكَ ما سُرَّ الرياضُ بوَصْلنا
ولكنه أبدى لنا الغِــلَّ والحَسَــــدْ

ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنـــــا
ولا غرد القمريُّ إلا لمـــــا وجـــــد

فلا تُحْسِنِ الظنَّ الذي أنتَ أهلُـــه
فما هـــــو في كل المواطن بالرشـــدْ

فما خِلْـــتُ هذا الأُفْقَ أبدى نجـــومه
لأمرٍ سوى كيما تكـــــون لنا رَصَدْ

وقال ابن سعيد في (الطالع السعيد) : كتبت حفصة الركونية إلى بعض أصحابها :

أَزُورُكَ أم تَزور فإن قلبــــي
إلى ما تشتهـــــي أبداً يميــــــــلُ

فثغــــري مَوْردٌ عذبٌ زُلالٌ
وفرعُ ذُؤابتي ظــلٌ ظليـــــلٌ

وقـــــد أمَّلْتُ أن تظمَــا وتَضْحى
إذا وافـــــى إليكَ بيَ المقيلُ(١)

فعجِّــلْ بالجــواب فما جميلٌ
إباؤك عن بُثَيْنَــةَ ياجَميــــلُ

قال التجاني : تشبه أبيات حفصة هذه أبياتٌ أنشدها ابن أبي الحصين في تاريخه لسلمى بنت القراطيسي ، من أهل بغداد . وكانت مشهورة بالجمال وهي :

عيونُ مَها الصّريم فـداءُ عينـــي
وأجياد الظبـــاء فـداءُ جيــــدي

أُزيَّــــــن بالعقود ، وإنَّ نحـــري
لأزْيَنُ للعقـــودِ مــن العقــودِ

ولا أشكو من الأوصـــاب ثِقْــلاً
وتشكو قامتـــي ثِقَــل النهـــودِ

وبلغت هذه الأبيات المقتفي أمير المؤمنين فقال : أسألوا هل تصدق صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها ، فقال : اسألوا عن عفافها. فقالوا له : هي أعفُّ الناس . فأرسل إليها مالاً جزيلاً ، وقال : تستعين به على صيانة جمالها . ورونق بهجتها .

---

(١) تضحى : تتعرض للشمس ويؤذيك حرها .

وقال أبو جعفر بن سعيد : أقسم ما رأيت ولا سمعتُ بمثل حفصة. ومن بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمي ، وبرّ قَسَمي أني كنت يوماً في منزلي مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سَمَحَتْ بها غَفَلاتُ الأيام . فلم نشعر إلا بالباب يضرب. فخرجت جارية تنظرُ مَن الضارب . فوجدت امرأةً . فقالت لها : ما تريدين؟ فقالت : ادفعي لسيدك هذه الرقعة . فجاءت برقعة فيها :

زائرٌ قد أتى بجيْدِ الغزال ... مطلع تحت جُنْحِه للهلال

بلحاظٍ من سِحْرِ بابل صيغت ... ورُضابٍ يفوق بنتَ الدوالي(١)

يفضح الوردَ ما حوى منه خدٌّ ... وكذا الثغر فاضحٌ للآلي

ما ترى في دخوله بعد إذنٍ ... أو تراه لعارضٍ في انفصالِ

قال : فعلمت أنها حفصة ، وقمت مبادراً للباب . وقابلتها بما يقابَل به مَنْ يَشْفَع له حُسْنُه . وآدابه . والغرام به . وتفضُّله بالزيارة دون طلب . في وقت الرغبة في الأنس به .

* * *

(١) بنت الدوالي : هي الخمر . ويقال لها أيضاً : ابنة العنب ، وابنة الكرم ، وابنة الدن .

ولاّدة بنت المستكفي بالله

ومن أشهرهن بالأندلس وَلاّدَة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عُبيد الله بن الناصر لدين الله . وكانت واحدة زمانها ، المشار إليها في أوانها . حَسَنَةَ المحاضرة مشكورةَ المذاكرة . كتبت بالذهب على طرازها الأيمن :

أنا ، والله ، أصْلُح للمعالي
وأمشي مِشْيَتي وأتيه تيها

وكتبت على الطراز الأيسر :

وأمْكِنُ عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلتي من يشتهيها

وكانت – مع ذلك – مشهورة بالصيانة والعفاف ؛ وفيها خَلَعَ ابنُ زيدون عِذارَه(١) ، وقال فيها القصائدَ الطنانة والمقطّعات .

وكانت لها جارية سوداء ، بديعة المعنى ؛ فظهر لولاّدة أن ابن زيدون مال إليها ؛ فكتبت إليه :

لو كنتَ تنصف في الهوى ما بيننا
لم تَهْوَ جاريتي ولم تتخيّرِ

وتركتُ غصناً مثمراً بجماله
وجنحتَ للغصن الذي لم يثمرِ

(١) ابن زيدون هو الشاعر الأندلسي المشهور واسمه أحمد بن عبد الله ، توفي سنة ٤٦٣ هـ .

ولقد علمتَ بأنني بـــــدر السما
لكن ولِعْتَ . لشقوتي ، بالمشتري(١)

وكتبت إلى ابن زيدون لما أولع بها بعد طول تمنع :

ترقّبْ إذا جنّ الظلامُ زيـــارتي
فإني رأيتُ الليلَ أكتَـــمَ للسرِّ

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تَلُـــحْ
وبالبدر لم يطـــلع ، وبالنجمِ لم يَسْرِ

ووفَتْ بما وعدت ، ولما أرادت الانصراف ودعته بهذه الأبيات :

وَدَّعَ الـــصبرَ محـــبٌّ وَدَّعـــك
ذائـــعٌ من سره مـــا استودِعكْ

يقرع السنَّ عـــلى أن لم يكـــن
زاد في تلك الخُطـــا إذ شَيّعَكْ

يا أخـــا البـــدر سناءً وسَنَى
حفظ الله زمانـــاً أطْلَعـــك

إن يَطُـــلْ بَعْدَكَ ليلي فلكـــم
بتُّ أشكو قِصَرَ الليـــلِ معـــك

وكتبت إليه :

ألا هل لنا من بعد هـــذا التفـــرق
سبيلٌ فيشكـــو كلُّ صَبّ بمـــالقي(٢)

---

(١) المشتري : أحد الكواكب السيارة .
(٢) الصب : العاشق الهائم .

وقد كنتُ أوقاتَ التزاور في الشتـــا
أبيتُ على جمرٍ من الشوق مُحْـــرِق

فكيف وقد أمسيتُ في حالِ قطعـــةٍ
لقد عَجّل المقدور ما كنتُ أتقـــي

تمر الليالي لا أرى البَيْنَ ينقـــضي
ولا الصبرَ من رِقّ التّشَوّقِ مُعْتِـقي

سقى الله أرضاً قد غدت لك مـــنزلاً
بكلّ سكوبٍ هاطِلِ الوَبْل مُغْـــدِقِ

فأجابها بقوله :

لحى اللهُ يوماً لستُ فيـــه بمُلْتَقٍ
مُحَيّـــاكِ من أجــل النوى والتفرقِ(١)

وكيف يطـــيب العيشُ دونَ مسرةٍ
وأي سرورٍ للكئيـــب المؤرَّقِ

وكتب في أثناء الكلام بعد الشعر : وكنتِ ربما حَثَثْتِني على أن أنبهكِ على ما أجد فيه عليك نقداً ، وإني انتقدت عليك قولكِ :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً .

فإن ذا الرُّمّة(٢) ، قد انْتُقِدَ عليه قوله مع تقديم الدعاء بالسلامة :

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيَّ عـــلى البِلى
ولا زال مُنْهَلاً بِجَرْعائِكِ القَطْـرُ

---

(١) لحاه الله : أهلكه وقبحه .

(٢) ذو الرمة : شاعر مشهور اسمه غيلان بن عقبة توفي سنة ١١٧ هـ .

إذ هو أشبهُ بالدعاء على المحبوب من الدعاء له . وأما المستحسن فقول الآخر :

فسقى ديارك غيرَ مفسدهـــــا
صَوْبُ الـــــربيعِ وديْمَـــةٌ تهمي(١)

وبسببها خاطب ابنَ عبدوس بالرسالة المشهورة التي شرحها غيرُ واحدٍ منَ أدباء المشارقة . كالجمال بن نُباتة(٢) . والصفدي(٣) . وفيها من التلميحات والتنديرات مالا مزَيد عليه .

وقد ذكر ولاّدة ابن بَشْكُوال في (الصلة) فقال : كانت أديبة شاعرة . جزلة القول . حسنة الشعر . وكانت تناضل الشعراء . وتساجل الأدباء . وتفوق البُرَعاء.وعُمِّرت عمراً طويلاً . ولم تتزوج قط . وماتت لليلتين خلَتا من صفر سنة ثمانين ، وقيل أربع وثمانين وأربعمئة . رحمها الله تعالى .

وكان أبوها المستكفي بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر ، وكان خاملاً . ساقطاً . وخرجت هي في نهايةٍ من الأدب والظَّرف . حضورَ شاهد . وحرارةَ أوابد . وحسنَ منظرٍ ومَخْبَر ، وحلاوة موردٍ ومَصْدَر .

---

(١) صوب الربيع : السحاب ذو الصوب ، ومن المطر : الكثير الانسكاب .. والديمة : السحابة الدائمة المطر . وتهمي : تصب معه .
(٢) وهو شارح الرسالة الهزلية التي وجهها ابن زيدون إلى ابن عبدوس .
(٣) هو صلاح الدين خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
وهو شارح الرسالة الجدية التي وجهها ابن زيدون إلى ابن عبدوس .
وكلام المؤلف المقري يشعر بأنها رسالة واحدة شرحها ابن نباتة والصفدي .

وكان مجلسها بقرطبة منتدىً لأحرار المِصْر . وفِناؤها ملعباً لِجياد النظم والنثر . يعشو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتِها(١) ، ويتهالَكُ أفراد الشعراء والكُتّاب على حلاوة عشرتها . وعلى سهولة حجابها . وكثرة مُنتابها ، تخلط ذلك بِعُلُوٍّ نِصاب ، وكرم أنساب . وطهارة أثواب ، على أنها وجدت للقول فيها السبيلَ بقلة مبالاتها . ومجاهرتها بلذاتها .

ولما مرت بالوزير أبي عامر بن عَبْدوس ، وأمام داره بركةٌ تتولد عن كثرة الأمطار . وربما استمدت بشيءٍ مما هنالك من الأقذار . وقد نشر أبو عامر كُمَّيْه . ونظر في عِطْفَيْه ، وحشر أعوانَه فقالت له :

أنت الخصيبُ وهـــــذه مـــصرُ
فتدفقـــــا فكلاكمـــــا بَحرْ

فتركته لا يَحِيرُ حرفاً . ولا يردّ طَرْفاً .

وقال ابن سعيد في (المُغرِب) بعد ذِكْرِه أنها بالغرب كَعُلَيَّةَ بالشرق(٢) . إلا أن هذه تزيد بمزية الحُسْن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادر وخفة الروح فلم تكن تقصِّر عنها . وكان لها صنعةٌ في الغناء . وكان لها مجلسٌ يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير . لِما اقتضاه عصرها من مثل ذلك . وفيها يقول ابن زَيْدون :

---

(١) يعشو : يقصد ليلا .

(٢) هي علية بنت الخليفة المهدي العباسي ، وكانت أديبة شاعرة ، خفيفة الروح .

بِنْتُـــمْ وبِنّـــا فما ابتَلَّتْ جوانحنا
شوقاً إليكـــــم ولا جفَّت مآقينـــا

ومن أخبار وَلاّدة مع ابن زيدون ما قاله الفتح في (القلائد) :
إن ابن زيدون كان يَكْلَف بولاّدة ويهيم . ويستضيء بنور محياها في الليل البَهيم . وكانت من الأدب والظَرْف . وتتميم السمع والطَرْف؛ بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشَّيْبَ إلى أخلاق الشباب ، فلما حلَّ بذلك الغرب ، وانحلَّ عقدُ صبره بيد الكرب ، فر إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية موافيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها بُرْدَه ، ونشر سَوْسَنَه ووَرْدَه . وأترع جداولها ، وأنطق بَلابِلَها فارتاح ارتياح جميل بوادي القُرى ، وراح بين روضٍ يانعٍ وريحٍ طيبة السُّرى ، فتشوَّقَ إلى لقاء ولادة وحَنّ ، وخاف تلك النوائبَ والمِحَن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضِيْقَ أمده إليها وطَلَقِه ، ويُعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ، ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر ، ويعاتبها على إغفال تعهُّدِه . ويصف حُسْنَ محضره بها ومشهده :

إنــي ذكـرتُـــكِ بالــزهـــراء مشتاقـــا
والأُفْـقُ طَـلْـقٌ ووجـه الأرضِ قد راقـا

وللنسـيم اعتـــلالٌ فــي أصــائـلــه
كـأنمـــا رَقَّ لــي فـاعتــلَّ إشفـاقـــا

والـروض عـن مـائـــه الفضيُّ مبتســمٌ
كمـــا حَلَلْـــتَ عـن اللَّبّـــات أطواقـــا

يـومٌ كأيّـامِ لـذّاتٍ لنـا انصرمـت
بتنـا لهـا حـين نـام الـدهـر سُـرّاقـا

نلهـو بمـا يستميـل العـينَ مـن زَهَـرٍ
جـال النـدى فيـه حتّى مـال أعنـاقـا

كـأنَّ أعْيُنَـهُ إذ عـاينـت أرقـي
بكـت لِمـا بـي فجـال الدمـع رقـراقـا

وردٌ تـألّـقَ فـي ضـاحـي منابتـه
فـازداد منـه الضحى فـي العـين إشـراقـا

سِـرٌّ يُنافحـه نَيْلُوْفَـرٌ عَـبِـقٌ
وسْنـانُ نبّـه منـه الصبحُ أحداقـا

كـلٌّ يَهيـجُ لنـا ذكـرى تَشَوُّقِنـا
إليـك لـم يعـد عنهـا الصدر أن ضـاقـا

لـو كـان وفّى المنى فـي جمعنـا بكـم
لكـان مـن أكـرمِ الأيـام أخـلاقـا

لا سكّن اللهُ قلبـاً عَـنَّ ذِكْـرُكُـمُ
فلـم يطـر بجنـاح الشـوق خفّـاقـا

لـو شـاء حملي نسيـمُ الـريحِ حين هفـا
وافـاكُـم بفـتىً أضنـاه مـا لاقـى

يـا علِقِـيَ الأخْطَـرَ الأسـنى الحبيبَ إلى
نفسي إذا مـا اقتنى الأحبـابُ أعلاقـــا

كـان التّجـازي بِمَحضِ الـوُدّ مُـذْ زَمَنٍ
ميدانَ أُنسٍ جرَيْنـا فيـه أطلاقـــا

فـالآن أحْمَـدُ مـاكُنّـا لِعَهْدِكُـمْ
سَلَوْتُـمُ وبَقينـا نحـنُ عُشّـاقـا

وقال الفتح أيضاً : إن ابنَ زيدون لم يزل يروم دُنُوّ ولادة فيتعذر ، ويُباح دمُه دونها ويُهْدَر . لسوء أثره في ملك قرطبة وواليها . وقَبائحَ كان ينسبُها إليه ويواليها . أحنقت جَهْوَر عليه . وسدّدَت أسهمهم إليه . فلما يئس من لُقْياها ، وحُجب عنه مُحَيّاها . كتب إليها يستديم عهدها . ويؤكد وُدَّها . ويعتذر من فراقها بالخَطْب الذي غَشيَه (٢) . والامتحان الذي خشيه ، ويُعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ، ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر . وهي قصيدةٌ ضربت في الإبداع بسهمٍ ، وطلعت في كل خاطر ووهم . ونزعت مَنْزِعاً قصّر عنه حبيب وابنُ الجَهْم (٣) وأولها :

بِنْتُـمْ وبِنّـا فمـا ابتلّـتْ جوانحنـا
شـوقـاً إليكـم . ولا جَفّـتْ مـآقينـا

(١) العلق النفيس .
(٢) الخطب : الشأن .
(٣) حبيب هو الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي .
وابن الجهم هو الشاعر المشهور واسمه علي .

تكاد حين تُناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا

وأخبار وَلاّدة كثيرة ، وفيما ذكرناه كِفاية .

* * *

حَمْدة بنت زياد

ومنهن حَمْدَة . ويقال حَمْدونة بنت زياد المؤدِّب . من وادي آش . وهي خنساءُ المغرب . وشاعرة الأندلس .

ذكرها الملاحي وغيره .

وممن روى عنها أبو القاسم بن البراق .

ومن عجيب شعرها قولها :

ولما أبى الواشونَ إلا فِراقَنا
وما لَهُمُ عندي وعندك من ثأرِ

وشَنُّوا على أسماعنا كلَّ غارةٍ
وقلَّ حُماتي عند ذاك وأنصاري

غَزَوْتهم من مقلتيك وأدمعي
ومن نَفَسي بالسيف والسيلِ والنار

وبعضٌ يزعم أن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرزاق الغَرناطية ، وكونُها لِحَمْدَةَ أشهر . والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

وخرجت حَمْدَةُ مرةً للوادي مع صبية ، فلما نَضَتْ عنها ثيابها وعامَتْ قالت :

أبـاح الـدمـع أسـراري بِـوادي
لـه الحُسْنُ آثـارٌ بَـوادي

فمـن نهـرٍ يطـوف بكـل روضٍ
ومـن روضٍ يَـرِفُّ بكـل وادي

ومـن بـين الظِّبـاء مَهـاةُ أُنْسٍ
سَبَتْ لُبِّي وقـد مَلكتْ فـؤادي

لهـا لحـظٌ تُـرَقِّـدُهُ لأمـرٍ
وذاكَ الأمـرُ يمنعـني رُقـادي

إذا سَـدَلَتْ ذَوائبهَـا عليهـا
رأيـتَ البـدرَ فـي أفـق الســواد

كـأنَّ الصبـحَ مـات لـه شقيـقٌ
فمِـنْ حُـزْنٍ تَسَرْبَـلَ بالحِـدادِ

وقال ابن البراق في سرد هذه الحكاية : أنشدتنا حمدة العَوْفية لنفسها ، وقد خرجتْ متنزهةً بالرملة من نواحي وادي آش ، فرأت ذات وجهٍ وسيم أعجبها فقالت – وبين الروايتين اختلاف – :

أباح الدمع . . . . إلى آخره .

ونسب بعضهم إلى حَمْدَة هذه الأبيات الشهيرة بهذه البلاد المشرقية وهي :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ
سقاه مضاعَفُ الغيثِ العميمِ

حَلَلْنا دَوْحَه فحنا علينا
حُنُوَّ المرضعاتِ على الفَطيمِ

وأرْشَفَنَا على ظمأٍ زلالاً
ألذَّ من المُدامةِ للنديمِ

يصدُّ الشمسَ أنَّى واجَهَتْنا
فيحجبها ويأذن للنسيمِ

يروعُ حَصاه حاليةَ العَذارى
فتلمسُ جانب العِقْدِ النظيمِ

وممن جزم بذلك الرعيني وقال : إن مؤرخي الأندلس نسبوه لحمدة من قَبْل أن يوجَد المَنازي (١) الذي ينسبها له أهل المشرق . وقد رأيت أن أذكر كلامه برُمَّته ونَصُّه : « كانت من ذوي الألباب . وفحول أهل الآداب . حتى إن بعض المنتحلين تعلق بهذه الأهداب . وادعى نظم البيتين – يعني : ولما أبى الواشون . . . . . إلى آخره – لما فيهما من المعاني والألفاظ العِذاب . وما غرَّه في ذلك إلا بُعْدُ دارها .

---

(١) المنازي : هو الشاعر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٣٧ ه .

وخُلُوُّ هذه البلاد المشرقية من أخبارها . وقد تلبّس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غيرَ هذا من أشعارها ؛ وهو قولها :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ . . . إلى آخره

وإن هذه الأبيات نسبها أهلُ البلاد للمَنازي من شعرائهم ، وركبوا التعصب في جادة ادعائهم . وهي أبياتٌ لم يَخْلُبْها غير لسانِها ؛ ولا رَقَمَ بُرْدَيْها . ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا . وهي الأندلس . أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العَدَم إلى الوجود . ويتصف بلفظة الموجود » . انتهى .

وهو أبو جعفر الغرناطي . نزيل حلب

وحكى ابن العديم في (تاريخ حلب) ما نَصُّه : وبلغني أن المنازي عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء المعري ؛ فلما وصل إليه أنشده الأبيات ؛ فجعل المَنازي كلما أنشد المصراعَ الأولَ من كل بيتٍ سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني . الذي هو تمام البيت ؛ كما نَظَمَه . ولما أنشده :

نزلنا دَوْحَه فحنا علينا

قال أبو العلاء :

حُنُوَّ الوالداتِ على الفطيم

فقال المَنازي : إنما قلت : « على اليتيم » فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى

وهذا يدل على أن الرواية عنده « حُنُوَّ الوالدات » وقد تقدم : المرضعات . والله تعالى أعلم .

وقال ابن سعيد: « يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة: «العربيات » لمحافظتهن على المعاني العربية .

ومن أشهرهن : زينب بنت زياد الوادي آشي ، وأختها حَمْدَة.

وحمدة هذه هي القائلة . وقد خرجت إلى نهرٍ منقسم الجداول بين الرياض ، مع نسائها فَسَبَحْنَ في الماء وتَلاعَبْن :

أباح الدمع أسراري بوادي . . . . الأبيات » . انتهى

* * *

نزهون الغرناطية

قال فيها ابن سعيد في (المغرب) : من أهل المئة الخامسة . ذكرها الحجاري في (المسهب) ، ووصفها بخفة الروح ، والانطباع الزائد، والحلاوة ، وحفظ الشعر ، والمعرفة بضرب الأمثال ، مع جمالٍ فائق، وحسنٍ رائق .

وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أَوْلَعَ الناس بمحاضرتها ، ومذاكرتها، ومراسلتها ، فكتب لها مرةً :

يا مَنْ له ألفُ خِلٍّ ... من عاشقٍ وصديقِ

أراكِ خلّيتِ للنا ... سِ منزلاً في الطريقِ

فأجابته :

حَلَلْتَ أبا بكرٍ محلاً مَنَعْتُه
سِواكَ ، وهل غيرُ الحبيبِ له صدى

وإن كان لي كم من حبيبٍ فإنما
يقدّمُ أهلُ الحقّ حُبَّ أبي بكر

قيل : ولو قالت : « من إنْ كان خلاني كثيراً . . . . إلخ» لكان أجود .

ولما قال فيها المخزومي :

على وَجْهِ نَزْهُونٍ من الحُسْنِ مِسْحَةٌ
وتحت الثيابِ العارُ لو كان باديا

قَواصِدُ نزهونٍ تَوارِكُ غيرها
ومَنْ قَصَدَ البحر استقلَّ السواقيا

قالت :

إن كان ما قلتَ حقاً
من بعض عهدٍ كريمٍ

فصار ذكري ذميماً
يُعزى إلى كل لُومٍ

وصِرْتَ أقبحَ شيءٍ
في صورة المخزومي

وقال لها بعض الثقلاء : ما على مَنْ أكل معك خمسمئة سوط فقالت :

وذي شِقْوَةٍ لما رآني رأى له
تَمَنِّيْه أن يَصْلى معي جاحِمَ الضربِ

فقلت له : كُلْها هنيئاً فإنما
خُلِقْتُ إلى لُبْسِ المَطارِفِ والشُربِ

* * *

حكي أنها كانت تقرأ على أبي بكر المخزومي فدخل عليهما أبو بكر الكتُنْديّ فقال يخاطب المخزومي :

لو كنتَ تبصر مَنْ تجالسه

فأُفحم ، وأطال الفكر فما وجد شيئاً ، فقالت نزهون :

.......لَغَدَوْتَ أخْرَسَ من خلاخله

البدر يطلع من أزِرّتِه
والغصنُ يمرح في غلائله

وكانت ناجبة ، ومن شعرها قولها :

لله درّ الليالي ما أحَيْسَنَها
وما أحَيْسِنَ منها ليلةَ الأحد

لو كنتَ حاضرَنا فيها وقد غفلت
عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرتَ شمسَ الضحى في ساعِدَيْ قمرٍ
بل ريْمَ خازمةٍ في ساعديْ أسَدِ

* * *

اعتماد الرُّمَيْكيّة

ومن المشهورات بالأندلس (اعتماد) جارية المعتمد بن عبّاد . وأمُّ أولاده ، وتشتهر بالرُّمَيْكِيّة .

وفي (المسهب) و (المُغْرِب) أنه ركب المعتمد في النهر ومعه ابن عمّار وزيرُه ، وقد زردت الريح بالنهر : فقال ابنُ عبّاد لابن عمّار : أجز :

صنع الريحُ من الماء زَرَدْ

فأطال ابن عمّار الفكرة . فقالت امرأةٌ من الغسالات :

أي درعٍ لقتالٍ لو جمد

فتعجب ابن عبّاد من حُسْن ما أتت به . مع عجز ابن عمّار . ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبته . فسألها : أذاتُ زوج هي ؟ فقالت : لا . فتزوجها وولدت له أولادَه الملوكَ النجباء . رحمهم الله تعالى .

وحكى البعض ، منهم صاحب (البدائه) (١) بسَنَدِهِ إلى بعض أدباء الأندلس . وسَمّاه ، ولم يحضرني الآن ، أنه هو الذي قال للمعتمد :

أيُّ دِرْعٍ لِقتالٍ لو جَمَدْ

(١) البدائه كتاب فيما قاله الشعراء بديهة .
وصاحبه هو ابن ظافر الأزدي .

قال : فاستحسنه المعتمد . وكنت رابعاً في الإنشاد فجعلني ثانياً . وأجازني بجائزة سنية .

ولما خُلع المعتمد وسُجن بأغمات قالت له : يا سيدي ، لقد هُنّا هنا . فقال :

قـالـت : لقـد هُنّـا هنـا
مـولاي أيـن جـاهُنـا

قـلـت لـهـا : إلهُنـا
صَيَّـرنـا إلـى هنـا

وحُكي أنها قالت له وقد مرض : يا سيدي . مالنا قدرة على مَرْضاتِكَ في مَرْضاتِك (١) .

ولما قال الوزير ابن عَمّار قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرميكية أغْرَتْ المعتمد به حتى قتله . وضربه بالطبرزين ففلق رأسه . وترك الطبرزين في رأسه . فقالت الرميكية : قد بقي ابن عمار هدهدا . والقصيدة أولها :

ألا حَـيِّ بـالغـرب حيـاً حـلالا
أنـاخـوا جِمـالاً وحـازوا جـلالا

وعـرِّج بيـومـيـن أم القـرى
ونَـمْ فعسـى أن تـراهـا خيـالا

(١) المرضاة الأولى معناها رضاك ، والثانية جمع (مرض) .

ويومين : قرية بإشبيلية كانت منها أولية بني عبّاد .

وفي هذه القصيدة يقول معرّضاً بالرميكية :

تخيّرتَها من بنات الهجان
رُمَيْكيّةً ما تُساوي عقالا

فجاءت بكل قصيرِ العذار
لئيمِ النّجارين عَمّاً وخالا

قصار القُدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

أتذكر أيامنا بالصِّبا
وأنت إذا لُحْتَ كنتَ الهلالا

أعانق منك القضيب الرطيب
وأرشف من فيك ماءً زلالا

وأقنع منك بدون الحرام
فتُقْسِم جهدك أن لا حلالا

سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً
وأكشف سِتْرَكَ حالاً فحالا

ومنها :

فيا عامرَ الخيلِ يا زيدها
منعتَ القِرى وأبحت العيالا

وسبب قول ابن عمّار هذه القصيدة أن المعتمد ندّر به ، وذيّل على قصيدته الرائية المذكورة في (القلائد) بعد قوله :

كيف التفلت بالخديعة من يدي
رجل الحقيقة من بني عمّار

وسخر به في أبيات مشهورة .

* * *

حسّانة التميمية

ومنهن حسّانة التميمية بنت أبي الحسين الشاعر .

تأدبت وتعلمت الشعر . فلما مات أبوها كتبت إلى الحكَم ، وهي إذ ذاك بِكْرٌ لم تتزوج :

منيٌ إليك أبا العاصي موجعة
أبا الحسين سقَتْه الواكفَ الدِّيَمُ

قد كنتُ أرتع في نعماه عاكفةً
فاليوم آوي إلى نعماك يا حكَمُ

أنت الإمام الذي انقاد الأنام له
وملّكته مقاليد النهى الأُمم

لا شيء أخشى إذا ما كنتَ لي كنَفاً
آوي إليه ولا يعْرونيَ العدمُ

لا زلتَ بالعزة القعساء مــــرتديــاً
حتى تذلَّ إليـــك العُرْبُ والعجـــمُ

فلما وقف الحكَمُ على شعرها استحسنه ، وأمر لها بإجراءِ مُرتَّب ؛ وكتب إلى عامله على البيرة فجهزها بجهازٍ حسنٍ .

ويحكى أنها وَفَدَتْ على ابنه عبدِ الرحمن بِشَكِيَّةٍ من عامله جابر بن لبيد والي البيرة ، وكان الحكَم قد وقّع لها بخط يده تحرير أملاكها ، وحملها في ذلك على البر والإكرام . فتوسلت إلى جابر بخطِّ الحكم ، فلم يُفِدْها ، فدخلت إلى الإمام عبد الرحمن . فأقامت بفِنائه ، وتلطفتْ مع بعض نسائه حتى أوصلتها إليه ، وهو في حال طربٍ وسرور ؛ فانتسبت إليه ، فعرفها ، وعرف أباها .

ثم أنشدته :

إلى ذي النــــدى والمجـــد سارت ركائبي
على شَحَطٍ تَصْلَى بنـــار الهَواجِـــرِ

لِيَجْبُرَ صَدْعي إنه خير جـــابرٍ
ويمنعني من ذي الظُلامــــة جابـــرِ

فــإني وأيتـــامي بقبضة كفـه
كذي ريشٍ اضحى في مخالـب كاسرِ

جديرٌ لمثــلي أن يقال مَرُوْعَـــةٌ
لموت أبي العاصِي الذي كان نـاصري

سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى
عليَّ زمانٌ باطشٌ بطش قادر

أيمحو الذي خطّته يُمناه جابرٌ
لقد سامَ بالأملاك إحدى الكبائر

ولما فرغت رفعت إليه خطَّ والده . وحكت جميع أمرها . فرقَّ لها . وأخذ خطَّ أبيه فقبّله ووضعه على عينيه . وقال : تعدّى ابنُ لبيد طَوْرَه ، حتى رامَ نقضَ رأي الحكم ، وحسبُنا أن نسلك سبيلَه بعده . ونحفظ بعد موته عهده . انصرفي يا حسّانة فقد عزلتُه لكِ ، ووقّع لها بمثل توقيع أبيه الحكَم . فقبّلت يده ، وأمر لها بجائزة ، فانصرفت ، وبعثت إليه بقصيدةٍ منها :

ابنَ الهشاميَّيْنِ خيرَ الناسِ مأثرةً
وخيرَ مُنْتَجَعٍ يوماً لِرُوّادِ

إن هزَّ يوم الوغى أثناء صَعْدَته
روّى أنابيبَها من صَرْفِ فِرْصادِ(١)

قل للإمام أيا خيرَ الورى نسباً
مقابلاً بين آباءٍ وأجدادِ

جوّدْتَ طبعي ولم ترضَ الظُّلامةَ لي
فهاك فضلُ ثناءٍ رائحٍ غادِ

---

(١) الصعدة : قناة الرمح . والفرصاد : الصبغ الأحمر ، ويريد الدم .

فإن أقمتُ ففي نُعماكَ عـــــاطفةٌ
وإن رحلتُ فقـــد زودتنـــي زادي

* * *

حَفْصَةَ بنتُ حَمْدون

ومنهن حفصة بنت حَمْدون ، من وادي الحجارة .

ذكرها ابن سعيد في (المغرب) وقال : إنها من أهل المئة الرابعة ، ومن شعرها :

رأى ابْن جميل أن يُرى الدهرَ مُجْمِلاً
فكل الورى قد عَمّهـــم سَيْبُ نِعْمته

له خُلُقٌ كالخمر بعـــد امتزاجهـــا
وحُسْنٌ فمـــا أحلاه من حين خِلْقَته

بوجهٍ كمثـــل الشمس يدعو بِبِشْرِه
عيـــوناً ويُعْشيها بـــإفراط هيبته

ولها أيضاً :

لي حبيبٌ لا ينثنـــي لعتـــابي
وإذا مـــا تـــركته زاد تيهـــا

قال لي : هـــل رأيتِ لي من شبيهٍ
قلت أيضاً : وهـــل ترى لي شبيها

ولها تذمُّ عَبيدها :

يـــارَبِّ إني مـــن عبيـــدي على
جَمْـــر الغضا . مـــا فيهمُ نجيبُ

إما جَهـــولُ أبلـــهٌ مُتْعَـــبٌ
أو فَطِنٌ من كيـــده لا يجيـــبُ

وقال ابن الأبّار : إنها كانت أديبة عالمةً ، شاعرة . وذكرها ابن فرج صاحب (الحدائق) وأنشد لها أشعاراً منها قولها :

يا وَحْشَتي لأحبتـــي يا وحشة متمـــادية

يا ليلـــة ودعتهـــم يا ليلـــةً هي ماهيـــه

* * *

مُهْجة القرطبية

ومنهن مهجة القرطبية . صاحبة وَلاّدة . رحمهما الله تعالى .

وكانت من أجمل نساء زمانها . وعَلِقَتْ بها وَلاّدة . ولازمت تأديبها . وكانت من أخف الناس روحاً . ووقع بينها وبين ولاّدة ما اقتضى أن قالت :

ولادة قـــــــد صرت ولادة
من غير بعـــــــلٍ فُضح الكـــاتمُ

حكتْ لنـــــــا مـــريمَ لكنـــه
نخلـــــة هـــذي . . . قـــائم

قال بعض الأكابر : لو سمع ابن الرومي هذا لأقرّ لها بالتقدم .

ومن شعرها :

لئن قد حمى عن ثغرها كـــــلّ حائم
فما زال يحمى عن مطالبـــــه الـــثغرُ

فـــــذلك تحميــــه القواضبُ والقنا
وهذا حمـــاه من لـــواحظهـــا السحرُ

وأهدى إليها من كان يهيم بها خَوْخاً فكتبت إليه :

يا مُتْحِفـــاً بالخوخ أحبـــابَـــهُ
أهـــلاً بـــه مـــن مُثْلج للصدور

حكـــى ثُـــديَّ الغيدِ تَفليكُـــهُ
لكنه أخـــزى رؤوس . . . . .

* * *

عائشة القرطبية

ومنهنَّ عائشةُ القُرْطُبِيَّة .

قال ابنُ حيَّان في (المقتبس) : لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس مَنْ يَعْدِلُها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحةً . تمدح ملوك الأندلس . وتخاطبهم بما يَعْرِضُ لها من حاجة .

وكانت حسنة الخط ، تكتب المصاحف ، وماتت عذراء لم تُنْكَح ، سنة أربعمِئةٍ .

وقال ابن سعيد في (المغرب) : إنها من عجائب زمانها ، وغرائب أوانها ، وأبو عبد الله الطيب عَمُّها . ولو قيل : إنها أشعر منه لجاز .

ودخلت على المظفر بن المنصور بن أبي عامر ، وبين يديه ولده فارتجلت :

أراك اللهُ فيه ما تريدُ
ولا بَرِحَتْ معاليه تزيدُ

فقد دلت مَخايِلُه على ما
تؤمِّلُه وطالعه السعيدُ

تَشَوَّقَتِ الجياد له وهزَّ الـ...
ـحُسامُ هوى وأشرقت البنودُ

وكيف يخيب شبلٌ قد نَمَتْهُ
إلى العَلْيا ضراغمةٌ أُسُوْدُ

فسوف تـــراه بـــدراً في سماءٍ
من العَلْيـــا كواكبُـــه الجنـــودُ

فأنتـــم آل عـــامر خيرُ آلٍ
زكا الأبنـــاءُ منكم والجـــدودُ

وَلِيدُكُـــمْ لـــدى رأيٍ كشيخٍ
وشيخكُمُ لـــدى حـــربٍ وليدُ

وخطبها بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه :

أنا لَبْوَةٌ لكننـــي لا أرتضي
نفسي مناخـــاً طولَ دهـــري من أحدْ

ولو انني أختار ذلـــك لم أُجـــب
كلبـــاً وكم غَلّقْـــتُ سمعي عن أسدْ

* * *

مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري

ومنهنَّ مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري .

سكنت إشبيلية ، وأصلها – والله أعلم – من شِلْب .

وذكرها ابنُ دحيَة في (المُطْرِب) وقال : إنها أديبة ، شاعرة مشهورة .

وكانت تعلّم النساء الأدب ، وتحتشم ، لدينها وفضلها ، وعُمّرتْ عمراً طويلاً . سكنت إشبيلية ، واشتهرت بها بعد الأربعمئة .

وذكرها الحميدي ، وأنشد لها جوابها لما بعث المهدي إليها بدنانير ، وكتب إليها :

مالي بشكر الذي أوليتِ مِـــنْ قِبَـلِ
لو أنني حُزْتُ نُطْقَ اللسن في الحُلَلِ

يا فَذَّةَ الظَرْفِ في هــذا الزمان ويا
وحيدةَ العصرِ في الإخلاص في العمــلِ

أشبهتِ مريمــاً العذراءَ في ورعٍ
وفُقْتِ خَنْساءَ في الأشعــار والمثــلِ

ونَصُّ الجوابِ منها :

مَنْ ذا يُجاريك في قــولٍ وفي عمــل
وقد بَدَرْتَ إلى فضــلٍ ولم تُسَلِ

ما لي بشكر الذي نظّمــت في عنقــي
من اللآلي وما أَوْلَيْتَ مــن قِبلِ

حَلّيْتَنِي بِحُلىً أصبحتُ زاهيــةً
بها على كل أنثى من حــلى عَطِـلِ

لله أخلاقُكَ الغُــرُّ التي سُقِيَــتْ
ماءَ الفراتِ فَرَقّتْ رِقّــةَ الغــزلِ

أشبهتَ مروانَ مَنْ غارت بدائعُه
وأنجدَتْ وغدت من أحسنِ المثلِ

من كان والده العَضْبَ المهنّدَ لم
يَلِد من النسل غيرَ البيضِ والأَسَلِ

ومن شعرها ، وقد كَبِرت :

وما يرتجى من بنت سبعين حِجّةً
وسبعٍ كنسج العنكبوت المهلهلِ

تَدِبُّ دبيبَ الطفل تسعى إلى العصا
وتمشي بها مشي الأسير المكبّلِ

* * *

بعضُ ما قيل في مَغَاني الأندلُسِ من الشِّعر

مما قيل في الأندلس بعامة

قال ابن سفر المَرِينيّ :

في أرضِ أنْدَلُسٍ تَلْتَذُّ نَعْمَـــــاءُ
ولا يُفَـــارِقُ فيها القلبَ سَرّاءُ

وليس في غيرها بالعَيْشِ مُنْتَفَـــــعٌ
ولا تقومُ بحـــقٍّ الأُنْسِ صَهْباءُ(١)

وأين يُعْدَلُ عن أرضٍ يَحُضُّ بهـــا
على الشهـــادة أزواجٌ وأبنـــاءُ

وأين يُعْدَلُ عن أرضٍ تَحُـــثُّ بهـا
على المُدامةِ أمواهٌ وأفيـــــاءُ(٢)

وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارَ رُؤْيَتُهـــــا
وكلُّ أرضٍ بها في الوَشْي صَنْعـــاءُ(٣)

---

(١) منتفع : مصدر بمعنى الانتفاع . والصهباء : الخمر .
(٢) أمواه : جمع ماء ، والأفياء : جمع فيء ، وهو ، هنا : الظل .
(٣) صنعاء : بلدة باليمن اشتهرت بصنع الحرير .

أنهارُها فضةٌ . والمِسْكُ تربتها
والخزُّ روْضتُها . والدُّرُّ حصْباء(١)

وللهواء بها لُطْفٌ يرِقُّ به
منْ لا يرِقُّ . وتبدو منه أهواءُ

ليس النسيمُ الذي يهفو بها سحَراً
ولا انتشار لآلي الطّلِّ أنداء

وإنما أرَجُ النّدِّ استثارَ بها
في ماء وردٍ فطابت منه أرجاءُ

وأين يبلغ منها ما أُصَنِّفُه
وكيف يحوي الذي حازَتْه إحصاءُ

قد مُيِّزَتْ من جهات الأرض ثم بدت
فريدةً . وتولى ميْزَها الماءُ

دارت عليها نطاقاً أبْحُرٌ خفقت
وجداً بها إذ تبدَّتْ وهْي حسناء

لذاك يبْسمُ فيها الزهرُ من طربٍ
والطير يشدو ، وللأغصان إصغاءُ

---

(١) الخز : نوع مع الحرير ، أو الحرير مع الصوف . والحصباء : الحصى .

فيها خَلَعْتُ عِذاري ما بها عِوَضٌ
فهي الرياضُ ، وكلُّ الأرضِ صحـــراءُ

* * *

وقال ابن خفاجة :

إن للجنـــة بـــالأنـــــدلسِ
مُجْتَلى حُسْنٍ وريّـــــــا نَفَسِ

فسَنا صُبْحَتِهـــــا من شَنَبٍ
ودُجــــى ليلتهـــا من لَعَسٍ(١)

وإذا ما هَبّتِ الـــريحُ صَبـــاً
صِحْتُ : واشَوْقي إلى الأنــــدلسِ

* * *

وقال ابنُ زَيْدون :

خَليـــليَّ لا فِطْـــرٌ يَسُـــرُّ ولا أضحـــى
فمـــا حـــالُ من أمْسى مَشوقـــاً كمـــا أضحَى

(١) الصبحة من اللون : سواد إلى الحمرة ، والشنب : رقة وعذوبة في الفم أو الأسنان ، واللعس : سواد مستحسن في اللثة والشفة ، أو سواد في حمرة .

لئِنْ شاقَنِي شرقُ العُقاب فلم أزلْ
أخصُّ بمحوضِ الهَوى ذلك السَّفحا

وما انفكَّ جوفيٌّ الرُّصافة مُشْعِري
دواعيَ بَثٍّ يُعْقِبُ الأسَفَ البرحا

ويهتاج قصرُ الفارسيِّ صبابةً
لقلبي لا يألو زناد الأسى قَدْحا

وليسَ ذميماً عهدُ مَجْلسِ ناصحٍ
فأقبلَ في فَرْطِ الولُوع به نُصحا

كأنّيَ لم أشْهَد لدى عينِ شَهْدَةٍ
نزال عتابٍ كان آخرُه الفتحا

وقائع جَانيها التجنّي فإن مشى
سفيرُ خضوعٍ بيننا أكَّد الصُلحا

وأيامَ وَصْلٍ بالعقيق اقتضيتُه
فإن لم يكن ميعادُه العيد فالفصحا

وآصالِ لهوٍ في مُسَنّاةِ مالكٍ
معاطاة نَدمانٍ إذا شئتَ أو سَبْحا

لدى راكدٍ تُصْبيكَ من صفحاته
قواريرُ خُضْرٌ خِلْتَها مُرِّدتْ صَرْحا (١)

معاهد لَذَّاتٍ وأوطانُ صَبْوَةٍ
أَجَلْتُ المُعَلّى في الأماني بها قِدْحا

ألا هل إلى الزهراءِ أَوْبَةُ نازحٍ
تَقَضَّى تَنائيها مدامعه نزحا

مقاصيرُ مُلْكٍ أشرقت جنباتُها
فَخِلْنا العَشايا الجَونَ أثناءَها صُبْحا

يُمَثِّلُ قُرْطَيْها ليَ الوهمُ جَهْرَةً
فَقُبَّتَها فالكوكبَ الرَّحْبَ فالسطحا

محلٌ ارتياحٍ يُذْكِرُ الخُلْدَ طِيبُهُ
إذا عَزَّ أن يَصْدى الفتى فيه أو يَضحى (٢)

هناك الجِمامُ الزُّرقُ تَنْدى حفافُها
ظلالٌ عَهِدتُ الدهرَ فيها فتىً سَمْحا (٣)

تَعَوَّضْتُ من شَدْوِ القِيانِ خلالَها
صدى فَلَواتٍ قد أطار الكرى صُبْحا

(١) إشارة إلى قصة بلقيس ونبي الله سليمان عليه السلام .
(٢) يصدى : يعطش ، يضحى : يتعرض لحر الشمس .
(٣) الجمام : جمع جمة ، وهي مكان اجتماع الماء .

ومن حَمَّلَنِيَ الكأس المفدّى مُديرُها
تَقَحُّمَ أهوالٍ حَمَلْتُ لها الرُّمحا

أجَلْ إن ليلي فوق شاطىء بَيْطَةٍ
لأقصرُ من ليلي بآنةَ فالبَطْحا

* * *

وقال ذُو الرياستين :

وروضٍ كَسَاه الطّلُّ وَشْياً مُجَدَّدا
فأضحى مقيماً للنفوس ومُقْعِدا

إذا صافَحَتْه الريحُ خِلْتَ غصونَه
رواقِصَ في خُضْرٍ من القُضْبِ مُيَّدا

إذا ما انسكابُ الماء عايَنْتَ نَحلْتَه
وقد كسرته راحةُ الريح مِبْرَدا

وإن سكنتْ عنه حَسِبْتَ صفاءَه
حُساماً صقيلاً صافيَ المتن جُرِّدا

وغنت به وُرق الحمائم بيننا
غناءً ينسِّيكَ الغريضَ ومَعْبَدا

فلا تَجْفُونَّ الدهرَ مادام مسعدا
ومُدَّ إلى ما قد حباك به يدا

وخذها مُداماً من غزالٍ كأنه
إذا ما سقى بدر تحمّلَ فرْقدا

* * *

وقال ابن خفَاجة :

يا أهل أندلسٍ لله دَرُّكُمْ
ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ

ما جَنّةُ الخُلْدِ إلا في دِيارِكُمُ
ولو تَخيّرتُ هذا كنتُ أختارُ

لا تحسبوا في غدٍ أن تدخلوا سَقَراً
فليس تُدْخَلُ بعد الجنة النارُ

* * *

وقال :

وكِمامةٍ حَدَرَ الصباحُ قِناعَها
عن صفحةٍ تندى من الأزهارِ

فـي أبْطُـحٍ رَضَعَتْ ثُغـورُ أقَـاحِـيـه
أخـلافَ كـلّ غمـامـةٍ مـدرارِ

نَـشَرَتْ بِحجْـرِ الأرضِ فيـه يـدُ الصَّبا
دُرَرَ النـدى ودراهـمَ النـوّار

وقـد ارتـدى غُصْـنُ النقـا وتقلـدتْ
حَـلْيَ الحَبـاب سـوالـفُ الأنهـارِ

فَحَلَلْتُ حيـثُ المـاءُ صفحـةُ ضاحكٍ
جـذلٍ وحيـث الشطُّ بَـدْءُ عـذارِ

والـريـحُ تَنْفُـضُ بُـكْـرَةً لِمـمَ الرُّبـا
والطّـلُّ يَنْضَـحُ أوْجُـهَ الأشـجـارِ

متقسِّـم الألحـاظ بـين محـاسـنٍ
مـن رِدْفِ رابيـةٍ وخَصْـر قـرارِ

وأراكـةٍ سَجَـعَ الهـديـلُ بفرعهـا
والصبـحُ يُسْفِـرُ عـن جبـين نهـارِ

هـزّتْ لـه أعطـافَهـا ولـرُبّمـا
خلعـتْ عليـه مُـلاءَةَ الأنـوار

* * *

وقال :

سَقْياً ليومٍ قد أنختُ بِسَرْحَةٍ
رَيّا تُلاعبها الرياحُ فتلعبُ

سكرى يغنيها الحَمامُ فتنثني
طرباً ويسقيها الغمامُ فتشربُ

يلهو فترفع للشبيبة رايةٌ
فيه ويطلع للبَهارةِ كوكبُ

والروضُ وجهٌ أزهر والظلُّ فر
عٌ أسود ، والماءُ ثغرٌ أشْنَبُ

في حيث أطربَنا الحَمامُ عشيةً
فشدا يُغنينا الحَمامُ المطربُ

واهتز عِطْفُ الغصنِ من طربٍ بنا
وافترَّ عن ثغر الهلال المَغْرِبُ

فكأنه والحسنُ مقترنٌ به
طَوقٌ على بُرْدِ الغمامة مُذْهَبُ

* * *

وقال بعضُ الأندلسيين يصف حديقة :

وحديقة مخضرة أبوابُها
في قُضْبها للطير كل مُغَرِّدِ

نادمتُ فيها فتيةً صفحاتُهم
مثلُ البدور تنير بين الأَسْعُدِ

والجدولُ الفضي يضحك ماؤه
فكأنه في العين صَفْحُ مُهَنَّدِ

وإذا تجعّدَ بالنسيم حَسِبْتَهُ
كالعِقْدِ بين مُجَمَّعٍ ومُبَدَّدِ

وتدحرجت للناظرين كأنها
دُرٌّ نَثيرٌ في بِساطِ زَبَرْجَدِ

* * *

وقالَ عبدُ الجليل بن وَهْبُون يصِفُ الأُسْطولَ :

يا حُسْنَها يوماً شهدتُ زفافها
بنت الفضاء إلى الخليج الأزرقِ

وَرْقاءُ كانت أيكةً فتصوَّرَتْ
لك كيف شئتَ من الحَمام الأَوْرَقِ

حيث الغُراب يَجرُّ شَمْلَةَ عُجْبِهِ
وكأنه من غِرَّةٍ لم يَنْعَقِ (١)

من كل لابسة الشباب مُلاءةً
حسب اقتدار الصانعِ المتأنِّقِ

شَهِدَتْ لها الأعيان أن شَواهِناً
أسماؤها فتصحفت في المنطَقِ (٢)

من كل ناشرةٍ قوادمَ أَجْنُحٍ
وعلى معاطفها وهادة سَوْذَقِ (٣)

زأرت زئير الأُسْدِ وهي صوامتٌ
وزَحَفْنَ زَحْفَ مَواكبٍ في مأزقِ

ومَجاذِفٍ تحكي أَرَاقِمَ رَبْوةٍ
نزلت لتكرعَ من غديرٍ مُتْأَقِ

* * *

وقال آخر :

يا حسنَ أندلسٍ وما جُمعتْ لنا
فيها من الأوطار والأوطانِ

(١) الشملة : كساء دون القطيفة ؛ ونعيق الغراب : صوته .
(٢) شواهن : جمع شاهين ، وهو الطائر المعروف .
(٣) السوذق : الصقر ، أو الشاهين .

تلك الجزيرةُ لستُ أنسى حُسْنَها
بتعاقُبِ الأحيانِ والأزمانِ

نسج الربيعُ نباتَها من سندسٍ
مَوْشيّةٍ ببدائعِ الألوانِ

وغدا النسيمُ بها عليلاً هائماً
بربوعها وتلاطم البحران

يا حُسْنَها والطّلُّ ينثر فوقها
درراً خلال الوردِ والريحانِ

وسواعدُ الأنهارِ قد مَدَّت إلى
نُدَمائها بشقائقِ النُعمانِ

وتجاوبتْ فيها شَوادي طيرها
والتف الأغصانُ بالأغصانِ

ما زُرْتُها إلا وحيّاني بها
حَدَقُ البَهارِ وأَنْمُلُ السُوسانِ(١)

مِنْ بعدِها ما أعْجَبَتْني بلدةٌ
مع ما حللتُ به من البلدانِ

* * *

(١) البهار : العرار : أو النرجس البري ، والسوسان : السوسن وهو نبت يشبه أذناب الطواويس في كثرة ألوانه .

وقال آخر :

حَبَّذا أندلسٌ من بلدِ
لم تَزَلْ تُنتجُ لي كلَّ سرورْ

طائرٌ شادٍ . وظلٌّ وارفٌ
ومياهٌ سائحاتٌ وقصورْ (١)

* * *

قال ابنُ الأبّار :

لِلّهِ نَهْرٌ كالحَبَابِ
تَرْقيشُه سامي الحُبابِ

يصف السماء صفاؤه
فحصاه ليس بذي احتجابِ

وكأنما هو رقّةٌ
من خالص الذهب المُذابِ

غارت على شطّيْه أبـ
ـكار المنى عَصْرَ الشبابِ

والظل يبدو فوقه
كالخال في خد الكعابِ

(١) شاد : هو الطائر الشادي : من شدا يشدو : إذا غنى . والظل الوارف : المتسع ، الطويل ، الممتد .

لا بل أدار عليه خو
ف الشمس مه كالنِّقابِ

مثل المجرَّة جرَّ في
ها ذيلَه جَونَ السحابِ

* * *

وقال :

شتى محاسنُه فمن زهرٍ على
نهرٍ تسلسل كالحُباب تَسَلْسلا

غربت به شمس الظهيرة لا تني
إحراق صفحته لهيباً مُشْعَلا

حتى كساه اللوح من أفنانه
بُرْداً بِمُزْنٍ في الأصيل مسلسلا

وكأنما لَمْعُ الظِّلال بمَتْنِه
قِطَعُ الدماء جَمَدْنَ حين تحللا

* * *

وقال ابو عمر يزيد بن عبد الله بن ابي خالد اللخمي الإشبيلي :

ويا للْجواري المنشآت وحُسْنها
طوائر بين الماء والجو عُوَّما

إذا نَشَرَتْ في الجو أجنحةً لها
رأيت بها روضاً ونَوْراً مُكَمَّما

وإن لم تُهِجْهُ الريحُ جاء مصافحاً
فمدت له كفاً خَضيباً ومعصما

مَجادفُ كالحيات مدت رؤوسَها
على وَجَلٍ في الماء كي ترويَ الظما

كما أسرعتْ عدّاً أناملُ حاسبٍ
بقبضٍ وبسطٍ يسبق العين والفما

هي الهُدْبُ في أجفان أكحلَ أوْطَفٍ
فهل صنعت من عَنْدَمٍ أو بكت دَما

* * *

ماقيل في قرطبة

قال بعضهم :

دَعْ عنك حضرةَ بَغداد وبَهْجتَها
ولا تُعَظِّمْ بلادَ الفرس والصين

فما على الأرض قطرٌ مثلَ قرطبة
وما مشى فوقها مثلُ ابنِ حَمْدين

* * *

وقال احمد بن محمد بن فرج في رمان قرطبة :

ولابسة صدفاً أحمرا
أتتك وقد مُلئت جوهرا

كأنك فاتحُ حُقٍّ لطيفٍ
تضمّنَ مرجانَه الأحمرا

حُبوباً كمثل لِثاتِ الحبيب
رضاباً إذا شئت أو منظرا

وللسَفْرِ تُعْـــــزَى وما سافـــــرت
فتشكو النـــــوى أو تقاسيْ السُّرى

بلى فارقت أيْكَهـــــنـــــا ناعمـــاً
رطيبـــــاً وأغصانهــــــا نُضَّرا

وجـــــاءتك معتاضةً إذ أتتـــــك
بأكرمَ مِـــــنْ عُـــوْدِها عنصرا

بعـــــودٍ ترى فيـــــه ماءَ النـــــدى
ويورق مـــــن قبـــــل أن يثمـــــرا

هـــــدية مـــــن لو غـــــدت نفسه
هديتـــــه ظنّـــــه قَـــصَّرا

* * *

وفيها يقول بعض علماء الأندلس :

بأربعٍ فاقت الأمصـــــارَ قـــــرطبةٌ
منهن قنطرة الـــــوادي وجـــــامعُها

هاتان ثِنتـــــان والزهـــــراء ثالثةٌ
والعلم أعظـــــم شيءٍ وهـــــو رابعها

* * *

وقال أبو جَعْفَر الكاتبُ القرطبي الرّبَضي ، في فوّارة رُخام كلّفَه وَصْفَها والي قرطبة .

ما شَغَلَ الطّرْفَ مثلُ فائرةٍ
تَمجُّ صِرْفَ الحياة من فيها

اشرَبْ بها والحَبابُ في جَذَلٍ
يُظْهِرُهُ حُسْنُها ويُخفيها

تكادُ من رقةٍ تَضَمّنَها
تخطبُها العَيْنُ إذ تُوافيها

كأنّها دُرّةٌ مُنَعّمَةٌ
زَهْرَاءُ قد ذابَ نِصفُها فيها

* * *

وقال ابن سعيد : وأخبرني والدي قال : أخبرني الوَشّاح المبرز المحسن ، أبو الحسن المَرِيني قال : بينما أنا أشرب مع ندماني بإزاء الرّصافة(١) ، إذا بإنسانٍ رَثِّ الهيئة ، مجفوِّ الطلعة ، قد جاء فجلس معنا، فقلنا له : ما هذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة؟ فقال : لا تعجلوا عليَّ ، ثم فكر قليلاً ورفع رأسه فأنشدنا :

(١) قصر الرصافة : قصر بقرطبة بناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيامه لتنزهه وسكناه .

اسقنيها إزاء قصر الرصافه
واعتبرْ في مآل أمرِ الخلافهْ

وانظرِ الأفقَ كيفَ بُدِّلَ أرْضاً
كي يطيلَ اللبيبُ فيه اعترافَه

ويرَى أنَّ كل ما هو فيه
من نعيمٍ وعزٍّ أمرٍ سَخافه

كلُّ شيءٍ رأيتُه غيرَ شيءٍ
ما خلا لذة الهوى والسُّلافه

* * *

وأنشد ناهض بن إدريس شاعر (وادي آش) في عصره لنفسه في قصر أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، وهو على متن النهر الأعظم .

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به
على الماء من تحت الحجارة أقواسُ

هو المصنعُ الأعلى الذي أنِفَ الثرى
ورَفّعه عن لثمه المجدُ والباسْ

فأركبُ مَتْنَ النهر عزّاً ورفعةً
وفي موضع الأقْدامِ لا يوجد الراسْ

فلا زال معمورَ الجنـــابِ وبابُـــــه
يغصُ وحلّتْ أفْقَهُ الــــدهرَ أعــراسُ

* * *

وأنشد ابنُ عمّار في قصر يسمّى الدّمشق بقُرْطُبة :

كل قصرٍ بعــــد الدمشق يُــذمّ
فيه طابَ الجنـــى ولَـــذَّ المَشَــمُ

منظرٌ رائـــــقٌ . وَمـــاءٌ نميــــرٌ
وثرىً عــاطرٌ . وقصرٌ أشَـــمُ

بتُ فيـــه والليـــل والفجر عنـــدي
عنبرٌ أشهبٌ ومِسْكٌ أحـــــمُ

وهي منسوبة أيضاً للحاجب أبي عثمان جعفر بن عثمان المصحفي .

* * *

وقال ابن سعيد : أخبرني والدي عن أبيه قال : خرج معي إلى منية الزبير بن الملثم عم ملك قرطبة . في زمن فتـــح النوّار أبو بكر بن بقيٍّ الشاعرُ المشهور فجلسنا تحت سطرٍ مز أشجار اللوز قد نوّرتْ . فقال ابن بقيّ :

سطرٌ من اللوز في البستان قابـــــلني
ما زاد شيء عـــلى شيء ولا نقصـــا

كأنمـــا كل غصنٍ كُـــمُّ جاريةٍ
إذا النسيمُ ثنى أعطافـــه رقصـــا

* * *

وقال لما ذُكر باجتماعه في منْيَة الزبير ، فتنهد وفكر ساعة وقال : اكتبوا عني ، فكتبنا :

سقى الله بستانَ الزبير ودام فـــي
ذُراه مسيلُ النهر ما غنت الـــوُرْقُ

فكائن لنـــا من نعمـــةٍ في جنابه
كَبِزَّته الـــخضراءِ طالِعُها طَلْـــقُ

هو الموضع الـــزاهي على كل مـــوضعٍ
أما ظلُّـــه ضافٍ أما ماؤه دَفْـــقُ

أهيم به في حـــالة القرب والنـــوى
وحُـــقَّ له مني التذكر والعِشْـــقُ

ومن ذلك النهر الخفـــوق فـــؤادُه
بقلبيَ ما غُيِّبْتُ عن وجهـــه خَفْقُ

* * *

وقال أبو الحسَنِ المَريني في متنزّهِ قرطبة المسمّى السُّد :

موشح

في نفحةِ العُودِ والسُّلافه
والروضِ والنّهرِ والنديمْ

أطال من لامني خلافه
فظلَّ في نصحه مُليم

دور :

دعني على منْهَجِ التصابي
ما قام لي العذر بالشبابْ

ولا تُطلْ في المنى عتابي
فلست أصغي إلى عتابْ

لا تَرْجُ ردي إلى صواب
والكأس تفترُّ عن حبُابْ

* * *

والغصن يبدي لنا انعطافه
إذا هفا فوقه النسيمْ

والروض أهدى لنا قطافهْ
واختال في بُرْدهِ الرقيم

* * *

دور

لله عصر لنـــــا تـــــقضى
بالسُّدِّ والمـــــنبر البهيـــج

أرى ادّكـــاري إليـــه فرضاً
وشوقـــــه دائمـــاً يَهيـــج

فكـــم خلعنـــا عليه غمضـــاً
وللصّبـــا مسرحٌ أريـــج

* * *

وردٌ أطـــالَ المُـــنى ارتشافـــه
حتى انقضى شربـــه الكريـــم

لله ما أسرعَ انحـــرافـــه
وهكـــذا الـــدهـــرُ لا يديم

* * *

وقال ابن حمْديس الصقليّ يصفُ داراً بناها المعتمد على الله :

ويا حبـــذاً داراً قضى الله أنهـــا
يجـــدّد فيهـــا كلّ عزٍ ولا يَبْلَى

مقدسة لـــو أن موسى كَليمَـــهُ
مشى قُدُماً في أرضهـــا خلع النعلا(1)

(1) يشير إلى قوله تعالى مخاطباً موسى عليه السلام : (فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى) .

وما هي إلا خُطّةُ المَلْكِ الذي
يَحُطُّ إليه كلُّ ذي أملٍ رَحْلاً

إذا فُتحت أبوابها خِلْتَ أنها
تقول بترحيبٍ لداخلها أهلا

وقد نقلتْ صُنّاعها من صفاته
إليها أفانيناً فأحسنتِ النقلا

فمِنْ صَدْرِه رحباً ، ومِنْ نُورِه سنىً
ومن صيته فرعاً ، ومن حِلمه أصلاً

فأعلت به في رتبة المُلْك نادياً
وقلَّ له فوق السِّماكَيْنِ أن يُعْلى

نسيتُ به إيوانَ كسرى لأنني
أراه له مولىً من الحسن لا مِثْلا

كأنَّ سليمانَ بنَ داودَ لم تُبِحْ
مخافتَه للجنِّ في صنعه مهلا

ترى الشمس فيه ليقةً تستمدها
أكفٌ أقامت من تصاويرها شكلا(١)

---

(١) الليقة : الطينة اللزجة ، والقزعة من السحاب .

لها حركاتٌ أودعتْ في سكــــونها
فما تبعت في نقلهن يـــــــدٌ رِجْلا

ولما عَشِيْنا من توقُّدِ نُــــــورهـــــا
تَخِذْنا سناه في نـــــواظرنا كُحْلا

* * *

قال أبو القاسم عامرُ بنُ هشام القُرْطُبي يذكُر متنزهاتِ قرطبة لما رقّت حالُه وزيّن له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين مراكش . وتسمى عند أهل الأندلُس : كنز الأدب .

يا هَبّةً باكَــرَتْ من نحــو دارين
وافَتْ إليَّ على بعــــدِ تحييـــني(١)

سَرَتْ على صفحات النهــــر ناشرةً
جناحَهـــــا بين خيريٍّ ونسريـــن(٢)

لولا تَنَسُّمُهـــــــا من نشر أرضكـــم
ما أصبحتْ من أليـــم الوجد تُبريني(٣)

مرت على عقدات الرمــــل حـــاملةً
من سركم خبراً بالـــــوحي يشفيـــني

---

(١) دارين : بلدة مشهورة بالمسك .
(٢) الخيري والنسرين : نوعان من الورود .
(٣) النشر : طيب الرائحة .

عرفتُ من عَرْفه ما كنت أجهلُـــــه
لما تبسّم في تـــــلك الميادين

نَزَوْتُ من طربٍ لمّـــا هفــا سَحَراً
وظلّ ينشرني طَـــوْراً ويطـــويني

خالتُ الشمالَ شَمـــولاً إذ سكرتُ بها
سُكْراً بما لستُ أرجـــوه يمنيني

أهدت إلي أريجــاً من شمائلكـــم
فقلت : قرّبني من كـــان يقصيني

وخِلْتُ من طمــعٍ أن اللقاء على
إثْرِ النسيم وأضحى الشوق يحـدوني(١)

فقلت ألثـــمُ من تعظيم حقكـــمُ
مَجَرّ أذيالهـــا والوجـــدُ يُغريني

مسارحٌ كم بهـــا سرّحتُ من أكمـد
قلبي وطَرْفي ولا سُلْوانَ يَثنينـــي

بين المُصَلّى إلى وادي العقيق ومــا
يزال مثلَ اسمه مذ بان يُبكيـــني

(١) يحدوني : يسوقني ويبعثني .

إلى الرُّصافة فالمرجِ الصغير فــــوا
دي الدير فالعَطف من بطحاء عبــدونِ

لِبابِ عبدٍ سقته السُّحْبُ وابلَهــا
فــلم يزل بكؤوس الأنس يسقينــي

لا باعَدَ اللهُ عيني عن مَنازِهِــه
ولا يُقَرِّبْ لهــا أبواب جَيْرونِ(١)

حاشا لها من محــلات مفارقــة
مِنْ شَيِّقٍ دونَها في القرب محــزونِ

أين المسير ورزقُ الله أدركــه
مــن دون جهدٍ وتأميــل يعنِّيني

يا من يزيِّن لي الترحــالَ عن بلدي
كم ذا تحــاول نَسْلاً عند عِنِّينِ

وأين يَعْدِلُ عن أرجــاء قرطبــة
من شاء يظفر بالدنيــا وبالــدينِ

قطرٌ فسيحٌ ونهرٌ مــا بــه كــدرٌ
حَفَّتْ بشطَّيْــه ألفاف البساتيــنِ

يا ليت لي عمر نوحٍ في إقامتهــا
وأنَّ ما لِيَ فيه كنزُ قــارونِ

---

(١) جيرون : دمشق ، أو باب فيها .

كلاهمـــا كنتُ أفنيه عـــلى نَشَوا
ت الراح نهبـــاً ووصلِ الحورِ والعينِ

* * *

وقال دِحْيَةُ بن محمد البَلَوي في مسجد قرطبة :

وأنفق في دين الإلــــه ووجهــــه
ثمانين ألفـــاً من لُجيـــنٍ وعَسْجَدِ

تَوَزَّعَهــــا في مسجدٍ أسُّه التقى
ومنهجه دين النبي محمـــــــــد

ترى الذهبَ النــاريَّ فـوق سُموكه
يلوح كبرق العــــارض المتوقـدِ

وقال آخر :

بنى مسجـــداً لله لم يك مثلـــــه
ولا مثلُـــه لله في الأرض مسجـــدُ

سوى ما ابتنى الرحمنُ والمسجدِ الـــذي
بناه نبيُّ المسلمـــين محمـــــدُ

له عُمُــــدٌ حُمْرٌ وخُضْرٌ كأنما
تــلوح يـــواقيتٌ بهـــا وَزَبَرْجَدُ

* * *

وأنشد أبو العاصي غالب بن أمية المَوْرُوْرِيّ لما جلس على نهر قرطبة بإزاء الرَّبَض ملتفتاً إلى القصر ، بديهةً :

يا قصرُ كم حَوَيْتَ من نِعَمِ
عادت لَقيً بعوارضِ السِّكَكِ

يا قصرْ كم حَوَيْتَ من ملكٍ
دارت عليه دوائر الفلك

ما شئتَ فابْقَ فكل متخذٍ
يوماً يعود بحالِ مُتَّرِكِ

* * *

الزهراء

قال الشاعرُ السُّمَيْسر :

وقفتُ بالزّهراءِ مُسْتَعْبراً
مُعْتَبِراً أندبُ أشْتاتا

فقلتُ يا زَهْرا ألا فارْجِعي
قالتْ : وهل يَرْجِعُ منْ ماتَا

فلم أزلْ أبكي وأبكي بها
هيهاتَ يُغْني الدمعُ هَيْهاتا

كأنّمـا آثارُ مَـنْ قـد مَضَى
نَـوادِبٌ يَنْدُبْـنَ أمواتَا

* * *

الزاهرة

قال صاعدٌ اللّغوي :

يا أيها الملك المنصور مـن يمـن
والمبتني نسباً غير الـذي انتسبـا

بغزوة في قلوب الشّرْكِ رائعـة
بين المنايا تنُاغـي السُّمْرَ والقُضُبـا

أما ترى العينَ تجري فوق مَرْمَرِهـا
زهواً فتُجري على أحفافهـا الطربا

أجْرَيْتَهَا فطمـا الزاهي بِجَرْيَتِهـا
كما طموت فَسُدْتَ العُجْمَ والعَربـا

تخال فيها جنود المـاء رافلـةً
مُسْتَلْئِماتٍ تُرِيكَ الدِّرْعَ واليلَبا(١)

تحفُّها من فنون الأيـك زاهـرةٌ
قد أورقت فضةً إذ أورقت ذهبـا

(١) المستلئم : لابس اللأمة وهي الدرع الحصينة ؛ واليلب : الترس .

بديعـــة الملك ما ينفـــك ناظرُهـــا
يتلو على السمع منها آيـــةً عَجبـــا

لا يُحْسِنُ الدهرُ أن يُنشي لها مثـــلاً
ولو تعنّتَ فيهـــا نفسَه طلبـــا

* * *

غَرْناطة

قال بعضُهم :

غرناطـــــــــة ماﻟﻬـــــــــا نــظيرُ
ما مصرُ ؟ ما الشامُ ؟ ما العـــــــراقْ

ما هي إلا العروسُ تُجْـــــــــــلى
وتلك من جُمـــــــلة الصَّـــداقْ(١)

* * *

وقال بعضُهم يتشوّقُ إلى غَرْناطة(٢) .

أغرناطـــــةُ الغـــــراءُ هل لي أوبـــةٌ
إليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهـــــــــدُ

سقى الجانبَ الغربيَ منكِ غمـــــامةٌ
وقَعْقَعَ في ساحات روضتك الـــــرعدُ

(١) الصداق : المهر .

(٢) ويقال : إنها قيلت في قرطبة .

ليالِيكِ أسحارٌ ، وأرضكِ جنـــــــةٌ
وتُرْبُكِ في استنشاقهـــــا عنبرٌ وَرْدُ

* * *

وقال ابنُ مالك الرُعَيْني :

رَعَى اللهُ بالحَمْرَاء عَيشاً قطعْتُـــــه
ذهبتُ به للأُنْسِ والليلُ قد ذَهَبْ(١)

ترى الأرضَ منها فضةً فإذا اكتســـت
بشمس الضحى عـــــادت سبيكتُها ذهبْ

* * *

قال أبو بكر بنُ محمدِ بن شيرين السَبْتي ، نزيلُ غَرْناطة :

رعى الله من غرناطــــــةِ مُتَبَـــوَّآ
يَسُرُّ حـــزيناً أو يُجير طــــريدا

تَبَــرَّم منهـــا صاحبي عـنـدما رأى
مَسَارِحَهـــا بالثلج عـــدْنَ جَليدا

هي الثغرُ صانَ الله من أهِلتْ بــــه
وما خيرُ ثغرٍ لا يكـــون بَرودا ؟

* * *

(١) الحمراء : يريد قصر الحمراء الذي بغرناطة .

وقال ابن سعيد بقرمونة متشوقاً إلى غرناطة :

أغنّي إذا غنّى الحمام المطرّبُ
بكأسٍ بها وسواسُ فكري ينْهبُ

وميلُ مُيَيْلَةٌ حتى أعانق أيكةً
وألثمُ ثغراً فيه للصبِّ مَشْرَبُ

ويارُبَّ يومٍ لا أقوم بشكره
على أنني ما زلتُ أثني وأُطنبُ

على نهر شنّيلٍ وللقضْبِ حولنا
منابر ما زالت بها الطيرُ تخطُبُ

وقد قرعت منه سبائك فضةٍ
خلال رياضٍ بالأصيل تُذَهّبُ

كأنْ ياسميناً وسط وردٍ تفتحت
أزاهره أيّان في الكأس تسكب

* * *

وقال ابن زمْرَك من الموشّحات الرّائقة ، وأشار إلى محاسن من وصف الرشاد :

نسيمُ غرناطةٍ عليلْ
لكنه يُبرىء العليلْ

ورَوْضُهـــــــا زهـــرهُ بَليلْ
ورَشْفُـــــه ينقـــــع الغليـــل

* * *

سقـــى بنجـــد ربـــا المصـــلّى
مبـــــاكراً روضـــه الغمـــــام

سقـــى بنجـــد ربا المـــــصلى
تبسم الـــــزهـــر في الكِمـــام

والروض بالحسن قد تجلّـــــــى
وجـــــرّد النهـــــر عـــن حسام

* * *

ودوحهـــــــا ظلّـــــه ظليــــلْ
يَحْسُنُ في رَبْعـــــــه المَقيلْ

والبرق والجـــــو مستطيـــلْ
يلعـــب بالصـــــارم الصقيـــلْ

* * *

عقيلـــــةٌ تـــاجهـــا السبيكـــه
تطـــل بالمرقـــب المنيـــــفْ

كـــأنّهـــا فوقَــه مليكَــهْ
كــرسيّها جنّــةُ العريفْ

تطبـــع مـــن عـجـــدٍ سبيكــه
شمــوسهــا كلمـــا تطيـــفْ

* * *

أبــدعــكِ الخــالِــقُ الجميـــلْ
يا منظـــراً كلـــه جميـــلْ

قلبـــي إلى حسنـــه يميـــل
وقلبنـــا قـــد صَبَـا جميـــل

* * *

وزادَ للحسنِ فيـــك حُسْنـــا
محمّـــد الحمْــــد والسّماح

جـــدد لنفخـر فيــكَ مبنى
فـي طـالِـــع اليُمـــن والنجـــاح

تـدعى رشـــاداً وفيـــك معنى
يخصـــك الفـــأل بافتتــــاح

* * *

والنصرُ والسَّعدُ لا يزول
لأنّه ثابتٌ أصيلْ

سَعْد وأنصارُه قَبيلْ
أبناؤه عِتْرَةُ الرسولْ (١)

* * *

أبدى به حكمة القدير
وتوَّج الرّوض بالقباب

ودرْعُ الزَّهر بالغَدير
وزين النهر بالحَباب

فمن هديل ومن هدير
ما أولع الحسن بالشباب

* * *

كبت على روضها القبول
وطرفها بالثرى كليلْ

فلم يزل بينها يجولْ
حتى تبدت له حجول

(١) أراد الصحابي الجليل سعد بن عبادة عميد الأنصار . وهو الجد الأعلى للملوك من بني نصر . وعترة الرجل : نسله وأقرباؤه من والد وغيره ، أو ولده وذريته وعقبه من صلبه أو رهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر . وعترة الرسول : أهل بيته الذين حرمت عليهم الصدقة المفروضة والزكاة وهم ذوو القربى الذين لهم في الخمس المذكور في سورة الأنفال .

للزهر في عِطْفها رُقومْ
تلوح للعين كالنجومْ

وللندى بينها رسومْ
عِقد الندى فوقه نظيمْ

وكل وادٍ بها يهيم
ولم يزل حولها يحومْ

* * *

شنيلُها مدّ منه نيل
والشينُ إلف لمستقيلْ

وعَيْن وادٍ بها تسيلْ
من فوق خدٍّ له أسيل

* * *

كم من ظلال بها ترِفْ
تَضْفو له فوقَها سُتُور

ومنْ زُجاج به يشِفْ
ما بين نَورٍ وبَيْن نُور

ومن شموس بها تصِف
تديرها بينها البدور

* * *

مـزاجُهـــــا العـــذبُ سَــلْسـبيل
يـا هَـــلْ إلـى رشفِهـا سَـبيـل

وكيـفَ والشـيبُ لـي عَـذُول
وصبغــــه صفـــرة الأصيــل

* * *

روضـــك اللـــه مـن خَميلـــه
يُجـنَى بهـــا أطيـــبُ الجَـنَى

وبَـرْقهـــا صـــادقُ المَخِيْلَــه
مـا زال بـالغيــثِ مُـحْسِـنـا

* * *

وقال في وصف غِـَرْناطة والطَّرَد وغيرهما :

للــه مــا أجمــلَ رَوْضَ الشبــاب
مــن قبــل أن يفتــح زهــرُ المشـيـب

فـي عهـــده أدَرْتُ كــأسَ الـرُضــاب
حبابُهـــا الـــدُرُّ بثغـر الحبيـب (١)

* * *

---

(١) الرضاب : ماء الفم (الريق) .

غَرْناطَةٌ رَبْعُ الهوى والمُنى
وقُرْبُهُا السُّؤْلُ ونيل الوطر

وطيبُها بالوصل لو أمكنا
لم أقطع الليلَ بطول السهر

عما قريبٍ حُقّ فيها الهنا
بيُمْنِ ذي العودة بعد السفر

* * *

ويحمد الناسُ نجاح الإياب
بكل صنعٍ مستجد غريب

ويكتب الفألُ على كل باب
(نَصْرٌ من الله وفتح قريب)

ما لذة الأملاكِ إلا القنصْ
لأنه الفأل بصيد العدا

كم شاردٍ جُرّع فيه الغصص
وأورد المحروب وِرْدَ الردى

وكم بدا القَنْصُ لنا من حصص
قد جمع البأس بها والندى

* * *

وقال ابنُ جابرٍ يتشوّق إلى قصر الحمراء بغرْناطة :

دامت على الحمراء خُمْرُ مدامعي
والقلب فيما بين ذلك ذائبُ

طال المدى بي عنهم ولربما
قد عاد من بعد الإطالة غائب

* * *

وادي آش

قال أبو الحَسَن بن نزار :

وادي الأشات يهيج وجدي كلما
أذكرتُ ما أفضت بك النّعماءُ

لله ظلك والهجيرُ مُسَلَّطٌ
قد بَرَّدَتْ لفحاتِه الأنداءُ

والشمسُ ترغب أن تفوزَ بلحظة
منه فتطرف طرفَها الأفياءُ

والنهر يَبْسِم بالحَباب كأنه
سِلْخٌ نَضَتْهُ حيةٌ رَقْشاءُ

فلذاك تَحْذَرُهُ الغصونُ فميلُها
أبداً على جنباته إيماءُ

* * *

إشبيلية

قال ابنُ سعيد يتشوّق إلى إشبيلية ، وهي حِمْصُ الأندلس :

أنَّ الخليجُ وغنّتِ الورقاءُ
هل بُرَّحا إذ هاجت البُرَحاءُ (١)

أنا منكما أولى بحيلة عاشقٍ
أفنى . وما نَمّتْ به الصُعَداءُ (٢)

أخشى الوُشاةَ فما أفوه بلفظةٍ
والكتم عند العاشقين عَنَاء

لولا تَشَوُّقُ أرضِ حِمْصٍ ما جرى
دَمْعي ولا شَمِتَتْ بيَ الأعداءُ

لم أستطع كَتْماً لها فكأنني
ما كان لي كتمٌ ولا إخفاء

والبدرُ مهما رام كتماً مَنْ سَرى
فيه ينمُّ على سُراه ضياءُ

---

(١) البرحاء : الشدة والمشقة .
(٢) الصعداء : النفس بتوجع ، أو تنفس طويل ممدود . أو المشقة .

بلدٌ متى يَخْطُرْ له ذِكْرٌ هفا
قلبي وخان تَصَبُّرٌ وعزاءُ

من بَعْده ما الصبحُ يُشْرِقُ نُورُهُ
عندي ولا تتبدلُ الظَّلْماءُ

كم لي به من ذي وفاءٍ لم يَخُنْ
عهدي وينمو بالوداد وفاءُ

إن الفراقِ هو المنية إنما
أهل النوى ماتوا وهم أحياءُ

لولا تذكر لذةٍ طابت لنا
بذُرا الجزيرة حيث طاب هواءُ

وجرى النسيمُ على الخليج معطراً
وتبددت في الدوحة الأنداءُ

ما كابَدَتْ نفسي أليْمَ تفكُّرٍ
ألوى به عن جفنيَ الإغفاءُ

يا نهرَ حِمْصٍ لا عَدَتْكَ مَسَرَّةٌ
ماءٌ يسيلُ لَدَيْكَ أم صهباءُ

كلُّ النفوس تَهَشُّ فيك كأنما
جمعتْ عليك شَتَاتَها الأهواءُ

وُدِّي إليكَ مع الزمان مُجَدَّدٌ
ما إنْ يحولُ تذكُّرٌ وعناءُ

* * *

وكان بحمّام الشطّارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل ، فوصفها بعض أهل الأندلس بقوله :

ودُمْيَةِ مرمرٍ تُزْهى بجِيدٍ
تناهى في التَّوَرُّدِ والبياضِ

لها ولدٌ ولم تعرف حليلاً
ولا ألِمَتْ بأوجاع المخاضِ (١)

ونعلم أنها حجرٌ ولكن
تُتَيِّمُنا بألحاظٍ مِراضِ

* * *

وقال ابنُ سعيد : وقلت ، وقد حضرت مع إخوانٍ لي بموضع يعرف بالسلطانية على نهر إشبيلية . وقد مالت الشمس للغروب :

رَقَّ الأصيلُ فواصِلِ الأقداحا
واشرب إلى وقت الصباح صباحا

وانظر لشمس الأُفْقِ طائرةً وقد
ألقَتْ على صفح الخليج جناحا

---

(١) الحليل : الزوج .

فاظفر بصَفْو الأُفْق قبل غروبها
واستنطق المثنى وحُثَّ الراحا (١)

مَتِّعْ جفونك في الحديقة قبل أن
يكسو الظلام جمالها أمساحا (٢)

* * *

وقال ابن سعيد أيضاً: وخرجْتُ مرةً مع أبي إسحاق إبراهيم ابن سهل الإسرائيلي إلى مرج الفضة بنهر إشبيلية ، فتشاركنا في هذا الشعر :

غيري يميل إلى كلام اللاحي
ويمد راحته لغير الراح

لا سيما والغُصن يزهو زهره
ويميل عطف الشارب المرتاح

وقد استطار القلبَ ساجعُ أيْكِهِ
من كل ما أشكوه ليس بِصاحِ

قد بان عنه جناحه عجباً له
من جانحٍ للعجز خَلْفَ جناحِ

بين الرياض وقد غدا في مأتمٍ
وتخالُه قد ظل في أفراحِ

(١) المثنى : وترمن أوتار الغناء .
(٢) الأمساح : جمع مسح (بكسر الميم وسكون السين) : كساء غليظ من شعر .

الغصنُ يمرَحُ تحتَه والنهر في
قَصْفٍ تُزَجِّيْه يد الأرواح (١)

وكأنما الأنسامُ فوق جنانه
أعلامُ خَزٍّ فوقَ سُمْرِ رماحِ

لا غَرْوَ إن قامتْ عليه أسطرٌ
لما رأتْه مُدَرَّعاً لكفاحِ

فإذا تتابع موجُه لبدفاعه
مالت عليه فظلَّ حِلْفَ صياحِ

* * *

خرج الأديب أبو الحسن بن حصن الإشبيلي إلى وادي قرطبة في نزهة فتذكر إشبيلية فقال بديهاً :

ذكرتك يا حمصُ ذكرى هوىً
أمات الحسود وتَعْنيتَه

كأنك والشمس عند الغروب
عروسٌ من الحسن منحوته

غدا النهر عقدك والطود تا
جكِ والشمس أعلاه ياقوته

* * *

(١) الأرواح : جمع ريح .

قال ابن سعيد في وصف وادي الطّلْح ، وهو وادٍ يشرف على إشبيلية ، ملتف الأشجار ، كثير ترنم الأطيار :

سائل بوادي الطّلْحِ ريحَ الصَّبـــــــا
هل سُخِّرَتْ لي في زمـــــان الصِّبا

كانت رسولاً فيـــــــه مـــا بيننـا
لن نـــأمنَ الرُسْلَ ولـــــن تكتبـا

واذكر بـــوادي الطلـــح عهـداً لنا
لله مـــا أحـــلى ومـــا أطيبـــا

بجانب العطف وقــد مالت الـ ...
... أغصان والـــزهر يَبُثُّ الصَّبـــا

والطير مـــازت بين ألحانِهـــا
وليس إلا مُعْجِبـــاً مُطْرِبـــا

* * *

شِلْب (١)

قال الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سَبَنْدَمير :

أَشَجاكَ النسيم حيـــن يَهُـــبُّ
أم سنى البرقِ إذ يَخُـــبُّ ويخبـو ؟

---

(١) لما صارت (شلب) لبني عبد المؤمن أضافوها إلى كورة إشبيلية .

أمْ هتوفٌ عـــــلى الأراكة تشدو
أم هَتـــــونٌ مـــن الغمامـة سَكْبُ

كل هــــذاك للصبابـــــــة داعٍ
أيُّ صَـــبٌّ دمـــوعُـــه لا تَصُبُّ

أنا لولا النسيمُ والبرقُ والـــــوُرْ
قُ وصَوْبُ الغمـــامِ ما كنتُ أصبـــو

ذكرتْني شِلْبـــاً وهيهـــات مـــني
بعدما استحكـــم التبـــاعدُ شِلْـــبُ

* * *

طُلَيْطِلَة

قال بعضُهم :

زادَتْ طليطلـــبةٌ على ما حـــدّثوا
بَلَـــدٌ عليـــه نـــضرةٌ ونعيـــمْ

الله زيَّنَـــهُ فـــوشَّحَ خَصْرَهُ
نَهرُ المَجـــرَّةِ والغصـــونُ نجـومُ

* * *

وقالَ أبو محمد المِصْري في صِفَةِ قَصْرِ طُلَيْطِلَةَ :

قصرٌ يُقَصِّرُ عـــن مداه الفَرْقَـــدُ
عَذُبَتْ مصادره وطـــاب المـــوردُ

نشر الصباح عليـــه ثوبَ مـــكارمٍ
فعليـــه ألـــويةُ السعادةِ تُعْقَـــدُ

وكأنـــا المأمـــونُ في أرجائه
بَـــدْرُ تَمـــامٍ قابلتـــه أسْعُدُ

وكأنمـــــا الأقـــداح في راحـــاته

دُرٌّ جَمَـــــادٌ ذابَ فيـــــه العَسْجَدُ

* * *

وله في صفةِ البركةِ والقُبّة عليها :

شمسيّة الأنسابِ بـــــــــــدريّـــةٌ

يحـــارُ في تشبيههـــا الخـــاطِرُ

كأنّمـــا المـــأمونُ بَـــدْرُ الدُّجى

وهي عليــــه الفــــلكُ الـــدائرُ

* * *

ريّـــة

قال ابن زَمرَك :

عليـــكِ يـــا ريّــــــةُ السلامُ
ولا عــــدا رَبْعَــــكِ المَطَرْ

مـــذ حل في قـــصرك الإمـــام
فقـــربـــك السُّؤْل والـــوطـرْ

* * *

والـــدوح في روضكِ الأنيـــق
للشكر قـــد حطـــت الـــرؤوسْ

والغصنُ في نهرِه غـــــريق
وفي حُـــلاه كمـــا عـــروسْ

والجـــو مـــن وجهـــه الشريق
تحسده أوجـــــه الشمـــوسْ

* * *

وأعيـــن الـــزهـــر لا تَنَــامْ
تستعـــذب السهــــد والسهـــرْ

ينفـــثْ مــن تحتِهـــا الغمامْ
يـــرقبــك مــن أعين الزَّهَــرْ

* * *

عَروسةٌ أنتِ يـــا عَقيلــه
تُجلَــى عــلى مَظْهــرِ الكَمالْ

مــدّتْ لكِ الكـــفُّ مستقيلــه
تمسحُ أعـــطافـــك الشّمــالْ

والبحرُ مـــرآتـــكِ الصّقيلــه
تشفُّ عـــن ذلكَ الجمَـــال

* * *

والحُلَـــى زهـــرٌ لــه انتِظــام
يــكلّل القضـــبَ بالـــدّرر

قـــد راقَ مـــن ثغره ابـتسام
والـــورد في خـــدهــا خـفر

* * *

وقال :

قد نظم الشملُ أتمّ انتظام
واغتنم الأحبابُ قُرْبَ الحبيب

واستضحك الروضُ ثغور الحمام
عن مبسِم الزّهر البّرود الشّنيب

* * *

وعمّم النّورُ رؤوسَ الرُبا
وجلّل النُّوْرُ صدورَ البِطاحْ

وعاودَ النهرَ زمانُ الصِّبا
فقلّد الزهرَ مكانَ الوشاح

* * *

وأطلق القصرُ برودَ التمام
في طالع المُنْتَح القريبِ الغريبْ

خدودُها قامَتْ مقامَ الغَمام
فلا اشتكى من بعدِها بالمغيبْ

* * *

أصبحتِ يا رَيّةُ مجلى النّفوس
جمالُك العَيْن بها يَبْهَر

والبِشْر يَسْري في جميع الشّموس
ورايةُ الأنسِ بها تَشْهَرُ

والـــــدوحُ الشكرِ تحـــطّ الـــرؤوس
وأنْجـــــم الـــزّهــر بها تُزْهرُ

* * *

وراجـــــعَ النهرُ غنـــــاءَ الحَمَـــام
وقـــد شَدَتْ تسجع سَجْعَ الخطـيبْ

بمنبرِ الغُصْنِ الـــــرشيقِ القَـــوام
لمـــــا انثنَى يهفُـــو بقـــدٍّ رطيب

* * *

يا حَبّـــــذا مبنـــــاكِ فخرُ القُصور
بُـــرُوجُـــه طـــالت بُروجَ السما

مـــــا مثلُـــه في سالفـــاتِ العصُور
ولا الـــذي شادَ ابنُ مـــاء السما

كم فيه من مرأى بهيـــــجٍ ونـــور
في مـــرتقـــى الجـــو به قـــد سما

* * *

بَلَنْسِيَة

قال ابنُ الزّقاق البَلَنْسِيّ :

بَلَنْسِيَةٌ إذا فكرتَ فيها
وفي آياتها - أسنَى البلادِ

وأعظمُ شاهدي منها عليها
وأن جمالَها للعين بادي

كساها ربُّها ديباجَ حُسْنٍ
لها عَلَمان من بحرٍ ووادي

* * *

وقال مروانُ بن عبد الله بن عبدِ العزيز ملك بلنسية :

كأنَّ بَلَنْسِيَةً كاعِبٌ
ومَلْبَسُها سندسٌ أخضرُ

إذا جئتَها سَتَرَتْ نَفْسَها
بأكمامها فهي لا تظهرُ

* * *

وقال أبو الحسن بن حريق :

بَلَنْسِيَةٌ قرارةُ كلِّ حُسْنٍ
حديثٌ صحَّ في شرقٍ وغربِ

فإن قالوا : محلُّ غلاء سعرٍ
ومسقط دِيمتَيْ طعنٍ وضَرْبِ

فقل : هي جنةٌ حُفَّتْ رُباها
بمكروهين من جُوْعٍ وحَرْبِ

* * *

وقال الرُّصافي في رُصافتها :

ولا كالرُّصافَةِ من منزلٍ
سَقَتْهُ السحائبُ صَوْبَ الوَلِيّْ(١)

أحِنُّ إليها ومَنْ لي بها
وأين السَّرِيُّ من المَوْصِلِيّْ(٢)

* * *

(١) الولي : المطر يأتي بعد المطر متوالياً .

(٢) السري : هو أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الرفاء ، أحد شعراء سيف الدولة الحمداني .

قال علي بن أحمد ، أحد شعراء بلنسية في منية المنصور بن أبي عامر ببلنسية :

قــــم فاسقني والـــرياض لابسةٌ
وَشْيــــاً مــــن النَّوْرِ حاكــه القَطْرُ

في مجلسٍ كــــالسماحِ لاحَ بـــــه
مــــن وجــــه مَنْ قـــد هَوِيتُه بدر

والشمس قـــد عُصْفِرَت غــــلائلُها
والأرض تنـــدى ثيابهـــا الخـــضرُ

والنهر مثــــل البحر حفَّ بــــه
من الندامى كــــواكبٌ زُهْـــــرٌ

• • •

بَطَلْيَــــوْس

قالَ الوزيرُ أبو عمرو بن القَلاّس يمدح بَطَلْيَوْس :

بَطَلْيَوْسُ لا أنساكِ ما اتّصلَ البُعْدُ
فلله غَـــوْرٌ في جنابِـــكِ أو نَجْدُ(١)

(١) الغور : ما انخفض من الأرض ، والنجد : ما ارتفع منها .

وللهِ دوحاتٌ تحفُّكَ يُنَّعاً
تَفَجَّرَ واديها كما شُقِّقَ البُرْدُ(1)

* * *

بَنْزَرْجة

قال بعضهم :

إذا جئتَ بَنْزَرْجَةَ مستوفزاً
فخذ في المُقام وخلِّ السفرْ(2)

فكلُّ مكانٍ بها جَنّةٌ
وكلُّ طريقٍ إليها سَقَرْ

* * *

وقال أبو الفضل بن شرف القيرواني :

رياضٌ تعشّقها سندسٌ
توشّتْ معاطفُها بالزَّهَرْ

مدامعُها فوقَ خدّي رُباً
لها نظرةٌ فتنت من نظر

---

(1) الدوحات : جمع (دوحة) وهي الشجرة العالية المظلة ، وينع : جمع (يانعة)، وأراد المورقة الناضرة ، وشقق : قطع . والبرد : الثوب .
(2) مستوفزاً : متحفزاً للرحيل .

وكـــل مكـــانٍ بهـــا جنـــةٌ
وكلّ طـــريق إليهـــــا سقر(١)

* * *

وقال أيضاً :

حُـــطَّ الـــرّحـــالَ ببـــرجـة
وارتـــدْ لنفسِكَ بَهْجـــــــهْ

فـــي قَنْعـــــةٍ كسلاحٍ
ودوحـــــــةٍ مثـــل لُجّة

فَحِصْنُهـــــا لكَ أمـــنٌ
وروضُهـــا لك فُـــرْجـه

كـــــل البـــلاد سواهـــا
كَعُمْـــــــرَةٍ وهـــي حَجّة

* * *

وقال ابن مرج الكُحْلِ في عشية بنهر الغنداق ، وقيل : إن نهر الغنداق من أحواز بَرْجَة :

عَرِّج بِمُنْعَرج الكثيـــــب الأعفـــرِ
بين الفرات وبين شطِّ الكـــــوثرِ

(١) لعل هذه الأبيات من القصيدة التي منها البيتان السابقان ، أو ما يقرب من هذا .

ولْتَغتَبِقْهـا قهوةٌ ذهبيةٌ
من راحتي أحوى المَراشفِ أحْوَرِ(١)

وعشيةٍ كم كنت أرقبُ وقْتَها
سمحتْ بها الأيامُ بعدَ تعذرِ

قِلْنا بهذا مالنا في روضةٍ
تَهْدِي لناشِقِها شميمَ العنبرِ

والدهرُ من ندمٍ يُسَفِّهُ رأيَه
فيما مضى فيه بغير تكدُّرِ

والوُرْقُ تشدو والأراكة تنثني
والشمس ترفل في قميصٍ أصفرِ

والروض بين مُفَضَّضٍ ومُذَهَّبِ
والزهر بين مُدَرْهَمٍ ومَدَنَّرِ

والنهر مرقوم الأباطح والربا
بمُصَنْدَلٍ من زهره ومعصفرِ

وكأنه وكأن خضرة شطه
سيفٌ يُسَلُّ على بساطٍ أخضرِ

---

(١) تغتبقها : تشربها غبوقاً ، والغبوق (بفتح الغين) : الشرب في وقت المساء . والأحوى : أسمر الشفة ، والأحور : شديد بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها .

وكأنما ذاك الحَبَاب فِرِنْدُهُ
مهما طفا في صفحةٍ كالجوهرِ

وكأنه - وجهاتُه محفوفةٌ
بالآس والنعمان - خَدٌّ مُعَذَّرِ

نهرٌ يهيم بحسنه من لم يَهِمْ
ويجيد فيه الشعرَ من لم يشعرِ

ما اصفرَّ وجه الشمس عند غروبها
إلا لفرقة حُسْنِ ذاك المنظرِ

* * *

جبل طــــارق

قال فيه مُطَرِّف شاعر غَرْناطة :

وأقْـــودَ قد ألقـــى على البحر مَتْنَــهُ
فأصبح عن قُـــودِ الجبـــال بمعزلِ(١)

يُعَرِّضُ نحو الأفـــق وجهـــاً كأنما
تـــراقب عينـــاه كواكب منـــزلِ

* * *

(١) قود الجبال : جمع أقود ، وأراد به الجبل الطويل .

شاطِبة

قال بعضهم :

نِعْمَ مُلْقَى الرحل شاطبةٌ
لِفتىً طالت به الرِّحَلُ

بلدةٌ أوقاتُها سَحَرٌ
وصَبَاً في ذيله بَلَلُ

ونسيمٌ عَرْفُهُ أرجٌ
ورياضٌ غصنُها ثَمِلُ(١)

ووجوهٌ كلُّها غُرَرٌ
وكلامٌ كلُّه مَثَلُ

* * *

(١) غصنها ثمل : أراد أنه يهتز ويتمايل كما يتمايل السكران .

سَرَقُسْطَة

قال الفتح بن خاقان صاحب (قلائد العقيان) : إن المستعين بن هود ملك سَرَقُسْطَة والثغور . ركب نهر سَرَقُسْطَة يوماً لتفقد بعض معاقله ، وهو نهرٌ رقّ ماؤه وراق ، وأزرى على نيل مصر ودجلة العراق .... فقال الوزير أبو الفضل بن حسداي والطرب استهواه ، وبديع ذلك المرأى قد استرقّ هواه :

لله يومٌ أنيقٌ واضــــــحُ الغُــــرَرِ
مُفَضَّضٌ مُذْهَبُ الآصال والبُـــكُرِ

كأنمـــا الدهرُ لما ساءَ أعْتَبَنـــــا
فيـــه بعُتْبَى فأبدَى صَفْحَ مُعْتَـذِرِ

نسيرُ في زورقٍ حفَّ السرورُ بـــه
من جانبيـــه بمنظـــومٍ ومـــنتثرِ

مـــدَّ الشراعَ به مَـــدّاً عـــلى ملكٍ
بَذَّ الأوائلَ في أيامـــه الأُخَـــرِ

تحوي السفينةُ منــــه آيةً عَجَبـــــاً
بحرٌ تجمّـــعَ حتى صـــــار في نَهَرِ

تُثارُ من قعره النّينـــــان مُصْعِـــدَةً
صيداً كما ظَفِرَ الغواصُ بالـــدرَرِ (١)

وللندامَى به عَبٌّ ومُرتَشَـــفٌ
كالريق يعذُبُ في وِرْدٍ وفي صَـــدَرِ

* * *

(١) النينان : مفردها نون وهو الحوت .

الفهرس



